الصهيونية والعنف...
من بداية الاستيطان
الى انتفاضة الاقصى

د. عبد الوهاب المسيري

مقدمة

تناولت عدة دراسات باللغة العربية قضيتي الارهاب الصهيوني والعنصرية الصهيونية. وتميل معظم هذه الدراسات الى التركيز على الجرائم (الارهابية والعنصرية) التي ارتكبها الصهاينة (كأفراد وكجماعات وكمؤسسات) ضد الفلسطينيين العرب، ولا تتناول ـ لا فيما ندر ـ الاسباب التي أدت الى النتائج، والانماط العامة المتكررة التي تنضوي تحتها هذه (الجرائم)، أي ان هذه الدراسات ـ في معظمها ـ تميل الى السرد التاريخي (دون ان تتناول الاتجاه العام لهذا التاريخ) والى حشد المعلومات (دون ان تتناول النموذج الكامن وراءها). ونظراً لالتصاق هذه الدراسات بالاحداث المتفرقة، فقدنا الرؤية الكلية للظواهر، واصبحت نماذجنا التفسيرية في غاية الضعف، وحل البكاء والعويل محل الفهم والتحليل والتفسير.

لكل هذا وجدنا ان المكتبة العربية تحتاج لدراسة تتناول الابعاد البنيوية اللصيقة بالظاهرة الصهيونية والنموذج الكامن وراء الحوادث الارهابية والعنصرية المتفرقة. وقد وجدنا ضالتنا في موضوع العنف (الذي يتجاوز كلاً من الارهاب والعنصرية ولكنه يتضمنها في الوقت ذاته). ومن هنا عنوان هذه الدراسة الصهيونية والعنف.

والعنف الصهيوني له أشكال عديدة، ولكن مهما تنوعت اشكاله وتجلياته، يمكن القول بانه جزء عضوي من الظاهرة الصهيونية نفسها، وهي ظاهرة غربية، عرقية، وامبريالية وليست ظاهرة يهودية (كما يظن البعض وكما نبين في هذا الكتاب). والعنف ـ شأنه شأن العنصرية ـ جزء لا يتجزأ من التشكيل الامبريالي الغربي الذي لم يحصل على ما حصل عليه من مكاسب، ولم ينهب ما نهب من ثروات من خلال المفاوضات والحديث العقلاني الهادئ، انما من خلال الابادة والاحلال والقمع العسكري.

يبدأ الكتاب بالفصل الاول والثاني اللذين يتناولان النقد الصهيوني للشخصية اليهودية (هامشيتها وشذوذها وعجزها) والحلول الصهيونية لهذه الاشكالية (إعادة تعريفها في اطار عرقي وإثني ـ تحديثها بحيث تصبح شخصية داروينية ... الخ). ويتناول الفصل الثالث الرؤية الصهيونية للذات. اما الفصل الرابع فيتناول الارهاب الناجم عن وضع الرؤية الصهيونية لليهود موضع التنفيذ.

وابتداءً من الفصل الخامس يبدأ الكتاب في التعامل مع العنف الصهيوني ضد العرب، فيتناول هذا الفصل العنف الفكري ضد العرب. اما الفصلان السادس والسابع فيتناولان الصهيونية باعتبارها ظاهرة استعمارية

استيطانية. وتتناول الفصول التالية (الثامن والتاسع والعاشر) اثر هذه الاستيطانية على نظرية الامن الاسرائيلية، وعلى المفهوم الاسرائيلي للصراع وللحكم الذاتي، وعلى علاقة الاقتصاد الاسرائيلي بالاستيطان (وقد ساهم الاستاذ احمد التهامي عبد الحي، الباحث في العلوم السياسية، والاستاذ ياسر علوي، في وزارة الخارجية، في بعض اجزاء هذين الفصلين الاخيرين). اما الفصل الحادي شعر فيتعامل مع جانب آخر من الصهيونية، وهو الصهيونية لا باعتبارها استعماراً استيطانيا وحسب، وانما باعتبارها استعماراً استيطانيا احلاليا.

وتتناول الفصول الاخيرة (الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر) تاريخ الارهاب الصهيوني ومؤسساته المختلفة، باعتبارها جزءاً عضوياً من العنف الصهيوني ومرحلة متبلورة منه، وليس أمراً عرضيا دخيلاً عليه. (وقد ساهم الاستاذ كارم يحيى، الصحفي بجريدة الاهرام، بمعظم ما جاء في الفصلين الثاني عشر والثالث عشر، كما ساهم الدكتور محمد هشام، المدرس بجامعة عين شمس، بالجزء الخاص بالتنظيمات العسكرية الصهيونية، وساهم الاستاذ كارم كذلك بالجزأين الخاصين بالارهاب الصهيوني/الاسرائيلي وانتفاضة 1987، والارهاب الصهيوني/ الاسرائيلي بعد أوسلو والقمع الاسرائيلي لانتفاضة الاقصى. وقد أضفنا الجزء الخاص بانتفاضة الاقصى لتحديث الكتاب.

وهناك ملحق للكتاب يتناول المصطلحات الاساسية التي يستخدمها الكتاب (الحلولية العلمانية الشاملة ـ الجماعات الوظيفية والدولة الوظيفية ـ الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة وتهويدها ـ الديباجات الصهيونية المختلفة). وبامكان القارئ ان يعود لها، او أن يبدأ بقراءة الملحق ان شاء.

واحب ان اتوجه بالشكر للاستاذة جيهان فاروق (المدرس المساعد بكلية البنات جامعة عين شمس) لقراءة مخطوطة هذا الكتاب، والاستاذ رحاب محمد (بدار الشروق) التي قامت باعدادها للنشر. ولا يفوتني ان أتوجه بالشكر للاستاذ سيد طه الذي قام بكتابة المخطوطة على الكمبيوتر.

دمنهور ـ القاهرة

شوال 1421 ـ يناير 2001

الفصل الأول

النقد الصهيوني للشخصية اليهودية

سيتناول هذا الكتاب، كما ذكرنا في المقدمة، قضية العنف والصهيونية بشكل عام، ولذا سنبدأ يتناول ما يمكن تسميته (النقد الصهيوني للشخصية اليهودية) وهو مستمد من أدبيات معاداة السامية أي معاداة اليهود، فالصهيونية، على عكس ما يتصور الكثيرون، (تكره) اليهود وتطرح نفسها بديلا للعقيدة اليهودية. ومن ثم نجد ان وصف الصهاينة لليهود واليهودية لا يختلف في أساسياته عن وصف أعداء اليهود لهما، فيتهم الصهاينة يهود المنفي، أي يهود العالم، بالهامشية والشذوذ والطفيلية والعجز، وأنهم لا نفع لهم.

هامشية اليهود وشذوذهم

(هامشية اليهود) مصطلح يستخدم في الدراسات التي تدور حول وضع اعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية، خصوصاً شرق أوربا، وهو مصطلح يصف وجودهم الاقتصادي والاجتماعي والحضاري كجماعة وظيفية وسيطة (انظر الملحق) تضطلع بوظائف وحرف ومهن مختلفة، مثل التجارة البدائية والربا وقد كانتا عمليتين مرتبطتين بالنظام الاقطاعي ولكنهما لم تكونا قط من صميم العملية الانتاجية ذاتها. بل ان الحرف التي كان يمارسها اليهود أنفسهم، لم تكن مرتبطة بالفلاحين، وانما كانت مرتبطة بالتجار اليهود أو الامراء الاقطاعيين. ولذلك، فحينما ظهرت الرأسمالية المحلية في شرق أوربا مع بدايات القرن التاسع عشر، ثم الدولة القومية والنظام المصرفي الحديث، وجد أعضاء الجماعات اليهودية انفسهم بلا دور اقتصادي او انتاجي يلعبونه، وبالتالي كانوا عرضة لاضطهاد المجتمع الذي لم يعد في حاجة الى خدماتهم ولم يعد يرى لهم نفعاً، الامر الذي أدى الى زيادة حدة تفاقم المسألة اليهودية وزيادة هجرتهم الى غرب اوربا. وقد بذلت الحكومة الروسية، وكذلك الحكومة النمساوية التي كانت تتبعها جاليشيا، جهوداً شتى لتحويل اليهود الى قطاع اقتصادي منتج عن طريق فتح ابواب مهنة الزراعة أمامهم. وساهم في هذه الجهود مليونيرات الغرب من اليهود، مثل هيرش وروتشيلد، لان هجرة اليهود من شرق اوربا الى غربها كانت تسبب لهم الحرج الشديد كما كانت تهدد مواقعهم الاقتصادية والحضارية التي اكتسبوها عن طريق الاندماج. وقد تعثرت هذه المحاولات وهو ما اضطر الحكومة الروسية، على سبيل المثال، الى ان تلجأ للقمع الاقتصادي عن طريق اصدار قوانين مايو. وهامشية اليهود موضوع اساسي كامن في كتابات الصهاينة

العماليين الذي يقترحون تحويل اليهود الى شعب منتج عن طريق الهجرة واقتحام الارض والعمل والحارسة والانتاج.

والحديث عن هامشية اليهود فيه كثير من التعميم والتجريد. فالهامشية المقصودة هي هامشية يهود شرق أوربا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وحسب، لان الدور اليهودي (الوظيفي التجاري المالي) (انظر الملحق) في المجتمعات الزراعية التقليدية في الغرب كان دوراً حيوياً، اذ اضطلع اعضاء الجماعات اليهودية بوظيفة اساسية في المجتمع رغم انها لم تكن جزءاً من العملية الانتاجية الرئيسية. أما الوجود اليهودي في العالم الاسلامي فلم يكن هامشياً قط، حيث تفاعلوا في محيطهم الحضاري واصطبغوا به فأبدعوا من خلاله وانخرطوا في سائر المهن والوظائف. كما ان الوجود اليهودي في الولايات المتحدة لم يكن أبداً هامشياً وانما كان في صميم المجتمع ذاته من البداية. كما لا يمكننا استخدام مصطلح (هامشي) لوصف الوجود اليهودي في فرنسا او انجلترا او روسيا السوفيتية (سابقاً)، فالبناء الوظيفي لاعضاء الجماعات اليهودية في كل هذه البلاد لم يعد متميزاً كما كان الامر سابقاً. واذا كان ثمة تميز، فانه يعود لكون الجماعة اليهودية أقلية او جماعة وظيفية وليس لانها يهودية. واذا كان هناك أي وجود هامشي غير منتج حتى الان، فهو وجود الدولة الصهيونية الوظيفية الممولة من الخارج التي اسست على أرض الفلسطينيين وحولتهم الى عمالة رخيصة ولا تزال مستمرة في قمعهم واجهاض تطلعاتهم واحلامهم المشروعة.

ومن المصطلحات الاخرى الشائعة في الادبيات الصهيونية والمعادية لليهود عبارة (شذوذ اليهودية) وهي عبارة تشير الى بعض السمات التي توصف بانها غير طبيعية، والتي يفترض انها تسم أعضاء الجماعات اليهودية الغربية، والتي يمكن ازالتها عن طريق اصلاح اليهود او تحويلهم الى قطاع اقتصادي منتج او عن طريق دمجهم او تطبيعهم. ويرى الصهاينة ان وجو اليهود في المنفى والشتات (أي خارج فلسطين) حالة شاذة تسبب شذوذاً للشخصية اليهودية. وبالفعل، وجه الصهاينة سهام نقدهم الى هذه الشخصية المريضة الشاذة غير السوية.

ولشذوذ الشخصية اليهودية، من وجهة نظرهم، مظهران اساسيان: احدهما اقتصادي والآخر سياسي. اما المظهر الاقتصادي، فيتبدى في اشتغال اليهود باعمال السمسرة والمضاربات والاعمال الهاشمية غير المنتجة، مثل: التهريب والاعمال المالية والاتجار في العقارات وتجارة الرقيق الابيض والتسول، بينما يتمثل المظهر السياسي فيما يطلق عليه اشكالية العجز وعدم المشاركة في السلطة (انظر هذا الفصل). وقد

انعكست الظاهرة في ازدواج الولاء عند اليهودي، فهو نظراً لافتقاره الى وطن قومي خاص به يضطر الى ان ينتمي الى مجتمعات غريبة يحاول ان يندمج فيها. ولكن نزعته القومية الحقيقية تستمر، مع هذا، في التعبير عن نفسها رغم أنفه، فينقسم على نفسه وتتنازعه الولاءات المتناقضة.

وقد لاحظ المؤرخ الصهيوني العمالي دوف بير بوروخوف (1883 ـ 1917) ان الهرم الاجتماعي عند اليهود مشوه تماماً. فبدلاً من وجود قاعدة عريضة من العمال والفلاحين والطبقات المنتجة، وقلة من المفكرين والاطباء والمحامين والوسطاء، كما هو الحال في معظم المجتمعات، تجد العكس تماماً عند اليهود. فالهرم الانتاجي عند اليهود مقلوب رأساً على عقب اذ ان معظم اليهود من الوسطاء. وغني عن القول ان السمات الشاذة التي تسم اعضاء الجماعات اليهودية هي في واقع الامر السمات الاساسية لاية جماعة وظيفية، ومن ثم فهي تمثل ظاهرة انسانية اجتماعية عامة لا تتسم بأي شذوذ. ولكن المعادين لليهود والصهاينة يرونها كذلك لانهم يعزلون اعضاء الجماعات اليهودية عن محيطهم الحضاري والاجتماعي وينظرون اليهم من خلال نماذج اختزالية لا علاقة لها بوضعهم المتعين، ثم يحكمون عليهم بالشذوذ.

العجز اليهودي (بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة)

اتهم الصهاينة اعضاء الجماعات اليهودية إتهاماً آخر، وهو الاتهام بما يسمى (العجز بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة)، وهي عبارة تحاول ان تفسر المسألة اليهودية على انها تتلخص في افتقار اليهود الى السيادة القومية وعدم مشاركتهم في صنع القرار. وتعود هذه الحالة (حسب التصور الصهيوني) الى عام 70م عندما قام تيتوس بهدم الهيكل رمز السيادة القومية واصبح اليهود جماعات مشتتة ليست لها سيادة قومية مستقلة، يوجد اعضاؤها خارج نطاق مؤسسات صنع القرار بعيداً عن اية سلطة، وبالتالي اصبحوا غير متحكمين في مصيرهم. ويستند هذا النموذج التفسيري الى عدة افتراضات اختزالية من بينها تصور ان العبرانيين القدامى والعبرانيين اليهود، أي اليهود حتى عام 70م، كانوا يمارسون سيادة قومية كاملة. وهذا أمر مشكوك فيه. فلقد كان العبرانيون ـ حسب ما وصلنا من معلومات ـ أقناناً او عبيداً او قبائل رحلاً. وبعد التسلل العبراني في كنعان، ظل العبرانيون جيوباً متفرقة لا تمتلك كثيراً من السيادة القومية. والاستثناء الوحيد من هذه الصورة العامة هو حكم كل من داود وسليمان (المملكة العبرانية المتحدة) الذي لم يدم اكثر من اربعين عاماً بسبب الغياب المؤقت للقوى العظمى في الشرق الادنى القديم. ثم ظهرت الدويلتان العبرانيتان اللتان كانتا تتبعان في سياستهما اما آشور وبابل او مصر أو آرام دمشق. وقد دام حكم الحشمونيين فترة قصيرة لا تزيد على مائة عام، بدأت بتوقيع معاهدة مع روما (القوة العظمى الصاعدة) وانتهت بتدخل بومبي في تعيين الملك الحشموني.

ويفترض هذا النموذج التفسيري ايضاً وحدة المصير اليهود ووحدة اعضاء الجماعات. وهذا امر يتناقض تماماً مع الحقائق التاريخية، فقد كان مصير كل جماعة يهودية يتحدد بآليات وحركيات التشكيل الحضاري والسياسي الذي تواجدت داخله.

وينكر هذا النموذج التفسير ان اعضاء الجماعات اليهودية كانوا في كثير من الفترات، شأنهم شأن اعضاء الجماعات الدينية والاثنية الاخرى، يشاركون في السلطة من خلال المؤسسات التقليدية للحكم. فالمجتمعات التقليدية كان لها نظامها الخاص في تقسيم السلطة بحيث تسيطر السلطة الحاكمة على الجيش والسياسة الدولية. اما الشئون الاخرى، وضمنها الامن الداخلي، فكان يتم تسييرها عن طريق مؤسسات الادارة الذاتية.

ثم يفترض هذا النموذج التفسيري وجود إدارة وسيادة يهودية مستقلة، وهو افتراض خاطئ تماماً. ففي العصر الحديث، يشارك اعضاء الجماعات، منفردين او مجتمعين، في السلطة وفي صنع القرار من خلال مؤسسات الدولة الحديثة (البرلمانات والاحزاب السياسية). فعلى سبيل المثال، يعد تعيين هنري كيسنجر وزيراً للخارجية الامريكية، وهو من اهم المناصب السياسية في العصر الحديث، تعبيراً عن هذا الشكل من اشكال المشاركة في السلطة. وبالمثل فان اللوبي الصهيوني شكل آخر لهذه المشاركة، حيث يشكل بعض اعضاء الجماعة اليهودية قوة ضغط داخل الكونجرس الامريكي تقوم بممارسة الضغط لصالح الدولة الصهيونية. وهذه هي احدى الآليات الاساسية للنظام السياسي الديموقراطي في الغرب.

وسيجد الدارس المدقق لهذا النموذج التفسيري ان المفكرين الصهاينة، ومعظمهم من اصول اشكنازية شرق أوربية، حين يتحدثون عن العجز بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة، إنما يفكرون في تجربة اعضاء الجماعات اليهودية في أوربا ابتداءً من العصور الوسطى حتى بداية القرن الحالي. ولذا، فان المقولة تحمل شيئاً من الصحة ان تحدد مجالها الدلالي على هذا النحو.

ومن المعروف ان اعضاء الجماعات اليهودية في العصور الوسطى في الغرب، كانوا تجاراً ومرابين واقنان بلاط وارندا ويهود بلاط، وكلها اشكال مختلفة من أنماط الجماعة الوظيفية، وكانوا كذلك قريبين دائماً من الحاكم ملتصقين به، كما كانوا يشكلون أدواته الطيعة في عملية الاستغلال وامتصاص فائض القيمة من الجماهير. ولكنهم، مع هذا، لم يشاركوا في صنع القرار، فقد كانوا منبتي الصلة بالجماهير وتعوزهم القوة العسكرية، وهذا ما جعلهم في حالة عجز واعتماد كامل على الحاكم الذي كانت ثقته بهم تتزايد لانهم لا يشكلون أية خطورة عليه بسبب عجزهم عن الاستيلاء على السلطة او لعدم وجود أساس من القوة يؤهلهم للمطالبة بنصيب فيها.

قيادات الجماعات اليهودية

يرى الصهاينة ان اعضاء الجماعات اليهودية، عبر تواريخهم، واجهوا دائماً مشكلة القيادة ومشكلة من يتحدث باسمهم امام السلطة الحاكمة. ولم يواجه العبرانيون القدامى هذه المشكلة، ففي فترة الآباء كانت قيادتهم تتشكل من شيوخ القبيلة (القضاة). وحسبما وصلنا من معلومات عن هذه الفترة السديمية، لم يكن هناك ما يميز العبرانيين عن سواهم من الاقوام

المتجولة في الشرق الادنى في العالم القديم من ناحية البناء السياسي والطبقي. وقد استمر الوضع على ذلك اثناء فترة القضاة حين ظهرت القيادة الكاريزمية القبلية التي لم تكن تختلف في جوهرها عن القيادة القبلية في عصر الآباء. وبعد ذلك، ظهرت مؤسسة الملكية تساندها طبقة الكهنة، فقد حكم العبرانيين ملوك ابتداء من 1020 حتى 586ق. م. ولكن، وبطبيعة الحال، كانت ثمة صراعات على القيادة لازمت هذه الممالك. فبعد وفاة شاؤول، انقسمت المملكة الى قسمين، الجنوبي (يهودا) وقد استولى عليه داود، والشمالي (يسرائيل) الذي استولى عليه اشبعل ابن شاؤول. وبعد سبع سنين ونصف السنة، اتحدت المملكتان ثانية تحت قيادة داود، ثم جاء سليمان وكانت اول خطوة قام بها ان قتل جميع منافسيه في الملك ليستريح من متاعبهم. ولكن المملكة الموحدة انقسمت بعد موته مباشرةً الى مملكتين مستقلتين متخاصمتين ومتحاربتين: المملكة الشمالية وبقيت حتى عام 712 ق. م، والمملكة النوبية وبقيت حتى عام 586ق. م. كما ان المملكتين كانتا بدورهما ميداناً لنزاعات داخلية مستمرة. كما كان هناك صراع دائم بين الكهنة والملوك (المؤسسة الحاكمة) من جهة والأنبياء من جهة أخرى.

وبعد هذا التاريخ، أخذت مشكلة القيادة في الظهور بكل أشكالها، إذ تحول كثير من الجماعات اليهودية الى جماعات وظيفية. وتتسم الجماعة الوظيفية بان قيادتها تهيمن على اعضائها لانها عادةً جماعة صغيرة عددياً، كما انها لابد ان تخضع لعملية ضبط اجتماعي هائلة حتى يتسنى لاعضائها القيام بوظائفهم وحتى يمكنهم توارث الخبرات من خلال الجماعة الوظيفية. وعادةً ما كانت النخبة لحاكمة تطلق يد قيادة الجماعة الوظيفية في تصريف امور الجماعة كشكل من اشكال الادارة الذاتية. ومع ان الوضع في فلسطين كان مختلفاً، بطبيعة الحال، الا انه يلاحظ ان الجامعة اليهودية على أرض فلسطين فقدت استقلالها السياسي (باستثناء فترة الحشمونيين القصيرة) وأصبحت دولة تابعة لامبراطورية كبرى. ولكن علاقة النخبة الحاكمة الامبراطورية بالقيادة اليهودية المحلية كانت لا تختلف كثيراً عن علاقة أية نخبة حاكمة بقيادات الجماعات اليهودية الوظيفية.

ومنذ فترة التهجير الى بابل، قام اعضاء الجماعات اليهودية بتصريف أمورهم الدينية وبعض أمورهم الدنيوية المحلية ذات الطابع الاداري، مثل مع الضرائب، بتصريح من السلطة الحاكمة وفي اطار الادارة الذاتية المعمول بها في معظم الامبراطوريات القديمة، شأنهم في هذا شأن كل الطوائف والجماعات الوظيفية في المجتمعات التقليدية وفي هذا الاطار

تم تأسيس المجمع الكبير. وقد استمر هذا النمط وساد بين اعضاء الجماعات اليهودية حتى القرن التاسع عشر، ثم تقلص بعد ذلك التاريخ الى تصريف الامور الدينية وحدها. ولا يستثنى من هذا النمط الا اعضاء التجمع الصهيوني. وقد تولي القيادة في غالب الامر تحالف من رجال الدين واثرياء اليهود وكانت التفرقة بينهم صعبة في معظم الاحيان. وبعد مرسوم قورش بالعودة من بابل (538ق.م)، آلت القيادة الى طبقة الكهنوت المتركزة حول الهيكل، وتحالف معهم أثرياء اليهود الذين تأغرقوا، فقاومتهم العناصر العبرانية المحلية. ثم ظهر من بينهم، لفترة زمنية قصيرة، ملوك الحشمونيين (142 ـ 65ق.م) الذين كانوا يحملون لقب الكاهن الاعظم، وقد تأغرق هؤلاء أيضاً وتعاونوا في نهاية الامر مع السلطة السلوقية ثم الرومانية. اما حكم الهيروديين (ابتداءً من 37 ق.م)، فكان تابعاً للرومان تماماً. ومن المعروف ان لقب (ملك روماني (دوكس)) الذي كان يحمله ملوكهم وبعض ملوك الحشمونيين من قبلهم، كان لقباً شرفياً وحسب اذ كانوا يدينون بالتبعية الكاملة لروما. وقد كان الملوك الهيروديون يعينون كاهناً أعظم يعمل موظفاً لديهم ويدين لهم بالولاء. وقد أصبح للجماعة اليهودية في بابل مركز سلطة مستقل يترأسه رأس الجالوت (المنفى). وحين تعاظم عدد يهود مصر وتزايد نفوذهم، اصبح لهم، هم ايضاً، قيادتهم المستقلة بل هيكلهم المستقل. وفي نهاية القرن الاول قبل الميلاد، ظهرت داخل اليهودية تيارات متعددة كان من اهمها الصدوقيون والفريسيون والغيوريون، طرح كل منهم نفسه باعتباره قيادة اليهود الحقيقية، في فلسطين اساساً، وفي العالم ككل. ثم نشب التمردان اليهوديان الاول والثاني ضد الرومان واللذان انتهيا بتهديم الهيكل بيد الرومان، الامر الذي وضع نهاية للمرحلة العبرانية اليهودية.

ويلاحظ أنه، بعد هدم الهيكل، لا يوجد شكل واحد محدد للقيادة يسود الجماعات اليهودية إذ كانت كل جماعة خاضعة للتشكيل الحضاري السياسي الذي توجد فيه. وعلى سبيل المثال، فان قيادة يهود الفلاشاه التي استمرت حتى العصر الحديث كانت قبلية، واصطبغت قيادة يهود بني اسرائيل في الهند بطابع هندي واضح، وتأثرت قيادة يهود كايفنج بالحضارة الصينية. اما يهود الخزر، فقد سادت بينهم مؤسسة الملكية المزدوجة (التركية). اما في الشرق الاسلامي، فقد ترأس الجماعات اليهودية رأس الجالوت (المنفى)، وكان منصبه المركزي تعبيراً عن مركزية الاقطاع في العالم الاسلامي. وقد ظهر الى جواره نخبة قائدة دنيوية تستند هيبتها الى نجاحاتها التجارية وثرائها، وقد كانت هي التي تتحكم في النخبة الدينية. وهذا وضع يشبه الوضع في الولايات المتحدة في الوقت الحالي، إذ ان

اثرياء اليهود قد أمسكوا بزمام قيادة الجماعة اليهودية فعلياً، وتضاءل دور المفكرين الدينيين والحاخامات.

وحين كانت الدولة المركزية قوية، كان اليهود يتبعون مركزاً واحداً وقيادة واحدة. وحينما كانت السلطة المركزية تضعف وتنقسم الدولة الى دويلات، كانت الجماعات اليهودية ذاتها تنقسم الى وحدات صغيرة تتبع كل منها الدولة التي تعيش فيها. في العالم الاسلامي على سبيل المثال، حينما كانت تحكمه سلطة مركزية قوية، كان منصب رأس الجالوت يتمتع بنفس القوة. ومع تفكك الدولة الاسلامية الى دويلات او مقاطعات شبه مستقلة، ظهر منصب رئيس اليهود (نجيد) في مصر وفي غيرها من البلاد الاسلامية.

ومع هذا، كانت الجماعات اليهودية، داخل الاطار القوي للدولة العثمانية، منقسمة فيما بينها متصارعة الواحدة مع الاخرى، واحتفظت كل جماعة باستقلالها. ولكن حدثت عملية اندماج فيما بينها مع مرور الزمن نظراً لسيادة العنصر السفاردي، ولذا، فقد عينت الدولة العثمانية الحاخام باشي (في القرن التاسع عشر) ليمثل نوعاً من القيادة المركزية ليهود الدولة العثمانية.

ومن ناحية ظهور المسألة اليهودية وتطور الحركة الصهيونية، قد يكون من المفيد التركيز على أوربا وحدها. ويلاحظ ان الاقطاع الاوربي لم يكن ذا سلطة مركزية واحدة وانما كان منقسماً الى وحدات صغيرة. ومن الحقائق الاساسية التي تتعلق بالاقطاع الاوربي ان القيادات اليهودية انقسمت بانقسام الجماعات، فكان لكل جماعة يهودية وظيفية نخبتها القائدة التي كانت تتكون عادةً من كبار رجال الدين والممولين وتستبعد صغار رجال الدين والتجار. ويظهر هذا في مؤسسة القهال التي كانت تتكون من تنظيمات صغيرة متصارعة فيما بينها، ثم اصبحت في نهاية المر ممثلة في مجلس البلاد الاربعة الذي تم حله عام 1764، فعادت التوترات والصراعات بين منظمات القهال المختلفة مرة اخرى. وفي بداية القرن السابع عشر، ظهر يهود البلاط (وهم من كبار الممولين الذين كان يعتمد عليهم الحاكم) الذين كانوا يكتسبون هيبة خاصة وشرعية نتيجة ارتباطهم بالحاكم ويتحولون الى قيادات للجماعة اليهودية ويتحدثون باسمها امام الامير. وكانت أهم وظيفة توكل الى القيادات وظيفة الوسيط (شتدلان)، تلك الوظيفة التي كانت مهمتها التوسط بين الحاكم واعضاء الجماعة. وكان هؤلاء الوسطاء، بسبب ثرائهم ونفوذهم، يقدمون الصدقات للفقراء من اعضاء الجماعة، الامر الذي كان يعطيهم شرعية هائلة، فشرعية هذه القيادة كانت تستند الى ثرائها والى نجاحها في عالم

الاغيار، والى تقبل عالم الاغيار لها، وهي ليست قيادة دينية أو نابعة من داخل حركيات الجماعة اليهودية.

ومع تدهور الجماعة اليهودية في شرق أوربا، في بولندا وروسيا اللتين كانتا تضمان معظم يهود أوربا والعالم، تدهورت هذه القيادات أيضاً واصبحت فاسدة، وتحول القهال من شكل للادارة الذاتية الى اداة استغلال وقمع. وكان منصب الحاخام يباع ويشترى وكذلك منصب القاضي، وهو ما كان يجعل الرشوة أمراً طبيعياً في المحاكم الشرعية اليهودية، وهكذا ازداد انفصال القيادات الدينية والدنيوية عن جماهيرها. وربما كان هذا الوضع المتردي أحد العناصر التي أدت الى تفجر النزعات المشيحانية والحركات الشبتانية التي جاءت بعدها، والتي كان تمثل، فيما كانت تمثله، ثورة ضد القيادة التقليدية المكونة من الحاخامات والاثرياء، فضمت عناصر كثيرة من بينها صغار الممولين وصغار الحاخامات، وكل من اهتز وضعه الاقتصادي نتيجة التحولات الاقتصادية، وكل من استبعدته أشكال التنظيم القديمة. وقد كان لهذه الحركات قيادتها الكاريزمية، يتبع كل قائد مريدوه وأتباعه وجماهيره. ولما كان لكل جماعة، مثل الدونمه والفرانكيين، طقوسها ومعتقداتها المتميزة عن طقوس ومعتقدات اليهودية الحاخامية، فقد شكلت مثل هذه الجماعات جيوباً مستقلة. وكثيراً ما كانت هذه الجماعات تطلب الى الحاكم ان يحميها من اضطهاد القيادات الحاخامية والمالية. وقد كانت الحركة الحسيدية اكثر الحركات الصوفية (الشباتانية) انتشاراً وجماهيرية. وكان لكل جماعة حسيدية قائدها (تساديك) وهو زعيمها الديني الصوفي الذي كانت تقوم بينه وبين اتباعه علاقة مباشرة حميمة، فهو الصلة الوحيدة بينها وبين الاله حسب التصور القبالي. وقد حل التساديك محل الحاخام بالنسبة الى الحسيديين.

غير أن التحدي الاكبر للمؤسسة الحاخامية جاء من بين صفوف دعاة حركة التنوير (مسكليم) مع نهاية القرن الثامن عشر بتأييد من التجار اليهود الذين كانوا يشكلون جزءاً من الاقتصاد الرأسمالي الصناعي الجديد الذي جعل وجود الجماعات الوظيفية (اليهودية وغير اليهودية) غير ذي موضوع. وقد تلقى هؤلاء تعليمهم خارج المحيط اليهودي التقليدي. وكانوا قادرين على التعامل بكفاءة مع العالمين اليهودي والمسيحي واالتقليدي والحديث، فطرحوا انفسهم باعتبارهم القيادة المنطقية للجماعات اليهودية، والقادرين على التحدث باسمها، والعارفين بمصالحها، حتى ولو رفض السواد الاعظم من اليهود ذلك الرأي. وكانت الحكومات الغربية الحريصة على تحديث اعضاء الجماعات اليهودية وعلى علمنتهم، تؤثر التعامل معهم، وهذا يعني ان دعاة التنوير كانوا، مثل يهود البلاط،

يكتسبون شرعيتهم من عالم الاغيار.

وحينما ظهرت الحركة الصهيونية، كانت بعض اشكال القيادة التقليدية لا تزال سائدة برغم تزايد تحديث اعضاء الجماعات اليهودية ودمجهم في مجتمعاتهم. ولا يمكن فهم سلوك الزعامات الصهيونية في شرق أوربا الا في ضوء هذه الحقيقة. وقد كانت منظمات احباء صهيون منظمات حديثة تنطلق من مفاهيم حديثة مثل تطبيع الشخصية اليهودية وحل المسألة اليهودية عن طريق الاستعمار. ولكن، ورغم ان المفكرين الصهيونيين ليو بنسكر (1812 ـ 1891) وموشيه ليلينبلوم (1814 ـ 1898) تلقيا تعليماً علمانياً، فانهما حينما بدأ في التحرك اتبعا النمط التقليدي فطلبا الى الحاخام صمويل موهيليفر (1824 ـ 1898) ان يتوجه الى المليونير الالماني اليهودي سمسون روفائيل هيرش (1808 ـ 1818) والمليونير الفرنسي اليهودي ادمون جيمس وروتشيلد (1845 ـ 1934) ليطلب منهما تقديم المساعدة لمشروعهما الاستيطاني، أي انهما توجها للوسيط (شتدلان) التقليدي (الحاخام) الذي يتوجه الى الثري حتى يتوسط لدى الحكومات المعنية وحتى يزودهما بالدعم المالي الذي يريدانه. وظلت الحركة الصهيونية قابعة داخل هذه الرؤية الضيقة، الى ان جاء تيودور هرتزل (1860 ـ 1904) الصحفي النمساوي اليهودي ومؤسس المنظمة الصهيونية وحدث الحل الصهيوني فخرج به من الاطار اليهودي التقليدي وتخطى الوسطاء التقليديين وطرح المسألة في اطار استعماري غربي لا علاقة له باشكال القيادة التقليدية المألوفة لدى اليهود فتوجه الى الدول الغربية الاستعمارية. ولذا، فقد نجح هرتزل فيما فشل فيه احباء صهيون ويهود شرق أوربا، فأسس المنظمة الصهيونية العالمية التي اصبحت الوسيط المباشر بين اعضاء الجماعات اليهودية والقوى الامبريالية، وظل مهيمناً عليها تماماً حتى موته.

وقد ظن صهاينة الغرب ان هيمنتهم على المنظمة ستستمر وان صهاينة الشرق سيستمرون في تلقي الاوامر والاذعان لها. لكن، بعد موت هرتزل بفترة قصيرة، استولى صهاينة شرق اوربا على المنظمة على اساس ان الكثافة السكانية اليهودية تتركز في بولندا وروسيا، وعلى اساس انهم اولى بالتعبير عنها وعن مصالحها، وخصوصاً بعد ان تعلموا الدرس من هرتزل وتجاوزوا الاطار اليهودي المحض واتصلوا بالقوات الاستعمارية الغربية.

ويعد وعد بلفور الشكل الجديد الذي يحدد العلاقة بين الجماعات اليهودية والحضارة الغربية حيث قامت الزعامة الصهيونية بدور الشتلان او الوسيط الحديث، فعرضت تهجير فائض اوربا من اليهود الى فلسطين

تخلصاً منهم، ولتأسيس قاعدة للاستعمار الغربي، على ان يقوم الغرب بحمايتهم في المقابل. وقد قبل الغرب هذه الرؤية، وتم توقيع وعد (عقد) بلفور في هذا الاطار، حيث يقوم اليهود تحت زعامة الحركة الصهيونية بتصريف أمورهم الدينية باستقلال كامل، وتصريف أمورهم الادارية والسياسية المحلية في المستوطن الصهيوني، على ان يتحرك الجميع في اطار المصالح الامبريالية الغربية. وهذا الوضع لا يختلف في اساسياته عن وضع الجماعات اليهودية داخل اطار الامبراطوريات القديمة. ولذا، تم القضاء على المعارضة اليهودية للصهيونية أو كبح جماحها واستولت الصهيونية على الجماهير اليهودية من خلال الضغط (من فوق) أي من جهة الدولة الامبريالية الراعية. ومن الامور التي تستحق التأمل والدراسة ان معظم كبار المفكرين من اعضاء الجماعات اليهودية لا ينضمون الى الحركة الصهيونية وهو ما يعني ان قيادة الجماعات اليهودية قد سقطت في يد صغار المفكرين الصهاينة الذين لا يتمتعون بأية آفاق فكرية فسيحة او رؤى تاريخية عميقة.

ولم يتوقف الصراع على زعامة الجماعات اليهودية، بعد وعد بلفور، سواء على الصعيد العالمي او داخل المستوطن الصهيوني. اما على الصعيد العالمي وداخل الحركة الصهيونية، فان الصراع أصبح يدور بين اعضاء الجماعات اليهودية بما لهم من مصالح وارتباط بأوطان وهويات ثقافية متنوعة من جهة وبين المنظمة الصهيونية من جهة اخرى، فهي تريد ان توظف كل شيء لصالح المستوطن الصهيوني وترى ان الجماعات اليهودية ليست الا وسيلة تخدم الغايات النهائية للصهيونية. وهذا الصراع مستمر حتى الآن وينعكس في حوادث متفرقة كما حدث عند اكتشاف نشاط بولارد، الجاسوس الامريكي اليهودي.

كما نشب صراع جانبي آخر على قيادة الجماعات بين صهاينة الداخل المستوطنين (أي الاسرائيليين) وصهاينة الخارج التوطينيين (أي اعضاء المنظمة الصهيونية العالمية). وقد حسم الصراع الى حد كبير لصالح الصهاينة المستوطنين، وتحولت المنظمة الصهيونية العالمية الى اداة تابعة لحكومة المستوطن الصهيوني. ولا تزال هناك اصداء للصراع القديم على قيادة الجماعات بين الصهيونية واعداء الصهيونية من اليهود. ولكن هذا الصراع، مثل كثير من الصراعات الشبيهة، تم حسمه لصالح الحركة الصهيونية.

ودار صراع ثالث حول القيادة داخل المستوطن الصهيوني، وهو صراع ذو أبعاد عديدة. وينبغي ملاحظة أنه لا يوجد تجانس كبير بين أعضاء النخبة الحاكمة في اسرائيل وزعاماتها، ولا داخل أعضاء المستوطن الصهيوني

فيما بينهم، فأمثال ديفيد بن جوريون ومناحم بيجين وشيمون بيريز واسحاق شامير جاؤوا من بولندا، وأمثال حاييم وايزمان وملاديمير جابوتنسكي وليفي إشكول مهاجرون من روسيا، ويجال آلون وآرييل شارون واسحاق رابين ولدوا في فلسطين، وديفيد ليفي وشاحل من الدول العربية، وجولدا مائير وموشيه آرينز ومائير كهانا وأبا إيبان من الدول الناطقة بالانجليزية. ومعظم القادة المذكورين لا دينيون ولا يؤمنون باليهودية كعقيدة وإنما يتخذونها انتماءاً اثنياً وحسب. ولذا، فقد نشب كثير من الصراعات بينهم حول توجّه الدولة الصهيونية وقيادتها، فهناك صراع إثني بين الإشكناز وبقية أعضاء المستوطن من يهود سفارد وعرب وغيرهم. كما يوجد صراع بين المؤسسة العمالية الصهيونية من جهة وبعض كبار المموّلين ودعاة الاقتصاد الحر ومن يتبعهم من قطاعات شعبية محبطة لا تجد وسيلة للإفصاح عن سخطها من جهة أخرى. وقد أخذ الصراع بين الدينيين واللادينيين في التصاعد، كما يلاحظ أن هناك صراع أجيال غير واضح على سطح الأحداث، ويطرح كل قطاع من أعضاء النخبة والزعامات نفسه باعتباره القيادة الأكثر كفاءة. بل يدور الآن صراع حاد بين القوى الدينية المختلفة: الصهاينة المتدينين والليتوانيين وحبد والسفارد ... الخ.

نفع اليهود

وجّه الصهاينة سهام نقدهم لأعضاء الجماعات اليهودية وناقشوا المسألة اليهودية في إطار مفهوم (نفع اليهود)، أي في الإطار العلماني العقلاني المادي الشامل الذي طرحته الحضارة الغربية. و(نفع اليهود) عبارة تعني ضرورة النظر الى أعضاء الجماعات اليهودية من منظور مدى نفعهم للمجتمعات التي يوجدون فيها، وهو واحد من أهم الموضوعات الأساسية، الواضحة والكامنة، التي تتواتر في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود، وبخاصة النازية.

والدفاع عن اليهود من منظور نفعهم يتضمن داخله قدراً كبيراً من رفضهم وعدم قبولهم كبشر لهم حقوقهم الإنسانية المطلقة. فالعنصر النافع عنصر متحوسل يُستفاد منه طالما كان نافعاً ومنتجاً، كما يجب التخلص منه إن أصبح غير نافع وغير منتج. وهذا المقياس لم يطبق على أعضاء الجماعات اليهودية وحدهم، وإنما على كل أعضاء المجتمع الذي تحكمه الدولة القومية المطلقة العلمانية التي تقوم بحوسلة الطبيعة والانسان. ومفهوم نفع الإنسان مفهوم محوري في فكر حركة الاستنارة نابع من الواحدية المادية.

وقد كانت الجماعات اليهودية تضطلع بدور الجماعة الوظيفية في كثير من المجتمعات، فكان بعضها يضطلع بدور الجماعة الوظيفية القتالية والاستيطانية في العصور القديمة، وتحولوا الى جماعة وظيفية تجارية في العصور الوسطى في الغرب. وكان ينظر اليهم باعتبارهم مادة بشرية تستجلب للمجتمع كي تقوم بدور او وظيفة محددة، ويتم قبولها او رفضها في إطار مدى النفع الذي سيعود على المجتمع من جراء هذه العملية. ومما دعّم هذه الرؤية، فكرة الشعب الشاهد التي تنظر الى اليهود كأداة للخلاص، ومن ثم ينبغي الحفاظ عليهم بسبب دورهم الذي يلعبونه في الدراما الدينية الكونية، وهي الفكرة التي سادت اوروبا الكاثوليكية الاقطاعية.

وقد كان وضع اليهود مستقراً تماماً داخل المجتمعات الغربية كجماعة وظيفية وسيطة ذات نفع واضح. ولكن هذا الوضع بدأ في التقلقل مع التحولات البنيوية العميقة التي خاضها المجتمع الغربي ابتداء من القرن السابع عشر وظهور الثورة التجارية. ولم يعد بالإمكان الاستمرار في الدفاع عن وجود اليهود من منظور فكرة الشعب الشاهد (الدينية). فظهرت فكرة العقيدة الألفية او الاسترجاعية التي تجعل الخلاص مشروطاً بعودة اليهود الى فلسطين. ولكن هذه الأسطورة ذاتها لا تزال مرتبطة بالخطاب الديني، ولم يكن مفر من أن يتم الدفاع عن اليهود على أسس لا دينية علمانية، ومن ثم، ظهرت فكرة نفع اليهود للدولة، هذا المطلق العلماني الجديد، فتم الدفاع عن عودة اليهود الى انجلترا في القرن السابع عشر من منظور النفع الذي سيجلبونه على الاقتصاد الانجليزي، حيث نُظر اليهم كما لو كانوا سلعة او أداة إنتاج. وكان المدافعون عن توطين اليهود يتحدثون عن نقلهم على السفن الانجليزية بما يتفق مع قانون الملاحظة الذي صدر آنذاك ويجعل نقل السلع، الى انجلترا ومنها، حكراً على السفن الانجليزية. كما أن كرومويل فكر في إمكانية توظيفهم لصالحه كجواسيس. وعمل اليهود في تلك المرحلة في وسط أوروبا كيهود بلاط، وهم جماعة وسيطة يستند وجودها ايضاً الى مدى نفعها.

وحينما قام أعداء اليهود بالهجوم عليهم من منظور ضررهم وانعدام نفعهم، دافع أعضاء الجماعات اليهودية عن أنفسهم لا من منظور حقوقهم كبشر، وإنما من منظور نفعهم ايضاً. وقد استمر هذا الموضوع الكامن شائعاً في الفكر الغربي، ثم ازداد انتشاره وتواتره مع علمنة الحضارة الغربية وسيادة الفلسفات المادية النفعية التي تحكم على مجالات الحياة كافة، وليس على اليهود بمفردهم، من منظور المنفعة.

ولذا، نجد أن فكرة نفع اليهود تزداد محورية في الفكر الغربي في أواخر القرن الثامن عشر، وهي أيضاً المرحلة التي لم يعد فيها وضع أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب مقلقلاً وحسب، بل وصل فيها الى مرحلة الأزمة.

ولا يمكن فهم تاريخ الحركة الصهيونية ولا تاريخ العداء لليهود (بما في ذلك النازية) إلا في إطار مفهوم المنفعة المادية هذا. فقد تبنّى المعادون لليهود هذا المفهوم وصدروا عنه في رؤيتهم وأدبياتهم، فراحوا يؤكدون أن أعضاء الجماعة اليهودية شخصيات هامشية غير نافعة، بل ضارة يجب التخلص منها، وتدور معظم الادبيات العنصرية الغربية في القرن التاسع عشر حول هذا الموضوع، وهي اطروحة لها أصداؤها ايضاً في الأدبيات الماركسية، وضمن ذلك أعمال ماركس نفسه، حيث يظهر اليهودي باعتباره ممثلاً لرأس المال الطفيلي الذي يتركز في البورصة ولا يغامر أبداً بالدخول في الصناعة. وتظهر الأطروحة نفسها في كتابات ماكس فيبر الذي يرى أن رأسمالية اليهود رأسمالية منبوذة، بمعنى أنها رأسمالية مرتبطة بالنظام الإقطاعي القديم ولا علاقة بها بالنظام الرأسمالي الجديد (ومن المفارقات أن اليهود الذي كان رمزاً لرأس المال المحلي المتجذر، اصبح هنا رمز رأس المال الاجنبي الطفيلي المستعد دائماً للرحيل والهرب).

وقد وصل هذا التيار الى قمته في الفكر النازي الذي هاجم اليهود لطفيليتهم وللأضرار التي يلحقونها بالمجتمع الالماني وبالحضارة الغربية. وقد قام النازيون بتقسيم اليهود بصرامة منهجية واضحة الى قسمين:

1ـ يهود غير قابلين للترحيل، وهم أكثر اليهود نفعاً.

2ـ يهود قابلون للترحيل (بالانجليزية: ترانسفيرابل Transferable) وقابلون للتخلص منهم (بالانجليزية: ديسبوزابل Disposable) ويستحسن التخلص منهم بوصفهم عناصر غير منتجة (أفواه تأكل ولا تنتج (بالانجليزية: يوسلس ايترز Useless eaters) حسب التعبير النازي المادي الرشيد الطريف) وبوصفهم عناصر ضارة غير نافعة لا أمل في إصلاحها او في تحويلها الى عناصر نافعة منتجة.

والتعبيرات المجازية التي تستخدم للاشارة الى الدولة الصهيونية تؤكد كلها كونها أداة نافعة؛ فالدولة هي حصن ضد الهمجية الشرقية (وضد الأصولية الاسلامية في الوقت الحالي)، وهي مؤخراً حاملة طائرات لأميركا، وهي في كلتا الحالتين ليس لها قيمة ذاتية، وإنما تنبع قيمتها مما تؤديه من خدما وما تجلبه من منفعة، فالدولة هنا وظيفة ودور وليست

كياناً مستقلاً له حركياته. وهي تستمد استمرارها، بل وجودها، من مدى مقدرتها على أداء هذا الدور. ولذا فنحن نشير الى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة مملوكية، علاقتها بالغرب تشبه علاقة المملوك بالسلطان فهي علاقة نفعية محضة، مستمرة طالما استمرت حاجة السلطان الى الأداء المملوكي، ونحن نشير لها كذلك باعتبارها الدولة الوظيفية، أي الدولة التي تضمن استمرارها وبقاءها من خلال أدائها لوظيفتها. وربما يبيّن هذا مدى أهمية الانتفاضة التي أثبتت ان الدولة الصهيونية غير قادرة على أداء دورها ووظيفتها كقاعدة استراتيجية في الشرق الأوسط، وأن نفعها ليس كبيراً، وأن أداءها لوظيفتها أصبح أمراً مكلّفاً للغاية.

ومن هنا تحرك الدولة الصهيونية السريع لتجد لنفسها وظيفة جديدة، فبدلاً من أن تكون حاملة طائرات او معسكراً للمماليك، ستصبح (سوبر ماركت) مثل سنغافورة، ومركزاً للسماسرة والصيارفة، وربما ركيزة أساسية لقطاع اللذة (ملاهي ـ كباريهات ـ مصحات ـ سياحة). ومنها أهمية توقيع اتفاقية السلام والإصرار على ضرورة رفع المقاطعة العربية، حتى يتسنى للدولة الصهيونية أن تلعب دورها الجديد الذي لا يختلف كثيراً عن بعض الأدوار التي كان يلعبها أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية في الغرب. إن الدولة الصهيونية ستصبح سوبر ماركت، أي فردوساً ارضياً يضم كل السلع التي يحلم بها الإنسان، فيذوب فيها ويفقد حدوده وينسى كل المنغّصات، مثل التاريخ، والذاكرة القومية، والهوية، والكرامة، والقيم الأخلاقية.

العداء الصهيوني لليهود

تبلورت الأفكار الصهيونية والمعادية لليهود في أوروبا في القرن التاسع عشر، وهي الحقبة التاريخية التي تبلورت فيها النظرية العرقية الغربية الخاصة بالتفاوت بين الناس بسبب الاختلاف بينهم في خصائصهم التشريعية والعرقية والإثنية ومن ثم نجد أن الرؤية الكامنة في كل من الصهيونية ومعاداة اليهود واحدة. وأن كثيراً من مقولات الصهيونية هي مقولات عرقية معادية لليهود.

ويرى الصهاينة أن معاداة اليهود ظاهرة طبيعية ورد فعل طبيعي وحتمي لوجود اليهود كجسم غريب في المجتمعات المضيفة. وقد نشأت صداقة عميقة بين حاييم وايزمان وريتشارد كروسمان (الزعيم العمالي البريطاني) حين اعترف هذا الأخير بأنه (معاد لليهود بالطبع). وقد كان تعليق وايزمان على ذلك: لو قال كروسمان غير ذلك فإنه يكون إما كاذباً على نفسه او كاذباً على الآخرين. وقد وصف المفكر الصهيوني الروسي

جيكوكب كلاتزكين (1882 ـ 1948) العداء لليهود بأنه دفاع مشروع عن الذات. وقد ميّز هرتزل بين العداء لليهود وبين التعصب الديني القديم، ووصف هذا العداء الحديث بأنه (حركة بين الشعوب المتحضرة) تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها. بل يرى الصهاينة أن هذه المعاداة هي أحد ثوابت النفس البشرية، فهي تشبه المطلق الأفلاطوني او المرض المستعصي. وقد عبّر اسحاق شامير، رئيس وزراء اسرائيل الأسبق، عن معاداة البولنديين لليهود، فأشار الى أنهم يرضعونها مع لبن امهاتهم. ويعادل شامير بذلك بين الفعل الأخلاقي والفعل الغريزي البيولوجي، وهو ما يبين أنه يدور في اطار الحلولية بدون إله، وهذا ما يفعله ايضاً نوردو وايزمان وهتلر. فقد وصف وايزمان معاداة اليهود بأنها مثل البكتريا التي قد تكون ساكنة احياناً، ولكنها حين تسنح لها الفرصة فإنها تعود اليها الحياة، وهكذا لا يميّز الصهاينة بين الأشكار المختلفة لمعاداة اليهود وإنما يرونها كلاً عضوياً واحداً يتكرر في كل زمان ومكان، كما يرون عدم جدوى الحرب ضد هذه الظاهرة باعتبارها احد الثوابت وإحدى الحتميات.

والموقف الصهيوني من اليهود، كما أسلفنا، لا يختلف في أساسياته عن موقف المعادين لليهود:

1ـ فكلا الموقفين يصدر عن الإيمان بأن اليهود شعب عضوي له عبقريته الخاصة وأن ثمة جوهراً يهودياً هو الذي يميز اليهودي عن غيره من البشر، وأن هذا الجوهر لا يتغير بتغير الزمان والمان، فاليهود دائماً يهود. ومن هنا، فإن تصرف اليهودي كالأغيار هو تصرف مصطنع لا يعبّر عن اندماجه في مجتمعه وتمثّله قيمه وإنما يعبر عن ازدواجية في الذات. ومهما يكن ما يبديه اليهودي من ولاء لوطنه، فهو ولاء مشكوك فيه. ومن هنا يحارب الصهاينة وأعداء اليهود ضد اندماج اعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم. وقد نادى الصهاينة بضرورة رفض (سم الاندماج) او (الهولوكوست الصامت). وكذلك، فإن المعادين لليهود يرون أن اليهودي المندمج يقلد الأغيار كالببغاء، فهو شخصية خطرة غير أصيلة تهدد نسيج المجتمع، وهو خطر حتى دون أن يدري. ولهذا كان النازيون يتعاملون مع الصهاينة فقط لإصرارهم على هويتهم اليهودية.

2ـ يرى الفريقان أن اليهود شعب عضوي لا يمكن أن يهدأ له بال إلا بأن يستقر في الأرض التي يرتبط بها برباط أزلي عضوي. ومن هنا، يرفض المعادون لليهود، وكذلك الصهاينة، الكفاح من أجل اعطاء اليهود حقوقهم السياسية والمدنية الكاملة في أوطانهم، وبالتالي فلابد من (هجرة) اليهود الى فلسطين أو (طردهم) اليها. ومهما كان المصطلح أو المسوغ، فإن

الحركة المثلى المقترحة واحدة، وهي نقل اليهود من أوطانهم الفعلية الى وطنهم القومي العضوي الوهمي. والواقع أن فكرة (الشعب العضوي) تحوي ايضاً فكرة (الشعب العضوي المنبوذ)، وهي أساس تحالف الصهاينة والمعادين لليهود فكلاهما يهدف الى إخلاء اوروبا منهم.

3ـ إذا كان اليهود يشكلون في رأي الصهاينة، كلاً عضوياً يعبّر عنه في الانجليزية بكلمة (جوري Jewry)، فإنهم مترابطون ترابطاً عضوياً لا فرق فيه بين الكل والجزء. ولذا، يتحدث الصهاينة عن (العبقرية اليهودية) باعتبارها تعبير الجزء عن الكل. وهم ايضاً يرون أن الهجوم على أية جماعة يهودية هو هجوم على الشعب اليهودي بأسره، بغض النظر عن الظروف التاريخية. ويتبنى أعداء اليهود النظرة نفسها، فهم يرون تماثل الجزء والكل، وحينما يرتكب مجموعة من اليهود جرماً معيناً او ينتشر بينهم الفساد، فإن هذا يصلح أساساً للتعميم على كل اليهود. وفي الواقع، فإن الحديث عن جرائم اليهود يشبه تماماً الحديث عن عبقريتهم.

4ـ تبنّى الصهاينة كثيراً من مقولات المعادين لليهود في الغرب، وكثيراً من صورهم الإدراكية النمطية، وتزخر الكتابات الصهيونية بالحديث عن الشخصية اليهودية المريضة غير الطبيعية والهامشية وغير المنتجة التي لا تجيد إلا العمل في التجارة. بل إن ماكس نوردو، ومن بعده هتلر، طبّق الصورة المجازية العضوية لا على معاداة اليهود بل على اليهود أنفسهم، فقد شبههم بالكائنات العضوية الدقيقة التي تظل غير مؤذية على الإطلاق طالما أنها في الهواء الطلق، لكنها تسبب افظع الأمراض إذا حُرمت من الأكسجين، ثم يستطرد هذا العالم العنصري ليحذر الحكومات والشعوب من أن اليهود يمكن ان يصبحوا مصدراً لمثل هذا الخطر. وقد ذكر يهودا جوردون أن تفوّق اليهودي المستنير يكمن في أنه يعترف بالحقيقة، أي يقبل اتهامات المعادين لليهود. وقد قال برنر: (إن مهمتنا الآن هي أن نعترف بوضاعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا) فاليهود شعب نصف ميت يعيش بقيم السوق، لا يمانع في حياة كحياة النمل او الكلاب، مصاب بطاعون التجول) ـ ويمكن ان نحد عبارات مماثلة او أكثر قسوة في الأدبيات الصهيونية. ومن هنا، يؤمن الصهاينة بضرورة تطبيع الشخصية اليهودية حتى تتفق مع نمط الشخصية غير اليهودية الطبيعية السوية.

5ـ لا يقل عداء الصهاينة لليهودية عن عداءهم لليهود، فقد رفضوا العقيدة اليهودية وحاولوا علمنتها من الداخل.

ومع هذا، يرى بعض الصهاينة أن معاداة اليهود بين الأغيار هي وحدها التي أدت الى بقاء الشعب اليهودي، أي أن عضوية الشعب او مصدر تماسكه

العضوي ليس شيئاً جوانياً (الهوية اليهودية ـ التراث اليهودي) وإنما شيء براني: عداء اليهود. ولكل هذا، فإن الصهاينة يعتبرون اعداء اليهود حلفاء طبيعيين لهم وقوة ايجابية في نضالهم (القومي) لتهجير اليهود من أوطانهم. ولذا، كان تيودور هرتزل على استعداد للتعاون مع فون بليفيه وزير الداخلية الروسي، كما تحالف فلاديمير جابوتنسكي مع الزعيم الأوكراني بتليورا الذي ذبحت قواته آلاف اليهود بين عامي 1918 و 1921، وتعاون الصهاينة مع النازيين داخل ألمانيا وخارجها. ويتحالف الصهاينة في الوقت الحالي مع الجماعات الأصولية المسيحية في الولايات المتحدة والمعروفة بعدائها العميق لليهود. بل إن المؤسسة الصهيونية تستخدم أحياناً وسائل المعادين لليهود لحمل اليهود على الهجرة، كما حدث في العراق عام 1951 حين ألقى العملاء الصهاينة بالقنابل على المعبد اليهودي في بغداد. وعلى كل، فقد صرح كلتزكين بقوله: (إنه بدلاً من إقامة جمعيات لمناهضة المعادين لليهود الذين يريدون الانتقاص من حقوقنا، يجدر بنا أن نقيم جمعيات لمناهضة اصدقائنا الراغبين في الدفاع عن حقوقنا).

وقد استمرت ظاهرة معاداة الصهيونية لليهود بعد تأسيس الدولة الصهيونية، بل يلاحظ أنها ازدادت حدة وتبلوراً بين أعضاء جيل الصابرا (أي أبناء المستوطنين الصهاينة المولودين في فلسطين). فهؤلاء ينظرون الى (يهود المنفى) (أي يهود العالم) من خلال مقولات معاداة اليهودية وصورها النمطية. ويزخر الأدب الاسرائيلي بأعمال أدبية تصدر عن رفض ثقافي وأخلاقي بل وعرقي عميق ليهود الخارج.

اليهود في مقابل الأغيار

الصهيونية، بنزعتها الوثنية الحلولية المتطرفة، تميل نحو العنف، ولذا فهي تميل نحو التفريق بين اليهود والأغيار. و(الاغيار) هي المقابل العربي للكلمة العبرية (جوييم)، وهذه هي صيغة الجمع للكلمة العبرية (جوي) التي تعني (شعب) او (قوم) (وقد انتقلت الى العربية بمعنى (غوغاء) و(دهماء). وقد كانت الكلمة تنطبق في بادئ الأمر على اليهود وغير اليهود ولكنها بعد ذلك استخدمت للإشارة الى الأمم غير اليهودية دون سواها، ومن هنا كان المصطلح العربي (الأغيار). وقد اكتسبت الكلمة ايحاءات بالذم والقدح، وأصبح معناها (الغريب) أو (الآخر). والأغيار درجات أدناها العكوم، أي عبدة الأوثان والأصنام (بالعبرية: عوبدي كوخافيم او مزالوت أي (عبدة الكواكب والأفلاك السائرة))، وأعلاها اولئك الذين تركوا عبادة الأوثان، أي المسيحيون والمسلمون. وهناك ايضاً مستوى وسيط من الأغيار (جيريم) أي (المجاورين) او(الساكنين في الجوار) (مثل

السامريين).

ولا يوجد موقف موحد من الأغيار في الشريعة اليهودية. فهي بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً، تنطوي على نزعة توحيدية عالمية وأخرى حلولية قومية. وتنص الشريعة اليهودية على أن الأتقياء من كل الأمم سيكون لهم نصيب في العالم الآخر، كما أن هناك في الكتابات الدينية اليهودية إشارات عديدة الى حقوق الأجنبي وضرورة إكرامه. وتشكل فكرة شريعة نوح إطاراً أخلاقياً مشتركاً لليهود وغير اليهود. ولكن، الى جانب ذلك، هناك ايضاً النزعة الحلولية المتطرفة، التي تتبدى في التمييز الحادّ والتقاطع بين اليهود كشعب مختار او كشعب مقدّس يحل فيه الإله من جهة والشعوب الأخرى التي تقع خارج دائرة القداسة من جهة أخرى. فقد جاء في سفر أشعياء (61/5 ـ 6): (ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتُدعون كهنة الرب تسمّون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرون). كما جاء في سفر ميخا (4/12): (قومي ودوسي يا بنت صهيون لأني أجعل قرنك حديداً واظلافك اجعلها نحاساً فتسحقين شعوباً كثيرين).

وقد ساهم بعض حاخامات اليهود في تعميق هذا الاتجاه الانفصالي من خلال الشريعة الشفوية التي تعبّر عن تزايد هيمنة الطبقة الحلولية داخل اليهودية، فنجدهم قد أعادوا تفسير حظر الزواج من أبناء الأمم الكنعانية السبع الوثنية (تثنية 7/2ـ 4)، ووسعوا نطاقه بحيث اصبح ينطبق على جميع الأغيار دون تمييز بين درجات عليا ودنيا. وقد ظل الحظر يمتد ويتسع حتى اصبح يتضمن مجرد تناول الطعام (حتى ولو كان شرعياً) مع الأغيار، بل أصبح ينطبق ايضاً على طعام قام جوي (غريب) بطهوه، حتى وإن طبّق قوانين الطعام اليهودية. كما أن الزواج المختلط، أي الزواج من الأغيار، غير معترف به في الشريعة اليهودية، وينظر الى الاغيار على أعتبار انهم كاذبون في طبيعتهم، ولذا لا يؤخذ بشهاداتهم في المحاكم الشرعية اليهودية، ولا يصح الاحتفال معهم بأعيادهم إلا إذا أدى الامتناع عن ذلك الى الحاق الأذى باليهود. وقد تم تضييق النطاق الدلالي لبعض كلمات، مثل (أخيك) و(رجل)، التي تشير الى البشر ككل بحيث اصبحت تشير الى اليهود وحسب وتستبعد الآخرين، فإن كان هناك نهي عن سرقة (أخيك) فإن معنى ذلك يكون في الواقع (أخيك اليهودي).

وقد تحول هذا الرفض الى عدوانية واضحة في التلمود الذي يدعو دعوة صريحة (في بعض اجزائه المتناقضة) الى قتل الغريب، حتى ولو كان من أحسن الناس خلقاً. وقد سببت هذه العدوانية كثيراً من الحرج لليهود أنفسهم الأمر الذي دعاهم الى اصدار طبعات من التلمود بعد إحلال كلمة

(مصري) او (صدوقي) أو (سامري)، محل كلمة (مسيحي) او (غريب). وأصبح التمييز ذا طابع انطولوجي في التراث القبّالي، وخصوصاً القبّالاه اللوريانية بنزعتها الحلولية المتطرفة، حيث ينظر الى اليهود باعتبار أن أرواحهم مستمدة من الكيان المقدّس، في حين صدرت أرواح الأغيار من المحارات الشيطانية والجانب الآخر (الشرير) والخيرون من الأغيار هم أجساد أغيار لها أرواح يهودية ضلت سبيلها. وقد صاحب كل هذا تزايد مطّرد في عدد الشعائر التي على اليهودي أن يقوم بها ليقوي صلابة دائرة الحلول والقداسة التي يعيش داخلها ويخلق هوة بينه وبين الآخرين الذين يعيشون خارجها.

والواقع أن هذا التقسيم الحلولي لليهود الى يهود يقفون داخل دائرة القداسة، وأغيار يقفون خارجها، ينطوي على تبسيط شديد، فهو يضع اليهودي فوق التاريخ وخارج الزمان، وهذا ما يجعل من اليسير عليه أن يرى كل شيء على أنه مؤامرة موجهة ضده او على أنه موظف لخدمته. كما أنه يحول الأغيار الى فكرة أكثر تجريداً من فكرة اليهودي في الأدبيات النازية او فكرة الزنجي في الادبيات العنصرية البيضاء. وهي أكثر تجريداً لأنها لا تضم أقلية واحدة او عدة اقليات، او حتى عنصراً بشرياً بأكمله، وإنما تضم الآخرين في كل زمان ومكان. وبذا، يصبح كل البشر أشراراً مدنّسين يستحيل الدخول معهم في علاقة، ويصبح من الضروري إقامة أسوار عالية تفصل بين من هم داخل دائرة القداسة ومن هم خارجها. وقد تعمقت هذه الرؤية نتيجة الوضع الاقتصادي الحضاري لليهود (في المجتمع الاقطاعي الاوروبي) كجماعة وظيفية تقف خارج المجتمع في عزلة وتقوم بالأعمال الوضيعة او المشينة وتتحول الى مجرد أداة في يد النخبة الحاكمة. ولتعويض النقص الذي تشعر به، فإنها تنظر نظرة استعلاء الى مجتمع الأغلبية وتجعلهم مباحاً، وتسبغ على نفسها القداسة (وهي قداسة تؤدي بطبيعة الحال الى مزيد من العزلة اللازمة والضرورية لأداء وظيفتها).

وبظهور الرأسمالية القومية وتزايد معدلات العلمنة (انظر الملحق) في المجتمعات الغربية، اهتزت هذه الانعزالية بعض الشيء، وظهرت حركة التنوير اليهودية واليهودية الاصلاحية اللتان كانتا تحاولان تشجيع اليهود على الاندماج مع الشعوب. لكن الرؤية الثنائية المستقطبة عاودت الظهور بكل قوتها مع ظهور الصهيونية التي ترى أن اليهود شعب مختلف عن بقية الشعوب لا يمكنه الاندماج فيها، كما شجعت الانفصالية باعتبارها وسيلة مشروعة تحافظ بها أقلية عرقية على نفسها وتقاليدها وتراثها. فتحاول الصهيونية أن تنشئ سياجاً بين يهود الخارج وبين الآخرين (ومن هنا

الاهتمام الشديد بتأكيد ظاهرة معاداة اليهود والإبادة النازية لليهود باعتبارها العلاقة النموذجية والحتمية بين اليهودي والأغيار). كما أن الصهاينة يشجعون اليهود على الاهتمام بهويتهم اليهودية وبإثنيتهم حتى لا يذوبوا في الآخرين. ويشار في الولايات المتحدة الى الذكر غير اليهودي على أنه (شيكتس)، والى الانثى غير اليهودية على أنها (الشيكسا) (وهما كلمتان مضمونهما الدلالي يتضمن فكرة الدنس والنجاسة وعدم الطهارة). ويشار الى (الشيكسا) على أنها حيوان مخيف يختطف الأولاد اليهود. ويشار الى الزواج المختلط على أنه (هولوكوست صامت)، أي (إبادة صامتة).

وفي الأدبيات الصهيونية العنصرية، فإن الصهاينة يعتبرون العربي على وجه العموم، والفلسطيني على وجه الخصوص، ضمن الأغيار حتى يصبح بلا ملامح او قسمات (ويشير وعد بلفور الى سكان فلسطين العرب على أنهم (الجماعات غير اليهودية) أي (الأغيار)). وينطلق المشروع الاستيطاني الصهيوني من هذا التقسيم الحاد، فالصهيونية تهدف الى انشاء اقتصاد يهودي مغلق، والى دولة يهودية لا تضم أي أغيار. ومعظم المؤسسات الصهيونية (الهستدروت، والحركة التعاونية، والجامعات) تهدف الى ترجمة هذا التقسيم الحاد الى واقع فعلي، كما أن فكرة العمل العبري تنطلق من هذا التصور.

وبعد ظهور الدولة الصهيونية الوظيفية (أي التي يستند وجودها الى وظيفة محددة تضطلع بها)، انطلق هيكلها القانوني من هذا التقسيم. فقانون العودة هو قانون عودة لليهود، يستبعد الأغيار من الفلسطينيين. ودستور الصندوق القومي اليهودي يحرم تأجير الأرض اليهودية للأغيار. ويمتد الفصل ليشمل وزارات الصحة والإسكان والزراعة.

ومن أطرف تطبيقات هذا المفهوم في الوقت الحاضر، القرار الذي اصدره مؤتمر الدراسات التلمودية الثامن عشر الذي عقد في القدس عام 1974 وحضره رئيس الوزراء آنذاك اسحاق رابين، والذي جاء فيه ضرورة منع (قيام الطبيب اليهودي بمساعدة المرأة غير اليهودية على الحمل). ومن المعروف ان الشرع اليهودي قد تناول بشيء من التفصيل قضية: هل يجوز للطبيب اليهودي أن يعالج غير اليهودي؟ وقد كان الرد هو النفي في جميع الأحوال، إلا إذا اضطر اليهودي الى ذلك. وينبغي أن تكون نية الطبيب دائماً هي أن يحمي الشعب اليهودي ونفسه، لا أن يشفي المريض. وقد أجاز بعض الفقهاء اليهود (مثل جوزيف كارو في كتابيه: بيت يوسف والشولحان عاروخ) أن يجرب الأطباء اليهود الدواء على مريض غير يهودي (وهي فتوى كررها موسى ايسيرليز في تعليقه على

الشولحان عاروخ). وقد وردت كل الحقائق السابقة في مقال كتبه إسرائيل شاهاك، ولم ترد نقابة الأطباء الاسرائيلية على اتهاماته.

وقد أثبتت بعض استطلاعات الرأي في اسرائيل أن الخوف من الأغيار لا يزال واحداً من أهم الدوافع وراء سلوك الاسرائيليين. وتحاول الدولة الاسرائيلية تغذية هذا الشعور بإحاطة المواطن الاسرائيلي بكم هائل من الرموز اليهودية، فشعار الدولة هو شمعدان المينوراه، وألوان العلم مستمدة من شال الصلاة (طاليت)، وحتى اسم الدولة ذاتها يضمر التضمينات نفسها. بل إن شعار العام الدولي للمرأة، الذي يتضمن العلامة (+) باعتبارها الرمز العالمي للأنثى، تم تغييره في اسرائيل حتى يكتسب الرمز طابعاً يهوديا وحتى لا يشبه الصليب. وقد جاء في التراث الديني التقليدي أنه لا يصح مدح الأغيار. ولذا، فحينما تسلم عجنون جائزة نوبل للسلام، مدح الأكاديمية السويدية ولكنه في حواره مع التلفزيون الاسرائيلي، قال: (أنا لا أنس أن مدح الأغيار محرم، ولكن يوجد سبب خاص لمديحي لهم)، فقد منحوه الجائزة!

ولكن هذا الموقف من الأغيار ما كان له أن يتحول الى أيديولوجية سياسية عدوانية، دون ظهور الاستعمار الغربي بعنصريته وعدوانيته. ولذا يكون مع الأكثر تفسيرية أن ننظر لهذا الموقف من الأغيار، باعتباره امكانية كامنة وحسب، تحولت الى ممارسة تاريخية من خلال حركيات الحضارة الغربية والاستعمار الغربي، لا من خلال حركيات ما يسمى (التاريخ اليهودي)! وبهذا نكون قد وضعنا العنف الصهيوني في سياقه العام الأساسي، دون أن نعمل سياقه الخاص الفرعي.

الفصل الثاني

العنف والرؤية الصهيونية

انتقد الصهاينة ما يسمى (الشخصية اليهودية) لعجزها وطفيليتها وهامشيتها (كما بينا في الفصل السابق). وقد طرحوا مفهوماً جديداً للشخصية اليهودية يستند الى الأساس العرقي والإثني (شأنهم في هذا الشأن منظرو القومية العضوية في الغرب)، وهي شخصية (حديثة) داروينية عنيفة مرنة في ذات الوقت، يفترض فيها المقدرة على أن تأخذ القانون في يدها وأن تلجأ للعنف والارهاب (كما سنبين في هذا الفصل).

النظرية العرقية والإثنية

1 ـ النظرية العرقية:

(العرق) هو جملة السمات البيولوجية (مثل حجم الجمجمة ولون الجلد او العيون او الشعر ... الخ)، التي يفترض وجودها في جماعة بشرية وتميزها بشكل حتمي (بيولوجي) عن غيرها من الجماعات. وكلمة (عرق) ترادف احياناً كلمة (سلالة) أو (جنس) أو (دم). وهناك تقسيمات عدة للسلالات او الأعراق او الأجناس البشرية المختلفة او الدماء التي تجري في عروقها.

وهناك اتجاه صهيوني يؤمن بأن ثمة عرقاً يهودياً مستقلاً، وأن أساس الهوية اليهودية والشخصية اليهودية هو الانتماء العرقي. ولعل المفكر الصهيوني موسى هس (1812 ـ 1875) مؤسس الفكرة الصهيونية (في ديباجتها الاشتراكية) هو أول من طرح تعريفاً لليهود على أساس بيولوجي او عنصري حين ذكر أن العرق اليهودي من الأعراق الرئيسة في الجنس البشري، وأن هذا العرق حافظ على وحدته رغم التأثيرات المناخية فيه، فحافظت اليهودية على نقاوتها عبر العصور. وقد تنبأ هذا المفكر الصهيوني بأن الصراع بين الأجناس سيكون أهم الصراعات، وأسهم في المحاولة الرامية الى التمييز بين العنصرين الآري والسامي، وهو التمييز الذي قُدّر له أن يكون بعد عدة سنوات أحد المفاهيم الأساسية التي تبناها منظرو الفكر العنصري الاوروبي. وقد داعبت تيودور هرتزل فكرة الهوية العرقية، فترة من الزمن على الأقل، فاستخدم عبارات مثل (الجنس اليهودي) او (النهوض بالجنس اليهودي)، كما أنه كان يفكر في تمييز اليهود عن غيرهم على اساس بيولوجي. وعندما قام هرتزل بأول زيارة له الى معبد يهودي في باريس، كان أكثر ما أثار دهشته التشابه العرقي الذي تصور وجوده بين يهود فيينا ويهود باريس: (الأنوف المعقوفة المشوهة، والعيون الماكرة التي تسترق النظر). كما يقول المفكر الالماني اليهودي ماكس نوردو (1849 ـ 1923) الذي يعد واحداً من أهم مفكري العنصرية الغربية (حتى قبل تحوله الى الصهيونية)، في لغة لا تقبل الشك وتخلو تماماً من الإبهام، (أن اليهودية ليست مسألة دين وإنما هي مسألة عرق وحسب). (وماكس نوردو هو زميل تيودور هرتزل في تأسيس المنظمة الصهيونية).

ولا يخرج الفيلسوف الالماني اليهودي (الاسرائيلي فيما بعد) مارتن بوبر (1878 ـ 1965) في تعريفه لليهودي عن هذا الإطار، رغم استخدامه مصطلحه الحلولي الكموني العضوي لنقل فكرته، فقد تحدث عن: (أزلية

الأجيال كجماعة يربطها الدم. فالدم قوة متجذرة في الفرد تغذيه، والدم هو الذي يحدد المستويات العميقة لجودنا، ويصبغ صميم وجودنا وإرادتنا بلونه. والعالم من حوله إن هو إلا آثار وانطباعات، بينما الدم هو عالم الجوهر). ونظراً لأن الدم الذي يجري في عروق اليهود يربطهم بالتربة، فقد كان بوبر يشير الى اليهود باعتبارهم آسيويين (لأنهم إذا كانوا قد طردوا من فلسطين، فإن فلسطين لم تطرد منهم).

ويبدو أن مسألة الدم هذه لم تكن شائعة في صفوف الفلاسفة والصهاينة المتأثرين بالتراث الألماني وحسب، بل كانت شائعة في صفوف الصهاينة الانجلو ساكسون ايضاً. فقد ادّعى الزعيم الصهيوني نورمان بنتويتش (1883 ـ 1910)، في حديث أدلى به في عام 1909، أن اليهودي لا يمكن أن يكون مواطناً انجليزياً كاملاً مثل هؤلاء الانجليز الذين ولدوا (لأبوين انجليزيين وانحدروا من اسلاف خلطوا دماءهم بالانجليز لاجيال كثيرة). وعرّف القاضي الاميركي لويس براندیز (1856 ـ 1941) اليهودية، في خطاب ألقاه في عام 1915، بأنها (مسألة تتعلق بالدم). وذكر أن هذه الحقيقة لقيت قبولاً من جانب غير اليهود الذين يضطهدون اليهود، ومن جانب اليهود الذين يحسون بالفخر (عندما يبدي اخوانهم من ذوي الدم اليهودي تفوقاً أخلاقياً او ثقافياً او عبرقية او موهبة خاصة، حتى إذا كان هؤلاء النابهون قد تخلوا عن الإيمان بالدين، مثل غسبينوزا او ماركس او دزرائيلي او هايني).

ويبدو أن الصهاينة حاولوا، على طريقة المفكرين العنصريين في الغرب، أن يثبتوا أنهم عرق مستقل بطريقة (علمية وليس فقط على طريقة بوبر الفلسفية. ولذا، فإننا نجد في صفوفهم كثيراً من (العلماء) المهتمين بهذه القضية. وقد أشار المفكر وعالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين (1876 ـ 1943) الى (الكتابات المتعلقة بقضية الجنس اليهودي) وأورد في كتابه (اليهود في الوقت الحاضر) أسماء كثير من (المراجع القيمة) في ذلك الموضوع. ومن بين الأسماء التي يذكرها اسم عالم صهيوني هو إغناتز زولتشان (1877 ـ 1948) الذي وصف اليهود بأنهم (أمة من الدم الخالص لا تشوبها أمراض التطرف او الانحلال الخلقي). وقدّم روبين نفسه تعريفاً عرقياً لليهود بيّن فيه أنهم (استوعبوا عناصر عرقية اجنبية بدرجة محدودة، ولكنهم في أغلبيتهم يمثلون جنساً متميزاً، على عكس ما هو سائد في دول وسط أوروبا).

وكان اللورد بلفور، الصهيوني غير اليهودي، يفكر في اليهود على اساس عرقي. وربما كان من المهم هنا ان نتذكر أن إحدى المسودات الأولى لوعد بلفور كانت تدعو الى إقامة (وطن قومي للجنس اليهودي)، وهي

جملة تحمل في طياتها تعريفاً بيولوجياً واضحاً للهوية اليهودية.

ثمة، إذن، اجماع صهيوني على التعريف العرقي لليهودي. وهو أمر متوقع ومفهوم، فقد كانت الصهيونية تبحث عن الشرعية من أوروبا لا من اليهودية، ولذا كان عليها ان تصبح عرقاً مستقلاً لأن العرق المستقل وحده هو الذي من حقه أن تكون له دولة مستقلة (حسب الإطار العرقي السائد في اوروبا العلمانية الشاملة). ولكن من الواضح ان تعريف اليهودي كعضو في عرق مستقل أمر مغرق في الخيال والوهم، إذ يدحض في واقع الاقليات اليهودية بسهولة مثل هذه الأساطير. وكان على الصهاينة بالذات ان يتعاملوا لسوء حظهم مع يهود بيض ويهود سود وبضعة يهود صفر الى جانب الكثير من الظلال اللونية. وكما أشرنا من قبل، فقد كان هرتزل معجباً بالنظرية العرقية، ولكنه كان صديقاً لاسرائيل زانجويل (1864 ـ 1926) الروائي الانجليزي والزعيم الصهيوني اليهودي ذي الأنف الطويل والشبيه بأنوف الزنوج والشعر الكث الحالك السواد، وكانت نظرة واحدة اليه تكفي، على حد قول هرتزل نفسه، لدحض أي تصور عرقي لليهودي.

وثمة سبب آخر لاختلاف التعريف العرقي لليهود يرتبط بالمجال الدلالي لكلمة (عرق)، إذ أنه بحلول الثلاثينات كانت الحياة في الغرب قد تحولت عن العنصرية التي فقدت الى حد كبير ما كانت تحظى به من قبول وتأييد في الأوساط العلمية. وكما يقول الزعيم الصهيوني ناحوم سولوكوف: بعد أن عشنا عصراً اصبحت فيه كلمة (عنصر) او (عرق) معادلة للقسوة والبربرية، فإن معظم الناس ينفرون من استخدام هذا المصطلح. ويضاف الى هذا أن علم الأجناس قد اظهر أن هذا المصطلح لا يمكن ان يطبّق حقاً على اليهود، وذلك رغم أنه كان من المعتاد تماماً الاشارة الى اليهود في عصر ما قبل هتلر على أنهم (جنس)، وكان الكثيرون يعتقدون أن يهودية المرء مسألة تتعلق بمولده وسماته.

ولذا، كان لابد من العدول عن استخدام كلمة (عرق)، وبدلاً من ذلك، بدأ تعريف اليهودي على أساس إثني، أي على أساس التراث والثقافة والمشتركة، ومن ثم حلت الإثنية محل العرقية كنقطة مرجعية وكأساس للهوية. لكن التعريف الإثني لا يختلف في جوهره عن التعريف العرقي، فكلاهما يفرز نظرية في الحقوق (العرقية أو الإثنية) تعطي صاحب الهوية العرقية أو الإثنية مزايا معينة وقوة مطلقة تنكرها على غيره من البشر.

2 ـ النظرية الإثنية:

(الجماعة الإثنية) هي الجماعة التي لها تراث تاريخي وحضاري مشترك

(تاريخ مشترك ـ لغة ـ طعام ـ ملبس ـ موسيقى ... الخ) يتوارثه أعضاء الجماعة جيلاً بعد جيل الى أن يصبح جزءاً عضوياً لا يتجزأ من وجودهم، يميزهم عن الآخرين ويشكل مصدر خصوصيتهم القومية (الإثنية). والكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية ذات الأصل اليوناني (إثنوس Ethnos) التي تعني (شعب) او (قوم). والجماعة الإثنية جماعة عضوية، إذ أن التراث الإثني يربط اعضاء الجماعة بعضهم ببعض كما يربطهم بأرضهم بطريقة عضوية حتمية لا يمكن الفكاك منها وتجب ارادة الأفراد.

وبمعنى من المعاني يمكن القول بأن النظرية الإثنية حلّت محل النظرية العرقية في الخطاب الحضاري الغربي كأساس لتعريف الذات وتعريف الآخر ولتبرير عمليات الغزو والهيمنة وذلك بسبب تماثلهما البنيوي العميق وربما ترادفهما. فكلاهما يرى أن الكل لا يسبق الجزء وحسب بل يجبّه تماماً، كما أن كليهما يدور في إطار من العضوية الحتمية، وكلاهما يجعل من الجماعة الإثنية او العرقية مرجعية ذاتها، مكتفية بذاتها، قادرة على أن تجعل حقوقها مطلقة، فالإثنوس، تماماً مثل العرق، هو موضع الحلول، فكل شيء كامن فيه.

ومن أهم تجليات النظرية الإثنية فكرة الشعب العضوي و(الشعب العضوي) هو الشعب الذي يترابط اعضاؤه ترابط الأجزاء في الكائن العضوي الواحد والذي تربطه رابطة عضوية بأرضه وتراثه. ويشار الى الفكر القومي، الذي يصدر عن مفهوم الشعب باعتباره الفولك او الكيان العضوي المتماسك، بعبارة (الفكر القومي العضوي)، ويقال له ايضاً (القومية العضوية). وعادة ما توضع الوحدة العضوية مقابل الترابط الآلي. ولكن يشار لليهود باعتبارهم (شعب عضوي منبوذ) Pariah volk وهو مصطلح يعني أن الجماعات اليهودية تشكل في معظم الأحيان جماعة وظيفية متماسكة عضوياً (مكتفية بذاتها) ولكنها فقدت وظيفتها فتم نبذها، فأصبحت شعباً عضوياً منبوذاً. وهذا المفهوم يشكل حجر الزاوية في التفاهم بين الصهاينة وأعداء اليهود، فهم جميعاً يرون ان اليهود شعب عضوي واحد، لا ينتمي الى الغرب او الى أي وطن، لأنه يرتبط عضوياً بإرتس يسرائيل. والشعب العضوي، سواء كان منبوذاً او غير منبوذ، مكتف بذاته، ومرجعية ذاته، مقدّس مطلق، تنبع قداسته وإطلاقه من داخله، فهو موضع الحلول والكمون.

ويذهب الصهاينة الى أن اليهود يتسمون بالنقاء الحضاري والإثني. ومن ثم فهم يتحدثون عن (الخصوصية اليهودية) او (التراث اليهودي) او(الثقافة اليهودية) وعن (التاريخ اليهودي) وكأن هناك بنية تاريخية مستقلة يدور اليهود في إطارها بمعزل عن الأغيار، وذلك برغم انتشارهم في كل انحاء

الأرض، بل ويتحدثون عن (النظام السياسي اليهودي) و(الاقتصاد اليهودي)، وهكذا، باعتبارها كلها ناتجة عن هذا النقاء الحضاري اليهودي، وباعتبارها الأطر التي احتفظ اليهود من خلالها بنقائهم.

ويلاحظ أن النقاء الثقافي غير منفصل عن النقاء العرقي، فاستناداً الى فكرة الشعب العضوي (فولك)، ترتبط حضارة أي شعب بالدماء التي تجري في عروقه. ومن ثم، فإن هناك وحدة لا تنفصم عراها بين الحضارة والعرق. وقد سادت هذه الفكرة أوروبا في القرن التاسع عشر، وكانت من أكثر الأفكار شيوعاً، وأثّرت في الفكر القومي الغربي وفي الفكر النازي والصهيوني وفي النظرية الامبريالية الغربية.

ونحن نذهب الى أن هناك ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيلات الحضارية التي يوجد داخلها اليهود ـ ومن هنا عدم نقاء الظواهر الحضارية اليهودية ابتداء باللغة العبرية ذاتها، وانتهاء بالنشيد الوطني الاسرائيلي (الهاتيكفاه) (أي الأمل). والواقع أن الامتزاج مع الحضارات والشعوب الأخرى ليس أمراً معيباً او مشيناً، فهو قانون الوجود الإنساني. ولكن الصهاينة، شأنهم شأن المعادين لليهود، يحاولون خلع صفة النقاء الحضاري وأحياناً العرقي على اليهود، وفي هذا إنكار لإنسانيتهم لأنهم حين ينتزعون اليهود من سياقهم التاريخي المتعيّن إنما ينتزعونهم من سياقهم الإنساني الوحيد.

العنف والرؤية الصهيونية للواقع والتاريخ

أحد الأشكال الأساسية (للعنف الصهيوني) هو رفض الصهاينة قبول الواقع والتاريخ العربي في فلسطين باعتبار أن الذات الصهيونية واليهودية هي مركز هذا الواقع ومرجعيته الوحيدة. ولذا يستبعد الصهاينة العناصر الأساسية (غير اليهودية) المكونة لواقع فلسطين وتاريخها من وجدانهم ورؤيتهم وخريطتهم الإدراكية. والإرهاب الصهيوني إن هو إلا محاولة تستهدف فرض الرؤية الصهيونية الاختزالية على الواقع المركب، ولذا يمكن القول بأن الإرهاب هو العنف المسلح (مقابل العنف الإدراكي).

والعنف النظري والإدراكي سمة عامة في الفكر العلماني الشامل الإمبريالي الذي حوسل العالم (أي حوله الى وسيلة ونظر اليه باعتباره مجرد مادة استعمالية). والصهيونية لاتمثل أي استثناء من القاعدة، فقد نشأت في تربة أوروبا الامبريالية التي سادت فيها الفلسفات النيتشوية والداروينية والرؤية المعرفية الامبريالية التي تتخطى الخير والشر والتي تحوسل العالم والناس بحيث يصبح الآخر مجرد أداة او شيئاً يستخدم.

ومع هذا يظل العنف الصهيوني ذا جذور خاصة تمنحه بعض السمات

المميزة:

1ـ لم تكن الصهيونية حركة استعمارية وحسب وإنما هي حركة استيطانية إحلالية (ارض بلا شعب) وهو ما يعني ضرورة ان تُخلي الأرض التي سيُنفذ فيها المشروع الصهيوني من السكان الاصليين، ولا يمكن ان يتم هذا إلا من خلال أقصى درجات العنف النظري والإرهاب الفعلي.

2ـ من السمات الأساسية للأيديولوجيات العلمانية الشاملة، الحلولية العضوية، أنها تحوي مركزاً او مرجعيتها (او مطلقها) داخلها، ومن ثم فهي تشكل نسقاً مغلقاً ملتفاً حول نفسه يخلع القداسة على الذات ويجعلها موضع الحلول والكمون ويحجبها عن الآخرين (الذين يقعون خارج دائرة القداسة) فيهدر حقوقهم ويبيدهم، فهم ليسوا موضع الحلول.

والصهيونية وريثة الطبقة الحلولية اليهودية (داخل التركيب الجيولوجي اليهودي) هي عقيدة علمانية حلولية كمونية تجعل اليهود شعباً عضوياً ذا علاقة عضوية خاصة بالأرض (إرتس يسرائيل) أي فلسطين، وهي علاقة تمنحهم حقوقاً مطلقة فيها، الأمر الذي يعني طرد السكان الأصليين الذين لا تربطهم بأرضهم رابطة عضوية حلولية مماثلة.

وقد حوّلت الصهيونية العهد القديم الى فلكلور للشعب اليهودي، وهو كتاب تفيض صفحاته بوصف حروب كثيرة خاضتها جماعة يسرائيل او العبرانيون مع الكنعانيين وغيرهم من الشعوب، فقاموا بطرد بعضهم وإبادة البعض الآخر. وجماعة يسرائيل يحل فيها الإله الذي يوحي لها بما تريد أن تفعل، ويبارك يدها التي تقوم بالقتل والنهب، فكل أفعال الشعب مباركة مقدسة لأن الإله يحل فيه.

3ـ ورثت الصهيونية ميراث الجماعة الوظيفية اليهودية بفصلها الحاد بين الشعب المقدس والأغيار وبما يتسم به ذلك من ازدواجية في المعايير تجعل الآخر مباحاً تماماً وتجعل استخدام العنف تجاهه أمراً مقبولاً.

لكل هذا، اصبح العنف إحدى المقولات الأساسية للإدراك الصهيوني للواقع والتاريخ. وقد أعاد الصهاينة كتابة ما يسمونه (التاريخ اليهودي) فبعثوا العناصر الحلولية الوثنية مؤكدين جوانب العنف فيه. فصوروا الأمة اليهودية في نشأتها جماعة محاربة من الرعاة الوثنيين الغزاة. فميخا جوزيف بيردشفسكي (1865 ـ 1921) المفكر الصهيوني، الروسي اليهودي، على سبيل المثال، ينظر الى الوراء الى الأيام التي كانت فيها (رايات اليهود مرتفعة)، وينظر الى الأبطال المحاربين (اليهود الأوائل). كما أنه يكتشف أن ثمة تياراً عسكرياً في التراث اليهودي، فالحاخام اليعازر قد بيّن أن السيف والقوس هما زينة الإنسان، ومن المسموح به

أن يظهر اليهودي بهما يوم السبت. هذا الرؤية للتاريخ تتضح في دعوة فلاديمير جابوتنسكي (1880 ـ 1940) زعيم الحركة التصحيحية لليهودي أن يتعلم الذبح من الأغيار. وفي خطاب له الى بعض الطلاب اليهود في فيينا، أوصاهم بالاحتفاظ بالسيف لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً ألمانياً، بل إنه ملك (لأجدادنا الأوائل ... إن التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء)، أي أن السيف يكاد يكون المطلق، أصل الكون وكل الظواهر. ولهذا لا يتردد جابوتنسكي في رفض التاريخ اليهودي الذي يسيطر عليه الحاخامات والمفكرون اليهود.

ويبدو أن هذا السيف المقدس (رمز الذكورة والقوة والعنف) كان محط اعجاب كل الصهاينة الذين كثيراً ما عبّروا عن اعجابهم وانبهارهم بالعسكرية البروسية الرائعة (هذا بالطبع قبل أن يهوى هذا السيف البروسي على الرقاب اليهودية في اوشفتس). وتمتلئ كتابات تيودور هرتزل، بعبارات الإعجاب بهذا السيف، إذ كتب في مذكراته يشيد ببسمارك الذي أجبر الألمان على شن عدة حروب، الواحدة تلو الأخرى، وبذلك فرض عليهم الوحدة وبدأ تاريخهم الحديث كدولة موحدة. فالعنف العسكري هو وحدة محرك التاريخ الحقيقي، (إن شعبنا كان نائماً زمن السلم، رحب بالوحدة في ابتهاج في زمن الحرب). وبينما كان هرتزل ينظر من نافذة أحد المسؤولين الألمان شاهد مجموعات من الضباط الألمان يسيرون بخطى عسكرية، فعبّر عن انبهاره بهم في يومياته وذهب الى أن هؤلاء هم صناع تاريخ المانيا: (ضباط المستقبل لألمانيا التي لا تقهر). بل إنهم قد يكونون أيضاً صناع التاريخ الصهيوني نفسه، إذ يشير هرتزل الى تلك (الدولة التي تريد وضعنا تحت حمايتها).

وتغنى الزعيم الصهيوني ناحوم جولدمان (1894 ـ 1980) ايضاً بهذه الروح العسكرية البروسية في شبابه: (ألمانيا تجسد مبدأ التقدم ونجدها واثقة من النصر. ألمانيا ستنتصر وستحكم الروح العسكرية العالم. ومن يريد أن يندم على هذه الحقيقة ويعبر عن حزنه فله أن يفعل، ولكن محاولة إعاقة هذه الحقيقة هي شيء من قبيل العناد وجريمة ضد عبقرية التاريخ الذي تحركه السيوف وقعقعة السلاح).

وقد تبع مناحيم بيجن (مؤسس جماعة حيروت (الليكود فيما بعد) ورئيس وزراء اسرائيل الاسبق) استاذه جابوتنسكي، وكل الصهاينة من قبله، في تأكيد أهمية السيف باعتباره محركاً للتاريخ إذ يقول: (إن قوة التقدم في تاريخ العالم ليست السلام بل السيف).

وغني عن القول أن العنف الصهيوني الإدراكي يصل الى ذروته في إدراك

العرب والتاريخ العربي، إذ يحاول الصهاينة، بسبب مشروعهم الإبادي الاحلالي، أن يلتزموا الصمت تماماً تجاهه، فلا يذكرونه من قريب او بعيد. او أن يغمغموا بأصوات ليبرالية تخبئ الحد الأقصى من العنف. فحينما اكتشف أحد الزعماء الصهاينة في المؤتمر الصهيوني الأول (1897) أن فلسطين ليست ارضاً بلا شعب كما كان الادعاء، جرى الى هرتزل وأخبره باكتشافه، فهدأ الأخير من روعه وقال له إن الأمر ستتم تسويته فيما بعد. وكان هرتزل يعرف تماماً كيف كانت تتم تسوية مثل هذه الأمور على الطريقة الامبريالية، ونحن نعرف كيف تمت تسويتها في فلسطين. وعلى كلٍ فإن الحديث الصهيوني المستمر عن السيف كمحرك للتاريخ ليس تعبيراً عن رغبة الصهاينة في ممارسة رياضة محببة لبعض النفوس وإنما هو تعبير عن برنامج محدد لتغيير الواقع.

ويعد هذا العنف الإدراكي لبنة أساسية في التصور الصهيوني للذات والواقع والتاريخ والآخر، وقد يعبّر العنف عن نفسه بطريقة مباشرة، كما أنه قد يعبّر عن نفسه بطريقة غير مباشرة عن طريق عشرات القوانين والمؤسسات. وما قانون العودة الاسرائيلي إلا ترجمة لهذا العنف حين يُعطي أي يهودي في العالم حق (العودة) الى اسرائيل في أي وقت شاء وينكر هذا الحق على ملايين الفلسطينيين الذين طردوا من فلسطين على دفعات منذ عام 1948، رغم أن يهود العالم لا يودون الهجرة الى اسرائيل بينما يقرع الفلسطينيون أبوابها. ولكنها الرؤية المعرفية العلمانية الامبريالية التي تحوسل كل البشر (العرب واليهود) والزمان (تواريخ الجماعات اليهودية وتاريخ فلسطين) والمكان (فلسطين). وما الإرهاب الصهيوني الذي لم يهدأ إلا تعبيراً عن رؤية الصهاينة التي تحاول أن تصل الى نهاية التاريخ: نهاية تاريخ الجماعات اليهودية في العالم، ونهاية التاريخ العربي في فلسطين.

تحديث الشخصية اليهودية

ثمة عنف أساسي في الإدراك الصهيوني للواقع والتاريخ. ولم يكن هناك مفر من أن يترجم هذا الإدراك نفسه لإجراءات وعنف مسلح لتغيير الواقع ولرفض الرؤية اليهودية الحاخامية. ولتحقيق هذا الهدف كان حتمياً أن تنتج المادة البشرية القتالية القادرة على تحريك التاريخ لا من خلال التوراة وإنما من خلال السيف، وهذا ما سماه الصهاينة (تحديث الشخصية اليهودية)، أي علمنتها وجعلها قادرة على تغيير قيمها حسبما تقتضيه الظروف والملابسات، وتبنّي قيم نيتشوية وداروينية لا علاقة لها بمكارم الأخلاق او بالمطلقات الإنسانية والأخلاقية والدينية.

وقد بيّن الصهاينة أن اليهودية الحاخامية طلبت من اليهود الانتظار في صبر وأناة لعودة الماشيّح، وألا يتدخلوا في مشيئة الإله، لأن في هذا كفراً وتجديفاً. ولكن الصهاينة الرافضين للعقيدة اليهودية، تمردوا على هذا الموقف او وصفوه بالسلبية ونادوا بأن يتمرد اليهودي على وضعه وألا ينتظر وصول الماشيّح، إي ينبغي أن يعمل اليهودي بكل ما لديه من وسائل على العودة الى أرض الميعاد. فالمنفى بالنسبة الى ديفيد بن جوريون يعني الاتكال، الاتكال السياسي والمادي والروحي والثقافي والفكري، (وذلك لأننا غرباء وأقلية محرومة من الوطن ومقتلعة ومشردة عن الأرض، وعن العمل وعن الصناعة الأساسية. واجبنا هو أن ننفصل كلياً عن هذا الاتكال، وأن نصبح أسياد قدرنا). ويلخص بن جوريون برنامجه الثوري في أنه لا يرفض الاستسلام للمنفى فحسب، بل يحاول أيضاً انهاءه في التو، وهو يعتقد أن هذا هو حجر الزاوية: (القضية الحقيقية الآن، كما كانت في الماضي، تتركز فيما لو كان علينا ان نعتمد على قوة الآخرين ام على قوتنا. على اليهودي من الآن فصاعداً ألا ينتظر التدخل الإلهي لتحديد مصيره، بل إن عليه أن يلجأ الى الوسائل الطبيعية العادية) (مثل الفانتوم والنابالم مثلاً). وهذا ما يسمى ايضاً في الأدبيات الصهيونية (إشكالية العجز وعدم المشاركة في السلطة).

لكل هذا تنطلق الصهيونية من نقد نيتشوي لما يسمى (الشخصية اليهودية في المنفى) فيقول ماكس نوردو إن اليهودي، خلال ثمانية عشر قرناً من النفي، اصبح مترهل العضلات (وهذه هي إحدى الأوصاف السائدة لليهود بين أعداء اليهود). ولذلك (أقترح أن يقلع اليهودي عن قهر جسده، وأن يعمل على تنمية قواه الجسدية وعضلاته، اسوة بذلك البطل بركوخبا، آخر تجسيد لتلك اليهودية في صلابة عودها المقاتل وحبها لقعقعة السلاح). والفكرة نفسها ترد في كتابات جابوتنسكي الذي رفض أخلاقيات العبيد ونادى بتفضيل العقل على الفكر وأخلاق السادة على أخلاق العبيد والسيف على الكتاب حتى يظهر اليهودي الجديد المتحرر من أغلال الدين والقيم. (أنظر كتاب الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ).

إن العنف هنا يصبح الأداة التي يتوسل بها الصهاينة لإعادة صياغة الشخصية اليهودية. فاليهودي، في هذا التصور، يحتاج الى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه ومن ذاته الطفيلية الهامشية. وكان الكاتب الصهيوني بن هكت يشعر بسعادة في قرارة نفسه في كل مرة قتل فيها جندياً بريطانياً لأنه، على حد قوله، كان يتحرر من مخاوفه ويولد من جديد، تماماً مثل شارلوت كورداي في قصيدة لجابوتنسكي بعنوان (شارلوت المسكينة). فشارلوت تتخلص من رتابة حياتها وسخافتها وتروي

تعطّشها للعمل البطولي بأن تقوم بتسديد الضربة الى جان مارا فترديه قتيلاً في الحمام. العنف هنا يصبح مثل الطقوس الدينية التي تستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصل أحد افرادها الى سن الرجولة. فاليهودي حينما يقوم بهذا الفعل الذي كان يخاف منه أجداده (ذبح أحد الأغيار) يتخلص من مخاوفه، ويصبح جديراً بحمل رمز الذكورة. وهذا الجانب من الفكر الصهيوني يتضح بجلاء في كتاب الثورة الذي ألفه مناحيم بيجين، والذي يقلب فيه عبارة ديكارت المعروف (أنا افكر، إذن أنا موجود) لتصبح (أنا أحارب، إذن أنا موجود). ثم يضيف: (من الدم والنار والدموع والرماد سيخرج نموذج جديد من الرجال، نموذج غير معروف البتة للعالم في الألف وثماني السنين الماضية: اليهودي المحارب).

وحتى الليبرالي الاميركي الهادئ لويس براندیز يشير (باستحسان شديد) الى وظيفة العنف الصهيوني في اعادة صياغة الشخصية اليهودية: (غرست الصهيونية في الشباب اليهودي الشجاعة، فألفوا الجمعيات، وتدربوا على الأعمال الرياضية وعلى اللعب بالسيف، وصارت الإهانة ترد بإهانة مثلها. وفي الوقت الحاضر، يجد أفضل لاعبي السيف الألمان أن الطلبة الصهيونيين يستطيعون ان يُدموا الخدود، كما يفعل التيوتون، ويرون أيضاً أن اليهود سوف يكونون أفل لاعبي السيف في الجامعة) (وفي الشرق الأوسط فيما بعد). لقد كان براندیز يفكر في الطالب الآري (وحش نيتشه الأشقر) حينما كان يتحدث عن بطله اليهودي.

والعنف عند بن جوريون يقوم بالوظيفة نفسها في اعادة صياغة الشخصية اليهودية، إذ يصف الرواد الصهاينة بأنهم لم يكن لهم حديث إلا الأسلحة (وعندما جاءتنا الأسلحة لم تسعنا الدنيا لفرط فرحتنا، كنا نلعب بالأسلحة كالأطفال ولم نعد نتركها أبداً. كنا نقرأ ونتكلم عن البنادق في أيدينا او على أكتافنا). إن موقف بن جوريون مبني على تصور جديد للشخصية اليهودية باعتبارها شخصية محاربة منذ الأزل: (إن موسى، أعظم أنبيائنا، هو أول قائد عسكري في تاريخ أمتنا). ومن هنا يكون الربط بين موسى النبي وموشي ديان مسألة منطقية بل حتمية، كما لا يكون من الهرطقة الدينية في شيء أن يؤكد بن جوريون أن خير مفسر للتوراة هو الجيش، فهو الذي يساعد الشعب على الاستيطان على ضفاف نهر الأردن، فيفسر بذلك كلمات أنبياء العهد ويحققها. ولنلاحظ النمط الحلولي الكموني الذي يبدأ بوضع السيف في خدمة التوراة، ثم يصبح السيف موازياً لها، ثم تصبح هذه تابعة له، فالسيف هو الذي يفسر التوراة ويفرض عليها المعنى، وكأنه أحد نقاد ما بعد الحداثة او هارولد بلوم الناقد الاميركي القبّالي الذي يرى أن الناقد هو الذي يفرض المعنى على النص، او كأنه

(الشعب المختار) اختاره الإله ثم حل فيه ثم اصبح تابعاً له، او كأنه الشريعة الشفوية (تفاسير البشر) التي جاءت للوجود لتفسر الشريعة المكتوبة ولكنها حلت محلها بالتدريج.

الصهيونية العمالية والعنف

الصهيونية العمالية (التي أسست الدولة الصهيونية ورسمت معالمها الأساسية وأدارتها حتى عام 1977 حين تولى بيجين الحكم) هي التيار الصهيوني الذي يتبنى العنف بهذا المعنى النيتشوي الداروينى، على عكس التيارات الأخرى التي تبنت العنف آلية أساسية ولكنها لم تصل الى نفس الدرجة من التبلور والوضوح، ولعل هذا يعود الى أن الصهيونية العمالية هي صهيونية الاستيطان والإحلال. وقد تبدي العنف الصهيوني العمالي في مفهوم الريادة، ومفهوم اقتحام الأرض والعمل والحراسة والانتاج.

1 ـ الريادة:

تذهب حركة الصهيونية العمالية الى أن اليهود قد (عادوا) الى فلسطين كرواد يكتشفون ارضاً جديدة و(الرواد) ترجمة للكلمة العبرية (حالوتسم) ومفردها (حالوتس) أي (رائد). ويطلق المصطلح في الكتابات الصهيونية على الصهيوني الذي يهاجر الى فلسطين ويستوطن فيها ثم يكرس نفسه لبناء المستوطن الصهيوني. (أما الفلسطينيون العرب فقد أطلقوا عليهم اسم (المسكوب) أي الوافدون من (مسكوبا) أي (موسكو)).

والرواد جماعة من المستعمرين الاستيطانيين الذين يدورون في اطار الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة (انظر الملحق) بعد مزجها بالديباجات الشعبوية الروسية الخاصة بالعودة للشعب العضوي (الفولك) والأرض والتراث ورفض الطموحات المادية والمصلحة الذاتية وإيثار العمل اليدوي، الذي قد يأتي بعائد مادي منخفض، على الأعمال غير اليدوية التي قد تأتي بالنجاح المادي البورجوازي، ولذا فهم يحلمون بمجتمع جماعي اشتراكي مفعم بروح التعاون. ولذا كان الرواد يرفضون حياة اليهود في العالم (الدياسبورا) كما خبروها في شرق أوروبا، كما كانوا يرفضون الاندماج في مجتمعاتهم الأصلية، وقد ذهب هؤلاء الرواد الى أنه لا يمكن حل المسألة اليهودية في شرق أوروبا إلا عن طريق تعلم اللغة العبرية والتمسك بالتراث اليهودي (تراث يهود شرق أوروبا في واقع الأمر). ولكن الى جانب هذا التمسك بالتراث كان هناك الإدراك العميق لضرورة إحلال السكان الجدد، أي المستوطنين الصهاينة، محل السكان الأصليين في العمل وفي الأرض (اقتحام الأرض والعمل والحراسة والإنتاج)، ولعل كلمة (اقتحام) هي مفتاح فهم هذا المفهوم، فهو يعني

(اغتصاب). ومع هذا ارتبطت حركة الريادة منذ بدايتها بالتنظيمات العسكرية الصهيونية ومزارع الكيبوتس (التي يعد الانضمام لها ذروة تحقق المثل الأعلى الريادي)، فالريادة هي في نهاية الأمر الزراعة المسلحة التي تهدف الى تحقيق الاستيطان الإحلالي في فلسطين على حساب الفلسطينيين. وبالتالي، فإن الزراعة المسلحة التي يعمل بها الرواد هي في واقع الأمر الطريقة الصهيونية لتجنيد بعض الشباب اليهودي الثوري من شرق أوروبا وتحويلهم الى مستوطنين يحلون محل الفلسطينيين. وصورة الرائد هي الصورة التي شكّلت الوجدان الصهيوني العمالي الاستيطاني. والمجتمع الاسرائيلي كان مجتمع مستوطنين.

2ـ اقتحام الأرض والعمل والحراسة والإنتاج:

الرائد كما قلنا يعمل من أجل (اقتحام الأرض والعمل والحراسة والإنتاج) وهي مجموعة من المفاهيم الصهيونية العمالية المترابطة التي تشكل عصب الايديولوجية الصهيونية العمالية:

أ ـ اقتحام الأرض

كان مفهوم اقتحام الأرض أحد الأسس التي يستند اليها البرنامج الصهيوني الاستيطاني، وهو مفهوم ينادي بالاستيلاء على أرض فلسطين واستغلالها حتى يمكن انقاذها من أيدي الأغيار وبناء المستعمرات اليهودية. وعن طريق غزو الأرض يطهّر اليهودي نفسه من طفيليته التي كانت تسمه كشخصية هامشية تعمل بالتجارة والربا في الدياسبورا (أي في أنحاء العالم)، حيث كان يعيش منفياً محرماً عليه ـ حسب التصور الصهيوني ـ العمل في الزراعة والاحتكاك بالطبيعة ومصادر الحياة. فاقتحام الأرض لم يكن الدافع اليه اقتصادياً فحسب وإنما كان نفسياً أيضاً.

ولكن الاقتحام الحقيقي للأرض لم يتم بالطرق السلمية ولا حتى عن طريق التسلل والشراء، فالصندوق القومي اليهودي لم يتمكن خلال 45 عاماً (من تاريخ تأسيسه حتى عام 1947) من الحصول إلا على 3.9% من مساحة فلسطين، بينما نجد أن الهاجاناه (وشتيرن والإرجون) قد استولت في أقل من عام واحد (1948) على مساحة قدرها 76% من مجموع مساحة البلاد.

ب ـ اقتحام العمل

لو كان الاستعمار الصهيوني استعماراً استيطانياً وحسب، لاكتفى باقتحام الأرض ولكنه استعمار استيطاني إحلالي، ولذا لم يكن هناك مفر من

البحث عن أداة أخرى لتحقيق الإحلال، وقد وجد الصهاينة ضالتهم المنشودة في مفهوم اقتحام العمل. وفي إحدى مؤتمرات العامل الفتي، أكد جوزيف واتكين أن اقتحام الأرض واقتحام العمل صنوان لا يفترقان، يكمل الواحد منهما الآخر. وكلا المفهومين يعود في الأصل الى المفكر الصهيوني العمالي الحلولي يهودا جوردون (1830 ـ 1892) الذي كان يرى أن اليهودي في الدياسبورا يقوم بأعمال كتابية وحسابية ومالية، ولذا فهو يحيا حياة مشوّهة ينقصها الانفعال والإبداع، كما أنه لا يتمتع بأية سيادة ولا مشاركة في صنع القرارات التي تؤثر في حياته. ولذا، يجب على اليهودي أن يعود للأرض لا ليملكها فحسب وإنما ليشتغل فيها بالأعمال اليدوية الشاقة ويقهرها حتى يصبح هو نفسه محتلاً من قبل العمل اليدوي. والعمل اليدوي هو إحدى وسائل الرجوع الى عالم الطهارة والحواس والطبيعة ووسيلة الاتحاد الصوفي بها. ولذا يجب أن يعمل العامل اليهودي من أجل العمل ذاته، وهو بهذا سيطبّع نفسه ويتخلص من هامشيته وطفيليته ويحل إشكالية الهرم الطبقي اليهودي المقلوب إذ يصبح هناك عمال وفلاحون (الى جانب الحرفيين والمثقفين الذين يشكلون غالبية اليهود). ومن ثم يكتمل تكوين الشعب اليهودي، كما أنه سيحل إشكالية العجز وانعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة إذ أن هذا الشعب اليهودي الذي اقتحم العمل وأكمل تكوينه الطبقي يمكنه أن يؤسس دولة ذات سيادة يمارس اليهود من خلالها صنع القرار ويتحكمون في مصيرهم، أي أن الصهيوني الذي يقتحم (العمل) لا يحرر نفسه وحسب من أردان المنفى، وإنما يحرروا الأرض ايضاً من العرب الذي يمتلكونها ويعملون فيها.

وقد قام الحاخام الصهيوني ابراهام كوك _1865 ـ 1935)، العارف بأسرار القبّالاه وكبير الحاخامات الإشكناز في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، بالدفاع عن فكرة اقتحام العمل، مستخدماً مصطلحاً حلولياً عضوياً، إذ يقول: (لقد أدرنا ظهورنا للاهتمام بحياتنا الجسدية ولتطوير أحاسيسنا كما أهملنا كل ما له علاقة ملموسة بحقيقة الجسد لأننا اصبحنا فريسة لمخاوفنا، لقد كان ينقصنا الإيمان بقدسية الأرض). ونحن نرى أن ثمة تشابهاً بنيوياً بين مفهوم اقتحام العمل وبين المفهوم الحسيدي للخلاص بالجسد الذي يؤكد أن روح الإنسان تستطيع، من خلال الانتشاء الجسدي والغوص في الأشياء المادية، أن تتسامى لتصل الى درجة عالية من الطهارة والشفافية والسمو الروحي. والحديث عن اقتحام العمل وطهارة العمل العبري لم يكن أمراً مجازياً بل كان حرفياً الى أقصى درجة، فلقد قام بعض العمال العرب الذين استأجرهم

المستوطنون الصهاينة بغرس أشجار غابة هرتزل، فقام العمال اليهود باجتثاثها ثم أعادوا غرسها في اليوم التالي من خلال العمل العبري الطاهر.

والحديث عن اقتحام العمل والعمل اليدوي بهذا الشكل الرومانتيكي يدل على الجذور الطبقية البورجوازية الصغيرة للصهيونية العمالية التي جاءت جماهيرها من بين قطاعات اجتماعية فشلت في التأقلم مع أوضاعها الطبقية والاقتصادية الجديدة في شرق أوربا، ولم تتمكن من اللحاق بمن هاجر الى الولايات المتحدة أو غرب اوربا، فكان عليها ان تبحث عن بنيان اقتصادي جديد يمكنها ان تتكيف معه، فوجدت ضالتها المنشودة في العودة الى عالم زراعي مقدس ف يأرض الاجداد المقدسة!

ولكن الدافع وراء اقتحام العمل لم يكن نفسياً/ طبقياً فحسب، بل كانت هناك ضرورات عملية يحتمها واقع الاستعمار الاستيطاني الاحلالي في فلسطين، فالأرض التي هاجر اليها اليهود لم تكن خالية من السكان، ولذا كان يتحتم اجلاؤهم وشغل اعمالهم. وقد أدرك المستوطنون منذ البداية أهمية العمل العبري كأساس للاستيطان الاحلالي، فاستئجار العمال العرب كان يعني ان المستوطن الصهيوني سيظل معتمداً على العرب غير مستقل عنهم، كما انه في نهاية الامر سيجعل تحقيق أغلبية يهودية أمراً مستحيلاً. ولذا، لم يكن هناك مفر من احلال العامل اليهودي محل العامل العربي، وكان خلق وظائف جديدة للمهاجرين الجدد امراً حتمياً، وهو أمر كان من العسير تحقيقه دون اللجوء الى اقتحام العمل.

وقد قاوم بعض المستوطنين هذا المفهوم الصهيوني العمالي لتناقضه مع مصالحهم الاقتصادية، فالرأسمالي اليهودي كان يفضل العامل العربي الكفء قليل التكلفة على العامل العبري غير الكفء مرتفع التكلفة. وقد قام الصهاينة العماليون بتنظيم اضرابات عديدة ضد الرأسماليين اليهود الذين لا يحافظون على نقاء او طهارة المستوطن، الا ان الصهاينة العماليين كانوا مع هذا يؤكدون ان غزو الارض لم يكن يتم لحساب الطبقة العاملة اليهودية وحدها وانما لحساب الشعب اليهودي ككل وان التناقض بينهم وبين الرأسماليين لم يكن ينصب الا على نقطة جزئية خاصة باصرار الفريق الآخر على استئجار العمل العربي.

وكمحاولة لحل هذا التناقض، لجأ المستوطنون الى (استيراد) بعض اليهود الشرقيين من اليمن، فالعامل اليمني كان عاملاً عبرياً (مقدّساً) يرضي المطامع الاحلالية لدى الصهاينة العماليين، ولكنه كان في الوقت ذاته عاملاً عربياً رخيصا يرضي شراهة الصهاينة الرأسماليين. ولكن المشكلة

زادت تفاقماً لان العمال اليمنيين لم يكونوا سعداء بأحوالهم، الامر الذي اضطر المستوطنين الى وقف استيراد اليهود من اليمن.

ولم يحقق شعار اقتحام العمل أي نجاح، فحتى عام 1914 لم يزد عدد العمال اليهود عن 12% من القوة العاملة في فلسطين. ولذلك، اقترح جوزيف واتكين انشاء مزارع الكيبوتس كوسيلة لجعل العامل الزراعي مالكاً زراعياً ايضاً، ذلك ان واتكين كان يعلم ان الجذور البورجوازية للعمال اليهود كانت تجعل تحولهم الى مجرد عمال امراً عسيراً عليهم، كما ان غياب الرباط العاطفي بينهم وبين الارض كان سبباً لهجرة كثير منهم الى الولايات المتحدة. وقد نجحت مزارع الكيبوتس في تحقيق أحلام البورجوازية اليهودية الصغيرة المهاجرة في ان تصبح مالكة، كما انها ثبتتها في الأرض وربطتها بها، أي ان مزارع الكيبوتس اصبحت الوسيلة المزدوجة لاقتحام الارض والعمل معاً، وقد اصبح شعار اقتحام العمل من مبادئ هذه المزارع.

ج ـ اقتحام الحراسة

اذاً اضفنا الى كل هذا شعار اقتحام الحراسة المرتبطة ايضاً بمزارع الكيبوتس، وهو شعار يطلب من اليهود ان يقوموا بحراسة انفسهم بدلاً من استئجار عرب او شراكسة، اكتشفنا ان الكيبوتس هو التجسيد العملي للاستيطان الصهيوني الاحلالي بكل رومانتيكيته وشراسته الزراعية والعسكرية. وقد اعتنقت فرق العمال مبدأ العمل والدفاع (عفواه وهاجاناه) او جمعت بين شعاري اقتحام العمل بحرمان العمال العرب من حق العمل واقتحام الارض بالاستيلاء على أراضي فلسطين تحت ستار العمل. وقد تكونت قوات الهاجاناه والبالماخ في معظمها من سكان مزارع الكيبوتس والموشاف من العمال غزاة الارض والعمل، ولذا فنحن نتحدث عن (الزراعة المسلحة).

د ـ اقتحام الانتاج

وحتى يكتمل انعزال المستوطنين، ظهر شعار (اشتروا الانتاج) واتخذ ذلك طابعاً منظماً لمقاطعة المنتجات العربية ومنع التعامل مع العرب وشراء المنتجات اليهودية وحدها والتعامل مع اليهود وحدهم. وقد قام الهستدروت بفرض العمل العبري والاستهلاك العبري ان صح التعبير. وبذا، تكون الدائرة قد اكتملت: من غزو مسلح للأرض، لغزوا مسلح للعمل، لانغلاق اقتصادي حضاري كامل لا يزال يسم اسرائيل بكل مؤسساتها الاقتصادية والعسكرية، وفي هذا تكمن صهيونية الدولة الصهيونية.

ماسادا: اسطورة العنف القومي

بينا في الجزء السابق من هذا الفصل رفض الصهاينة ما يسمي (الشخصية اليهودية) بسبب سلبيتها، وطلبهم تحديثها لتصبح شخصية عنيفة. وفي هذا الاطار قاموا ببعث اساطير (وثنية) ترجح كفة العنف، وهي كلها اساطير شمشونية ((عليّ وعلي أعدائي)) وتنتهي بالانتحار والهلاك. وأهم هذه الاساطير اسطورة ماسادا.

و(ماسادا) كلمة آرامية تعني (القلعة)، وهي آخر قلة يهودية سقطت في ايدي الرومان اثناء التمرد اليهودي الاول ضد الامبراطورية الرومانية. وتقع ماسادا على مرتفع صخري بارز شرقي الصحراء الفلسطينية بالقرب منا لبحر الميت، والتي تعرف بمصعدة وسبة. وهي ترتفع عن سطح البحر المتوسط بنحو تسعة واربعين متراً، وعن سطح البحر الميت بأربعمائة واربعة وثلاثين متراً. وقد بناها احد ملوك الحشمونيين، ثم بنى هيرود فيها قصراً وزاد تحصينها وادخل بها نظاماً متقدماً نسبياً للري وتخزين المياه خوفاً من خطر كليوباترا ملكة مصر، وجعلها ملاذاً يحتمي به عند الحاجة من الجماهير اليهودية المسحوقة الساخطة. وقد احتل الرومان القلعة. ولكن مجموعة من اليهود الغيورين، بقيادة مناحيم الجيلي ابن او ربما حفيد يهودا الجليلي احد قادة التمرد، استلوا على ماسادا عام 66م وذبحوا كل اعضاء الحامية الرومانية بعد ان وعدوهم بالامان ان استسلموا، وهذا ما يفسر خشية اليهود من الاستسلام فيما بعد. وقد اغتيل مناحم على يد المتمردين في القدس بسبب ادعاءاته الملكية المشيحانية واستبداده. لكن بقية أتباع مناحم فروا الى ماسادا تحت قيادة إليعازر بن يائير وهو احد زعماء عصبة الخناجر ومن نسل يهودا الجليلي ولعله ابن عم مناحم. وقد اختبأ هؤلاء في القلعة حتى نهاية الحرب ولم يقدموا أية مساعدة لليهود المحاصرين في القدس، واقتصر نشاطهم الاساسي على الهجوم على القرى اليهودية في المنطقة المحيطة بماسادا وابتزاز أهلها. وقد انضم اليهم شمعون برجيورا احد زعماء التمرد، هو وأتباعه الذين اشترك معهم بعد ذلك في الاغارة على القرى اليهودية، ولكنه ترك ماسادا بعد ذلك واستسلم للرومان وأعدم في روما.

وقد ترك الرومان قلة ماسادا الى ان فرغوا من اخماد التمرد اليودي نظراً لعدم أهميتها قياساً الى مواقع أخرى. ثم قامت قوة رومانية بقيادة فلافيوس سيلفا بحصارها من كل الجهات لمدة ثلاثة وسبعون اسبوعاً وشقت طريقاً ارتفاعه 200 ذراع، وأحدثت ثغرة في جدرانها (يسخر بعض المؤرخين من كل هذه التفاصيل ويؤكدون ان الحصار لم يدم أكثر من ثمانية اسابيع وان الطريق المشار اليه ليس الا امتداداً طبيعياً، ناشئاً

عن عمليات نحر وانحسار مياه البحر الميت وانه جزء من التكوين الصخري للارض). وكل هذا دفع القائد اليهودي اليعازر بن يائير (حسب رواية يوسيفوس فلافيوس، المؤرخ والاديب (اليهودي) المتوفي في أواخر القرن الاول الميلادي) الى اقناع رفاقه بممارسة انتحار جماعي بدلاً من الوقوع اسرى في ايدي الرومان. جاء ذلك في خطبة نسب فيها الى اليعازر ان الانتحار هو ما تأمر به الشريعة. وحسب رواية يوسيفوس، نجح اليعازر في اقناع المحاصرين برأيه، وقد ادى هذا الى انتحار تسعمائة وستين من الرجال والنساء والاطفال، وذلك الى جانب انهم اضرموا النيران في منازلهم ومخازن مؤنهم عام 73م. ويدعي يوسيفوس ان امرأتين وخمسة اطفال اختبأوا في احد الكهوف اثناء تنفيذ العملية، وهم الذين قصوا ما حدث (هذا تقليد ادبي يتواتر في كثير من الاعمال الادبية الخيالية). وقد تحولت قلعة ماسادا بعد ذلك الى موقع عسكري روماني ثم الى قلعة صليبية.

وتحرم الديانة اليهودية الانتحار (تثنية 30/19)، شأنها في هذا شأن الديانات السماوية الاخرى. ولذا، قال الحاخامات عن الانتحار انه ضرب من (الميثاق مع الموت).

وقد أثارت قصة ماسادا هذه شكوكاً كثيرة، حتى عند بعض علماء الآثار اليهود الذين يؤكدون انها قصة خرافية واسطورة ملفقة، اذ لا يمكن البرهنة تاريخياً على سلامة الاكتشافات الاثرية التي تستند اليها هذه القصة. والمصدر الوحيد للقصة هو يوسيفوس فلافيوس، وهو كاتب لا يعتد به كمؤرخ. كما أنه، حينما كان قائداً لحامية الجليل التي استسلمت للرومان، ارغمه جنوده على الفرار والاختباء في كهف بعد ان قرروا جميعاً الانتحار. وقد اضطر هو الى مجاراتهم بل اشرف على القرعة التي اجريت وعلى عملية الانتحار نفسها الى ان جاء دوره، فاقنع الجندي المتبقي بعد جدوى الانتحار وخرجا سالمين. وبعد ذلك، انضم هو الى الرومان واصبح داعية لهم بين اليهود. ولعل القصة التي نسجها يوسيفوس فلافيوس عن ماسادا هي نوع من انواع التعويض يقوم بها كاتب ادبي لم يستطع ان يصبح بطلاً في الواقع، فقام بعملية تعويض عن طريق اسقاط القيم البطولية التي يحلم بها على من حوله وهو ما سميناه (عقدة فلافيوس).

ولكن، حتى بافتراض ان واقعة ماسادا واقعة تاريخية حقيقية، فان كتب التاريخ الصهيونية قد اسقطت كثيراً من العناصر التاريخية لتفرض على ماسادا معنى صهيونياً بحيث تصبح ماسادا رمزاً لوحدة الشعب اليهودي ولرفضه التام للاستسلام للاغيار. فمثلاً لا تذكر المصادر الصهيونية شيئاً

عن الحرب الطبقية التي دارت رحاها بن فقراء اليهود وأثريائهم، او انه، قبل حادثة ماسادا، تم ذبح ما لا يقل عن اثنى عشر الف يهودي على يد اخوانهم من اليهود الفقراء. كما لا تذكر المصادر الصهيونية شيئاً عن القلاع اليهودية الاخرى، مثل هيروديوم وماكايروس، التي آثرت الاستسلام والبقاء على الانتحار والموت لعلمها ان الرومان لن يبيدوا من فيها لانهم لم يرتكبوا جريمة الابادة ضد الحاميات الرومانية التي استسلمت لهم، هذا على عكس ما كان عليه سكان ماسادا الذين كانوا يعرفون ان مصيرهم هو الموت بسبب ابادتهم الحامية الرومانية التي استسلمت لهم. وكانت قلعة ماكايروس اقوى وهم حصن بعد القدس. واذا كان لابد من اختيار رمز ما، فان هذه القلعة اصلح لذلك من ماسادا. ولا تذكر المراجع الصهيونية ايضاً قادة التمرد الذين استسلموا وسيقوا الى روما حيث أعدموا. وكل هذا يدعونا الى رؤية حادثة ماسادا باعتبار انها الاستثناء وليس القاعدة، وانها ليست ممثلة لما يسمى (التاريخ اليهودي) أو (العبقرية اليهودية)، وان الوحدة القومية التي تتحدث عنها الصهيونية هي وحدة اسطورية وهمية. ومما يجدر ذكره ان يهود العالم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ماسادا حتى القرن التاسع عشر.

ولكن، ورغم هذا، فان الحركة الصهيونية والدولة الصهيونية من بعدها قد احاطت قصة ماسادا بهالات صوفية، وحولتها الى اسطورة قومية محورية. ونظمت اسرائيل حملات دعائية ضخمة حول عملية الكشف عن القلعة قادها رئيس اركان الجيش الاسرائيلي الجنرال يادين، وشارك فيها الجيش بامكانيات واسعة في الفترة من سنة 1963 حتى 1965. وتقوم اجهزة الاعلام الاسرائيلي بمحاصرة العقلية الاسرائيلية واليهودية باسطورة ماسادا، ففي كل عام تقيم بعض اسلحة الجيش الاسرائيلي احتفالات ترديد يمين الولاء على قمة القلعة ويقسمون في نهايته بان ماسادا لن تسقط ثانية. وتنظم رحلات لافواج من السياح اليهود وطلبة المدارس الاسرائيلية للحج الى القلعة، كما تحرص اسرائيل على ان تدرج زيارة هذه القلعة ضمن برنامج كل زعيم سياسي اجنبي يذهب الى اسرائيل، بل أعادت الدولة الصهيونية عام 1969 دفن المنتحرين.

وتمكن الاشارة الى ان الهدف السياسي من كل هذه الضجة حول ماسادا، والآثار اليهودية الاسرائيلية بصفة عامة، هو محاولة صهينة الشباب من جيل الصابرا او غيره ومحاولة ربطهم بالتاريخ اليهودي القديم. لكن الواقع ان قطاعات واسعة من الشباب الاسرائيلي لا تعير هذا التاريخ اهتماماً كبيراً. كما ان التركيز الزائد على الآثار هو محاولة للبرهنة على وجود جذور تاريخية لدولة اسرائيل الحالية تمتد في اغوار

الماضي اليهودي في فلسطين للتأكيد على صحة سياسة الحركة الصهيونية في مواجهة اضطهاد اليهود من جانب والاستفادة من تضحياتها المستمرة في مواجهة هذا الاضطهاد من جانب آخر. والحركة الصهيونية، في اشاعتها لهذه الاساطير الانتحارية عن الذات اليهودية، تحاول ان تؤثر في الرأي العام العالمي والعربي وان تكسب كثيراً من المعارك النفسية والفعلية دون خوض أية حرب.

ولكن من المعروف ان القوات الاسرائيلية التي حوصرت في خط بارليف عام 1973، استسلمت بطريقة عملية ورشيدة للغاية على مسمع ومرأى الصليب الاحمر الدولي والتلفزيون المصري. وفي احد هذه المواقع، سأل الجنود قيادتهم بتهكم ان كان المطلوب هو القتال حتى الموت لاقامة ماسادا ثانية، فاتاهم الرد بالاستسلام على ان يبتسموا امام عدسات التلفزيون المصري. اما الجنود الاسرائيليون الذين انتحروا اثناء عملية لبنان، فيبدو انهم قاموا بفعلتهم هذه يأساً من الحرب وثمنها الفادح، اذ لم يكونوا داخل موقع محاصر، وبالتالي فان انتحارهم لم يكن من اجل الدولة والمثل الصهيونية وانما احتجاجاً عليها.

ومع اندلاع الانتفاضة، لا يتحدث الصهاينة عن النهاية في الاطار الانتحاري للماسادا. فيهوشفاط حركبي، وآرييل شارون، وكلاهما تحدث عن نهاية الكيان الصهيوني، لم يشيروا الى ماسادا وانما الى الطائرة المروحية التي ستأخذ بقية المستوطنين من على سطح السفارة الامريكية، تماماً كما حدث في فيتنام. وقد تزايد بشكل ملحوظ عدد الجنود الاسرائيليين الذين ينتحرون في مواجهة الضغوط النفسية وما تشكله محاولة اخماد الانتفاضة من ارهاق. وقد شكلت اكثر من لجنة تحقيق لدراسة هذا الموضوع. وامتدت الظاهرة لتشمل المهاجرين الفلاشاه والسوفييت، اذ لوحظ مؤخراً تزايد معدل الانتحار بينهم بسبب الاحباط الذي يعانونه في الدولة الصهيونية، وفشلهم في تحقيق أحلامهم وآمالهم.

الفصل الثالث

الرؤية الصهيونية للذات

يمكن القول ان الصهيونية تنطلق من توليفة من الافكار العلمانية الشاملة (التي شاعت في الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر، عصر

الامبريالية والعنصرية) من اهمها النظرية النفعية المادية والنظرية العرقية والإثنية التي تذهب الى ان الاختلافات بين البشر ان هي الا اختلافات مادية، كامنة في خصائصهم العرقية والتشريحية والثقافية والاثنية (الطعام ـ التنظيم الاجتماعي)، وان البشر مادة بشرية يمكن ان توظف فتكون نافعة كما يمكن الا يكون لها نفع. ومن هنا تبرز اهمية الاختلافات العرقية (لون الجلد ـ حجم الرأس... الخ) كمعيار للتفرقة بين البشر. والخصائص الحضارية، ورقي شعب ما وتخلفه هو ـ حسب هذه الرؤية ـ نتيجة صفاته العرقية والتشريحية، ومن ثم فتقدم او تخلف شعب مسألة عرقية أو إثنية متوارثة.

الصهيونية وحجم الرأس!

تنبع الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة من التشكيل العلماني الامبريالي العرقي فهي تفترض ان اليهود شعب عضوي يحوي داخله خصائصه العرقية والاثنية. ولكن هذا الشعب غير نافع ولذا لابد من نقله الى ارض خارج اوربا لتوظيفه لصالحها ليتحول الى عنصر نافع. وقد استخدمت الصهيونية النظريات العرقية الغربية لتبرير نقل الشعب العضوي اليهودي المنبوذ من أوربا ولتبرير إبادة السكان الاصليين ليحل اعضاء هذا الشعب محلهم.

وقد عبرت النظرية العرقية الغربية عن نفسها على مستويين:

أ) داخل اوربا: طبق منظرو العرقية النظريات نفسها على شعوب اوربا وأقلياتها، فاتجه الالمان الى وضع الآريين، وخصوصاً التيوتون، على رأس الهرم، كما نجد الانجليز يضعون العنصر الإنجلوساكسوني (الانجليزي الامريكي) عند هذه القمة. وقد كان هناك ايضاً من السلاف من فعل ذلك. وعلى أية حال، فان الشعوب البيضاء (الشقراء) في الشمال تجيء على القمة، اما الشعوب الداكنة في الجنوب (الايطاليون واليونانيون) فكانت توضع في منتصف الهرم، وفي قاعدة الهرم كان يوضع الغجر واليهود. وقد ظهرت ادبيات عرقية معادية لليهود تحاول اثبات عدم انتمائهم لاوربا وانفصالهم عنها حضارياً او عرقياً كما تحاول اثبات تدنيهم.

ب) خارج اوربا: الشعوب الملونة خارج اوربا هي شعوب متخلفة حضارياً وعرقياً، على حين إن الرجل الابيض متقدم متحضر، الامر الذي يضع على الانسان الابيض عبئاً ثقيلاً ويفرض عليه ان يغزو بقية العالم ويهزم شعوبها ويبيد اعداداً منهم حتى يتم ادخال الحضارة عليهم.

وقد تبنت الصهيونية كلا جانبي النظرية العرقية الغربية من الصفحة الحالية، فاستخدمت النظرية العرقية في مجالها الاوربي لتفسير ظاهرة

نبذ الشعب العضوي اليهودي وضرورة نقله، واستخدمت النظرية العرقية في مجالها العالمي لتبرير عملية طرد العرب من بلادهم.

وقد ترجمت العنصرية الصهيونية نفسها الى شعار (ارض بلا شعب لشعب بلا ارض)، ولفهم هذا الشعار قد يكون من الافضل قلبه. فنقول: (شعب (يهودي منبوذ طفيلي لا نفع له في أوربا لا ينتمي لها ولا وطن له فهو) بلا أرض، (ولذا يجب نقله) ترانسفيره transfer الى ارض (لا تاريخ فيها ولا تراث ولا بشر فهي) بلا شعب (وان وجد الشعب يمكن ابادته او طرده من وطنه)). فكأن الصهيونية تعني عمليتي نقل او ترانسفير: لليهود من أوطانهم أو المنفى الى فلسطين، وللفلسطينيين العرب من وطنهم فلسطين الى المنفى. ولذا، فالعنصرية الصهيونية ليست موجهة ضد العرب وحسب وانما ضد اعضاء الجماعات اليهودية ايضاً.

وغني عن القول ان وضع مثل هذه الرؤية موضع التطبيق يتطلب الحد الاقصى من العنف، ضد كل من اعضاء الجماعات اليهودية (اينما كانوا) وضد الفلسطينيين العرب، سكان الأرض الاصليين.

الديباجات الصهيونية العنصرية ونظرية الحقوق اليهودية المطلقة

تستند الديباجات، أية ديباجات، (انظر الملحق) الى رؤية للذات (الفاعلة) ورؤية الآخر (المفعول به). وفي حالة الديباجات الاستعمارية، نجد أنها في جوهرها نظرية للحقوق يحاول الكيان الغازي ان يبرر عن طريقها عدوانيته وأن يضفي شيئاً من المعنى على فعلته.

وتنطلق الديباجات الصهيونية من الافتراض المحوري في الفكر القومي العضوي والعنصري الغربي الذي يذهب الى ان اعضاء الحضارة (الغربية) الغازية اكثر تفوقاً من الناحيتين الحضارية والعرقية من اعضاء الحضارات (الشرقية) المغزوة، وان تخلف هذه الحضارات الشرقية امر وراثي حتمي، ومن ثم تكون الغزوة الامبريالية مسألة منطقية وحتمية، بل ويحتمها منطق التقدم!

وقد تم الغزو الصهيوني لفلسطين مثلما تم أي استعمار استيطاني احلالي آخر، أي عن طريق العنف واغتصاب الارض من اصحابها. لكن المادة البشرية الغازية في حالة فلسطين كانت متنوعة غير متجانسة وكان لها انتماءات حضارية ودينية وثقافية وسياسية مختلفة، كما ان الصهيونية كان عليها ان تبيع صورتها للاستعمار الغربي وللدول الاشتراكية وليهود العالم، ومن ثم تنوعت الديباجات والتبريرات التي يستند إليها الغزو الصهيوني بشكل يفوق الاعتذاريات الاستعمارية المألوفة، لكن هناك عناصر كثيرة

مشتركة:

1 ـ عبء اليهودي الابيض:

من أهم الديباجات الصهيونية، تلك الديباجات الاستعمارية العامة، أي التي لا تصدر عن منطق او تسويغ صهيوني او يهودي خاص، وانما تصدر عن منطق استعماري عام. ومن المعروف ان الجيوب الاستيطانية البيضاء قامت بتقديم اعتذاريات مفصلة لتسويغ وجودها الشاذ في كل من آسيا وأفريقيا. وفي بعض الاحيان، نجد ان الاعتذاريات الصهيونية من النوع التقليدي المألوف الذي يدافع عن نقاء الرجل الابيض وتفوقه. فالانسان الابيض في هذه المنظومة هو مثل اللوجوس المتجسد او موضع الحلول ومركز الاطلاق والركيزة النهائية للكون والتاريخ والذي يدو حوله ويكتسب معنى من وجوده في مركزه. ولهذا، فإن حقوق هذا الانسان مطلقة وتجب حقوق الآخرين.

وقد وصف اللورد آرثر بلفور (1848 ـ 1990) عملية الاستعمار الاستيطاني بأنها تعبير عن حقوق وامتيازات الاجناس الاوربية، واعتبر عدم المساواة بين الاجناس حقيقة تاريخية واضحة. اما ريتشارد كروسمان، فكان يرى ان الاستعمار الاستيطاني الاوربي يصدر عن الإيمان بان الرجل الابيض سيقوم بجلب الحضارة الى السكان الأقل تحضراً في آسيا وأفريقيا، وذلك عن طريق احتلال القارتين فعلياً، حتى لو ادى ذلك الى ابادة السكان الاصليين (ولا شك في انها طريقة غريبة ومدهشة ان تدخل الحضارة الى شعب عن طريق ابادته). اما ماكس نوردو، فقد اقترح (حتى قبيل تبنيه الرؤية الصهيونية وتمشيا مع نظرته العنصرية الاستعمارية) توطين العمال الأوربيين العاطلين ليحلوا محل الاجناس الدنيا التي لا تستطيع البقاء خلال معركة التطور.

اما الزعيم والمفكر النازي ألفريد رونزبرج (1893 ـ 1946) الذي تم اعدامه باعتباره مجرم حرب بعد الحرب العالمية الثانية، فقد قدم حجة مماثلة لاثبات براءته خلال محاكمته في نورمبرج، مؤكداً للقضاة العلاقة العضوية بين العنصرية والاستعمار، اذ اشار الى انه عثر على لفظ (سوبرمان) لاول مرة في كتاب عن حياة اللورد كتشنر، الرجل الذي قهر العالم. وبين روزنبرج ايضاً انه صادف عبارة (العنصر السيد) او (العنصر المتفوق) في مؤلفات عالم الاجناس الامريكي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج، ثم اشار اخيراً الى ان هذا الضرب من التفكير لانثروبولوجي ليس سوى اكتشاف بيولوجي جاء في ختام أبحاث دامت 400 عام وان النظرية العنصرية، ونظريات التفوق العرقي، جزء من فكر

الحضارة الغربية العلمانية الحديثة. والمشروع الصهيوني جزء من المشروع الاستعماري الغربي، والصيغة الصهيونية الاساسية صيغة غربية غير يهودية. وليس غريباً ان تجد الصهاينة يؤكدون انتماءهم الى الجنس الابيض، صاحب الرؤية المعرفية العلمانية الامبريالية والمشروع الاستعماري المنتصر، حتى يتمكنوا من المشاركة في المزايا والحقوق التي منحها الرجل الابيض لنفسه، وحتى يساهموا في حمل عبئه الحضاري الثقيل. فنجد ان عالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين يؤيد في دراسته يهود اليوم النظرية التي تؤكد الشبه الجسماني بين الجنس اليهودي وأجناس آسيا الصغرى ولا سيما الأرمن، إذ انه يفضل (على حد قوله) ان يرى اليهود اعضاء في الجنس الابيض، ويرحب بأية محاولات نظرية ترمي الى توجيه الضربات للنظرية السامية التي تنسب اليهود للعرق السامي او الحضارة السامية. ويرى ان الاختلاف العنصري بين اليهود والاوروبيين ليس كبيراً الى درجة تؤدي الى التشاؤم من ثمار الزواج المختلط بين اعضاء الجنسين.

وثمة اتجاه في التفكير الصهيوني يقصر لفظ (يهودي) على اليهود البيض وحدهم، أي الاشكناز. وقد افصح روبين عن هذه الفكرة بصراحة بالغة في كتابه آنف الذكر، حيث يناقش أثر الحركة الصهيونية في وعي كثير من اليهود الغربيين، وكيف ان محاولات الاستيطان الصهيوني كانت تستهدف اساساً تجنيد اليهود الاوربيين، لا اليهود الشرقيين، رغم أن تجنيد وتوطين اليهود الشرقيين (من اليمن والمغرب وحلب (سوريا) والقوقاز) في المستعمرات الزراعية كان أكثر سهولة ويسراً.

وقد ذكر روبين قارئه بأن الاشكناز، بسبب طبيعة حياتهم في أوربا، وبسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له، اجتازوا عملية طويلة من الاختيار وصراعاً مريراً من اجل البقاء، وهو صراع لا يستطيع البقاء فيه سوى الاكثر ذكاء والاكثر قوة. ولذلك تمت المحافظة على المواهب العنصرية الطبيعية العظيمة التي يتمتع بها اليهود، بل جرت تقويتها. وقد ساهمت عوامل أخرى أيضاً في تصفية غير الموهوبين، وفي الابقاء على الاكثر موهبة، الامر الذي شكل ضماناً أكيداً للتقدم الفكري للاشكناز وتفوقهم في النشاط والذكاء وفي المقدرة العلمية على السفارد وعلى اليهود العرب.

لكل ما تقدم، يرى روبين ان الحقوق التي يدعيها الرجل الابيض لنفسه لا تنطبق على السفارد، وانما تنطبق على الاشكناز وحدهم (فهم وحدهم القادرون على حمل عبء الرجل الابيض، وعلى اغتصاب اسيا وأفريقيا).

وهذه الرؤية للمستعمر الصهيوني، بوصفه رجلاً أبيض، موضوع أساسي كامن في الاعتذاريات الصهيونية. فتيودور هرتزل كان يؤمن تمام الايمان بتفوق الرجل الابيض، وكان يدرك تمام الادراك ضرورة التنسيق بين الخطة الصهيونية الاستعمارية والمشروعات الاستعمارية المماثلة حتى لا تتعارض الحقوق المختلفة للبيض. ولذلك، فقد قرر الزعيم الصهيوني، قبل ان يجتمع بتشامبرلين، ان من الضروري قبل مناقشة الخطة الصهيونية، ان يبين لوزير المستعمرات البريطاني ان هناك بقعة ما في الممتلكات الانجليزية ليس فيها حتى الآن أناس بيض. وقد بين الروائي الانجليزي والمفكر الصهيوني اسرائيل زانجويل في خطابه امام المؤتمر الصهيوني السادس (1903) ان الاستيطان الصهيوني في شرق افريقيا سيكون وسيلة لمضاعفة عدد السكان البيض التابعين لبريطانيا هناك. ولكن يبدو ان المستوطنين البيض هناك لم يقبلوا تعريف اليهودي بانه رجل ابيض فعارضوا الاستيطان.

وقد حاول الصهاينة تسويغ الاستعمار الصهيوني بالرجوع الى فكرة التفوق الحضاري الغربي. وانطلاقاً من هذا التصور، تحدث هرتزل عن الامبريالية بوصفها نشاطاً نبيلاً، يهدف الى جلب الحضارة للأجناس الاخرى التي تعيش في ظلام البدائية والجهل. وقد كان هرتزل ينظر الى مشروعه الصهيوني من خلال ذلك المنظور الغربي حين كتب رسالة الى دوق بادن يؤكد له فيها ان اليهود، عندما يعودون الى وطنهم التاريخي، سيفعلون ذلك بصفتهم ممثلين للحضارة الغربية، وانهم سيجلبون معهم النظافة والنظام والعادات الغربية الراسخة الى هذا الركن الموبوء البالي من الشرق، وان الصهاينة سيقومون (بصفتهم من المؤيدين المتحمسين للتقدم الغربي) بمد السكك الحديدية في آسيا التي تعد الطريق البري للشعوب المتحضرة.

والديباجات التي تنطلق من مقولة عبء الرجل الأبيض موجهة بالدرجة الأولى للدول الامبريالية ولشعوبها. وفي هذا الاطار طرحت اسرائيل نفسها باعتبارها دولة وظيفية غربية (بيضاء) نظيفة متقدمة، قاعدة للديمقراطية الغربية تحمي المصالح الاستراتيجية الغربية وتقف بحزم وصرامة ضد القومية العربية (في عصر النظام العالمي القديم) وضد الحركات الاسلامية (في عصر النظام العالمي الجديد).

ويؤكد الكثير من تصريحات الصهاينة أنهم لا يعتبرون أنفسهم كياناً عنصرياً منفصلاً فحسب، بل يعتبرون أنفسهم اعضاء في الجنس الأبيض. وفي عام 1917، كتب الزعيم الصهيوني ديفيد بن جوريون مقالاً تحت عنوان (في يهودا والجليل) وصف فيه المستوطنين الصهاينة في فلسطين لا

بوصفهم عاملين في هذه الأرض فحسب، بل على أنهم غزاة لها، (لقد كنا جماعة من الفاتحين). وفي مقال آخر بعنوان: (الحصول على وطن قومي) كتبه عام 1915، قارن بن جوريون بين الاستيطان الصهيوني والاستيطان الاميركي في العالم الجديد، مستحضراً صورة المعارك العنيفة التي خاضها المستوطنون الاميركيون ضد الطبيعة الوحشية، وضد الهنود الحمر الأكثر وحشية. ومما له مغزاه أنه ساوى بين الطبيعة وبين الهنود، بل وضعهم في مرتبطة أدنى إذ هم أكثر وحشية منها. والواقع أن هذه الواحدية الكونية تؤدي الى تجريد الإنسان وتحويله الى مجرد جزء من دورات الطبيعة، الأمر الذي يجعل ابادته او نقله امراً مقبولاً بل مرغوباً فيه، أما وايزمان فقد فصّل في كتابه (المحاولة والخطأ) أن يقارن بين المستوطنين الصهاينة من جهة والمستوطنين الفرنسيين في تونس والمستوطنين البريطانيين في كندا وأستراليا من جهة اخرى، كما أظهر ايضاً تعاطفاً ملحوظاً ازاء المستوطنين في جنوب افريقيا.

ويتبدّى الاتجاه العنصري، الذي يسوغ الاستعمار والعنف والابادة باسم التقدم، في مذكرة بعث بها حاييم وايزمان (1874 ـ 1952)، أول رئيس لدولة اسرائيل، الى الرئيس ترومان (في 27 نوفمبر 1947) يشرح له فيها أن المجتمع الصهيوني في فلسطين يضم اساساً فلاحين متعلمين وطبقة صناعية ماهرة تعيش على مستوى عال، ثم يقارن بين هذه الصورة المشرقة والصورة الكئيبة للمجتمعات الأمية الفقيرة في فلسطين.

وإذا نظرنا الى الجانب الآخر لأسطورة عبء اليهودي الأبيض، وهو التفوق التكنولوجي للصهاينة (وليس العرقي)، الذي سيجعلهم رسلاً للتقدم يقومون بتطوير المجتمع ودفعه من المرحلة الدنيا التقليدية الى المرحلة العليا الحديثة، فإننا نجد أن كتابات الصهاينة تزخر بها. وقد اقتبسنا بعضاً من كتابات بن جوريون (الصهيوني الاشتراكي) وغيره، في دفاعهم عن الاستعمار الصهيوني، باعتبارهم ممثلين للحضارة الغربية. ولا شك في أن المستوطنين الصهاينة كانوا عارفين بالتكنولوجيا وبوسائل التنظيم والقيم السياسية المعاصرة، كما كانوا جماعة معاصرة فعلاً، وقد نقلوا قيمهم ومؤسساتهم المعاصرة الى الوطن الجديد، فنظموا النقابات العمالية والأحزاب السياسية، وأجروا الانتخابات على أساس صوت واحد لكل ناخب. بل إنهم مارسوا أحياناً أشكالاً من الاشتراكية، من حيث عدالة توزيع الدخل او الإيمان بأهمية العمل اليدوي ومساواته بالعمل الفكري. ولكن كل هذه الأشكال المعاصرة من التنظيم، وهذه القيم الديمقراطية والاشتراكية، ظلت مقصورة على الصهاينة وحدهم، تُطبّق على مجتمعهم

الصغير (الميكرو) وليس على المجتمع كله. ولم يحاول الصهاينة تحديث المجتمع بأكمله بل على العكس حاولوا أن يوقفوا تطوره (وهذا الدور يقف على الطرف النقيض من الدول الذي تلعبه النخبة المعاصرة ذات الأصول القومية).

وقد بذل المستوطنون جهدهم في أبقاء السكان الاصليين في مستوى حضاري متخلف، ومنعهم من تنظيم انفسهم داخل أطر معاصرة (نقابات عمال ـ احزاب سياسية)، وفضلوا التعامل معهم داخل أطر المجتمع التقليدي وتنظيماته. ولذا، فقد فضلوا التعامل مع كبار الملاك وزعماء العشائر. وقد رفض الهستدروت (اتحاد العمال المستوطنين الصهاينة) السماح للعمال العرب بالانتظام في صفوفه إلا في تاريخ قريب. كما أن الدولة الصهيونية (العصرية الديمقراطية) ترفض الاعتراف بحق تقرير المصير للسكان الاصليين او حقهم في المشاركة في النظام السياسي الصهيوني الجديد عن طريق تكوين الاحزاب والاشتراك في الانتخابات، وترفض ايضاً تشكيل دولة تضم كلاً من العنصر السكاني الدخيل والعنصر الأصلي على قدم المساواة.

والى جانب هذا، هناك الحقيقة الأساسية، وهي أن جماعة المستوطنين الغزاة تسرق من السكان الأصليين أرضهم، أي تسرق منهم الأساس المادي لأي تقدم، وتهدم نمط حياتهم (الإطار الاجتماعي الذي تتحقق من خلاله ذواتهم التاريخية). ولذا، تتغير الأولويات، ويصبح واجب المواطن الاصلي (الجزائري او الفلسطيني) هو البقاء وليس التقدم. ولعل هذا هو الذي يفسر سر رفض موسى العلمي لكلمات بن جوريون الحلوة العذبة حين تقابلا عام 1936 في منزل موشي شاريت. فطبقاً لما جاء على لسان بن جوريون بدأ الحديث بترديد النغمة (القديمة) التي أعدها عن المستنقعات التي يجري تجفيفها، والصحارى التي تزدهر بالخضرة، والرخاء الذي سيعم الجميع. ولكن العربي قاطعه قائلاً: (اسمع! اسمع يا خواجه بن جوريون، إنني أفضل أن تظل الأرض هنا جرداء مقفرة مائة عام أخرى، او الف عام آخر، الى أن نستطيع نحن استصلاحها ونأتي لها بالخلاص). ولم يسمع بن جوريون إلا أن يعلق (فيما بعد) بأن العربي كان يقول الحقيقة، وأن كلماته هو بدت مضحكة وجوفاء.

2ـ عبء اليهودي الخالص:

رغم شيوع اسطورة اليهودي الأبيض وحقه في استعمار فلسطين، فإن هذه الأسطورة لا تحتل مركز الصداقة وحدها في الخطاب الصهيوني، ذلك أن الديباجات الصهيونية، وبخاصة حينما تتوجه الى يهود العالم، تستند

بصفة جوهرية الى فكرة اليهودي الخالص. واليهودي الخالص غير مرتبط بأي جنس او حضارة، شرقية كانت او غربية (فهو يهودي مائة في المائة، على حد قول بن جوريون)، إذ أن اليهود بحسب هذا التصور يشكلون جنساً مستقلاً او أمة مستقلة، وليسوا مجرد سلالة من سلالات الجنس الأبيض او الحضارة الغربية. واليهودي، وليس الجنس الأبيض، هو نقطة الحلول والركيزة الأساسية للتاريخ والكون، أي أن مفهوم اليهودي الخالص عودة الى الحلولية العضوية اليهودية المنفصلة تمام الانفصال عن الأغيار. وفي الواقع، فإن اليهودي الخالص ظهر في اطار محاورة تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، حين اسقطت الصهيونية الإثنية مصطلحات الصهيونية الحلولية اليهودي عليها.

كما أن فكرة اليهودي الخالص، مثلها مثل فكرة الرجل الأبيض المتفوق، تمنح اليهود حقوقاً معينة مقدسة وخالدة لا تتأثر بأية اعتبارات او مطالب تاريخية، ولا يمكن حتى للفلسطينيين أنفسهم أن يكون لهم حقوق أقوى او حتى مماثلة لحقوق اليهود في فلسطين. ويتضح هذا التصور في كلمات الحاخام ج. ل. هاكوهين فيشمان ميمون، أول وزير للشؤون الدينية في اسرائيل، حيث أكد أن الصلة بين الشعب اليهودي وأرضه مقدسة او هي سر من الأسرار الدينية، وهذا ما يبين أنه يدور في إطار حلولي عضوي. وقد يكون للآخرين، على أحسن الفروض، صلة ما بهذه الأرض (سياسية علمانية خارجية عرضية مؤقتة) في حين أن لليهود، حتى وهم في حالة الشتات، صلة مباشرة بها (صلة سماوية وأبدية، فهي صلة حلولية عضوية).

وفي مجال الدفاع عن هذه الأسطورة، نصح مناحيم بيجين (رئيس وزراء اسرائيل الأسبق) بعض المستوطنين الصهاينة عام 1969 بأن يصروا على أن فلسطين هي أرض اسرائيل (فلو كانت هذه الأرض هي حقاً لفلسطين وليس ارض اسرائيل، إذن فأنتم فاتحون ولستم مزارعين يفلحون الأرض، أنتم إذن غزاة. وإذا كانت هذه الأرض هي فلسطين فهي إذن تنتمي الى الشعب الذي عاش هنا قبل أن تأتوا اليها لن يكون لكم حق العيش فيها إلا إذا كانت ارض اسرائيل).

وإذا اصبحت فلسطين الأرض المقدسة او ارض اسرائيل تصبح حقوق اليهود الخالدة سارية المفعول فيها، فيصبح بالإمكان الادعاء بأن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض لأنها دخلت الدائرة الحلولية التي تستبعد الآخر. لقد كان الصهاينة يدركون أن الفلسطينيين يعيشون في فلسطين، وأن اليهود المشردين يعيشون في الأراضي التي ولدوا فيها. ولكن الرابطة الأبدية بين الأرض والشعب اليهودي هي التي تجعل اليهود مجرد

مشردين وشعباً رحلاً بلا جذور، رغم وجودهم في أوطانهم في كل انحاء العالم. وهذه الرابطة التي تنكر وجود الفلسطينيين وتجعل مطالبهم القومية مسألة هامشية. ولهذا، فإن شعار (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) لابد أن تتم اعادة صياغته على النحو الحلولي التالي: (أرض مقدسة بلا شعب مقدس لشعب مقدس بلا أرض مقدسة). وفي هذه القداسة يذوب الفلسطينيون (شعب غير مقدس لا يتمتع بالحلول الإلهي)، وتصبح مطالبهم امراً هامشياً وتافهاً، وقد تحقق كل ذلك دون اللجوء الى أية نظريات عرقية فاضحة.

إن اسطورة الحقوق الأبدية لليهودي الخالص في أرض فلسطين، التي تفترض هامشية السكان الأصليين، هي شكل من أشكال الاعتذاريات يتسم بدرجة عالية من الغموض واللاأخلاقية تفوق غموض ولا أخلاقية الديباجات العنصرية التقليدية التي تنسب التفوق الحضاري والعرقي للمستغل وتنسب التدني الحضاري العرقي للمستغل؛ فالأساطير التقليدية، في نهاية الأمر، تعترف بوجود الآخر، أما الأسطورة الصهيونية الخاصة بالحقوق اليهودية فهي ترفض الاعتراف بوجوده. وفي اطار الحلولية العضوية، تصبح فلسطين (الأرض المقدسة) بلداً بلا سكان، لأن امتلاك فلسطين ليس من حق السكان الاصليين. وليس بإمكان البشر، يهوداً كانوا أم عرباً ان يتساءلوا عن معنى هذا القرار، لأن محور مشكلة فلسطين، وفقاً لما قاله بن جوريون، يتلخص في حق اليهود المشتتين في العودة (فاليهود هم موضع الحلول الإلهي)، وهو حق مطلق قائم منذ بداية التاريخ حتى نهايته. وكما قال حاييم وايزمان: (إن أساس وجودنا كله هو حقنا في إقامة وطن قومي فوق أرض اسرائيل (فلسطين) وهو حق نملكه منذ آلاف السنين، ومصدره وعد الرب لإبراهيم، وقد حملناه معنا في انحاء العالم كله طوال حياة حافلة بالتقلبات). وقد وصلت نظرية الحقوق هذه الى ذروتها فيما نسميه (الصهيونية الحلولية العضوية)، صهيونية جوش إيمونيم وكاهانا حيث يصبح اليهودي الخالص هو اليهودي المطلق.

والجدير بالذكر أن النطاق الإقليمي المحدود للأسطورة الصهيونية قد جعل كثيراً من الناس، ولا سيما في الغرب، يعتقدون أن الصهيونية ليست عنصرية. وهم على حق في هذا من بعض النواحي، فالنازية على سبيل المثال لم تكن عنصرية إزاء اليابانيين مثلاً. وكذلك الصهيونية في العالم الغربي، فهي ليست سوى ايديولوجيا سياسية وضعها اليهود من أجل اليهود، تخصهم وحدهم ولا تتضمن أي تمييز ضد أي شخص في الولايات المتحدة او انجلترا. بل لقد دافع بعض الغربيين عن الدور الايجابي البنّاء

الذي تلعبه الصهيونية بين الاميركيين اليهود، حيث تزوّدهم بالشعور بالترابط والانتماء. وقد تكون هذه النظرة سليمة في حدود هذه الجزئية. ولكن الصهيونية حين نقلت من اوروبا واميركا الى آسيا (مسرحها الحقيقي)، فإن الأمر اصبح جد مختلف، وافصحت الصهيونية عن وجهها العنصري القبيح وأخذت تمارس اثرها الهدام على المجتمع الفلسطيني. والواقع أن التناقش هنا ليس تناقضاً بين النظرية والممارسة، ولكنه تناقض بين نظرية و(نوعين) من أنواع الممارسة، احدهما عرضي مؤقت (في الغرب) والآخر ضروري وجوهري (في آسيا). وفي تصوري أن الحكم على الصهيونية لا يمكن أن يتم في لندن او باريس، وانما ينبغي أن يتم الحكم عليها في مجال فعاليتها الأساسية، في حيفا ويافا والضفة الغربية ومئات القرى التي هدمت. ولو أننا حكمنا على النازية في طوكيو مثلاً لوجدناها ايضاً مجرد أيديولوجيا قومية تدافع عن حقوق وأمجاد الشعب الألماني.

ومما يدعو للسخرية أن بعض المتحدثين بلسان حكومة التمييز العنصري بجنوب افريقيا، والذين لا يهتمون بالتجربة الصهيونية العرضية في الغرب، قد وضعوا تقييماً واقعياً للتجربة الصهيونية في اسيا. فقد عنّف فيروورد، رئيس وزراء جنوب افريقيا السابق، بعض الصهاينة الذين أرادوا المقارنة بين سياسة النمو المنفصل التي تنتهجها اسرائيل على أساس من الدين (او اليهودية الخالصة) والسياسة المماثلة التي تنتهجها حكومة جنوب افريقيا على أساس عنصري، فقال: (إذا كان التمييز خاطئاً في الحالة الثانية، فهو لاشك خاطئ أيضاً في الحالة الأولى). والواقع أن الديباجات، مهما بلغت من تركيب ودهاء، فإنها لا تغير حقيقة التمييز العنصري في شيء. كما أن الحقوق المقدّسة التي تجب حقوق الآخرين، سواء استندت الى أساس عنصري او الى اساس الهي او إثني، فإنها في نهاية الأمر تعد على حقوق الغير وإلغاء لوجوده.

وتعبر فكرة اليهودي الخالص عن نفسها في فكرة الدولة اليهودية الخالصة الخالية من أية عناصر غير يهودية وفي التركيز المستمر على قضية اضطهاد اليهود في كل زمان ومكان. وقد حاول وايزمان ان يبلور هذه الفكرة من خلال صورة مجازية إذ قارن بين (اليهودي الخالص) والحيوانات التي تحيا حياة سعيدة في حديقة الحيوان (في جنوب افريقيا): (ها هي ذي في موطنها، الذي تقل مساحته قليلاً عن مساحة فلسطين، تنعم بالحرية، وتقدّم لها الطبيعة هباتها بسخاء، ولا تواجهها مشكلة العرب). وحتى لا يترك أي مجال للشك لدى قارئه، يعمم القضية على كل اليهود: (لاشك أنه أمر رائع أن يكون المرء حيواناً في حديقة

الحيوانات بجنوب افريقيا، فذلك أفضل له كثيراً من أن يكون يهودياً في وارسو أو حتى في لندن). والصورة المجازية التي يستخدمها وايزمان تدل على غبائه الشديد، ولكنها مع هذا ذات دلالة، فالحيوان في حديقة الحيوان يشبه اليهودي الخالص في دولته اليهودية، وهذا ما يفتقده اليهودي في فلسطين ووارسو ولندن

كما أن التركيز على قضية البقاء اليهودي المهدد دائماً إما من خلال الإبادة المباشرة (الهولوكوست ـ افران الغاز) او من خلال الاندماج وفقدان الهوية هو تعبير عن مفهوم اليهودي الخالص. وينبع النقد الصهيوني للشخصية اليهودية في المنفى (باعتبارها شخصية جيتوية هامشية طفيلية) من مفهوم اليهودي الخالص هذا.

الديباجات الصهيونية الاشتراكية

إذا كانت الديباجات التي تستند الى فكرة اليهودي الخالص فريدة مقصورة على الصهاينة، فإن الديباجات التي تستند الى فكرة اليهودي الاشتراكي وحقوقه في فلسطين قد تكون أكثر تفرداً وطرافة. ومن المعروف أن كثيراً من الشباب من أعضاء الجماعات اليهودية انضموا الى صفوف الحركات الثورية، وقد سبب هذا حرجاً شديداً لليهود المندمجين. وقد باعت الصهيونية نفسها باعتبار أنها الحركة التي ستحول الشباب اليهودي عن طريق الثورة. والواقع أن اسطورة الاستيطان العمالية برزت لتحقيق ذلك الهدف. تقوم هذا الأسطورة بتسويغ الاستيطان الصهيوني لا باسم التفوق العنصري او التقدم الحضاري الأزلي او الحقوق المقدّسة الأزلية بل على أسس اشتراكية علمية (والاشتراكية في هذه المنظومة هي موضع الحلول، وهي ايضاً اللوجوس المتجسد في التاريخ). ومن ثم، فإن الحقوق اليهودية تستند ـ حسب هذه الاسطورة ـ الى المثل الاشتراكية العليا (ومنها نبل العمل اليهود). ولم يكن هذا المنطق مقصوراً على الصهاينة وحدهم، فثمة اتجاه داخل الحركة الاشتراكية الغربية يطلق عليه اصطلاح (الاشتراكية الامبريالية)، وتضم اولئك الاشتراكيين الذين وجدوا أن من المحتم عليهم (باسم التقدم والأممية) تأييد الامبريالية الغربية لأنها تعبير عن الرأسمالية الغربية (أعلى مراحل التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي بلغه الإنسان). كما أنهم كانوا يرون أن الإمبريالية، بغزوها آسيا وافريقيا، ستقضي على كل المجتمعات التقليدية فيها، كما ستقضي ايضاً على التخلف وتجلب الصناعة والتقدم لها. ومن هذا المنطلق، شجع بعض اتباع سان سيمون وكذلك فردريك انجلز الاستعمار الاستيطاني في الجزائر، كما دافع كثير من الاشتراكيين الهولنديين عن (الهجمة الحضارية) التي شنتها بلادهم على الأندونيسيين.

وقد خرجت اسطورة الصهيونية العمالية من هذه المجموعة من الأفكار، فلم يكن المستوطنون الصهاينة مجرد يهود فحسب بل كانوا ايضاً رواداً زراعيين اشتراكيين وحارثين لأرض اجدادهم. وقد كتب مارتن بوبر لغاندي يقول: (إن مستوطنينا لم يجيئوا الى فلسطين كما يفعل المستعمرون الغربيون الذين يطلبون من اهالي البلاد أن يقوموا عنهم بكل الأعمال، بل إنهم يشدون بأكتافهم المحراث ويبذلون قوتهم ودمهم من أجل ان تصبح الأرض مثمرة). وقد عاد المستوطنون العبريون الجدد الى الأرض مثقلين بماضي يهود الشتات بكل ما في ذلك من شذوذ وطفيلية. وتقول النظرية العمالية الصهيونية ـ كما أشرنا من قبل ـ إن المستوطن الجديد يمكنه، من خلال العمل العبري، أن يطهّر نفسه مما علق بها من شوائب وأدران، فالمستوطنون إنما يحررون أنفسهم حين يحررون الأرض، بحرثها والعمل على ازدهارها (إن هذه الأرض تعترف بنا لأنها تثمر من خلالنا).

ولقد نقل الكاتب الاسرائيلي عاموس ايليون سطراً من أغنية جذابة كان الرواد الزراعيون يرددونها في المستوطنات الاسرائيلية، يصفون أنفسهم فيها بأنهم أول من وصل، (مثل العصافير في الربيع)، الى الحقول الملتهبة والارض المقفرة الجرداء. وهذه البراءة الكونية، وهذا الإيمان بقدرة العمل على الشفاء والتطهير، وهذا الالتزام بمبدأ المساواة، تظهر جميعاً في كلمات بن جوريون حين تحدث عن مدى أحقية الإنسان في أرض ما، فهذا الحق لا ينبع من سلطة سياسية او سلطة قضائية (فكل هذه الأمور ليست ذات شأن من وجهة النظر الصهيونية العمالية) وإنما ينبع من العمل. ثم أطلق بن جوريون شعاراً ثورياً أحمر لابد أنه لاقى هوى في القلوب الثورية البريئة: (الملكية الحقيقية والدائمة للعمال). بيد أن نقل المفاهيم من مستواها وسياقها الى مستوى وسياق آخرين يسفران عن نتائج مختلفة، فمثل هذا الشعار يتسم بالثورية الحقة إذا استخدمه العمال الفرنسيون في الأرض الفرنسية. ولكن حينما يقوم العمال الفرنسيون بتطبيق الشعار نفسه في الأراضي الجزائرية، فإنه يصبح في التو اغتصاباً للأرض، وخصوصاً إذا كانت المنافسة بين العمال الفرنسيين والجزائريين منافسة غير متكافئة، حيث كان الفريق الأول تسانده مؤسسة عسكرية متقدمة تكنولوجياً.

وقد علق الكاتب الاسرائيلي عاموس كنان على هذا النوع من الديباجات الاشتراكية قائلاً: (إن الصهيونية لم تستطع تحقيق انتصاراتها وانجازاتها دون الاستفادة من النفاق الذي تنطوي عليه هذه الاشتراكية. فكما أن المسيحية (بمثلها ومثالياتها) كان بمنزلة عذر معنوي، (أي ديباجات) للصليبيين (أي للفرنجة)، فإن الاشتراكية (بمُثُلها ومثالياتها) أدّت هذه

المهمة للصهاينة).

والديباجات الاشتراكية موجهة بالدرجة الأولى للقوى والدول الاشتراكية في العالم وللشباب الاشتراكي من اعضاء الجماعات اليهودية. وفي هذا الإطار كانت اسرائيل تطرح نفسها باعتبارها دولة اشتراكية يمقت سكانها الرأسمالية. ويلاحظ أنه في الستينات مع تصاعد قوى التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا، كان ضرورياً أن تتلون الديباجات الصهيونية. فطرحت الصهيونية نفسها على أنها حركة تحرر الشعب اليهودي (ممن؟) وهو شعب صغير استُعبد عبر تاريخه ويبحث عن الحرية.

وعملية تلون الديباجات الصهيونية دليل على مدى ذكاء الصهاينة وغياب البعد العقائدي الثابت، وهو أمر متوقع من ايديولوجية تحملها جماعات هامشية تطالب بإنشاء دولة وظيفية لخدمة الاستعمار الغربي أو أية قوى على استعداد لتزويد هذا الجيب الاستيطاني بالأمن والدعم.

وتعبر كل نظرية للحقوق عن رؤية للذات تكملها رؤية للآخر. ويمكن القول فيما يتعلق بالحقوق الصهيونية بأن نظرية الحقوق الصهيونية في فلسطين تعني في واقع الأمر أن اليهود لا حقوق لهم في أوطانهم التي يقيمون فيها، فمن له حقوق مطلقة في مكان لا يمكنه الادعاء أن له حقوقاً مطلقة او نسبية في مكان آخر.

الفصل الرابع

الإرهاب الصهيوني ضد اليهود

بيّنا في الفصول السابقة العنف الفكري الصهيوني ضد اليهود، وسنتناول في هذا الفصل العنف الفعلي، أي الإرهاب الصهيوني ضد اليهود، حتى ندرك مدى عمق عداء الصهاينة للتاريخ سواء كان تاريخ العرب في فلسطين او تواريخ الجماعات اليهودية في العالم. ويعبر هذا الارهاب عن نفسه من خلال عمليات التهجير او الخلاص الجبري.

الترانسفير (التهجير) الغربي لبعض اعضاء الجماعات اليهودية

إن انتقال (هجرة) من وطن الى أي مكان آخر عملية بالغة القسوة، فعلى هذا الإنسان ان يقتلع نفسه من جذورها ويستقر في مكان آخر، ويغير

نمط حياته، بل ومنظومته القيمية احياناً. وعملية نقل الإنسان قسراً (تهجير او ترانسفير Transfer) مسألة وحشية. ومع هذا، يمكن القول بأن الحضارة الغربية الحديثة حضارة توجد داخلها امكانية كامنة للهجرة والتهجير، فهي حضارة الترانسفير المستمر: أن ينتقل الإنسان بنفسه دائماً، ويقوم بنقل الآخرين. (أنظر الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ) حيث نذهب إلى ان الترانسفير لم يعد ضرورة استعمارية وحسب وإنما اصبح بعداً اصلياً مرتبطاً تمام الارتباط برؤية الإنسان الغربي لنفسه وللآخر.

والحضارة الغربية الحديثة بعقلانيتها المادية وعلمانيتها الشاملة تنظر لأعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم مادة بشرية تنقل وتوظف، لا يختلفون عن أية مادة بشرية أخرى. ومع هذا، فإن ثمة عناصر خاصة بالجماعات اليهودية جعلتهم عرضة للنقل (الترانسفير) اكثر من غيرهم من العناصر البشرية، يمكن تلخيصها فيما يلي:

1ـ حلت اوروبا مشكلة اعضاء الجماعات اليهودية منذ العصور الوسطى عن طريق طرد اليهود من انجلترا ثم فرنسا فإيطاليا فألمانيا الى أن استقر بهم المقام في بولندا وروسيا. وقد كانت عملية الطرد تتم في إطار أنهم جماعة وظيفية حركية يمكن توظيفها في أي مكان، فالجماعة الوظيفية لا ترتبط بوطن وإنما بوظيفية. وحينما بدأت الحركة الاستعمارية الاستيطانية الغربية أصبح يهود اوروبا جزءاً لا يتجزأ منها، وتوجهت حركة الهجرة اليهودية حيثما توجه الاستعمار الاستيطاني الغربي. وهذا يعود بطبيعة الحال الى أن اليهود اعضاء في جماعة وظيفية تتسم بالحركية وينظر لها المجتمع نظرة محايدة، فهي جزء يوظف وموضوع يستخدم. ولذا، حينما تعثّر التحديث في روسيا وشرق اوروبا، طرحت فكرة تهجير اليهود ونقلهم كحل للمسألة اليهودية.

2ـ ومما ساعد على جعل فكرة نقل اليهود مطروحة دائماً تصور الغرب لهم وتصورهم هم لأنفسهم احياناً كجزء من تاريخ يهودي مستقل عن التاريخ الاوروبي، وبالتالي فهم ليسوا جزءاً من أوروبا، وإن تواجدوا فيها فهم متواجدون على الهامش وحسب وبشكل عرضي مؤقت، وهي فكرة دعمها وضعهم الهامشي في العصور الوسطى.

3ـ ارتبط اليهود دائماً بفكرة الخروج من المنفى (مصر ـ بابل) والتغلغل في كنعان (فلسطين)، وهو ما يوحي بأنهم دائماً في حالة خروج من المنفى (اوروبا) وفي حالة ارتباط عضوي دائمة بفلسطين.

4ـ ولاشك في أن الرؤية الدينية المسيحية البروتستانتية الحلولية رؤية حرفية ترى اليهود كياناً مستقلاً له تاريخ مستقل هو في جوهره امتداد

للتاريخ التوراتي، وهي رؤية ترى أن روايات العهد القديم وأساطيره لا تزال لها دلالتها الحرفية ومصداقيتها (الآن وهنا). ومن أهم هذه الأساطير اسطورة الخروج من مصر. بل ان التاريخ اليهودي بدأ، حسب هذه الرؤية، بهذا الخروج ويصل ذروته بعد الاستقرار في فلسطين، ثم يأتي بعد ذلك التهجير الى بابل والعودة منها، ثم الخروج من القدس بعد سقوط الهيكل والأمل في العودة. وداخل هذا الإطار الاسطوري اصبحت مسألة نقل اليهود مطروحة على مستوى الوجدان الديني (المسيحي واليهودي).

5ـ خلقت صهيونية غير اليهود (بديباجاتها المختلفة) المناخ الملائم لعملية النقل هذه، وقد تسربت هذه الرؤية الى اليهود بكل حرفيتها بحيث بدأت قطاعات من اليهود تنظر لأعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم شيئاً يمكن نقله.

6ـ أدى تدهور الدولة العثمانية وبروز أهمية فلسطين الاستراتيجية الى زيادة الاهتمام بنقل اليهود نظراً لارتباطهم بفلسطين في الوجدان الغربي.

7ـ يبدو أنه كان ثمة وهم أن فلسطين يمكن شراؤها، وهو موضوع يتكرر في الكتابات الصهيونية. وقد ذكر أحد المؤرخين الصهاينة أنه، في تلك الفترة، قامت اميركا بشراء فلوريدا من إسبانيا وألاسكا من روسيا ولوزيانا من فرنسا. وهذا تعبير عن علمنة الحيز والمكان بشكل عام.

لكل هذا، يمكن القول بأن عملية نقل اليهود كانت مطروحة على الوجدان الغربي ولم تكن مسألة بعيدة عن الأذهان، وهو ما أدى الى ظهور الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. هذا لا يعني أن العوامل التي أسلفنا الإشارة اليها هي التي أدّت الى نقل اليهود وتهجيرهم، فمثل هذا القول بسيط ساذج ومخل يسقط في السببية البسيطة. وكل ما نقوله هو أن هذه العوامل خلقت المناخ العاطفي الذي يسمح بتقبّل مثل هذه الفكرة الوحشية الهمجية. وقد طرح مشروع نقل اليهود بشكل جماعي من رومانيا، وقد استحسنه القنصل الاميركي في بوخارست وعارضه زعماء الجماعة اليهودية هناك.

الترانسيفر (التهجير) الصهيوني لبعض أعضاء الجماعات اليهودية

قامت الصهيونية بين اليهود بتهويد الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة حتى أصبح من اليسير على اعضاء الجماعات اليهودية استبطانها واصبح الترانسفير مسألة مطروحة داخل وجدانهم.

ويمكن القول ابتداءً بان الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة هي في جوهرها عملية نقل (ترانسفير) لمجموعة من المصطلحات والمفاهيم الدينية من مستواها الديني والمجازي الى المستوى الزمني المادي الحرفي (وهذه سمة أساسية في الخطاب الحلولي التجسيدي حيث تتحول الكلمة الى مادة ويتحول الدال الى مدلول ويتداخل المطلق والنسبي). فالشعب المختار، حسب المفهوم الديني اليهودي، جماعة دينية تلتزم بمجموعة من العقائد، فينقل هذا المفهوم من السياق الديني ليصبح شعباً بالمعنى العرقي او يصبح مادة بشرية فائضة. اما صهيون، وهي المكان الذي سيعود اليه الماشيح في آخر الايام، فتصبح بقعة جغرافية في الشرق الاوسط ذات قيمة استراتيجية واقتصادية يصدر لها الفائض البشري ويوطن ويوظف فيها.

وعملية نقل المصطلحات هذه من مستواها الديني والمجازي الى المستوى الزمني والحرفي ينجم عنها ظهور صيغة تنطوي على عمليتي نقل سكاني:

1 ـ نقل اليهود من المنفى الى فلسطين.

2 ـ نقل الفلسطينيين من فلسطين الى المنفى.

وما لا يدركه الكثيرون هو ان الصهيونية كانت ومازالت حركة مبنية ايضاً على تهجير اليهود، فهي حركة توطينية استيطانية، كما ان تدفق المادة البشرية القتالية على المستوى الصهيوني مسألة اساسية وحيوية بالنسبة له حتى يستمر في الاضطلاع بوظيفته القتالية. ولذا، نجد ان الحركة الصهيونية كثيراً ما تلجأ الى عملية تهجير قسرية لبعض يهود العالم.

وتبدأ عملية التهجير القسري بمحاولة خلق ما يمكن تسميته (الصهيونية البنيوية)، أي الصهيونية التي تتجاوز المشروع المعلن والشعارات المطروحة لتخلق وضعاً (بنيوياً) يجعل استمرار اعضاء الجماعات اليهودية في الحياة في أوطانهم صعباً ويجعل رفضهم الصهيونية شبه مستحيل. ان نسميها وأولى هذه المحاولات كانت وعد بلفور حيث سعى الصهاينة الى استخدام عبارة (العرق اليهودي) بدلاً من (الشعب اليهودي) حتى يجعلوا كل يهودي، شاء أم أبى، عضواً في هذا الشعب، إذ أن الانتماء العرقي لا يترك مجالاً لاختيار، ومن ثم تسقط صفة المواطنة عن يهود العالم فيضطرون الى الهجرة. ويمكن ان نسمي هذه الصهيونية البنيوية الخلاص الجبري.

الخلاص الجبري

(الخلاص الجبري) مصطلح قمنا بسكه لوصف المحاولات الصهيونية التي تهدف الى غزو الدياسبورا، أي الجماعات اليهودية في العالم، لإرغام أعضائها على ترك اوطانهم والهجرة الى اسرائيل، ذلك لان هجرتهم هذه (تهجيرهم ـ ترانسفير) فيها خلاص لهم من النفي في ارض الاغيار. فالصهيونية تفترض انها تعرف ما فيه صالح الجماعات اليهودية وان يهود المنفى غافلون عما يحيق بهم من اخطار مادية ومعنوية، ونظراً لغفلتهم هذه فانهم لا يبدون حماساً كبيراً للهجرة الى اسرائيل. وقد وصف احد المسئولين الاسرائيليين هذا الوضع بقوله: (اننا نجد انفسنا مضطرين الى سحب كل مهاجر جديد الى اسرائيل وكأنه بغل حرون). وطالب بضرورة التدخل الجراحي، أي ضرورة تخليص اليهود بالإكراه.

والخلاص الجبري يأخذ أشكالاً كثيرة ابتداء من ترانسفير اليهود بالقوة من اوطانهم (وهذا ما سنركز عليه في آخر هذا الفصل) وانتهاء باصدار تصريحات وممارسة نشاطات صهيونية من شانها تعريض اعضاء الجماعات اليهودية لتهمة ازدواج الولاء. ومن الامثلة على التصريحات الصهيونية ما قامت به جولدا مائير حين كانت تشغل منصب وزير خارجية اسرائيل (عام 1960) اذ بعثت رسالة رسمية الى بعض الحكومات الغربية تحتج فيها على احداث وقعت في تلك الدول تنطوي على عداء لليهود، وكان اسرائيل هي المسئولة عن يهود العالم، وكأنها بالفعل قادرة على التدخل لحمايتهم، وكأن يهود العالم قد فوضوها ان تتحدث باسمهم وتدافع عنهم.

ويأخذ الخلاص الجبري أحياناً شكل قطع المعونات عن المهاجرين اليهود الذين يرفضون الاتجاه لاسرائيل كما حدث مع بعض نزلاء معسكرات المرحلين بعد الحرب العالمية الثانية الذين كانوا يرغبون في الهجرة الى الولايات المتحدة. فقد مارس الصهاينة شتى انواع الضغط عليهم من حرمان من حصص الطعام وطرد من العمل وحرمان من الحماية القانونية وضمن ذلك حق الحصول على تأشيرة السفر. وكانوا في بعض الاحيان يطردون من المعسكر كليةً. وتجري ممارسة نفس الضغط في الوقت الحاضر على المهاجرين السوفييت الذين يودون الاتجاه الى الولايات المتحدة. ومن اشكال الخلاص الجبري الاخرى تورطي المستوطنين الجدد في اسرائيل من خلال اعطائهم معونات كبيرة يقومون بانفاقها ويصبح من المستحيل عليهم سدادها. وقد تم ممارسة هذه الحيلة على نطاق واسع جداً مع المهاجرين السوفييت في السنين الاخيرة. وقد صرح كاتب في جريدة دافار بانه لو كان الامر بيده لبعث مجموعة من الشبان الاسرائيليين الصهاينة المتحمسين ليتولوا مهمة

الخلاص الجبري ليهود الشتات المتفرقين عن طريق التخفي واثارة ذعر اليهود باطلاق شعارات معادية لليهود مثل (اليهود الملاعين) و(ايها اليهود اذهبوا الى فلسطين) (والشعار الاخير، على كل، هو شعار صهيوني ومعاد لليهود في آن واحد). واهم أشكال الخلاص الجبري هو عمليات التهجير لليهود التي قامت بها الحركة الصهيونية.

وقد أخذ الخلاص الجبري شكل التعاون مع القوى المعادية لليهود (فون بليفيه، وزير داخلية روسيا القيصرية، وبتليورا، الزعيم الاوكراني، واخيراً النظام النازي نفسه) وتوقيع معاهدة الهعفراه (أي التهجير او الترانسفير). وتأخذ محاولة التهجير ايضاً شكل اغلاق باب الهجرة في العالم امام اعضاء الجماعات اليهودية بحيث يتهجون، شاءوا أم أبوا، الى ارض الميعاد. وينطبق هذا على يهود روسيا السوفيتية حيث تحاول المنظمة الصهيونية تحويل الهجرة التلقائية الى الولايات المتحدة الى تهجير قسري الى اسرائيل عن طريق اغلاق باب الولايات المتحدة أمامهم وفتح ابواب اسرائيل، ومنع المنظمات اليهودية من مساعدة اليهود السوفييت المهاجرين الى الولايات المتحدة.

ويمكن ان نرى هجرة يهود العالم العربي، وخصوصاً يهود العراق، على انها عملية تهجير قام بها الصهاينة بخلقهم الظروف الموضوعية والبنيوية التي أضطرت اعضاء الجماعة اليهودية الى الهجرة، مثل وضع القنابل في المعبد اليهودي في العراق (كما سنبين فيما بعد) او تجنيد بعض يهود مصر لوضع قنابل في السفارات الاجنبية، وهو ما أدى الى تدهور وضع الجماعات اليهودية في مصر.

ارهاب وتهجير (ترانسفير) يهود العراق

كان المجتمع العراقي يمر بمرحلة انتقالية في الاربعينيات، وكانت هناك صعوبات تكتنف حياة جميع الاقليات الدينية والعرقية هناك، وضمنها الاقلية اليهودية. وفي سنة 1941، قامت مظاهرات معادية للجماعة اليهودية، ولكنها كانت (الاولى من نوعها) كما تقول موسوعة الصهيونية واسرائيل. وفي النهاية، كان لليهود العراقيين نصيبهم العادي من السعادة والشقاء، ففي ديسمبر 1934 ارسل السير ف. همفري، السفير البريطاني في بغداد، برقية سرية الى وزارة الخارجية البريطانية، قال فيها ان الجماعة اليهودية في العراق (تتمتع) بوضع موات اكثر من اية اقلية اخرى في البلاد، واوضح انه (ليس هناك عداء طبيعي بين اليهود والعرب في العراق)، ويبدو ان تقرير السفير البريطاني كان دقيقاً بصفة عامة، فيهود العراق كانوا مؤمنين بانهم عراقيون (اساساً) يرجع نسبهم الى أيام النفي

البابلي، وكان عد كبير منهم يتمتع برخاء نسبي.

وكانت نسبة قيد يهود العراق في المدارس والكليات أعلى كثيراً من النسبة على المستوى القومي، فقد اوضح رافي نيسان (اليهودي العراقي الذي هاجر الى اسرائيل واستوطن فيها) أنه، على الرغم من اليهود العراقيين تركوا ممتلكاتهم خلفهم في العراق، فانهم أتوا معهم بشيء اكثر أهمية (من المال) وهو (خبرتنا وعلمنا)، على حد تعبيره. فثلث المهاجرين من يهود العراق تلقوا تعليماً لمدة أحد عشر عاماً على الاقل وهي نسبة تعلو حتى على النسبة المقابلة بين اولئك القادمين الجدد (الى الدولة الصهيونية) من أوربا وامريكا. واضاف رافي ان (اكثر من 80 في المائة من ارباب الاسر المهاجرة كانوا من الحرفيين المهرة واصحاب المحال التجارية والمديرين والمحامين والموظفين والمعلمين). وفيما يتعلق بمقدار المشاركة في الحكومة والسلطة، فقد أعلنت الحكومة العراقية (حرية الدين والتعليم والتوظف ليهود بغداد الذين لعبوا دوراً مهماً جداً في تحقيق رخاء المدينة وتطورها. وكان هناك ستة أعضاء يهود في البرلمان العراقي.

ورغم هذا السلام والاستقرار اللذين كانت تتمتع بهما الجماعة اليهودية، قرر الصهاينة جعل العراق هدفاً لنشاطهم. والعراق ـ مثلها في هذا مثل ليبيا ومصر وفلسطين ـ كانت هي الاخرى مطروحة في وقت من الاوقات هدفاً محتملاً لخطة الاستيطان الصهيوني، الامر الذي كان كافياً في حد ذاته لاثارة التوتر بين أغلبية السكان والجماعة اليهودية. وعندما اقتصرت المخططات الصهيونية على فلسطين (وتخومها)، تحولت الانشطة الصهيونية عن ارض العراق، وتركزت على يهود العراق، فأسس أهارون ساسون (سنة 1919) جمعية في بغداد تدعى (اللجنة الصهيونية). وأنشأت هذه المنظمة فروعاً لها في عدة مدن عراقية (نحو 16 فرعاً)، بل ارسلت وفداً عنها الى المؤتمر الصهيوني الثالث عشر (1923)، كما قامت بتنظيم جماعات شبابية لاعداد الشباب المهاجرين وطبع عدة نشرات شهرية بالعبرية والعربية، وأسست مكتبة صهيونية. وكان الصهاينة يقومون احياناً ـ بغرض تسميم العلاقات بين يهود العراق وباقي الشعب العراقي ـ بتوزيع منشورات في المعابد تحتوي على شعارات مهيجة، مثل (لا تشتروا من المسلمين) متعمدين ان تصل هذه المنشورات الى ايدي المسلمين. ونجحت الدعاية الصهيونية، الى حد ما، في بذر الشقاق و(المرارة) كما المح السفير البريطاني في برقيته سنة 1934 لبيان ان منع النشرات الصهيونية من الصدور قد يكون في (صالح اليهود أنفسهم). ويبدو انه، برغم الجهود الصهيونية، وبرغم تشاؤم السفير البريطاني، فان

يهود العراق لم يكونوا منعزلين تماماً عن وطنهم. فبعد النشاط الصهيوني الطويل في العراق، وبعد مظاهرات 1941 المؤسفة، استأنف اليهود العراقيون (بجذورهم الثابتة في البلاد) حياتهم الطبيعية، فأقاموا حياً يهودياً. واستثمروا مبالغ ضخمة في مجال البناء في مدينة بغداد، فقد جاء في كتاب لمؤلفة اسرائيلية ان المبعوثين الصهاينة في العراق (أدركوا ان الايديولوجية الصهيونية لن تلقى قبولاً في معظم الدوائر اليهودية). وقد حاول احد هؤلاء المبعوثين تجنيد عناصر من بين المثقفين (الا انه فشل). ثم جاء قيام الدولة الصهيونية والهزيمة العربية، الامر الذي ادى كما هو متوقع الى تعقيد الامور بالنسبة للجميع. فقد أعفي اليهود العراقيون، الذين كانوا يتولون مناصب تتطلب الاتصال بدول أجنبية، من مناصبهم. وباستثناء مثل هذه الحالات، فان رد الفعل العراقي كان يتسم بضبط النفس اذا ما أخذنا في الحسبان أبعاد الموقف.

ورغم النشاط الصهيوني المكثف داخل العراق، ورغم تورط بعض يهود العراق البارزين في هذا النشاط، لم تنشأ حالة هستيرية شعبية من ذلك النوع الذي يجتاح الرأي العام عادة في زمن الحرب، وبصفة خاصة في اعقاب الهزيمة. وقد قال كبير حاخامات العراق للحاخام بيرجر سنة 1955: (اننا نسمع أنكم، في الولايات المتحدة، لم تعاملوا مواطنيكم اليابانيين معاملة طيبة اثناء موجة الانفعال العاطفي التي اعقبت بيرل هاربر)، وكان يشير بذلك الى اعتقال آلاف من الامريكيين اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية ووضعهم في معسكرات خاصة، وقد لقي كثيرون حتفهم بسبب الظروف القاسية داخل هذه المعسكرات.

لقد كان من الممكن ان تنتهي المتاعب وقتها (سنة 1948)، وكان من الممكن ان يستأنف يهود العراق حياتهم، بدرجات مختلفة من التوتر والتوافق، وكان الزمن كفيلاً بجعل الجروح تلتئم. غير ان الصهاينة كان لديهم مخطط مختلف عن هذا، فقد كانت هناك خطوات اساسية لابد من اتخاذها بهدف تحقيق الخلاص (لمائة وثلاثين الف يهودي ولتحسين موقف اسرائيل، في الوقت نفسه، من حيث عدد السكان). ونحن نعرف من مصادر صهيونية ان حركة صهيونية سرية ـ مثل تلك التي كانت تعمل في مصر ـ قد تأسست في العراق سنة 1941. واعطيت المنظمة الجديدة (التي بدأت في تعليم الشبان اليهود كيفية استخدام الاسلحة النارية وتصنيع المتفجرات) اسم (حركة الرواد البابليين). وكونت الحركة السرية جيشاً شبه مستقل داخل العراق كانت له اسلحته ومجندوه. وفي سنة 1947، كتب ايجال آلون، قائد البالماخ، رسالة دان رام وصفه فيها بانه (قائد جيتو العراق). وقامت الهاجاناه بتهريب الاسلحة ـ من بنادق وذخائر

وقنابل ـ الى العراق. وقال آلون في رسالته الى دام رام (ان الهدف من ارسال هذه الاسلحة هو تشجيع كل اشكال الهجرة).

ولكن ما الذي كان يراد من كل هذه الاسلحة (التي عثر عليها فيما بعد)؟ (هل كنا سنحارب العراق كله بها، هذا على افتراض ان ولاءنا كان متجهاً لاسرائيل، وهو ما لم يكن كذلك في الواقع). ان هذا التساؤل الذي طرحه حاخام عراقي عام 1955 كان له ما يسوغه، وكان من الممكن ان يظل دون اجابة لو لم تتكشف بعض القرائن.

شهدت بغداد عدداً من الحوادث سنة 1950، فقد ألقيت شحنة ناسفة داخل مقهى اعتاد المثقفون اليهود الاجتماع فيه، ثم انفجرت قنبلة في المركز الإعلامي للولايات المتحدة. ومرة اخرى، نجد ان هذا المركز كان مكاناً اعتاد الشباب ـ وبخاصة اليهود منهم ـ ان يجلسوا فيه ويقرأوا، وعندما انفجرت قنبلة ثالثة في معبد ماسودا شيمتوف، أودى الحادث بحياة صبي يهودي، كما فقد رجل يهودي احدى عينيه. ولاشك في ان المؤرخين الصهاينة كانوا سيصورون هذه الفترة على انها مذبحة جماعية أخرى ضد اليهود، لولا ان النقاب ازيح، بطريق الصدفة، عن مخطط صهيوني منظم للاعمال الاستفزازية.

ومن اليهود الذين ظنوا ان الانفجارات كانت من صنع العرب، يهدي عراقي يدعى كوخافي، اصبح فيما بعد مواطناً اسرائيلياً وعضواً بجماعة الفهود السود. لكنه قال انه سمع اشاعة تتردد في اسرائيل (بعد ان كان أعضاء الجماعة اليهودية العراقية، جميعهم تقريباً، قد هاجروا الى الدولة الصهيونية) مفادها ان الحادث كان من فعل عميل صهيوني) وقد نشر هذا الموضوع في الصحف أيضاً، ولم ينفه احد. وربما كان كوخافي يشير بهذا الى المقال الذي نشرته صحيفة هاعولام هازيه يوم 29 مايو سنة 1966، والتقرير الذي نشرته مجلة الفهود السود يوم 9 نوفمبر سنة 1972 وهما العملان اللذان أعادا ترتيب الحوادث التي وقعت اثناء المذابح الصهيونية المنظمة وأزاحا النقاب عن الحقيقة البشعة بأكملها.

ففي سنة 1951، أي بعد الانفجار الغامض مباشرةً، شاهد لاجئ فلسطيني من عكا (كان يعمل في أحد المحال الكبيرة في بغداد) أحد رواد المتجر، وعرف أنه يهودا تاجر (الضابط بالحكومة العسكرية الاسرائيلية في عكا). فأبلغ اللاجئ الشرطة العراقية عن وجود الضابط الاسرائيلي الذي قبض عليه ومعه شالومك تزلاه وخمسة عشر آخرين من اعضاء المنظمة السرية الصهيونية. وكشف تزلاه اثناء التحقيق عن حقيقة المخطط الصهيوني، وأرشد الشرطة العراقية الى مخابئ الاسلحة في

المعابد. وقد حوكم العملاء من اعضاء المنظمة الصهيونية السرية بتهمة محاولة (اثارة ذعر اليهود العراقيين لدفعهم للهجرة الى اسرائيل)، وصدر الحكم بالاعدام على اثنين من هؤلاء العملاء، وبالسجن لمدد طويلة على الباقين. وقال محاكم عراقي (من سكان تل أبيب الآن): (لقد كانت الادلة من القوة بحيث لم يكن شيء ليمنع صدور الاحكام). والآن، يحاول قدوري سليم ـ المواطن الاسرائيلي اليهودي العراقي الذي فقد عينيه في حادث معبد شيمتوف ـ الحصول على تعويض من الحكومة الاسرائيلية.

حوادث ارهابية اخرى ضد اليهود

لم ترحم آلة الارهاب الصهيوني المهاجرين اليهود انفسهم، حيث تصدت المنظمات العسكرية الصهيونية في الثلاثينيات لجماعات البوند وحزب عمال صهيون الذين جاءوا من بولندا مطالبين بالغاء سيطرة اللغة العبرية على المستوطن الصهيوني والاعتراف الرسمي باليديشية. فاشبعوهم ضرباً وتهديداً ورجماً بالحجارة وتهميشاً لواجهات حوانيتهم التي تحمل لافتات كتبت باليديشية. كما قام عضوان من الحركة التصحيحية في عام 1933 بقتل حاييم أرلوزوروف رئيس القسم السياسي في الوكالة اليهودية وأحد قادة الماباي. كما قامت احدى المنظمات الصهيونية باغتيال يعقوب دي هان (1881 ـ 1924) المفكر الديني اليهودي الذي كان معروفاً بعدائه للصهيونية، وهو استاذ قانوني دولي ورجل دين يهودي هولندي. ولد لاسرة متوسطة متعلمة من اليهود الارثوذكس حيث كان والده معلماً. تخرج في مدرسة المعلمين حيث اظهر مقدرة فائقة في الشعر ونشرت اشعاره في العديد من الصحف الهولندية وقدرته الاوساط الادبية. وقد اعجبته الطبيبة يوهانا فان مارسيفين، وهي غير يهودية ومن اسرة غنية، وتحول هذا الاعجاب الى حب فتزوجا. وقد قامت زوجته الغنية بتمويل دراساته الجامعية حتى تخرج حيث عمل بعدئذ محاضراً في الجامعة. انضم دي هان للاشتراكيين الديموقراطيين، وسافر الى روسيا ضمن وفد حزبي، وعند عودته الف كتاباً عن احوال المعتقلين السياسيين في سجون القيصر. وقد كانت رحلته تلك سبباً في تحول مجرى حياته تحولاً عميقاً، فقد تأثر كثيراً بمذابح اليهود ورفع تقريره للقصر الملكي الهولندي. لكنه وجد استهزاء من جانب المستشارين اليهود.

تراجع دي هان عن الاشتراكية وانفصل عن زوجته وعاد الى اليهودية واصدر عام 1918 كتاب الانشودة اليهودية الذي تلقفته الدعاية الصهيونية، فهاجر الى فلسطين باعتباره اول هولندي صهيوني يهاجر الى هناك عام 1919. وعمل دي هان في فلسطين مراسلاً لجريدة هولندية تصدر في أمستردام، كما عمل ايضاً لجريدة ديلي اكسبريس اللندنية.

وكان يلقي محاضرات في كلية القانون التابعة للحكومة في القدس حين تعرف الى الحاخام الارثوذكسي سوننفلد وعرف وجهة النظر الارثوذكسية اليهودية المتدينة في الصهيونية العنصرية العلمانية المتعصبة. وشيئاً فشيئاً غيّر دي هان انتماءه السياسي والعقائدي واصبح من اعداء الصهيونية والمتحدث باسم اليهودية الارثوذكسية واجودات اسرائيل (التي كانت حينذاك معادية تماماً للصهيونية من منطلق ديني)، وانبرى للدفاع عن حقوق العرب في ارضهم. وقد ارسل عشرات العرائض والدعاوى لعصبة الامم رافضاً حق الصهاينة العلمانيين في التحدث باسم الجماعات اليهودية كلها وحصل في النهاية على حق ان يعتبر كل يهودي متدين نفسه خارج نطاق الوكالة اليهودية، وضمن ذلك حق رفض دفع الضرائب.

وقد أثارت مواقفه المتوالية ضد الصهيونية ونشاطه الفعال ضد الاستيطان الصهيوني استياء المؤسسة الصهيونية، فبدأت الصحف الصهيونية مثل هآرتس في مهاجمته بعنف، ودعته بالخائن، واعلنت انه عنصر خطر ينبغي التخلص منه. بيد ان هذا الهجوم المادي والمعنوي لم يثنه عن عزمه وعن كراهيته وعدائه للصهيونية التي كان يراها الخطر الاكبر على اليهودية بل على القيم الانسانية كلها. ونظم الصهاينة مقاطعة شاملة لمحاضراته في الجامعة الامر الذي دعا دي هان الى الاستقالة. وكان رد دي هان على هذه الاعتداءات قوياً وحكيماً، فقد نظم اجتماعاً شديد الاهمية بين الشريف حسين ملك الحجاز والامير عبد الله امير امارة شرق الاردن والملك فيصل ملك العراق وبين كبار الحاخامات اليهود الارثوذكس. وقد صعد هذا الهجوم الصهيوني ضد اليهود الارثوذكس عامة ودي هان على وجه الخصوص. وقد تلقى دي هان العديد من التهديدات بالقتل ما لم يترك فلسطين فوراً. بل انه تنبأ بموته حين قال لمراسلين صحفيين فرنسيين (سوف ترون، سيقتلني الصهاينة، فهذا ديدنهم).

وفي 29 يونيه عام 1924، كتبت احد الجرائد الصهيونية محذرة: (ان الخائن دي هان سيرحل الى لندن ليخطب امام مجلس العموم البريطاني ويحكم طموحات اليهود القومية). وفي 30 يونيه عام 1924، تم اغتياله بالفعل، وثبت تقاعس المستشفى الذي نقل اليه عن انقاذه، وكذلك فقد تغاضت قوات الشرطة المكلفة بحمايته عن القيام بواجبها، وكان الصهاينة من الوقاحة بحيث انهم اتهموا العرب بقتله وارجعوا اغتياله الى علاقة جنسية شاذة بينه وبين احد العرب.

وقد اعترف قتلته بارتكاب الحادث في الثمانينيات بعد ما يزيد عن نصف قرن من الانكار، وبعد التلميح لعدة سنوات بان يعقوب دهان كانت تربطه

علاقة شاذة مع احد الشبان العرب، وان هذا هو الذي تسبب في مصرعه.

ولعل من اشهر الحوادث التي تعرض لها اليهود في المنطقة خلال عام 1940 كان على ايدي العصابات الصهيونية نفسها حين فجر ارهابيو الهاجاناه السفينة باتريا في ميناء حيفا وسقط ضحية العمل 250 يهودياً ثمناً للضغط على السلطات البريطانية كي تستجيب لطوفان الهجرة غير الشرعية بعد تحميلها وزر هؤلاء الضحايا. اما الاطفال اليهود في اليمن والعراق فقد اختطفهم الارهاب الصهيوني عنوة بالعشرات من اسرهم الى فلسطين.

الفصل الخامس

العنف الفكري ضد العرب

تناولنا رؤية الصهاينة لليهود باعتبارهم شعباً ابيض او شعباً مقدساً يهودياً خالصاً او شعباً اشتراكياً تقدمياً. وسنتناول في هذا الفصل رؤية الصهاينة للعرب، فرؤية الذات ـ كما اشرنا ـ مرتبطة تمام الارتباط برؤية الآخر. ويلاحظ ان طريقة صياغة الرؤية الصهيونية للعرب تتسم بكثير من سمات الخطاب الصهيوني، ابتداءً بالابهام المتعمد وانتهاء بالتزام الصمت. كما يلاحظ تصاعد معدلات التجريد الى أن نصل الى النقطة التي يتحقق فيها النموذج الصهيوني الإدراكي وهي التغييب الكامل للعرب.

العربي كعضو في الشعوب الشرقية الملونة (تخفيض العربي)

تصور العربي كعضو في الشعوب الشرقية الملونة تصور تكميلي لرؤية اليهود كأعضاء في الحضارة الغربي البيضاء، فالجنس الابيض هو موضع القداسة اما الاجناس الاخرى فتقع خارجها، والعربي هو من هذه الاجناس المتخلفة.

وفي اطار هذا التصور، يقدم الصهاينة وصفاً للشخصية العربية على انها شخصية متخلفة، ومثل هذا الوصف امر شائع في الديباجات العنصرية وفي ادبيات الاستعمار الاوربي، فالوصف هنا ليس وصفاً للعربي بقدر ما هو وصف لأي آسيوي أو افريقي (او حتى أي أمريكي اسود). والاستعمار الصهيوني، في احد تصوراته لنفسه ـ كما أسلفنا ـ كان يرى انه جزء (تابع)

لا يتجزأ من الحركة الامبريالية الغربية، ومن الهجمة العسكرية الحضارية على الشرق العربي لادخال الحضارة والسكك الحديدية والبلاستيك والقنابل.

وقد بلور وايزمان قضية الصراع العربي الصهيوني بالاسلوب نفسه الذي بررت به الحضارة الغربية مشروعها الاستعماري في الامريكيتين وآسيا وأفريقيا. و(اننا ما زلنا نسمع حتى الآن اناساً يقولون: حسناً، ربما كان ما انجزتموه عظيماً تماماً، ولكن العرب في فلسطين قد الفوا حياة الدعة والسكينة، وكانوا يركبون الجمال، وكان منظرهم رائعاً، وكانت صورتهم منسجمة مع منظر الطبيعة. فلماذا لا تظل هذه الصورة كما لو كانت متحفاً او حديقة عامة؟ لقد وفدتم الى البلاد من الغرب حاملين معرفتكم واصراركم اليهودي، ولذا فصورتكم لا تنسم مع مناظر الطبيعة. انكم تجففون المستنقعات، وتقضون على الملاريا بطريقة تؤدي الى انتقال البعوض الى القرى العربية. انكم ما زلتم تتحدثون العبرية بلكنة سقيمة ولم تتعلموا حتى الآن كيف تستخدمون المحراث بطريقة سليمة، وتستخدمون بدلاً من الجمل سيارة. ومن جهة اخرى فان هذا يذكر المرء بالصراع الابدي بين الجمود من جهة والتقدم والكفاءة والصحة والتعليم من جهة اخرى. انها الصحراء ضد المدنية).

ولم يكن من الضروري في هذا الاطار الاستعماري العرقي القيام بأية دراسة دقيقة للضحية، وانما كان يكتفى بالحديث عن مدى تقدم الحضارة الغربية، ومدى تقدم الانسان الابيض، كما كان يكتفى بالاشارة الى تخلف الانسان غير الابيض (سواء كان أسود او اصفر او أسمر). فالامور كانت واضحة للعيان، ومن هنا كانت هذه الاوصاف اوصافاً عمومية لا تركز على السمات المتعينة للضحية. وعلى اية حال، فان أي تفكير عنصري لابد ان يتسم بهذا التعميم والتجويد والانتقاء، والا وجد نفسه امام وجود متعين محسوس له قداسته وله قيمته الانسانية والحضارية المحددة، وله كيانه الخاص، الامر الذي يجعل من العسير تقبل الديباجات التي تسوغ استغلاله او إبادته.

وصورة العربي المتخلف صورة مهمة في الادبيات الصهيونية. فقد لاحظ المفكر الصهيوني احاد هعام (وهو الاسم الادبي لآشير جزبرج (1856 ـ 1927) سنة 1891 ان المستوطنين الصهاينة يعاملون العرب باحتقار وقسوة، وينظرون اليهم باعتبارهم متوحشين صحراويين، وعلى انهم شعب يشبه الحمير، لا يرون ولا يفهمون شيئاً مما يدور حولهم. كما لاحظ احد الرواد الصهاينة في اوائل القرن ان الصهاينة يعاملون العرب كما يعامل الاوربيون السود. واما أهارون أرونسون (1876 ـ 1919) احد

زعماء المستوطنين في اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد حذر الرواد الصهاينة من ان يقطنوا بجوار الفلاح العربي القذر الجاهل الذي تتحكم فيه الخرافات، واكد لهم ان كل العرب مرتشون.

ويتصف العربي، حسب تصور وايزمان، بصفات قريبة من التي ذكرناها من قبل، فهو عنصر منحط يحاول الجري قبل ان يستطيع السير، وهو شعب غير مستعد للديموقراطية ومن السهل ان يقع تحت تأثير البلاشفة والكاثوليك (كذا) كما ورد في رسالة وايزمان الى اينشتاين بتاريخ 30 نوفمبر 1929. اما الفيلسوف البرجماتي الامريكي، الصهيوني اليهودي، هوراس كالن (1882 ـ 1976)، فانه لم يرى العربي الا في صورة شيخ قبيلة من صحراء النقب، يلبس هو وأولاده ساعات مستوردة لا تبين الوقت، ويحملون اقلاماً لا يستعملونها في جاكتات غربية يرتدونها فوق جلابيبهم، ووظيفتهم الاساسية هي تهريب الحشيش بطبيعة الحال. وفي احد استطلاعات الرأي (نشرت نتائجه عام 1971)، جاء ان 76% من الاسرائيليين يؤمنون بان العرب لن يصلوا الى مستوى التقدم الذي وصل اليه اليهود. ونعتقد انه لا يفيد كثيراً ان نأتي بمزيد من الادلة والقرائن والبراهين من اعمال بن جوريون او جابوتنسكي او غيرهما من الكتاب الصهاينة، إذ ان مثل هذا سيكون مجرد توثيق كمي وتمدد افقي لا يغير ملامح الصورة كثيراً.

وفي هذا الاطار، نلاحظ ان العربي الجديد، وهو المقابل البنيوي لليهودي الابيض، لا يأتي ذكره الا في النادر. ومن هذه اللحظات النادرة ما دونه هرتزل في يومياته حينما كان في القاهرة يتفاوض في شأن احد مشروعاته الاستيطانية، فقد استمع الزعيم الصهيوني الى محاضرة عن الري، ويبدو انه رأى بعض المصريين واستمع الى اسئلتهم، فكتب يقول: ((المصريون) هم سادة المستقبل هنا، ومن العجيب ان الانجليز لا يرون ذلك، فهم يعتقدون انهم سيتعاملون مع الفلاحين الى الابد). ثم أخذ هرتزل بعد ذلك يصف كيف ان الاستعمار نفسه يخلق الجرثومة التي تقضي عليه، وذلك لانه يعلم الفلاحين الثورة. ثم ابدى هرتزل دهشته لفشل البريطانيين في ادراك هذه الحقيقة البسيطة. ويحق للمرء ان يتعجب لفشله هو نفسه في ادراكها، إذ انه ذهب ليتفاوض في اليوم التالي بشأن منطقة العريش لتكون موطناً للاستيطان الصهيوني. ويبدو ان ما حدث هو لحظة ادراك تاريخية نادرة من جانب الزعيم الصهيوني فهم فيها الاستعمار البريطاني باعتباره ظاهرة تاريخية انسانية لا تتسم بالثبات. ولكن غاص، مرة أخرى، في الاسطورة الصهيونية الحلولية

العضوية، فاستثنى الاستعمار الصهيوني المقدس والمطلق من هذا القانون التاريخي الانساني، ولم تترجم لحظة الادراك نفسها الى حكمة انسانية او سلوك عقلاني.

وقد رسم هوراس كالن صورة الفلسطيني في المستقبل، كما يحب ان يراها، فقال: (لو حصل اللاجئون على جوازات سفر وغيرها من الوثائق التي تمكنهم من التحرك بحرية، ولو حصلوا على مبلغ كاف من المال ليشقوا به طريقهم الى مكان من المتوقع ان يجدوا فيه سبل العيش المعقولة. وقيل لهم ان هذا هو كل ما سيحصلون عليه ولا شيء آخر أبداً، لو حدث هذا لبدأوا عندئذ في الاعتماد على النفس)، أي ان تحديث الشخصية العربية سينتج عنه ان يفهم العرب الحقوق اليهودية في اطارها الحلولي العضوي باعتبارها حقوقاً مقدسة أزلية لا تقبل النقاش ولا تخضع للتغيير.

كما ان التصور الصهيوني يقوم على ان تحديث الشخصية العربية قد يؤدي بالفعل الى تلاشي الشخصية العربية نفسها، او انها ستكتشف انه لا توجد هوية عربية، وانما هوية سنية او شيعية او مصرية (فرعونية). وهكذا تتبخر القومية العربية وتظهر الدويلات الاثنية الدينية على النمط الاسرائيلي. ولن الحديث عن الانسان العربي في المستقبل هو في نهاية الامر حديث نادر في الكتابات الصهيونية.

العربي ممثلاً للاغيار (تجريد العربي)

يحاول الصهاينة تصوير العربي ممثلا لكل الاغيار، وينطلق هذا التصور من التصور الصهيوني لليهودي باعتباره يهودياً خالصاً. ويصبح العربي ممثلاً لكل الاغيار، أي انه تصور ينبع من الثنائية الحلولية الصلبة.

وقد وصف الاغيار في الادبيات الصهيونية بانهم: ذئاب، قتلة، متربصون باليهود، معادون ازليون لليهود. و(الاغيار) مقولة مجردة، بل انها اكثر تجريداً من مقولة (اليهودي) في الادبيات النازية، او مقولة (الزنجي) في الادبيات العنصرية البيضاء. وهي اكثر تجريداً لانها لا تضم أقلية واحدة، او عدة أقليات، او حتى عنصراً بشرياً بأكمله، وانما تضم كل الاخرين في كل زمان ومكان. وقد وضع الصهاينة الانسان العربي على وجه العموم، والفلسطيني على وجه الخصوص، داخل مقولة (الاغيار) حتى يصبح بغير ملامح او قسمات.

وتظهر مقولة (الاغيار) هذه في وعد بلفور (اهم الوثائق الصهيونية) حيث اشار الى العرب (الذين كانوا يشكلون اكثر من حوالي 93% من مجموع السكان) على انهم (الجماعات غير اليهودية)، دون تحديد هذه الجماعات

أو ذكر اسمها، حتى تظل هذه الجماعات عند مستوى عال من التجريد. ان هذه الجماعات غير اليهودية هي أية جماعة انسانية تشغل الارض التي سيستوطن فيها الشعب اليهودي. وبينما كان هرتزل يتفاوض بشأن كريت موقعاً للاستيطان الصهيوني كتب عن الجماعات غير اليهودية التي تقطنها بطريقة تنم عن عدم الاكتراث والتجريد، فقد وصفهم بانهم (عرب، يونانيون، هذا الحشد المختلط من الشرق).

أما شاؤول تشرنحوفسكي (1875 ـ 1943) الشاعر الصهيوني، الروسي اليهودي، في قصيدته (وقت الحراسة) التي كتبها في تل أبيب عام 1936، فلم يكلف خاطره الاشارة الى العرب، بل يتحدث عن الاغيار فحسب، بوصفهم رجال الصحراء المتوحشين، وهم بهذا، يصبحون شيئاً عاماً مجرداً خالياً من القداسة، وجزء من الطبيعة يسهل التعامل معه واصطياده وابادته.

وفي إسرائيل، لا يتحدثون عن (اليهود والعرب)، وانما يتحدثون عن (اليهود وغير اليهود). وكما يقول اسرائيل شاهاك المفكر الاسرائيلي، فان كل شيء في اسرائيل ينقسم الى يهودي وغير يهودي. وينطبق هذا التقسيم على كل مظاهر الحياة فيها، حتى على ما يزرع من خضراوات من طماطم وبطاطس وغيرها. وفي هذا الصدد، قد يكون من المفيد ان نتذكر ان الحاخام ابراهام افيدان حين اوصى الجنود الاسرائيليين بقتل (المدنيين الاغيار او غير اليهود) كان يعني في الواقع العرب فحسب، ولا شك في ان جنود جيش الدفاع الاسرائيلي يعرفون تماماً ما كان يرمي اليه الحاخام.

هذا هو التصور الصهيوني للعربي (الممثل لأغيار) في الماضي والحاضر، فماذا عن الانسان العربي ممثل الاغيار في المستقبل؟ هنا نجد ان الزمان قد تجمد وألغي، كما هو شأن الكتابات الصهيونية دائماً، فالاغيار ذئاب في الماضي والحاضر والمستقبل. والانسان العربي الخانع الخاضع للعنف الصهيوني، هو نفسه الانسان العربي المقاتل الازلي ضد اليهود: كلاهما جزء من مخطط ميلودرامي ازلي. وقد وصف رئيس جمهورية اسرائيل السابق اسحق بن تسفي المقاومة العربية في اوائل القرن الحالي بانها مجرد مذبحة يرتكبها اعداء اليهود في فلسطين، حرض عليها قنصل روسيا القيصري، أي ان معاداة اليهود هي هي لا تتغير، فهي تأخذ شكل مذابح في روسيا او مقاومة عربية في فلسطين! وفي المؤتمر الصهيوني السابع (1905)، طرح احد الصهاينة تصوراً مماثلاً للتصور الذي طرحه هرتزل عن الانسان العربي في المستقبل، وحذر من ان الفلاحين الفلسطينيين سيثورون ضد الاستعمار الصهيوني، كما طالب المستوطنين

الصهاينة بان يسلكوا سلوكاً مختلفاً حتى لا يشتد الصراع مع العرب. وقد ردّ احد المستوطنين الصهاينة بان الفلاحين العرب سيتحولون ضد اليهود مهما كان تصرف وسلوك اليهود حيالهم، فثورة الفلسطينيين ليست محاولة لرد العدوان والظلم الواقع عليهم، وانما هي تعبير عن العداء الابدي الذي يبديه الاغيار نحو اليهود (هذا الشعب الذي طرد من بلاده). وهذا التفسير السهل الذي يشرح كل شيء لا يزال شائعاً في اسرائيل حتى بين المثقفين. ويفسر الكاتب الاسرائيلي يهوشاوا المقاومة العربية بانها شيء غير مفهوم، ودوافعها غير عقلانية الى حد كبير، فثمة شيء ما في اليهود يؤدي الى اثارة جنون الاغيار. والعرب، بوصفهم أغياراً، لا يشذون عن هذه القاعدة. والواقع ان مقولة (الاغيار) (العرب) تعفي الصهاينة من مسئولية التوجه المحدد للمسألة الفلسطينية وللانسان العربي.

تهميش العربي

ان عملية التجريد السابقة تستهدف تهميش العربي حتى لا يشغل مركز الاحداث بالنسبة لفلسطين. والعربي الهامشي نمط اساسي في الادراك الصهيوني للعرب. ان الصهاينة ينكرون وجود اية هوية سياسية للعرب عامة، وللفلسطينيين على وجه الخصوص، او اية مشاعر قومية من جانبهم. فالصهاينة في إدراكهم للثورات العربية ضدهم، ينكرون طبيعتها القومية والسياسية ويؤكدون لانفسهم ولرفاقهم ان الدافع اليها ليس حب الارض او الوطن او التمسك بالتراث، فالدافع اليها هو التعصب الديني. وقد كان الصهاينة يلومون المسيحيين العرب، أحياناً، باعتبارهم الاعداء الحقيقيين لمشروعهم الاستيطاني، ويصورون المسلمين في صورة الفريق الطيب الذي يمكن التفاهم معه. وكانوا احياناً اخرى يفترضون العكس، فيؤكدون ان المسلمين هم العدو الحقيقي، وان المسيحيين هم الفريق الذي يبدي استعداداً كبيراً للتعاون. وكانت الجماهير الفلسطينية بالنسبة اليهم مجرد غوغاء يتلاعب بها المهيجون الاقطاعيون والافندية ولا تحركها الدوافع القومية. ويرى سمحا فلابان ان وايزان كان يؤمن ايماناً راسخاً بان تمرد هذه الجماهير ليس تعبيراً صادقاً عن حركة قومية خلاقة وانما كانت تمليه الاعتبارات الاقطاعية والقبلية الضيقة.

والى جانب هذا، كان الصهاينة يرون الفلسطيني او العربي حيواناً او مخلوقاً اقتصادياً محضاً تحركه الدوافع الاقتصادية المباشرة. ولذا، فيمكن حل المشكلة العربية (حسب هذا التصور) في اطار اقتصادي لا يكون سياسياً بالضرورة. ولعل من الامثلة الاولى على هذه الاستراتيجية الادراكية رشيد بك، هذا العربي الذي تم تخليقه حسب المواصفات

الصهيونية في رواية هرتزل الارض الجديدة القديمة، فهو يؤكد ان الوجود الصهيوني قد عاد على العرب بالنفع الكبير: لقد زادت صادرات البرتقال عشر مرات، كما ان الهجرة اليهودية كانت خيراً وبركة، خصوصاً بالنسبة لملاك الاراضي النهم باعوا ارضهم بأرباح كبيرة. وظل لفيف من الصهاينة يؤمنون ايماناً راسخاً بامكان التغلب على معارضة الفلسطينيين عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمة التي سيجلبها الاستيطان الصهيوني، وعن طريق حثهم على الرحيل الى البلاد العربية بعد اعطائهم التعويض الاقتصادي المناسب عن وطنهم. وكانت احدى القناعات الادراكية عند وايزمان ان تطور فلسطين سيؤدي الى ان يفقد العرب الاهتمام بالمعارضة السياسية.

ويؤكد وولتر لاكير وغيره من المؤرخين ان السياسة الرسمية للصهيونية في العشرينيات (ويمكن ان نضيف: وبعدها) هي عدم الدخول في مناقشات سياسية مع العرب، باية حال، وحصر أي تفاوض في التعاون الاقتصادي وحده، وعدم التعرض لطبيعة النظام السياسي. ويلاحظ ان الاستراتيجية الادراكية هنا تهدف الى اسقاط الطبيعة القومية لردة الفعل العربية. فلو تم تصنيفها كحركة قومية فان منطق التصنيف نفسه يؤدي الى ضرورة الاعتراف بالعرب كجماعة قومية لها ارض قومية وتراث قومي ومجال قومي ومجموعة من الحقوق القومية تنسف الادعاءات الصهيونية القومية بشأن الاولوية القومية الازلية لليهودي في أرض فلسطين.

ومع هذا، فقد كانت القومية العربية احياناً تفرض نفسها على الادراك الصهيوني فرضاً كدافع محرك للجماهير العربية. وهنا، كان الصهاينة يتبينون استراتيجيتين اخريين هما في جوهرهما تعبير اكثر حذقاً وصقلاً عن محاولة تهميش العربي ونزع الصبغة السياسية عنه. اما الاولى، فهي الاعتراف الجزئي بالطبيعة القومية للثورات الفلسطينية مع تفسيرها تفسيراً يجردها من مضمونها الانساني ويفصلها عن الحركات القومية المماثلة فتصبح بالتالي قومية ناقصة لا تستحق ان تحصل على اية حقوق. والقومية العربية، حسب هذا الادراك، ان هي الا قومية مصطنعة تابعة للانجليز وللقوى الخارجية وعميلة لهم. كما ان الصهاينة كانوا أحياناً يرون القومية العربية مجرد رد فعل للاستيطان الصهيوني ليست لها وجودها الحقيقي، ومحاولة لسلب الصهيونية ليست لها دينامية ذاتية مستقلة. وكان الصهاينة العماليون يصفون القومية العربية بانها قومية رجعية، او كما قال حاييم ارلوسوروف فانهم قومية تهيمن عليها قوى الرجعية الاجتماعية والطغيان السياسي ولم تبرز داخلها قيادات سياسة

مثل صن يات صن أوغاندي.

واما الاستراتيجية الادراكية الثانية، فهي مواجهة القومية العربية كأمر واقع يفرض نفسه فيتم الاعتراف بها كقومية كاملة مع تقليص مجال فعاليتها بحيث لا تضم الفلسطينيين. ويقول احد مؤرخي الحركة الصهيونية ان الاسهام الأساسي لوايزمان في النظرة الصهيونية الى العرب تتلخص في تمييزه بين العرب والفلسطينيين، إذ كان يرى إمكانية التوصل الى اتفاق مع القومية العربية، بل مساومتها، مقابل أن يتخلى العرب عن مطالبهم في فلسطين. وكان ايضاً، حسبما ورد في كتاب فلابان، صاحب النظرية القائلة بأن فلسطين جزء غير مهم من الوطن العربي الكبير. وكان ارلوسورف موافقاً على التعاون مع العرب، ولكنه كان متشائماً بشأن التعاون مع الفلسطينيين. ويمكن أن نرى مفاوضات وايزمان / فيصل ومعظم اتصالات الصهاينة مع العرب في هذا الإطار. بل إن الصهاينة قدّموا عام 1930 مشروعاً طرحه موشيه بينكوس نائب رئيس تحرير دافار ونال تأييد بن جوريون الحذر، وهو في جوهره تعبير عن هذه الاستراتيجية. كان المشروع يدعو الى اقامة دولة يهودية في فلسطين تصبح جزء من اتحاد فيدرالي يضم الشرق العربي بأسره. وكان المفروض أن يشكل الفلسطينيون اقلية داخل الدولة المفتوحة، ولكنها هي نفسها كانت تشكل اقلية داخل اتحاد الدول العربية.

ولعل هذه الاستراتيجيات الادراكية هي أذكى الاستراتيجيات على الإطلاق وأكثرها تفرّد ودهاء وتعبيراً عن خصوصية الصهيونية كحركة استيطانية احلالية لا تهدف الى غزو العالم واستعباده (على طريقة النازية) وإنما الى الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وحدها دون سكانها. فعملية التهميش هنا تصبح مقصورة على الضحية المباشرة، أي الفلسطيني، دون حاجة الى استجلاب عداء الآخرين، سواء في الشرق أو في الغرب. ولا تزال محاولة تهميش العرب نمطاً اساسياً في الادراك الاسرائيلي للعربي.

تغييب العربي

إن ذكر العرب، ولو في مجال التشهير بهم، هو اعتراف ضمني بهم، ولكن الصهاينة يحاولون اخفاء العرب بإدخالهم في مفهوم مقولة (الأغيار) المجردة. هذا الاتجاه يصل الى قمته فيما يمكن ان نسميه مقولة (العربي الغائب)، فبدلاً من الاخفاء الجزئي خلف مقولة مجردة، تصل محاولة الاخفاء الى حد الاغفال الكامل، فالصهاينة احياناً لا يذكرون العربي بخير او شر، ويلزمون الصمت حيال الضحية، ويظهرون عدم الاكتراث الكامل بها (وهذه احدى سمات الخطاب الصهيوني).

ومقولة (العربي الغائب) كامنة في مقولة (اليهودي الخالص). وكلما تزايدت معدلات الحلولية العضوية وتركزت القداسة في اليهود، اتسعت الدائرة وزاد استبعاد الآخر تدريجياً الى أن يختفي تماماً ويغيب حين يصبح اليهودي الخالص هو اليهودي المطلق ذي الحقوق المطلقة الخالدة التي لا تتأثر بوجود الآخرين او غيابهم. وهكذا، فإن نظرية الحقوق المطلقة تعني غياب أية حقوق أخرى غياباً تاماً.

ويفسر بعض المفكرين ظاهرة العربي الغائب بأنها محاولة للتهرب من حقيقة صلبة تتحطم عندها كل الآمال الصهيونية. فيقول عالم السياسة الاسرائيلي شلومو افنيري: (إن الرواد الصهاينة الاولون لم يكن في مقدورهم مواجهة حقيقة أن ثمن الصهيونية هو نقل العرب، ولذا أخذت آليات الدفاع عن النفس شكل تجاهل تعيّن المشكلة العربية. فالتمسك بالرؤية الصهيونية لمي كن ممكناً دون اللجوء بشكل غير واع لخداع النفس). ويقول المفكر الاسرائيلي، يهوشاوا ليبوفيتس: إن الصهاينة الأوائل لم يريدوا (لأسباب نفسية واضحة) رؤية الحقيقة، ولم يدركوا أنهم كانوا يضللون أنفسهم ورفاقهم. ومهما كانت الدوافع، فإن من الواضح أن الصهاينة ارادوا أرض فلسطين دون فلسطينيين (أرضاً بلا شعب)، ولذا كان يجب أن يختفي العرب ويزولوا.

وإفراغ فلسطين من كل سكانها او معظمهم (أي تغييبهم) هو أحد ثوابت الفكر الصهيوني، وهو عنصر متضمّن بشكل صامت في الصيغة الصهيونية الأساسية. وهذا امر منطقي ومفهوم، إذ لو تم الاستيلاء على الأرض وبقي سكانها عليها لأصبح تأسيس الدولة الوظيفية مستحيلاً، ولتم تأسيس دولة عادية تمثّل مصالح سكانها بدرجات متفاوتة من العدل والظلم. فيهودية الدولة (مع افتراض تغييب السكان الاصليين) هو ضمان وظيفيتها وعمالتها.

ومن هنا، كان اختفاء العرب حتمياً، ومن هنا كانت الصفة الأساسية للاستعمار والاستيطان الصهيوني وهي كونه استعماراً احلالياً، فصهيونيته تكمن في احلاليته، كما ان احلاليته هي التعبير الحتمي عن صهيونيته (ويهوديته المزعومة).

ورغم أن رصد مقولة (العربي الغائب) وتوثيقها أمر بالغ الصعوبة لأن ما هو غائب لا يمكن رصده وتوثيقه بالطريقة التقليدية التي تعتمد على الاقتباسات والنصوص وتحليلها. ومع هذا، فإن هناك عدداً كبيراً من التصريحات والمفاهيم الصهيونية لا يمكن فهمها إلا في اطار مقولة (العربي الغائب). ويمكن ان يندرج تحت هذا كل ذلك الحديث المستفيض

عن الأرض المقدسة وإرتس يسرائيل وصهيون وأرض الميعاد، فهو حديث يستند في نهاية الأمر الى افتراض غياب فلسطين العربية. والحديث عن استيطان المهاجرين من روسيا القيصرية باعتبارها (عاليا)، أي (صعود)، والحديث عنهم باعتبارهم (معبيليم)، أي يهود يدخلون فلسطين كما دخلها العبرانيون القدامى رغم كل الصعاب والعوائق، هو أيضاً حديث يفترض غياب العرب وغياب تاريخهم. بل إنه يمكن القول بأن المصطلح الصهيوني ككل (نفي، عودة، تجميع المنفيين ... الخ) يفترض هذا اليهودي الخالص الذي يفترض بدوره العربي الغائب. وقراءة أي نص صهيوني وفهم أي برنامج صهيوني امر صعب جداً، إن لم يكن مستحيلاً، من دون افتراض مقولة العربي الغائب كمثل أعلى ونقطة تحقق للاستعمار الاستيطاني الاحلالي الصهيوني.

الفصل السادس

الاستعمار الاستيطاني: الغربي والصهيوني

من المشاكل الرئيسة التي تقابل الباحث العربي والدارس للصهيونية، هي طريقة تصنيف هذه الظاهرة. إذ يبحث كثير من الدارسين عن الأصول اليهودية للصهيونية في التوراة والتلمود والبروتوكولات ويسقطون فيما أسميه النصوصية، أي نزع النصوص المختلفة من الكتب المقدسة (ونصف المقدسة وغير المقدسة) اليهودية، وتصور أن مثل هذه النصوص تفسر سلوك اليهود (إذ أن التصور السائد هو وجود علاقة تقابل كامل بين هذه النصوص وواقع اليهود الاقتصادي والاجتماعي والتاريخي).

وينتج عن هذا أن الباحث العربي يخفق في التمييز بين الجوهر والعرض، وبين الحقيقة والديباجة. ونحن نذهب الى أن الصهيونية نشأت في أحضان الاستعمار الغربي، وأنها ظاهرة استيطانية احلالية، لا تختلف في جوهرها عن أية حركة استعمارية أخرى.

اسطورة الاستعمار الاستيطاني: الغربي والصهيوني

يمكن تعريف الاستعمار الاستيطاني بأنه انتقال كتلة بشرية من مكانها وزمانها الى مكان وزمان آخر، حيث تقوم الكتلة الواحدة بإدارة السكان الأصليين او طردهم او استعبادهم، او خليط من كل هذه الأمور (كما حدث في أميركا الشمالية وفي فلسطين). ومهما بلغ الإنسان من وحشية

وحياد، فهو لا يستطيع القيام بمثل هذه الأفعال إلا إذا كان هناك مبرر، من هنا لجأ الاستعمار الاستيطاني الغربي الى الديباجات والى الاسطورة التي نعرفها بأنها نموذج معرفي، أي رؤية كاملة للكون (الإله ـ الإنسان ـ الطبيعة)، علاقتها بالواقع واهية الى أقصى درجة ولكنها تظل ـ مع هذا ـ بالنسبة للبعض دليل للعمل للإنسان الذي يتحرك في اطارها. ويمكن تلخيص السمات الأساسية لأسطورة الاستعمار الاستيطاني الغربي والصهيوني فيما يلي:

1ـ جوهر الاسطورة، أية اسطورة، هو الغاء الزمان او تجميده والانفصال عن المكان، وعرّف عالم الانثرويولوجيا الفرنسي كلود ليفي شتراوس الاسطورة بأنها آلة لكبح جماح الزمان. هذا الاتجاه يأخذ شكلاً متطرفاً في حالة اسطورة الاستعمار الاستيطاني بشكل عام، فهو ينطلق من الإنكار الكامل للتاريخ بشكل متطرف، وإعلان نهايته. ولكن يزداد الإنكار حدة وعنفاً في حالة المجتمعات الاستيطانية الإحلالية، التي لابد أن تغيّب السكان الأصليين تماما. ونقطة البداية عند المستوطنين البيض المهاجرين من العالم الغربي هي عادة رفض تاريخ بلادهم الأصلية، باعتباره تاريخ (اضطهاد وكفر) وفساد. ويحاول المهاجرون أن يضعوا (حلاً نهائياً) لمشاكلهم وأن يبدأوا من نقطة الصفر الفردوسية في الأرض الجديدة. ومع هذا عادة ما يتباهى هؤلاء المستوطنون بانتمائهم للعالم الغربي الذي لفظهم.

ويتضح هذا الجانب في أسطورة الاستيطان الصهيونية التي تبدأ برفض تاريخ اليهود في المنفى (وضمن ذلك العالم الغربي). ثم تطرح الصهيونية الحل النهائي: الاستيطان في صهيون باعتباره نقطة البداية والصفر. ومع هذا لا يكف الصهاينة عن الحديث عن دولتهم باعتبارها واحة الديموقراطية الغربية في الشرق وقاعدة الحضارة الغربية فيه.

2ـ ينكر المستوطنون البيض تاريخ السكان الأصليين في الأرض التي سيهاجرون اليها ويستوطنون فيها. فهي عادة ـ حسب ادعائهم ـ أرض عذراء بلا تاريخ، غير مأهولة بالبشر (أرض بلا شعب)، على عكس الأرض التي يأتي منها المستوطنون، فهي مكتظة بالسكان.

ومرة أخرى نجد ان اسطورة الاستيطان الصهيونية تعبر عن هذا بشكل متبلور، إذ يزعم الصهاينة أن فلسطين هي اسرائيل او صهيون، وأن تاريخها قد توقف تماماً برحيل اليهود عنها. بل إن تاريخ اليهود انفسهم قد توقّف هو الآخر برحيلهم عنها، ولن يستأنف هذا التاريخ إلا بعودتهم اليها، ولكنه تاريخ جديد خال من الاضطهاد والصراع، فهو أقرب الى التاريخ

المقدّس.

3ـ لا تؤكد اسطورة الاستيطان الغربية نهاية التاريخ وحسب وإنما نهاية الجغرافيا كذلك، فالأرض التي يستوطن فيها الإنسان الأبيض هي أرض وحسب، ليس لها حدود واضحة، ولذا فهي تتسع حسب قوة الإنسان الأبيض الذاتية، كلما زاد عدد المستوطنين وازدادوا قوة اتسعت الحدود. ومن هنا فكرة الرائد والجبهة المتسعة دائماً. والرائد هو الذي يرتاد ارضاً جديدة دائماً، لا يعرف حدوداً ولا قيوداً ولا سدود. وارتباط نهاية التاريخ بنهاية الجغرافيا أمر متوقّع، ففكرة الحدود فكرة إنسانية حضارية غير طبيعية، اما عالم الطبيعة فلا يعرف الإنسان، ومن ثم فهو لا يعرف الحدود.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية هي أسطورة التوسع بالدرجة الأولى، فإرتس يسرائيل ليس لها حدود واضحة، فالعهد القديم يحتوي أكثر من خريطة. والمستوطنون الصهاينة اطلقوا على أنفسهم مصطلح (حالوتسيم)، أي (رواد).

4ـ إذا حدث أن كانت (الأرض العذراء) مأهولة بالسكان فإن اسطورة الاستيطان الغربية تحاول تهميشهم، فهم قليلو العدد متخلفون يفتقرون الى الفنون والعلوم والمهارات المختلفة، يهملون الثروات الطبيعية الكامنة في الأرض. وهم عادة مجرد رحالة لا يستقرون في أرض ما، وهم شعب لا تاريخ له، فأعضاؤه جزء لا يتجزأ من الطبيعة (كالثعالب والذئاب) ومن ثم لا حقوق لهم. لكل هذا فإن وجود مثل هؤلاء الناس هو وجود عرضي ومن الضروري وضع حل جذري ونهائي للمشكلة الديموغرافية، أي مشكلة وجود السكان الأصليين في الأرض العذراء، وضرورة اجتثاث شأفتهم تماماً.

وأسطورة الاستيطان الصهيونية تنظر للوجود الفلسطيني باعتباره امراً عرضياً هامشياً، والديباجات الصهيونية مليئة بالحديث عن فلسطين باعتبارها ارض مهجورة مهملة، وكثيراً ما يتحدث الصهاينة عن الفلسطينيين كما لو كانوا جزءاً من الطبيعة بلا تاريخ. وكل هذا ينتهي بطبيعة الحال بتأكيد حق اليهود المطلق في فلسطين (ومن هنا قانون العودة) وينكرون هذا الحق على الفلسطينيين (ومن هنا مخيمات اللاجئين). وتحاول الحركة الصهيونية وضع حل نهائي للمشكلة الديموغرافية فقامت احياناً بالإبادة (دير ياسين ـ كفر قاسم) ولكن الطرد كان الشكل الأساسي. وبعد اتفاقيات اوسلو أخذ الحل النهائي شكل عزل السكان الاصليين داخل مجموعة من القرى والمدن ومحاصرتهم بالقوات

العسكرية الاسرائيلية والطرق الالتفافية.

5ـ تم تبرير الرؤى الاستيطانية الإحلالية عن طريق القصص الانجيلية، وهنا يحدث تلاق كامل بين أسطورة الاستيطان الغربية العامة وأسطورة الاستيطان الصهيونية. فالمستوطنون البيض (وضمنهم الصهاينة) ينظرون الى أنفسهم باعتبارهم من الآباء (البطارقة) الذين تركوا بلادهم ليستقروا في بلاد أكثر اتساعاً، او في أرض عذراء لم يستوطن فيها أحد من قبل. وهم مثل العبرانيين يخرجون من مصر (أو بابل) أرض المنفى البغيضة، وينسلخون من تاريخها ليعودوا الى صهيون (الجديدة) بأن (يصعدوا) لها. فإن وجدوها مأهولة فأهلها إذن من الكنعانيين الذين لا حق لهم في الأرض ومصيرهم هن الحل النهائي: الطرد أو الإبادة.

وغني عن القول أننا حينما نتحدث عن (اسطورة) فنحن لا نتحدث عن واقع تشكل ولا حتى عن برنامج عمل، وإنما عن قصة او قصص يوجد فيها بشكل كامن نموذج معرفي، وهذه القصة مستبطنة تماماً، تعبّر عن نفسها بشكل جزئي وتتحقق بعض جوانبها في أماكن وأزمنة متفرقة، ولا تتحقق مجتمعة إلا في لحظة نماذجية نادرة.

الاستعمار الاستيطاني الصهيوني: اهدافه وآلياته وسماته الأساسية

وضع الرؤية (او الاسطورة) الصهيونية موضع التنفيذ لم يكن أمراً سهلاً، إذ أن المستوطنين الصهاينة حلّوا في أرض لا يعرفونها وهي أرض مأهولة بالسكان، ومن هنا كان من الضروري أن ينظّموا أنفسهم بطريقة صارمة، وأن تكون لهم مؤسساتهم الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ. وقد فرض هذا على الاستعمار الاستيطاني كثيراً من سماته ومن أهمها العنف والطابع العسكري المتكامل (أنظر الفصل السابع). فتم تأسيس الوكالة اليهودية ومهمتها القيام بمعظم عمليات التخطيط والتطبيق الفعلي لهجرة وتدريب المستوطنين وتأمين كل ما يحتاجونه من وسائل وأدوات انتاج وخدمات للمهاجرين. وكانت مهمة الصندوق القومي اليهودي شراء الأراضي لصالح الفلسطينيين. وتعتبر المؤسسة العسكرية والتنظيمات شبه العسكرية من أبرز القواعد التي تضطلع بتطبيق المخطط الاستيطاني الصهيوني والمحافظة على استمرار العملية الاستيطانية وحمايتها. فتقوم المؤسسة العسكرية بتعبئة الجماهير وتجنيدهم حول فكرة الاستيطان باعتبارها المثل الأعلى للمواطن الاسرائيلي. أما التنظيمات العسكرية وشبه العسكرية مثل الهاجاناه والناحال والجدناع فتقوم بأدوار الحراسة والأدوار

الامنية ورفع الروح المعنوية.

ويمكن القول بأن الأهداف والسمات الأساسية للاستيطان الصهيوني هي ما يلي:

1ـ يهدف الاستيطان الصهيوني الى أن تحل الكتلة البشرية (الصهيونية) الواحدة محل السكان الأصليين فهو استعمار إحلالي، واحلاليته هي سمته الأولى والأساسية (حتى عام 1967).

2ـ حددت منظمة الهاجاناه جوهر الاستراتيجية الاستيطانية عندما أكدت (عام 1943) أن الاستيطان ليس هدفاً في حد ذاته، وإنما هو وسيلة الاستيلاء السياسي على البلد، أي فلسطين. وقد استمرت هذه السياسة قبل وبعد عام 1948، أي أنها العنصر الأساسي الثابت في الاستراتيجية الصهيونية. ومن ثم عرّف بن جوريون الصهيونية بأنها الاستيطان، وهو محق في ذلك تماماً. ولذا يمكن القول بأن الاستيطان هو نفسه التوسع الصهيوني، لا يوجد أي فاصل بينهما. وهذه هي السمة البنيوية الثانية من سمات الاستيطان الصهيوني.

3ـ ارتبط انتشار المستوطنات بحركة الهجرة اليهودية، وهو ما جعل استراتيجية الاستيطان تتخذ خطاً متوازياً مع الخطوات التي قطعها المشروع الصهيوني لجذب المهاجرين اليهود واقتلاعهم من البلاد التي أقاموا فيها.

4ـ من الملاحظ أن المؤسسات الاستيطانية الصهيونية تقف على رأسها بدلاً من أن تقف على قدميها (ويمكن ان نسميها الهرم الاستيطاني الصهيوني المقلوب)، فقد كان هناك مزارع الكيبوتس وهي تنظيمات زراعية هدفها الاستيلاء على الأرض التي ستزرع وتكوين طبقة مزارعين يهود. كما كان هناك الهستدروت، وهو نقابة عمال تهدف الى خلق الطبقة العمالية (وذلك على خلاف النقابات العمالية التي لا تظهر إلا كتعبير عن وضع قائم بالفعل). ثم كانت هناك جماعات الحراس المختلفة مثل الحارس والهاجاناه والبالماخ وهي تنظيمات عسكرية تهدف الى خلق الشعب اليهودي (أي أن الجيش يسبق الشعب، او كما قال شاعر اسرائيلي، كل الشعوب تملك سلاح الطيران الا في اسرائيل حيث يوجد سلاح طيران يملك شعباً). بل إن الجامعة العبرية نفسها أسست بادئ الأمر كمبان وهيئة تدريس في انتظار الطلبة. ويمكن سحب هذا المنطق على كل الحركة الصهيونية، فهي قد بدأت بتأليف الحكومة التي كان هدفها الأساسي اقامة الدولة التي كانت ترمي اساساً الى تجميع السكان (حكومة فدولة فشعب). وما من شك في أن هذا يعود الى أن الصيغة

الصهيونية الأساسية الشاملة هي صيغة غير يهودية تم تهويدها لتجنيد المادة البشرية التي رفضت هذه الصيغة او تملّصت منها. كما أن الأصول الطبقية لبعض العناصر البشرية المستوطنة صعّبت عليهم الاضطلاع بوظائف معينة، ولذا كان حتمياً أن يسبق عملية الاستيطان مؤسسات استيطانية مختلفة، مهمتها جذب المستوطنين وتدريبهم. كما أن من أهم سمات الاستيطان الصهيوني أن الكيان الاجتماعي الصهيوني في فلسطين لم يكن متكاملاً، بل كان في مرحلة بداية التكوّن والتشكّل، ولم يكن هدف المستوطنين الاندماج في المجتمع القائم بل إقامة كيان اجتماعي وسياسي مستقل.

5ـ يتسم الاستيطان الصهيوني بأنه استيطان جماعي عسكري بسبب الهاجس الأمني (استجابة لمقاومة السكان) ولأن جماعة المستوطنين ترفض الاندماج في المحيط الحضاري الجديد الذي انتقلت اليه. وتساهم عمليات التمويل من الخارج في تعميق هذه السمة.

6ـ الاستيطان الصهيوني ليس مشروعاً اقتصادياً وانما مشروع عسكري استراتيجي، ولذا فهو لا يخضع لمعايير الجدوى الاقتصادية، ولابد أن يموّل من الخارج (الخارج يمكن أن يكون الدياسبورا اليهودية الثرية (أي الجماعات اليهودية في العالم) او الراعي الامبريالي).

ويعد عام 1967 لحظة فارقة في تاريخ الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، إذ ضمت الدولة الصهيونية مساحات شاسعة من الأراضي، وقررت الاحتفاظ بها وتأسيس المستوطنات فيها، رغم وجود كثافة سكانية فلسطينية فيها. ومن ثم تحوّل الاستعمار الاستيطاني الصهيوني من استعمار استيطاني احلالي الى استعمار استيطاني مبني على الابارتهايد وفكرة المعازل البشرية للسكان الاصليين. ولكن، مع هذا، لم تتغير الثوابت الاستراتيجية الصهيونية، وإن اختلفت الأهداف والآليات بسبب تغير الظروف.

ويمكن تحديد أهداف الاستيطان الصهيوني في الأراضي المحتلة بعد عام 1967 بما يلي:

1ـ أن تكون المستوطنات رأس جسر لكسب مزيد من الأرض من خلال نزع الملكية او سبل اخرى اكثر دهاء مثل ازالة المزروعات واقتلاع الأشجار ورفض التصريح بإقامة مبان جديدة او إصلاح المباني القديمة.

2ـ خلق الحقائق الاستيطانية الجديدة في الأراضي المحتلة بحيث تصبح العودة الى حدود عام 1967 مستحيلة. ومما يجدر ذكره أن الأستيطان قام، دائماً، بدور أساسي في رسم حدود الكيان الصهيوني، وخصوصاً منذ

بداية عرض خطط تقسيم فلسطين في النصف الثاني من الثلاثينيات، وصولاً الى صدور قرار تقسيمها سنة 1947. ولاشك في أن الإسرائيليين يطمعون في أن يقوم الاستيطان الجديد بدور مماثل في توسيع حدود كيانهم.

واستهدفت السياسة الاستيطانية بناء خط من المستوطنات من الجولان حتى شرم الشيخ مروراً بغور الأردن. وأهم مشروع استيطاني كان مشروع ايجال آلون الذي استهدف بناء حاجز بين الضفتين الغربية والشرقية وتصحيح الحدود وتعديل مسار الخط الأخضر، وتجزئة الضفة الغربية الى منطقتين.

3ـ ايجاد القاعدة البشرية من المهاجرين اليهود من مختلف انحاء العالم.

4ـ بعد فشل الصهاينة في (اقناع) الفلسطينيين (عن طريق شراء الأراضي والارهاب) بترك الأرض بحيث تصبح ارضاً بلا شعب، قرر الصهاينة اللجوء الى اسلوب الابارتهايد التقليدي وهو تأسيس المعازل، ومن ثم اصبح من أهم أهداف المستوطنات قطع التواصل بين مناطق سكنى الفلسطينيين، بحيث ينقطع الاستعمار بين المراكز السكانية الفلسطينية الأساسية، أي أن وظيفة المستوطنات اصبحت تحويل الضفة الغربية الى كانتونات ممزقة مفصولة بعضها عن بعض ولا تربطها سوى ممرات محدودة تحيط بها من كل جانب المستوطنات والثكنات العسكرية للجيش الاسرائيلي بحيث لا يستطيع الفلسطينيون التحرك بحرية داخل الاراضي المحتلة. وبالفعل قامت المستوطنات الموزعة في كتل أو أطواق بخدمة استراتيجية (الفصل) و(الوصل) الاستيطانية.

5ـ تهيئة الفرصة لوجود عسكري اسرائيلي، سواء من خلال قوات الجيش الرئيسية او عن طريق الاستعانة بمستوطنين مسلحين يتبعون هذه القوات او باستخدام وحدات من جيش الاحتلال يتم نشرها.

الجيبان الاستيطانيان في اسرائيل وجنوب افريقيا: منظور مقارن

يأخذ الاستعمار الاستيطاني شكل هجرة جماعية منظمة لكتلة سكانية من العالم الغربي لأرض خارج أوروبا. وتتم هذه الهجرة تحت الإشراف الكامل لدولة غربية لها مشروع استعماري (تسمّى (الدولة الأم)) أو بدعم مالي وعسكري منها. ويوجد نوعان من الاستعمار الاستيطاني:

1ـ الاستعمار الاستيطاني الذي يهدف لاستغلال كل من الأرض ومن عليها من البشر، وهذا هو الاستعمار الاستيطاني المبني على التفرقة اللونية

(التي يقال لها الابارتهايد). وجنوب افريقيا من أفضل الأمثلة على ذلك النوع من الاستعمار. كما يمكن القول بأن الولايات المتحدة ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر تنتمي هي الأخرى لهذا النمط.

2ـ الاستعمار الاستيطاني الذي يهدف الى استغلال الأرض بدون سكانها، وهذا هو النوع الإحلالي حيث يحل العنصر السكاني الوافد محل العنصر السكاني الأصلي الذي يكون مصيره الطرد او الإبادة. والولايات المتحدة في سنوات الاستيطان الأولى هي أكثر الأمثلة تبلوراً على هذا النوع من الاستعمار. والدولة الصهيونية مثل آخر (وإن كانت الإبادة هي الآلية الأساسية في حالة الولايات المتحدة، بينما نجد أن الطرد هو الآلية الأساسية في حالة الدولة الصهيونية). وكما تحولت الولايات المتحدة من النظام الاستيطاني الإحلالي الى النظام المبني على الأبارتهايد، تحولت الدولة الصهيونية هي الأخرى بعد عام 1967 من النظام الإحلالي الى النظام المبني على الأبارتهايد.

وهكذا يمكن القول بأنه رغم الاختلاف العميق بين اسرائيل وجنوب افريقيا من منظور مرحلة التكوين الأولى، إلا أن التطورات التاريخية اللاحقة جعلت نقط التماثل بين الجيبين الاستيطانيين أكثر أهمية من نقط الاختلاف بينهما، ولها مقدرة تفسيرية أعلى.

ولنحاول الآن أن نتناول بعض نقط الالتقاء هذه:

1ـ كلتا الدولتين بدأ كجيب استيطاني يخدم المصالح الغربية على عدة مستويات (قاعدة استراتيجية وعسكرية، استيعاب الفائض البشري، عمالة رخيصة، مصدر للمواد الخام) نظير الدعم والحماية الغربيين. وليس من قبيل الصدفة أن الشخصيات الأساسية وراء اصدار وعد بلفور هي نفسها الشخصيات التي كانت وراء إصدار اعلان اتحاد جنوب افريقيا وهم: آرثر بلفور ولويد جورج واللورد ملنر وإيان سمطس.

2ـ كانت الدولة الامبريالية الأم عادة ما تعطي احدى الشركات حق استغلال رقعة من الأرض ثم تتحول هذه الشركة نفسها الى حكومة المستوطن. وقد قامت المنظمة الصهيونية / الوكالة اليهودية بهذا الدور في حالة المشروع الصهيوني.

تستمر العلاقة بين الدولة الأم والجيب الاستيطاني حتى بعد اعلان (استقلال) الدولة، إذ أن الدولة الاستيطانية ترى نفسها جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الحضاري الغربي.

ومع هذا لا تتسم العلاقة بين الوطن الأم والدولة الاستيطانية بالمودة

دائماً، فرغم ادعاء الرابطة الحضارية إلا أن العلاقة مع الوطن الأم هي علاقة نفعية. فالدولة الاستيطانية دولة وظيفية يستند وجودها الى وظيفتها. فإن فقدت وظيفتها أو أصبحت تكاليف دعمها أعلى من عائدها فقدت وجودها (كما حدث مع كل الجيوب الاستيطانية ومنها جنوب افريقيا). وعادة ما يحدث الصدام بين الوطن الأم والجيب الاستيطاني بسبب اختلاف رقعة المصالح. فالوطن الأم له مصالح عالمية امبريالية عريضة، أما الجيب الاستيطاني فمصالحه محلية ضيقة. وأحياناً يأخذ التوتر شكل مواجهة مسلحة (حرب بريطانيا مع البوير ـ المواجهة العسكرية بين حكومة الانتداب البريطاني وبعض المنظمات العسكرية الصهيونية ـ المواجهة العسكرية بين الحكومة الفرنسية والمستوطنين الفرنسيين في الجزائر)، أو مواجهة سياسية (موقف الدول الغربية من نظام الأبارتهايد ـ التوتر بين الولايات المتحدة واسرائيل ابان حرب 1956).

4ـ يلاحظ أن الخطاب الاستعماري الاستيطاني خطاب توراتي. فالمستوطنون سواء في جنوب افريقيا او اسرائيل هم (عبرانيون) او (شعب مختار) أو (جماعة يسرائيل)، وديباجات المستوطنين عادة ديباجات توراتية، فالأرض التي يستولون عليها هي صهيون، أرض وعد الإله بها أعضاء هذا الشعب دون غيرهم. والسكان الأصليون إن هم إلا (كنعانيين) او (عماليق)، وجودهم عرضي في هذه الأرض (أو غير موجدين أساساً). ولذا فمصيرهم الإبادة او الطرد او ان يتحولوا الى عمالة رخيصة.

5ـ عادة ما ترى الجيوب الاستيطانية نفسها باعتبارها موجودة عرضاً في المكان الذي توجد فيها (افريقيا أو العالم العربي) ولكنها، في واقع الأمر، ليست منه. وذلك لأنها جزء من التاريخ الاوروبي (وإن كان الصهاينة ايضاً يرون أنفسهم جزءاً من التاريخ اليهودي).

ومع هذا يمكن القول بأن الكتل الاستيطانية عادة كتل معادية للتاريخ، فقد جاء المستوطنون

من اوروبا التي لفظتهم الى ارض عذراء (صهيون الجديدة) لا تاريخ لها ـ حسب تصورهم ـ يمكنهم ان يبدوا فيها من نقطة الصفر. (وإنكار تاريخ البلج الجديد مسألة اساسية من الناحية المعرفية والنفسية، لأن المستوطنين لو اعترفوا بوجود تاريخ لسانه الأصليين لفقدوا شرعية وجودهم).

6ـ عادة ما يتبنّى الجيب الاستيطاني رؤية قومية عضوية، إذ يرى المستوطنون أن ثمة وحدة عضوية تضمنهم كلهم وتربطهم بأرضهم. هذا على مستوى الإدراك والرؤية، أما على مستوى البنية الفعلية فالأمر جد

مختلف. ففي جنوب افريقيا ـ على سبيل المثال ـ نجد أن المستوطنين هناك قد انقسموا الى شيع وجماعات، ولكن الانقسام بين العنصر الهولندي والعنصر البريطاني يظل أهم الانقسامات. وفي اسرائيل نجد أيضاً انقسامات حادة بين أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة التي هاجرت الى اسرائيل، ولكن مع هذا يظل الانقسام الأساسي هو الانقسام بين السفارد والإشكناز.

7ـ يتفرع من هذا كله خطاب عنصري يؤكد التفاوت بين الكتلة الوافدة (التي ينسب لها التفوق العرقي والحضاري)، والسكان الأصليين (الذين ينسب لهم التخلف العرقي والحضاري).

8ـ ويترجم هذا نفسه الى نظرية في الحقوق. فحقوق الكتلة الاستيطانية حقوق مطلقة، أما السكان الأصليون فلا حقوق لهم، وإن كان ثمة حقوق فهي عرضية (كنعانية) تجبّها حقوق المستوطنين (العبرانيين !).

9ـ انطلاقاً من كل هذا يتحدد مفهوم المواطنة في البلدين، فالمواطن ليس من يعيش في الجيب الاستيطاني وإنما هو صاحب الحقوق المطلقة، أي اليهودي في الدولة الصهيونية والأبيض في جنوب افريقيا. ويتضح هذا في قانون العودة الاسرائيلي الذي يمنح حق العودة لليهود وحسب، كما يتضح في قوانين الهجرة في جنوب افريقيا التي تمنع هجرة غير البيض. هذا يعني أن التمييز العنصري في الجيوب الاستيطانية لا يشكل انحرافاً عن القانون او خرقاً له (كما هو الحال الآن في الولايات المتحدة) وإنما هو من صميم القانون نفسه. فمقولة (يهودي) و(أبيض) هي مقولات قانونية تمنح صاحبها حقوقاً قانونية وسياسية ومزايا اقتصادية تنكرها على من هو غير يهودي في اسرائيل، ومن هو غير أبيض في جنوب افريقيا.

10ـ تترجم نظرية الحقوق (والتفاوت) نفسها الى بنية سياسية واجتماعية وثقافية. فعلى المستوى السياسي ينشأ نظامان سياسيان واحد ديمقراطي حديث مقصور على المستوطنين، والآخر شمولي يحكم علاقة الجماعة الاستيطانية بأصحاب الأرض الاصليين. وبينما يسمح لأعضاء الكتلة الوافدة بالتنظيم السياسي والمهني، يحرم هذا على السكان الأصليين. ويلاحظ أنه رغم أن النظام الاستيطاني نظام غربي حديث إلا أنه يشكل عنصراً أساسياً في محاولات اعاقة تحديث السكان الأصليين.

11ـ أما في المجال الاقتصادي فنجد أن المستوطنين يحاولون الاستيلاء على الأرض إما عن طريق الاستيلاء المباشر او عن طريق شرائها او عن طريق اصدار قوانين تسهل عملية الاستيلاء هذه ونقل الأرض من السكان

الأصليين للمستوطنين. وهذه عملية مستمرة لا تتوقف إذ أن الجيب الاستيطاني بسبب إحساسه بالعزلة وبسبب خوفه من المشكلة الديموغرافية يسمح لمزيد من المهاجرين بالاستيطان، الأمر الذي يتطلب المزيد من الأرض، فيزداد الصراع. وقد قام المستوطنون البيض في جنوب افريقيا بالتوسع على حساب السكان الاصليين البوشمان والهوتنتوت والبانتو، تماماً مثلما قام المستوطنون الصهاينة بالتوسع على حساب الفلسطينيين.

ويتقاضى العمال من السكان الأصليين أجوراً أقل كثيراً من التي يتقاضاها العمال الاستيطانيون. كما أن معظم العمال من السكان الأصليين عليهم الانتقال من أماكن انتقالهم الى أماكن عملهم، وهو ما يعني جهداً اضافياً شاقاً يتجشمه العامل دون مقابل. كما يقوم النظام الاستيطاني بإعاقة تطور اقتصاد محلي للسكان الأصليين أو أي شكل من أشكال التراكم الرأسمالي.

12ـ ويلاحظ على المستوى الثقافي ظهور نظامين قوميين: القومية الأولى قومية أصحاب الأرض الاصليين سواء الفلسطينيين او الأفارقة في كلتا الدولتين، أما القومية الثانية فهي قومية مصطنعة، وهي قومية المستوطنين الذين لا تتوافر لهم في مجموعهم من البداية غالبية خصائص القومية الواحدة. ومع هذا يحتفل (بالقومية) الاصطناعية الواحدة وتصبح رموزها هي الرموز السائدة في الدول الاستيطانية. وفي مجال التعليم، لا تتاح لأبناء السكان الاصليين فرص تعليمية متميزة، خشية أن يحققوا حراكاً اجتماعياً وثقافياً وتظهر بينهم نخبة متعلمة تقود كفاحهم الوطني.

13ـ تواجه الجيوب الاستيطانية مشكلة ديموغرافية دائمة إذ أن السكان الاصليين يأخذون في التكاثر، ولذا لابد أن يضمن الجيب الاستيطاني تدفق الهجرة من الغرب. وتستصدر التشريعات المختلفة لهذا الهدف (كما أسلفنا) وتعد الهجرة قضية امنية عسكرية.

14ـ لابد أن تساند نظرية الحقوق هذه ومحاولة ترجمتها الى بنية اجتماعية وسياسية قدراً كبيراً من العنف الفكري والارهاب الفعلي والقمع المستمر بهدف إبادة السكان او طردهم او استرقاقهم. وآليات الإرهاب تبدأ من عمليات المذابح المباشرة (دير ياسين وشاربفيل) والطرد الجماعي والعقاب الجماعي ووضع السكان في معازل جماعية (البانتوستان في جنوب افريقيا ـ المناطق العسكرية من الضفة في فلسطين المحتلة)، وفرض شبكة أمنية ضخمة وشبكة مواصلات ومجموعة من القوانين (مثل

ضرورة استصدار تصريح من السلطات) بهدف تقييد حرية انتقال السكان الاصليين من مكان لآخر وتقليل الاحتكاك بين السكان الأصليين والمستوطنين.

15ـ رغم كل عمليات القمع هذه يظهر ما يمكن تسميته (شرعية الوجود)، أي احساس المستوطنين الوافدين أن السكان الأصليين لا يزالون هناك يطالبون بحقوقهم ويحاربون من أجلها، وتأكيد هذا الوجود يعني في واقع الأمر غياب / اختفاء المستوطنين. ولذا يصر المستوطنون على أن وجودهم مهدد دائماً. ولذا فهدف الأمن القومي في النظم الاستيطانية هو البقاء (وأهم مقومات البقاء القوة العسكرية وتدفق المادة البشرية بشكل دائم).

وهذا التوافق والإدراك المتبادل لوحدة المصير أدّى الى خلق درجة كبيرة من الاعتماد المتبادل بين الدولتين في عدة مجالات. ففي المجال التجاري كانت العلاقات بين الجيبين الاستيطانيين من القوة بحيث نجد أن جنوب افريقيا ـ قبل زوال النظام العنصري ـ كانت شريكة اسرائيل الأولى في التجارة. ولم يكن التعاون العسكري بين الدولتين أقل قوة، فقد ارسلت الدولة الصهيونية متطوعين اسرائيليين ليحاربوا جنباً الى جنب مع قوات جنوب افريقيا في حربها ضد قوى التحرر الوطني. وشاركت جنوب افريقيا بدورها في امداد اسرائيل بالسلاح في حرب اسرائيل ضد العرب. ويعد التعاون في مجال صناعة الأسلحة من أهم اشكال التعاون، وكانت الدولتان تحاولان تنسيق جهودهما لتحقيق الاستقلال في مجال انتاج المعدات العسكرية وفي مجال السلاح النووي.

ومع بداية التسعينات تمت تصفية كل الجيوب الاستيطانية في انحاء العالم. ولم يتبق غير اسرائيل وجنوب افريقيا: الأولى تقبع على بوابة افريقيا (تفصل بينها وبين آسيا)، والثانية تقبع في اطرافها. فكأنهما كانا يشكلان ما يشبه الكماشة التي تطبق على افريقيا. وبزوال الجيب الاستيطاني في جنوب افريقيا، لم يبق سوى اسرائيل، الحفرية الأخيرة في نظام قضي وانتهى.

الفصل السابع

الطبيعة العسكرية للاستعمار الاستيطاني الصهيوني

تناولنا بعض الصفات الأساسية للاستعمار الاستيطاني، ولكننا سنركز في هذا الفصل من هذه الدراسة عن الصهيونية والعنف، على الجانب العسكري. ويجب أن نؤكد، أن العنف الصهيوني ليس سمة عرضية في الظاهرة الصهيونية الاستيطانية الإحلالية، فهي سمة عضوية جوهرية، لصيقة بسمات الاستعمار الصهيوني الأخرى. ولكن ضرورات التحليل هي التي تطلبت (فصلها) عن بقية الصفات، وتناولها كما لو كانت صفة (مستقلة) عن كل الصفات الأخرى.

الطبيعة العسكرية للاستعمار الاستيطاني الصهيوني قبل عام 1948

اختيرت فلسطين كبقعة لتوطين اليهود فيها وإقامة الدولة الوظيفية القتالية بسبب موقعها الاستراتيجي. ففلسطين ليست معروفة بثرواتها الطبيعية، وهي صغيرة الرقعة، وأرضها ليست خصبة (فهي ليست في ثراء ولا خصوبة أوغندا التي وقع عليها الاختيار في بادئ الأمر لتكون الوطن اليهودي الجديد ثم عدل عنها). وموقع فلسطين هو الذي جعلها ضحية مباشرة للاغتصاب الاستعماري الغربي ثم الصهيوني. وقد قال نابليون: (إن من يسيطر في المعركة على تقاطع الطرق يصبح سيد الأرض). وفلسطين التي تطل على البحر المتوسط والأحمر وقناة السويس، والتي تقسم العالم العربي الى قسمين وتقع على نقطة الالتقاء بين آسيا وأفريقيا، هي ولا شك موقع ممتاز لإقامة قاعدة لخدمة مصالح الاستعمار الغربي ليفرض إرادته وهيمنته. وبالفعل، لا يمكن أن نرى الدولة الصهيونية إلا باعتبارها معسكراً كبيراً يخضع أساساً للاعتبارات الاستراتيجية العسكرية وليس للاعتبارات الاقتصادية.

وينطبق الشيء نفسه على الاستيطان الصهيوني ككل فهو مشروع عسكري بالدرجة الأولى، وهو كذلك الهدف الكامن وراء كل مستوطنة على حدة، فهي كيان صهيوني مصغر في طبيعة بنائها ونوعية اعمال مستوطنيها أنفسهم وموقعها (وبخاصة قبل عام 1948). فهندسة بناء المستوطنات وطبيعة تنظيمها الداخلي آنذاك تكشف عن أغراض هي أقرب ما تكون الى الطبيعة العسكرية البحتة. إذ كان يخطط لبناء المستوطنات في أماكن يسهل الدفاع عنها كرؤوس التلال والهضاب وعلى مشارف الوديان والممرات. وليس من قبيل الصدفة أن تكون اول مستوطنة صهيونية في فلسطين (عام 1868) قد أقيمت على جبل الكرمل المشرف على حيفا. وأن تكون معظم المستوطنات التي انشئت

بعد ذلك، خلال فترة الاستعمار البريطاني، قد انشأت على مفارق الطرق، وعلى المرتفعات المشرفة على أماكن التجمعات العربية في المدن والقرى، وعلى الطريق بين يافا والقدس. وليس غريباً أن نجد أن العسكريين البريطانيين هم الذين اختاروا في بداية الأمر كل المستوطنات الأولى. وليس غريباً أن نجد ان العسكريين البريطانيين هم الذين اختاروا في بداية الأمر كل المستوطنات الأولى. وليس غريباً أن نجد كذلك أن مواقع بعض المستوطنات الزراعية في ذلك الوقت لا تؤهلها للزراعة. وقد بيّن آلون كيف أن الموقع الدقيق للمباني والمنشآت وجميع المرافق في كل مستوطنة جديدة كانت تقرر اختياره هيئة أركان الهاجاناه، بغية تأمين الترتيب الأفضل للهجوم والدفاع (حبيب قهوجي).

وقد كان الفلاحون العرب يسمون هذه المستوطنات (القلاع)، وكانوا محقين تماماً في تسميتهم هذه. فكل مستعمرة صممت لتكون بمنزلة قلعة حصينة قادرة على الدفاع عن نفسها وعن المستعمرات المجاورة ايضاً (وهي تذكر الدارس بالمعبد / القلعة في أوكرانيا إبان حكم الإقطاع الاستيطاني البولندي فيها). ويعتبر هذا التصميم تطبيقاً للتشكيل العسكري الروماني المعروف باسم (الدفاع على شكل أضلاع مغلقة) حيث كانت كل مستعمرة تقوم بتوفير الاحتياجات الأساسية لأعضائها ذاتياً.

ورغم أن المستوطنات كانت مستوطنات زراعية إلا أن الزراعة الاستيطانية لا علاقة لها بالاستثمار الزراعي. فالموقع وليس التربة هو العنصر الذي يتم على أساسه الاختيار. ولذا فنحن نسميها (الزراعة المسلحة).

وكان المستوطنون يقيمون مستوطناتهم الزراعية على طريقة السور والبرج. فكانوا يأتون بألواح جاهزة وبرج مراقبة وسياج وخيام على أن تنقل كلها خلسة في ليلة واحدة بمساعدة مئات المستوطنين ويحيطون الأرض العربية المغتصبة بسور من الأسلاك الشائكة ثم يبنون برج مراقبة مزوداً بالأسلحة. وفي الصباح تكون المستوطنة الجديدة جاهزة، وقادرة على صد (الإرهابيين) العرب الذين اغتصبت ارضهم اثناء الليل. ثم تبدأ عملية الزراعة والقتال.

وكانت كل مستعمرة (شأنها شأن المستوطن الصهيوني ككل) تتخذ موقعها ضمن إقليم عربي لتخترق تماسكه تجانسه وأمنه وفي دفاعها عن (أمنها) تدخل حالة صراع مع المجتمع المحيط بها وتستولي على مزيد من الأرض.

والطبيعة العسكرية للاستيطان هي رد فعل للرفض العربي. ولكنها، في الوقت نفسه، جزء لا يتجزأ من المخطط الصهيوني الاستراتيجي الذي يهدف الى تأسيس تجمع استيطاني له هويته وحدوده الحضارية والاقتصادية والاجتماعية التي تفصله عما حوله والاستيلاء على الأرض العربية، ويهدف كذلك الى تقسيم العالم العربي عن طريق عملية الاستيلاء هذه. ويمكن تلخيص تكامل البعد الاستيطاني والبعد العسكري في المستوطنات بأن الواحد منهما يخدم الآخر، فالاستعمار الاستيطاني يخدم العمل العسكري فيما يلي:

1ـ تشارك المستوطنات في عملية البناء العسكري الدفاعي، وخصوصاً فيما يتعلق بتأمين الحدود الخارجية والمناطق الداخلية الحيوية.

2ـ تشكل المستوطنات قواعد للقوات المسلحة ومراكز لوثوبها خارج أراضي اسرائيل لتحقيق المزيد من التوسع الاقليمي.

3ـ المستوطنات في واقع الأمر مستودع للقوى البشرية المدربة عسكرياً واللازمة للقوات المسلحة.

4ـ بعد ضم المناطق الجديدة تقوم المستوطنات بملء الفراغ وخلق الوجود المادي السكاني لها.

وإذا كانت المستوطنات تخدم الاستراتيجية العسكرية الصهيونية فالعكس ايضاً صحيح فالمؤسسة العسكرية تخدم المستوطنات.

1ـ تقوم القوة العسكرية الصهيونية بتوفير الأراضي والمشاركة في الدفاع عنها، وبالتالي تهيئة الظروف المناسبة لازدهار الاستعمار الاستيطاني.

2ـ تقوم المؤسسة العسكرية بتخليق الزارع الجندي اللازم لإقامة المستعمرات الدفاعية الحصينة وتأمين الحدود.

إن الاستيطان الصهيوني هو جوهر المشروع الاستيطاني الصهيوني الذي يهدف الى اغتصاب الأرض الفلسطينية العربية من أهلها وإحلال عنصر بشري وافد محلهم، ولذا فهو مشروع لا يمكن تنفيذه إلا بالعنف، ومن هنا طبيعته العسكرية. ويمكن دراسة طريقة توزيع المستوطنات الصهيونية وإعادة انتشار القوات المسلحة الاسرائيلية في الإطار نفسه.

الطبيعة العسكرية التوسعية للاستعمار الاستيطاني الصهيوني بعد عام 1948

بعد أن أمّن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني موطأ قدم (للشعب اليهودي) ورقعة من الأرض هي بداية (وطنه القومي اليهودي)، كان لابد من استيراد المزيد من المهاجرين اليهود والتهام المزيد من الأرض، أي

أنه كان لا مفر من التوسع السكاني والجغرافي، وقد أعلن أحد اعضاء حركة إسرائيل الكبرى معارضته قرار الأمم المتحدة رقم 242 على اساس أنه قد يسفر عن خنق الصهيونية (وهي في ذروة اندفاعها). فالانتصارات الصهيونية هي التي أعطت دفعة قوية لحركة الهجرة من الاتحاد السوفيتي، وذلك على عكس الانسحاب من الأراضي الذي يتسبب في ضعف الصهيونية ووهنها. وأضاف: إن التوسع الصهيوني هو الذي يعطي المجتمع الاسرائيلي معنى وهدفاً. ويمكن تفسير هذا الوضع بالإشارة الى العناصر التالية:

1ـ نبتت الصهيونية في تربة إمبريالية غربية ترى أن العالم إن هو إلا مادة يغزوها الإنسان ويوظفها لصالحه. وعملية الغزو هذه عملية تستمر الى ما لا نهاية، ذلك أن عقيدة التقدم علّمت الإنسان الغربي أن التقدم لا نهائي وأن المادة التي سيقوم بغزوها هي الأخرى لا متناهية.

2ـ طرحت الصهيونية نفسها على أنها ستقيم دولة الشعب اليهودي بأسره، وهو ما يعني أن عملية نقل السكان التي تنطوي عليها الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة يمكن أن تستمر الى أن يتم نقل كل يهود العالم، كما يعني الشره المستمر للأراضي.

3ـ أحد عناصر الثالوث الحلولي الصهيوني هو الأرض، بل إن بعض الاتجاهات الصهيونية تعطي أولوية لهذا العنصر على كل العناصر الأخرى، ولكن حدود هذه الأرض غير معروفة المعالم على الإطلاق ولم يتم الاتفاق بشأنها.

4ـ الأرض هي المصدر الأساسي لتدفق فائض القيمة على الكيان الاستيطاني (وبخاصة قبل عام 1948)، وهي القاعدة التي سيؤسس عليها الجيب الاستيطاني، وكلما اتسعت هذه القاعدة ازداد تدفق فائض القيمة وازداد الجيب الصهيوني قوة.

لكل هذا ليس من الغريب أنه بعد انتهاء المؤتمر الصهيوني الأول قام أحد الصحفيين بنصيحة هرتزل بأن يدرس برنامج فلسطين الكبرى قبل أن يفوت الأوان، بحيث يمكن وضع عشرة ملايين يهودي فيها. وقبل ذلكن كان الصهيوني غير اليهودي، وليام هشلر، قد طلب من هرتزل، في 26 ابريل 1896، أن يتبنّى الشعار التالي ويروجه كشعار للدولة اليهودية: (فلسطين داود وسليمان). ويبدو أن الاقتراح قد ترك انطباعاً ايجابياً لدى الزعيم الصهيوني، ذلك أنه، بعد عامين، حدد منطقة الدولة اليهودية على أنها تمتد من نصر مصر الى الفرات. وقد ردد الحاخام فيشمان (عضو الوكالة اليهودية) هذا الشعار في 9 يوليه 1947، أثناء شهادته أمام لجنة

التحقيق الخاصة التابعة للأمم المتحدة، فقال: الأرض الموعودة تمتد من نهر النيل حتى الفرات، وتشمل اجزاء من سوريا ولبنان. وهذا يوضح أن شعار (من النيل الى الفرات) ليس مجرد فريدة عربية وليس نتاج العقلية التآمرية، وانما هو جزء من التصور الصهيوني.

ومع هذا، ينبغي على المرء ألا يأخذ صيغة (من الفرات الى النيل) هذه بجدية تامة، فهي لا تعدو أن تكون أحد الأحلام الصهيونية. ولكن، ومع ذلك، يجب ألا يهمل المرء أوهام العدو عن نفسه كلياً، فهي تعطينا مؤشرات عن نيته وعن تصوره لحدود حركته. وعلى كل، فإن ما يهمنا في السياق الحالي ليس الحدود الجغرافية او التاريخية الوهمية للدولة الصهيونية وإنما الذهنية الصهيونية التوسعية نفسها. وقد يكون من الأفضل أن نأخذ بعين الاعتبار الكلمات التي سجلها هرتزل في يومياته حين قال: كلما زاد عدد المهاجرين اتسعت رقعة الأرض، أي أنه لم يعرّف حدود الأرض بشكل قاطع، وإنما آثر أن يحتفظ بحدود مطاطية تتغير بتغير القوة الذاتية الصهيونية، التي عرّفها هو بتزايد عدد المهاجرين. ورؤية هرتزل هي الرؤية التي تبناها الصهاينة بعد ذلك.

ولا يختلف ذلك عن رؤية رعنان فايتس رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية إذ يقول: (إن مخططي الاستيطان الصهيوني... عملوا على أساس أن حدود المستقبل للدولة اليهودية يجب أن تعيّن من خلال أنظمة من المستوطنات السكانية، تبدأ كنقاط استيطانية وتأخذ بالتوسع لأكبر مساحة من الأرض وجمع اكبر عدد من يهود العالم وتركيزهم في (اسرائيل) من خلال عملية انقلاب ديموغرافي (سكاني) يحل من خلالها اليهود محل المواطنين العرب). وهكذا يرتبط الاستيطان بالتوسع بالإحلال. وهذه الرؤية هي التي تم تطبيقها في نهاية الأمر في فلسطين المحتلة قبل وبعد عام 1948ن وقبل وبعد عام 1967، حيث تأخذ التوسعية الصهيونية في ظروف الكثافة السكانية العربية شكل الزحف من قبل المستوطنات المختلفة التي يتم تشييدها ويتم تسمينها وتوسيعها لتطويق العرب داخل معازل.

والطريف أن هذا التصور الصهيوني لا يختلف كثيراً عن التصور التقليدي لبعض الحاخامات اليهود الذين شبهوا الأرض بجلد الإبل الذي ينكمش في حالة العطش والجوع ويتمدد بالشبع والري، فالأرض المقدّسة تنكمش إذا هجرها ساكنوها من اليهود وتتمدد إن جاءها اليهود من كل بقاع الأرض. ويبدو أن القيادة الصهيونية، منطلقة من تصورات سياسية شبيهة، آثرت عدم إعلان دستور للدولة الصهيونية حتى يترك المجال مفتوحاً أمام التوسع اللانهائي، ذلك لأن الدستور (الرسمي) يتطلب رسماً دقيقاً

للحدود.

ويقدم عضو الكنيست السابق الصحفي اوري افنيري قراءة ذكية لتاريخ الدولة العبرانية في الماضي وتاريخ الدولة الصهيونية في الحاضر، فيبين أن قيامهما لم يكن يستند الى قوتهما الذاتية وإنما الى ضعف الشعوب القاطنة في فلسطين (الكنعانيين في الماضي والعرب في الحاضر). ثم يذكر افنيري أن ما يدفع الصهاينة ويقرر حركتهم ليس الدافع العقائدي (الآخذ في الضمور) وإنما موازين القوى وحسب. ومن ثم، فإن العقيدة الصهيونية ليست سوى مسوّغ يتلو (خلق الحقائق الجديدة). ولذا، فإنه يتنبأ بأن التوسع الصهيوني لن يتوقف مادام هناك فراغ بسبب الغياب العربي، ويتنبأ بأن هذا التوسع سيستمر حتى يتخطى حدود اسرائيل الكبرى نفسها إذا سنحت الفرصة، أي ان القوة الذاتية الصهيونية (لا الأوهام العقائدية) هي التي تحدد مدى التوسعية الصهيونية.

إن كون اسرائيل كياناً توسعياً في جوهرها يجعلها لا تعدم الذرائع والمبررات المختلفة للتوسع، بل إن هذه الذرائع تصير ضرورة لتسويغها التوسع واضفاء نوع من الشرعية الشكلية عليه. وعندما تلوح الفرصة (المتمثلة في ميل موازين القوى بمعناها الشامل لصالحها) لتوسيع الحدود يتم اتخاذ الوسائل التي تحقق ذلك، فالفكرة الصهيونية قائمة على التوسع والاستيلاء على الأرض.

وقد قال ديفيد بن جوريون في المقدمة التي كتبها لتتصدر الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل عام 1952 إن (دولة اسرائيل قد قامت فوق جزء من أرض اسرائيل) وهو ما يؤكد كون التوسع الصهيوني في طليعة الأهداف التي تجاهر بها اسرائيل، حيث كانت حدود (الوضع الراهن) بعد التوقيع على اتفاقيات الهدنة تبقى في نظر بن جوريون اشبه بالحدود الانتقالية او المؤقتة، طالما أن حدود الدولة لم تأت مطابقة لحدود الأمة المنشودة. فالخريجة التي رسمتها الصهيونية لمملكتها الموعودة مازالت اوسع بكثير من المساحات التي تم احتلالها والاستيلاء عليها بقوة السلاح.

وينتقد بن جوريون افتراض وجود حدود تاريخية وطبيعية ثابتة للدولة، فالحدود تتغير وفق تغير الظروف والمراحل الزمنية المختلفة. ولذا لابد من إعادة النظر في مصطلح (حدود طبيعية)، فهو يرى أن الظروف الطبيعية قد تجبر الدولة على إعادة النظر مرة أخرى في تعيين حدودها الطبيعية واستبدال حدود جديدة بها كلما دعت الضرورة. ومما يجدر ذكره أن الصهيونية قد عرفت تيارات مختلفة، ولكن قيادة المشروع الصهيوني تدور في إطار نوع من الإجماع الصهيوني الذي لا يختلف بشأن مبدأ التوسع نفسه وإنما بشأن وسيلته وشكله.

ورغم أن الظروف السائدة بعد حرب 1956 لم تسمح بترسيخ السيطرة الصهيونية على المناطق المحتلة في غزة وسيناء، فإن حرب 1967 ـ وما ترتب عليها من احتلال الاراضي العربية في سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة ـ شكلت منعطفاً بارزاً في تاريخ التوسع الصهيوني باعتبار أن الكيان الصهيوني حقق اقصى اتساع له ووصل الى الحدود الآمنة. ويجب التنبيه الى أن التوسعية الصهيونية ليست مقصورة على الأراضي العربية التي تقع خارج حدود الدولة الصهيونية، فهناك التوسع الداخلي من خلال مصادرة الأراضي العربية.

وثمة خلل أساسي في التوسعية الصهيونية، فالقاعدة السكانية لا يمكن أن تتسع بنفس القدر الذي تتسع بها قاعدتها الجغرافية إن صح التعبير، ولذا فإن ضم الأراضي يعني ايضاً ضم عناصر عربية غير يهودية آخذة في التكاثر وفشلاً في خلق الكثافة السكانية اليهودية التي يتم التوسع باسمها، وهو ما يخلق (مشكلة سكانية) للكيان الصهيوني ويشكل خطراً على الطابع اليهودي للدولة الصهيونية. ولذا، فإن الاستعمار الصهيوني يفقد احلاليته ويتحول الى استعمار مبني على التفرقة العرقية (الأبارتهايد). ومعنى ذلك أنه قد ظهر تناقض عميق بين طابع الدولة الصهيونية الإحلالي وبين طابعها التوسعي.

ومع تناقص معدلات الهجرة اليهودية الى اسرائيل وزيادة معدلات النزوح الى الخارج، ومع اندلاع الانتفاضة وفشل الصهاينة في قمعها، ظهرت نواة داخل الكيان الصهيوني ترى أن التوسع وضم الأراضي قد يضر بطبيعة الدولة اليهودية لأن الأراضي العربية تأتي معها كثافة عربية سكانية. ومن هنا ظهر التناقض بين الصهيونية السكانية (او الديموغرافية او السوسيولوجية) من جهة، ومن جهة أخرى صهيونية الأراضي. ويرى أنصار الصهيونية السكانية أنه لابد من الفصل بين الفلسطينيين والاسرائيليين، وهو ما يعني وقف المشروع الصهيوني التوسعي، والسماح بقدر من الحكم الذاتي الفلسطيني يساهم في واقع الأمر في عزلهم عن الاسرائيليين ويحتوي القنبلة الديموغرافية المتوقعة. أزاء ذلك تم طرح مشروع آلون كنموذج لسائر المشاريع الصهيونية التي كانت تسعى وراء حل وسط يجمع بين الحد الأقصى من (الأمن) و(الأرض) والحد الأدنى من السكان الفلسطينيين العرب الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلي بحيث تتم اقامة حكم ذاتي للفلسطينيين في بعض مناطق الضفة الغربية وغزة، وتسلّم المناطق الآهلة بكثافة سكانية عربية الى ادارة عربية.

ويعتبر اتفاق اوسلو (سبتمبر 1993) تطبيقاً لفكرة منح الفلسطينيين حكماً ذاتياً في الضفة وغزة مع نمو اتجاه متزايد داخل اسرائيل نحو

الفصل بين الفلسطينيين والاسرائيليين. وعلى الرغم من هذا يمكن القول إن اتفاقية أوسلو قد فرضت حدوداً على الدولة الصهيونية لأول مرة في تاريخها.

ويوجد اتفاق عام بين جميع هذه المشاريع على عدم الانسحاب الكامل، وعلى ضم أجزاء مهمة الى اسرائيل بصورة نهائية، في حين أنها تعتبر ضم القدس أمراً مفروغاً منه ولا رجعة فيه، وبالنسبة لمرتفعات الجولان، فهناك اجماع شبه كامل على عدم الانسحاب منها او الانسحاب بشروط تعجيزية تضمن التطبيع والأمن الكاملين لإسرائيل.

وعلى الجانب الآخر هناك عدد من الاسرائيليين، من اليمين الديني والعلماني، يرفض بصورة مطلقة التنازل عن أية منطقة ضمن حدود أرض اسرائيل التاريخية، أرض اسرائيل من البحر حتى النهر، ويعرض فكرة الترانسفير وطرد العرب كوسيلة للتغلب على العقبة السكانية التي تقف دون الضم الرسمي، وهذا ليس بجديد او مستعصي على الفكرة الصهيونية، مع إمكانية قيام اسرائيل بشن حرب جديدة تدفع في إطارها ـ كما فعلت في الحروب السابقة ـ مئات الآلاف من العرب الى مغادرة المناطق المحتلة الى الأردن خاصة.

وهذا الانقسام الذي عبر عن نفسه من خلال التناقض بين الصهيونية السكانية وصهيونية الأراضي، بدأ يأخذ شكلاً جديداً ان وهو الحديث عن اسرائيل الكبرى جغرافياً في مقابل اسرائيل العظمى اقتصادياً.

اسرائيل الكبرى جغرافياً أم اسرائيل العظمى اقتصادياً؟

اسرائيل الكبرى (من النيل الى الفرات) هي الحلم الصهيوني الأكبر الموجود بشكل كامن في كتابات المعتدلين وبشكل علني في كتابات من يُقال لهم (المتطرفون). ومصطلح (اسرائيل الكبرى) مصطلح غير محدد المعالم يضم بكل تأكيد الأراضي الفلسطينية التي ضمت عام 1967. ولكن بما أن حدود أرض الميعاد او إرتس يسرائيل محل خلاف بين المفسرين، فإن المطالبين بضم كل أراضي اسرائيل يختلفون فيما بينهم حول ما يجب ضمه وما يجب تركه.

ومفهوم اسرائيل الكبرى لم يعد مفهوماً مهماً في الفكر الاستراتيجي الصهيوني في اسرائيل، فظهور النظام العالمي الجديد قد غيّر وظيفة اسرائيل وطبيعة دورها، ولم يعد ضم الأراضي مسألة حيوية بالنسبة لها، بل أصبح (من وجهة نظر بعض الصهاينة) عنصراً سلبياً. فإسرائيل تحاول الآن أن تلعب دوراً وظيفياً جديداً يتطلب منها التغلغل في العالم العربي بالتعاون مع بعض النخب الثقافية والسياسية العربية الحاكمة كجزء من

عملية تدويل المنطقة وضمها الى السوق العالمية والنظام العالمي الجديد. وهذا يتطلب أن تتخلى اسرائيل عن لونها اليهودي الفاقع وكل المتتاليات السياسية والعسكرية المرتبطة بهذا اللون. واسرائيل الكبرى جزء من المتتالية القديمة التي طرحت اسرائيل كدولة يهودية غربية وقاعدة للاستعمار الغربي في العالم العربي تلعب دور الشرطي وتحاول اغتصاب الأرض وطرد السكان او تسخيرهم. أما إسرائيل الجديدة فهي جدّ مختلفة. وكما قال بيريز: (إن الشعب اليهودي لم يكن هدفه في أي يوم السيطرة ... إنه يريد فقط أن يشتري ويبيع وأن يستهلك وينتج. فعظمة اسرائيل تكمن في عظمة اسواقها).

وقد حدث تحول في اللهجة الصهيونية مثّله بعض قادة حزب العمل واليسار الاسرائيلي مثل شيمون بيريز ويوسي بيلين ويوسي سريد (وإن كان قد تراجع عنه الرئيس الحالي لحزب العمل، ايهود باراك). حدث هذا التحول في اتجاه التخلي عن نظرية (الحدود الجغرافية) واستبدال نظرية (الحدود الاقتصادية) بها، ويعود هذا التحول الى استنتاجهم أن القدرة على احتلال المزيد من الأراضي العربية غير ممكن بدون التكلفة الباهظة للاحتلال المستمر وامتلاك الأقطار العربية اسلحة تهدد الأمن الاسرائيلي من جهة، ولعجزها عن إسكان الأراضي المحتلة بالمستوطنين اليهود من جهة أخرى، في ظل عجزها عن توفير الأمن لهم أولاً، ومتطلبات الحياة الاستيطانية ثانياً.

إن الظروف الذاتية والموضوعية تستلزم استبدال نظرية مشروع (اسرائيل الكبرى) جغرافياً بمشروع (اسرائيل العظمى) اقتصادياً وسياسياً وتكنولوجياً بحيث يستطيع النفوذ والسيطرة الاقتصاديين ان يحققا الاهداف الصهيونية بصورة اكثر رسوخاً وأطول عمراً، وأقل كلفة وخسارة بشرية. أما مشروع اسرائيل الكبرى جغرافياً عندما يضم الفلسطينيين فإن جسمها يتلوث وتظل حبلى بالمشاكل والاضطرابات، وتبقى عرضة للمجابهات المسلحة مع الجيران، وللتوتر في علاقاتها الدولية وللأوضاع الاقتصادية المتقلبة ولانخفاض عدد المهاجرين اليها. فالطريق الى اسرائيل الكبرى يمر عبر الحروب والمجابهات العسكرية، أما الطريق الى (اسرائيل العظمى) فيمر عبر الدبلوماسية والتلويح بالقوة، فإسرائيل العظمى تظل محتفظة بتفوق عسكري نوعي قائم بالأساس على الرادع النووي.

إن (اسرائيل العظمى) تقبل التنازل عن بعض الأراضي العربية المكتظة بالسكان، والتي تعتبرها حقاً تاريخياً جزءاً من أراضي اسرائيل التوراتية ولكنها، كما يقول بيريز، ستكون قد (أدت واجباً تاريخياً تجاه نفسها، وذلك

بحماية طابعها الخاص من الإفساد والتشويه). ومقابل ذلك سوف ترفع المقاطعة العربية عن اسرائيل وتفتح اسواق المنطقة أمام البضائع الاسرائيلية. وتقوم السوق الشرق اوسطية على اساس تكامل الطاقات وتقسيم العمل بين النفط العربي، والمياه التركية، والكثافة السكانية والسوق المصرية، والخبرة والمهارة الاسرائيلية، وتحل مشكلة المياه في اسرائيل بإقامة مشاريع مشتركة لاستثمار مياه الأنهار الكبرى في المنطقة. وهذا المشروع هو الذي سوف يحقق الأمن لاسرائيل ويحقق (أسرائيل العظمى) التي لن تحكم الفلسطينيين فقط بل ستحكم العرب جميعاً، وتتحقق لها السيطرة والهيمنة والتربع على كامل المنطقة وثرواتها، وتدجين الشعب العربي وتطويعه، وتخريب النسيج الاجتماعي في العالمين العربي والاسلامي، وهذا تأكيد استمرارية مشروعها الأساسي القائم على التوسع.

ومع هذا لا يزال جزء كبير من اليمين الصهيوني يؤمن في قرارة نفسه ويتمسك بفكرة اسرائيل الكبرى، فقد صرّح اسحق شامير في لحظة تاثر وجداني عميق من تدفق المهاجرين المستوطنين السوفيت بأن (اسرائيل الكبرى من البحر الى النهر هي عقيدتي وحلمي شخصياً)، وأنه (بدون هذا الكيان لن تكتمل الهجرة ولا الصعود الى ارض الميعاد ولا أمن الاسرائيليين وسلامتهم)؛ ونتنياهو مازال يريد العودة الى (الحدود التوراتية) بإعادة الحياة الى اسرائيل الكبرى.

المؤسسة العسكرية الاسرائيلية وعسكرة المجتمع الاسرائيلي

المجتمعات الاستيطانية (سواء في أميركا الشمالية او في جنوب افريقيا) مجتمعات ذات طابع عسكري بسبب رفض السكان الاصليين لها وبسبب أنه لا يمكن وضع الاسطورة الإستيطانية موضع التنفيذ إلا بقوة السلاح. واسرائيل لا تشكل أي استثناء من هذه القاعدة، فهي مجرد تحقق جزئي لنمط متكرر عام. وقد ظهرت منظمات ومؤسسات وميليشيات عسكرية قبل عام 1948 دمجت كلها في مؤسسة واحدة، هي المؤسسة العسكرية الاسرائيلية التي اصبحت العمود الفقري للتجمع الاستيطاني الصهيوني.

ويتميز المجتمع الاسرائيلي بصبغة عسكرية شاملة قوية، فجميع الاسرائيليين القادرين على حمل السلاح رجالاً ونساء يؤدون الخدمة الإلزامية. وينطبق على هذا المجتمع وصف (المجتمع المسلح)، او (الأمة المسلحة) كما يصف الاسرائيليون انفسهم (او جيش في اجازة، كما قال أحد الأدباء الاسرائيليين).

وتتشكل المؤسسة العسكرية الاسرائيلية من العناصر العسكرية في المجتمع الاسرائيلي، وتضم هيئة اركان الجيش الاسرائيلي، والضباط المحترفين فيه، وأجهزة المخابرات المختلفة، ومعاهد الدراسات الاستراتيجية، ومختلف التنظيمات التي يمتد اليها اشراف الجيش، وأفواج الضباط السابقين المنتشرين في المناصب الاستراتيجية في مختلف انحاء الدولة، بالإضافة لرجال الشرطة، والسياسيين الذين ارتبطت حياتهم ومواقفهم بدور الجيش. ومع هذا فمن العسير جداً تحديد حدود المؤسسة العسكرية الاسرائيلية، بسبب استيطانية الدولة الصهيونية ولا تاريخيتها، وبالتالي حتمية لجوئها للعنف لتنفيذ أي مخطط، لهذا نجد أن اسرائيل هل دولة تأخذ معظم الأنشطة فيها صفة مدنية / عسكرية في آن واحد. وحيث إن معظم جيشها من قوات الاحتياط يصبح من الصعب التمييز بين المدنيين والعسكريين، ويصبح في حكم المستحيل العثور على حدود فاصلة بين النخبة العسكرية والنخبة السياسية، إذ يتبادل افراد النخبتين الأدوار ويقيمون التحالفات في الأحزاب والهستدروت والكنيست وغيرها من المنظمات.

ولا تمثل المؤسسة العسكرية الاسرائيلية بالنسبة لاسرائيل مجرد آلة مسلحة لتحقيق أهدافها السياسية ومصالحها الحيوية، ولكنها تتغلغل في معظم اوجه الحياة السياسية، بدءاً بإقامة المستوطنات وتنظيم الهجرة الى اسرائيل، وتحقيق التكامل بين المهاجرين اليها، وتنظيم البرامج التعليمية لأفراد الجيش، ومراقبة اجهزة الإعلام وتوجيهها، وتطوير البحث العلمي، الى تحديد حجم الانفاق العسكري بما يؤثر على عموم الأحوال الاقتصادية للدولة، والتأثير على مجال الصناعة وخصوصاً الصناعات الحربية والإلكترونية، ومجال القوى العاملة والتنمية الادارية. وتقوم المؤسسة العسكرية بدور مهم في التأثير في وضع الأراضي العربية المحتلة وتحديد الأراضي التي يتم ضمها الى اسرائيل، وطرد العرب من هذه الأراضي. ويضاف الى ذلك أن المؤسسة العسكرية تحتفظ بصلات وثيقة، بهدف التنسيق والمتابعة، مع معظم أجهزة الدولة مثل وزارات الخارجية والمالية والتجارة والصناعة والعمل والتربية والتعليم والشرطة والزراعة والشؤون الدينية. وللمؤسسة العسكرية شبكة للعلاقات الخارجية تشمل الاتصالات من أجل الحصول على معلومات أو اسلحة، والقيام بعمليات سرية في الخارج، وتدريب أفراد من الدول النامية على القتال.

وتشكل وزارة الدفاع الاسرائيلية وقمة جيش الدفاع مركزاً لقوة سياسية واقتصادية واجتماعية لا مثيل لها في العالم باستثناء بعض انظمة الحكم

الديكتاتورية العسكرية مثل جنوب افريقيا (قبل سقوط النظام العنصري). فحجم التفاعلات التي تشترك فيها المؤسسة العسكرية الاسرائيلية تقدم نموذجاً خاصاً ومتميزاً لدور العسكريين، وهو الدور الناجم عن البعد التاريخي للوظيفة العسكرية المصاحبة نشأة الكيان الاستيطاني الصهيوني، وهو ما جعل عسكرة المجتمع الاسرائيلي في جميع المجالات مسألة حتمية. وسنتناول في هذا الجزء الجانبين السياسي والاقتصادي وحسب، مع علمنا بأن العسكرة عملية أكثر شمولاً وعمقاً وبنيوية.

1ـ عسكرة النظام السياسي:

إن هيبة ونفوذ المؤسسة العسكرية في النظام السياسي الاسرائيلي تنطلق من أن اهم المسائل في هذه الدولة هي مسائل الحرب والسلام، والوظيفة العسكرية للدولة تسيطر على الوجود السياسي سواء في فترات السلم نتيجة تعدد الوظائف التي تقوم بها، او في فترات الحرب بسبب ضرورة حماية البقاء الذاتي للبلاد وفرض سطوتها.

ولذا نجد أن العسكريين الذين يعملون من خلال هيئة أركان عسكرية مركزية يهيمنون على التخطيط الاستراتيجي بل يحتكرونه. فهذه الهيمنة هي التي تضع التخطيط الاستراتيجي وتتخذ الخطوات التكتيكية. وباستثناء العسكريين في الاتحاد السوفيتي السابق، يمكن أن يقال إن الجيش الاسرائيلي هو المؤسسة العسكرية الوحيدة في العالم التي لديها سلطة تامة تقريباً في المسائل الاستراتيجية والتكتيكية. وقد تحولت وزارة الدفاع الاسرائيلية الى أهم مركز من مراكز القوى في اسرائيل. وازدادت أهمية هذه الوزارة في اعقاب حرب 1967، واقترنت في الغالب بقوة أعلى منصب رسمي في اسرائيل، أي منصب رئيس الوزراء، حيث ان كثيراً من رؤساء الوزراء يأتون عن طريق وزارة الدفاع وغالباً ما يحتفظون بها الى جانب رئاسة الوزارة. ولعل مثال ذلك بن جوريون وتمسكه بالمنصبين طوال حياته، وكذلك بيجين ثم اسحاق رابين الذي اغتيل وهو يجمع بين المنصبين، ولعل انتخاب ايهود باراك رئيساً لحزب العمل هو استمرار لنفس التقاليد.

وتعد العلاقات بين الثالوث (رئيس الوزراء ـ وزير الدفاع ـ رئيس الأركان) محور العلاقات المدنية العسكرية، وأي انهيار فيها يؤدي الى نتائج مأساوية. وقد حدث ذلك مرتين في تاريخ اسرائيل عام 1954 بين شاريت ولافون وديان، وفي عام 1981 ـ 1983 بين بيجين وشارون وإيتان. وهناك دلائل تشير الى وجود تواترات في العلاقة بين المؤسسة العسكرية ونتنياهو، (كما سنبين فيما بعد). ولكن التنافس غالباً ما يكون

بين وزير الدفاع ورئيس الوزراء، بينما يقوم رئيس الأركان بالميل لرأي أحدهما ليقويه أمام نده.

وقد سعت الأحزاب الاسرائيلية، وبصفة خاصة بعد حرب 1967، لضم القادة العسكريين اللامعين اليها بهدف الحصول على أكبر قدر ممكن من الأصوات، وهكذا كانت الاتصالات تجرى مع هؤلاء القادة قبل تركهم مناصبهم. وجاء قرار الكنيست عام 1973 بإباحة اشتراك القادة العسكريين في الانتخابات ليتوج الدور السياسي للقادة العسكريين.

وتعد المؤسسة العسكرية في اسرائيل مصدراً رئيسياً للتجنيد للمناصب الحكومية العليا والمناصب السياسية الحزبية حيث هذه المناصب الحزبية ممرات شبه إجبارية لتولي مناصب حكومية. وتؤكد الدراسات ان 10% من كبار الضباط المسرحين يتفرغون للعمل السياسي.

كما أن إدارة الوضع الأمني في المناطق المحتلة سواء بعد حرب 1967 او بعد عملية إعادة الانتشار في أعقاب اوسلو (2) او لمواجهة حركات المقاومة الإسلامية التي لم تضع سلاحها بعد (كحركتي حماس والجهاد الاسلامي) جعلت وزارة الدفاع والحكام العسكريين ومجموعة الاستخبارات العسكرية وقوات الشرطة في المناطق المحتلة بمنزلة حكومة عسكرية مصغّرة تقوم بمهام عسكرية وسياسية بارزة.

وتحمل السياسة الخارجية هي الأخرى بصمة المؤسسة العسكرية الاسرائيلية. فرئاسة الأركان والجهاز الأمني هما الجهتان الوحيدتان اللتان تتوليان منذ سنوات مهمة تقويم الوضع الأمني. وكما يقول شلومو جازيت، رئيس الاستخبارات الاسرائيلية السابق، إنه لا يوجد في الجهاز المدني هيئة مشابهة لرئاسة الأركان وشعبة الاستخبارات قادرة على تفحص المعطيات الأمنية وبلورة الوضع القومي.

2ـ عسكرة الاقتصاد:

اتسم المجال الاقتصادي الاسرائيلي بالنزعة العسكرية وخصوصاً بعد حرب 1967، حيث تحول الانتاج العسكري الى الفرع الانتاجي القائد في بنية الانتاج والتصدير.

ويؤكد ذلك جملة من المؤشرات لعل من أهمها:

* تزايد الانفاق العسكري من 18% عامي 1985 ـ 1986 الى حوالي ثلث الموازنة المالية (33%) مع تزايد التزامات اسرائيل العسكرية ومع زيادة تكاليف الصناعات العسكرية ومع زيادة تكاليف الصناعات العسكرية وتشعبها (صواريخ ـ اقمار صناعية ـ اسلحة نووية).

* تزايد حجم قطاع الصناعات العسكرية (سواء قطاع الصيانة او قطاع الانتاج) بحيث اصبح أكبر قطاع صناعي في اسرائيل سواء استناداً لمعيار رأس المال الثابت او اليد العاملة حيث اصبحت تمثل 40% من اجمالي الصناعة في اسرائيل.

* دخول هذا القطاع في علاقات مشاركة مع كبريات الاحتكارات الاجنبية التي تمتلك فروعاً لها في اسرائيل ومع الشركات الاسرائيلية الاخرى الامر الذي جعل القادة العسكريين من أول المستفيدين من العمولات، بل اصبح بعضهم من كبار الرأسماليين في المجتمع الاسرائيلي.

* تطور الصادرات العسكرية المطرد وتصاعد نسبتها في الصادرات الصناعية، وهي تحتل في الوقت الحاضر المرتبة الثالثة من جملة عائد اسرائيل من العملة الصعبة بعد الماس والسياحة.

* تسريح كبار العسكريين لا يعني ملازمتهم للمنازل في المجتمع الاسرائيلي، بل يعني توليهم ادارة شركات صناعة الاسلحة او ادارات المصارف والمؤسسات الخاصة والحكومية والهستدروتية حيث يشكلون، حسب بعض التقديرات، ثلاثة ارباع مديري الفعاليات الاقتصادية على اختلاف أنواعها.

ومنذ قيامها تعطي اسرائيل الاولية للانفاق العسكري، طبقاً للاستراتيجية الاسرائيلية الهادفة الى المحافظة على بقاء الجيش الاسرائيلي أقوى قوة عسكرية في المنطقة، وهو ما يتطلب الحصول على أرقى الاسلحة المتطورة، واستيعاب مستجدات التكنولوجيا الحديثة، فازداد حجم الانفاق العسكري بصورة مطردة. فقد كانت نسبة الانفاق العسكري من الناتج القومي الاجمالي اقل من 10% في مطلع الخمسينيات، ثم أخذت في التزايد مع كل حرب جديدة حتى بلغت 32.8% بعد حرب 1973، وهي أعلى نسبة في العالم، كما ان نسبة الانفاق العسكري من الناتج القومي الاجمالي كانت أعلى من نسبته في سوريا او في مصر، (وهما البلدان اللذان تحملا العبء الاكبر في الصراع العربي الاسرائيلي). ولكن من المهم ملاحظة ان الازدياد الهائل في الانفاق العسكري الذي بدأ مباشرة بعد حرب 1967 اعتمد في الدرجة الاولى على المساعدات الامريكية التي لولاها لعجز الاقتصاد الاسرائيلي عن تحمل اعباء هذا الانفاق الهائل.

وقد استر معدل الانفاق العسكري عالياً، حتى ان حكومة نتنياهو لم تف بوعدها بتخفيض الانفاق العسكري بنحو 5 مليارات شيكل (1.6 مليار دولار) بل رفعت الانفاق العسكري باكثر من ملياري شيكل عام 1997، الامر الذي يعزز تمحور الدولة الصهيونية حول المؤسسة العسكرية. وقد

ترافق الارتفاع الكبير في الانفاق العسكري مع نمو صناعة السلاح التي اعطيت أولوية كبيرة كي تصبح اسرائيل مكتفية ذاتياً على صعيد التسلح، وكان احد أسباب ذلك الحظر الفرنسي على بيع الاسلحة لاسرائيل بعد حرب 1967.

ان نمو صناعة السلاح وتطورها الكبير قد أديا، ايضاً، الى نمو ما يسمى (المجمع العسكري/الصناعي)، وذلك يعود الى ان عداً كبيراً من المنشآت الصناعية اصبح يعتمد اعتماداً أساسياً على العقود التي يحصل عليها من وزارة الدفاع، لذلك اصبح من مصلحة هذه المنشآت تعيين جنرالات وضباط سابقين في مراكزها القيادية. فالضباط في الجيش الاسرائيلي يتقاعدون في سن مبكرة نسبياً (40عاماً)، الامر الذي يفسح لهم مجال مزاولة مهنة جديدة. ومن الطبيعي ان تكون تلك المهنة ادارة شركات صناعية تربطها علاقة بصناعة السلاح، ذلك ان لهم خبرة بالسلاح أولاً، ويستطيعون الاعتماد على علاقاتهم بالجيش ثانياً.

إن ظاهرة المجمع العسكري/الصناعي موجودة في كل الدول الصناعية، وخصوصاً الولايات المتحدة الامريكية. لكن الموضوع في اسرائيل يكتسب أهمية اضافية لانه مكمل لظاهرة المجمع العسكري/ السياسي الموجود منذ قيام دولة اسرائيل، ذلك ان جنرالات الجيش الاسرائيلي يحتلون، بعد تقاعدهم، مراكز قيادية سياسية. فرئيس الدولة الحالي (وايزمان) كان قائداً لسلاح الجو، ورئيس الحكومة (رابين) كان رئيساً لاركان حرب الجيش، واربعة آخرون من رؤساء الاركان (موشيه ديان ـ حاييم بار ـ بارليف ـ بيجال يادين ـ رفائيل ايتان) أصبحوا فيما بعد وزارة الدفاع. وقد تركت عسكرة المجتمع الاسرائيلي ـ اضافة الى الدور الوظيفي للدولة ـ آثارها على السياسة الخارجية للدولة، فاصبحت اسرائيل مصدراً للخبرات العسكرية والامنية الى مناطق تغطي مساحة شاسعة من العالم مثل دول امريكا اللاتينية وبعض الدول الآسيوية وحتى بعض الدول الاشتراكية السابقة.

ورغم عسكرة المجتمع الاسرائيلي على المستويين السياسي والاقتصادي إلا ان مكانة المؤسسة العسكرية قد اهتزت قليلاً في الآونة الاخيرة. فرغم ان هذه المؤسسة تشكل وحدة متماسكة فان العنصر الاشكنازي هو العنصر المهيمن فيها، هيمنته على الدولة الصهيونية ككل. اما السفارد واليهود الشرقيون فوضعهم مترد. فرغم ان بعض اليهود الشرقيين قد تم تصعيدهم واحتلوا مناصب قيادية مهمة فان معظم هذه المناصب القيادية تظل في يد الاشكناز بالدرجة الاولى. كما ان ثمة ابواباً خاصة تتفتح لليهود الاشكناز والغربيين وحدهم في اسلحة بعينها مثل المخابرات والطيران

وغيرها من الاجهزة الحساسة التي تفضي الى وضع اجتماعي بارز بعد التسريح. كما ان الترقيات لا تمنح بيسر لغير الاشكناز والغربيين وهو ما يعتبر نوعاً من اغلاق ابواب الحراك الاجتماعي امام السفارد، وهو ما يعني ترجمة التمييز العنصري لواقع طبقي، وتحول المؤسسة العسكرية من بوتقة للصهر وآلية كبرى من آليات الاستيلاء على الارض الفلسطينية وقمع اهلها الى حلبة أخرى للصراع بين السفارد والاشكناز.

وإذا كان مناخ الحرب يساعد على استمرار ومركزية المؤسسة العسكرية في حياة الاسرائيليين، فان ظهور مؤسسات أخرى تحمل صور الريادة (جماعات المثقفين ـ الشركات ـ معامل الابحاث ـ الجامعات) خفف من انفراد المؤسسة العسكرية بهذه الصورة الريادية. وأدت هزيمة الجيش الاسرائيلي العسكرية في أكتوبر 1973 وفي جنوب لبنان وعجزه امام الانتفاضة، الى اهتزاز مكانة المؤسسة العسكرية والكثير من رموزها، وضرب نظرية الامن الاسرائيلي.

وساهمت عملية التسوية الجارية للصراع العربي الاسرائيلي الى إضعاف مكانة الجيش الاسرائيلي في الاوساط الاسرائيلية. كما ان تصاعد معدلات التوجه نحو اللذة والاستهلاك جعل كثيراً من الشباب ينصرف عن الخدمة العسكرية ويهرب منها.

وفي الآونة الاخيرة لوحظ تدهور وتأزم العلاقات بين المؤسسة العسكرية ورئيس الوزراء الاسرائيلي المنتخب بشكل مباشر بنيامين نتنياهو، ويعود هذا الى سعيه لوضع اطار جديد لطبيعة الدور الذي تمارسه المؤسسة العسكرية في النظام السياسي الاسرائيلي لتصبح احدى أدوات القوة الشاملة للدولة، وليس الفاعل الاساسي فيها، بمعنى ان يصبح الجيش الاسرائيلي (قوة احتراف) وليس (قوة ضغط سياسي). وهذا الموقف يتناقض مع اعلاء نتنياهو شعار (الامن قبل السلام) الذي يفترض زيادة دور المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية. ولكن نتنياهو يتحرك لاحداث تغيير في جوهر النظام السياسي الاسرائيلي ليكون اقرب الى النظام الرئاسي (انشاء بيت ابيض اسرائيلي)، فيقوم بالتشاور مع مجموعة موالية له شخصياً، ثم يتخذ القرارات كافة دون ان يكون للمؤسسات المعنية أي دور وضمن ذلك المؤسسة العسكرية. وقد أدت احداث نفق الاقصى واتفاق الخليل الى اهتزاز ثقة الجيش في قدرة القيادة السياسية على ادارة الامور.

وعندما جاء نتنياهو الى الحكم كان الجيش الاسرائيلي قد تكيف مع مقتضيات عملية التسوية وفق مبدأ مدريد، حيث أعاد رسم مواقع تمركزه

وخطوط الاتصال في الضفة وغزة على نحو يتوافق مع عمليات اعادة الانتشار، ويعود ذلك الى التوافق بين حزب العمل والجيش بشأن خطوات الاتفاق الامني في الضفة وغزة والجولان.

ورغم سعي نتنياهو لمصالحة المؤسسة العسكرية بالموافقة على زيادة الانفاق العسكري وتأكيده ضرورة الاهتمام ببناء وتطوير جيش الدفاع، الا انه سيستمر في سعيه لجعل الجيش الاسرائيلي يتجه نحو الاحتراف، وتهميش دوره السياسي.

لكن عسكرة المجتمع الاسرائيلي لا تعني هيمنة المؤسسة العسكرية عليه وتغلغل عناصرها في الهيكل السياسي والاقتصادي للدولة الصهيونية وانما هو أمر أكثر عمقاً. ومن يدرس الظواهر الاسرائيلية ابتداءً من النظام التعليمي وانتهاءً بأكثر الامور تفاهة، سيلاحظ الابعاد العسكرية خلفها. فالبعد الاستيطاني مرتبط تماماً بالبعد العسكري، والهاجس الامني (أي محاولة قمع السكان الاصليين) يسيطر على السياسة العامة في كل القطاعات، وعلى سلوك الاسرائيليين، بل على احلامهم وأمراضهم النفسية. فالمجتمع / القلعة لابد ان يكون مجتمعاً عسكرياً يحاول ان يحتفظ بالمادة البشرية في حالة تأهب عسكري دائم، إذ يحتم البقاء ـ حسب الشروط الصهيونية ـ قهر العرب.

الفصل الثامن

الامن الصهيوني/الاسرائيلي القومي

هل يمكن تأسيس مجتمع استيطاني دون اللجوء لقوة السلاح؟ كانت اجابة فلاديمير جابوتنسكي على هذا السؤال اجابة مباشرة وصريحة، فقد كانت بالنفي. وقد كان محقاً تماما في رؤيته، اذ كيف يمكن ان توطن كتلة سكانية في وطن ليس وطنها، وعلى حساب كتلة اخرى، الا بحد السلاح؟ وهذا ما لم يدركه (أو شاءوا الا يدركه) المعتدلون من الصهاينة. ولكن تطور الاحداث أثبت ان (اعتدالهم) هذا ليس له أي اساس في الواقع. ومن هنا عسكرة المجتمع الاسرائيلي (التي بيناها في الفصل السابق)، ومن هنا ايضاً نظرية الامن الاسرائيلية والهاجس الامني وعقلية

الحصار.

الهاجس الامني وعقلية الحصار

(الهاجس الامني) و(عقلية الحصار) عبارتان تردان في الخطاب السياسي العربي لوصف احدى جوانب الوجدان الاسرائيلي، وهو الانشغال المرضي بقضية الامن. وقد وصف هذا الانشغال بأنه (مرضي) لانه لا يتناسب بأية حال مع عناصر التهديد الموضوعية (فالشعب الفلسطيني شعب موضوع تحت حكم عسكري قاس، وموازين القوى العسكرية بين الدولة الصهيونية والدول العربية في صالح اسرائيل. كما أن أكبر قوة عسكرية في العالم، الولايات المتحدة، تقف بكل صرامة وراء الدولة الصهيونية).

وفي محاولة تفسير هذا الوضع، يذهب بعض الدارسين الى ان تجربة الابادة النازية قد تركت أثراً عميقاً في الوجدان اليهودي والاسرائيلي بحيث تجذر الخوف من الابادة في الوجدان وأصبح شيئاً من قبيل العقدة التاريخية او العقد النفسية الجماعية المتجذرة في العقل الجمعي اليهودي رغم زوال العناصر الموضوعية. وقد يكون لهذا التفسير بعض المصداقية، وبخاصة ان الصهاينة والاعلام الغربي قد حولوا الابادة النازية ليهود الغرب الى ما يشبه الايقونة التي لا علاقة لها بالزمان او المكان وجعلوها مركز ما يسمى (التاريخ اليهودي). ويرى البعض ان عقلية الحصار هي بعض بقايا ورواسي الوجود في الجيتو اليهودي في اوربا، وان يهود أوربا (وبخاصة شرق أوربا) عاشوا عبر تاريخهم لا سيادة لهم ولا يشاركون في أية سلطة، معرضين دائماً لهجوم الأغيار عليهم.

وبسبب هذا الهاجس الامني وعقلية الحصار تؤكد اسرائيل دائماً انها قلعة مسلحة لا يمكن اختراقها، قوة لا تقهر، قادرة على الدفاع عن نفسه وعلى البطش باعدائها، ولكنها مع هذا مهددة طيلة الوقت بالفناء (ومن هنا أسطورة ماسادا وشمشون).

ونحن نرى ان كل هذه الاساليب قد تفسر حدة الهاجس الامني وعقلية الحصار ولكنها لا تفسر سبب وجوده وتجذره. ونحن نذهب الى ان الهاجس الامني قد يكون حالة مرضية ولكنه في نهاية الامر ثمرة ادراك عميق وواقعي (واع أو غير واع) من جانب المستوطنين الصهاينة لواقعهم.

لقد أدرك هؤلاء المستوطنون ان الاراضي التي يسيرون عليها ويدعون ملكيتها منذ آلاف السنين هي في واقع الامر ليست أرضهم وليست ارضاً بلا شعب كما كان الزعم، وأن أهلها لم يستسلموا كما كان متوقعاً منهم، ولم تتم ابادتهم كما كان المفروض ان يحدث. بل انهم يقاومون

وينتفضون ويتزايدون في العدد والكفاءات ولم يكفوا عن المطالبة بشكل صريح بالضفة والقطاع، وبشكل خفي بكل فلسطين وبحق العودة لها. وقرارات هيئة الامم المتحدة الخاصة بحق العودة لاتزال سارية المفعول. ولم تقبل اسرائيل عضواً في المنظمة الدولية الا بعد تعهدها بتنفيذ هذه القرارات. ويساندهم في هذا كل الشعب العربي. ومسألة العجز العسكري العربي والتفوق العسكري الاسرائيلي ليسا مسألة أزلية، وقد أثبتت حرب 1973 ثم المقاومة في لبنان ثم الانتفاضة ان العرب قادرون على أن يعيدوا تنظيم أنفسهم ويهاجموا المستعمر ويلحقوا به خسائر فادحة.

ثمة احساس عميق بان العربي الغائب لم يغب، وهو إحساس في جوهره صادق، فالكيان الصهيوني محاصر بالفعل ومهدد دائماً، والعرب في واقع الامر لا يمكن (الثقة بهم)، لان الجماهير العربية لن تقبل حالة الظلم باعتبارها حالة نهائية رغم توقيع معاهدات السلام الكثيرة! واقصى ما يطمح اليه المستوطنون الصهاينة هدنة مؤقتة تنتهي عادةً بمواجهات عسكرية. فالصراع مع الكيان الصهيوني صراع شامل على الوجود، لان وجود الشعب الفلسطيني لا يهدد حدد الدولة الصهيونية او سيطرتها على اجزاء من الارض الفلسطينية، وانما يهدد وجودها كله. كل هذا يعمق احساس المستوطنين الصهاينة بان دولتهم كيان مشتول، فرض فرضاً على المنطقة بقوة السلاح، وهم اول من يعرف ان ما اسس بالسيف يمكن ان يسقط به. ومما يعمق مخاوفهم احجام يهود العالم عن الهجرة والتكلفة المتزايدة للتكنولوجيا العسكرية. كل هذا يولد الهاجس الامني المرضي وعقلية الحصار المرضية وهي حالة لا علاج لها داخل الاطار الصهيوني.

والهاجس الامني وعقلية الحصار يحددان كثيراً من جوانب السلوك الاسرائيلي، فبسبب هذا الهاجس لابد من زيادة القوة العسكرية والدعم الاقتصادي والتفوق التكنولوجي والمزيد من السيطرة على الارضي. وبسبب حجة الامن يطالب الاسرائيليون بالاحتفاظ بالضفة الغربية وقطاع غزة وانكار حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره. وباسم هذا الهاجس الامني يحق للاسرائيليين اللجوء للاغلاق الامني للقوى الفلسطينية وحصارها وتجويعها. وفي أية مفاوضات مع العرب يطرح الاسرائيليون دوماً بند الامن والاخطار التي تتهددهم وضرورة وجود محطات انذار مبكر ومناطق فصل. وعندما تعقد أية اتفاقية مع العرب يصر الاسرائيليون على ضرورة امتحانهم للتأكد من نيتهم خوفاً من الخديعة دون ان يكون من حق الفلسطيني او العربي ان يفعل المثل. في

هذا الاطار يتم التمييز بين المستوطنات السياسية التي يمكن التخلي عنها والمستوطنات الامنية التي يجب الاحتفاظ بها (وبالتالي بقسم كبير من اراضي الضفة والقطاع). وتمت عملية غزو لبنان باسم (السلام من اجل الجليل). وتنعقد المفاوضات مع سوريا بسبب أمن اسرائيل. بل ان الدولة الصهيونية بسبب الهاجس الامني تسمح وبشكل قانوني بدرجة من الاجبار والضغط البدنيين للحصول على معلومات من الفلسطينيين (اما ممارسة الاجبار والضغط البدنيين بشكل غير قانوني فهذا أمر مفروغ منه).

والهاجس الامني يقف ايضاً عقبة كأداء في المجال الاقتصادي إذ يضع الاسرائيليون الاعتبارات الامنية قبل اعتبارات الجدوى الاقتصادية ومن ثم فهو يعوق عمليات الخصخصة التي تطلب جواً منفتحاً يسمح بتدفق رؤوس الاموال والخبرات والعمالة والسلع. بل انه يمكننا القول بان الهاجس الامني يشكل عائقاً ضخماً في مجال التطبيع، إذ ان الاسرائيليين حينما تتدفق عليهم العمالة العربية والبضائع تبدأ مخاوفهم الامنية في التهيج فيخضعون كل شيء للاعتبارات الامنية بما يحول دون تدفق العمالة والبضائع.

البعد الصهيوني لنظرية الامن القومي في اسرائيل

تعد نظرية الامن القومي في اسرائيل ذات مركزية خاصة بالنسبة للكيان الصهيوني. فالمشروع الصهيوني مشروع استيطاني مبني على نقل كتلة بشرية لتحل محل الفلسطينيين وتغيبهم (فيما نسميه بمقولة (العربي الغائب)) (انظر الفصل الخامس) وتلغي تاريخهم وتستولي على أرضهم، وهو ما لم يتحقق الا من خلال العنف والقوة العسكرية وخلق الحقائق الاقتصادية والسياسية والاستيطانية، وهذا هو الاطار الحقيقي الذي تدور داخله نظرية الامن الاسرائيلي. وما عقلية الحصار سوى نتاج لهذا الوضع البنيوي، أي ان نظرية الامن الاسرائيلي والهاجس الامني يفترض ان الصراع حالة دائمة.

هذا الادراك يعبر عن نفسه في كثير من المفاهيم التي تشكل ركائز نظرية الامن في اسرائيل التي تدور جميعها حول فكرة الغاء الزمان والارتباط بالمكان. فهناك فكرة الامن السرمدي، ان أمن اسرائيل مهدد دائماً، وان حالة الحرب مع العرب حالة شبه أزلية، وان البقاء هو الهدف الاساسي للاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية. وقد عبر حاييم أرونسون (المفكر الاستراتيجي الاسرائيلي)، عن هذه الرؤية في احدى دراساته بالاشارة الى ما سماه (حرب المائة عام) (1882 ـ 1982)، أي الحرب الدائمة بين العرب والصهاينة. وهو يذهب الى ان هذه الحرب لا تزال

مستمرة، ويفسر هذا الاستمرار على اساس ان اسرائيل بلد غربي حديث يعيش في وسط عربي لا يزال يخوض عملية التحديث ومن ثم فهو معرض للقلاقل ولا يمكن عقد سلام معه. ويتوقع أرونسون ان تستمر الحرب لفترة اخرى الى حين الانتهاء من تحديث العالم العربي. وقد تحدث موشيه ديان عن (إين بريرا)، أي (لا خيار)، فعلى المستوطنين ان يستمروا في الصراع الى ما لا نهاية (وأسطورة ماساداه الشمشونية تعبير عن هذه الرؤية المظلمة).

وقد استخدم اسحق رابين تعبير (الحرب الراقدة) لوصف العلاقة القائمة بين اسرائيل والمحيط العربي، كما استخدم الكثير من القيادات الاسرائيلية تعبيرات مشابهة مثل تعبير (الحرب منخفضة الحدة)، حيث تشير كلها الى غياب الحدود الواضحة بين حالة الحرب وحالة السلم في علاقة الدولة الصهيونية بمحيطها.

ويرى كثيرون من أعضاء المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ان التوجه نحو السلام مجرد مرحلة انتقالية يلتقط العرب فيه أنفسهم ليعاودوا القتال (وهو ما أثبته تاريخ الصراع عبر الاعوام المائة السابقة). ومن ثم يصبح من الضروري محاصرة العنصر البشري الفلسطيني وقمعه بضراوة (كما حدث اثناء الانتفاضة، وكما يتبدى في المفهوم الاسرائيلي للحكم الذاتي). أما بالنسبة للعرب فلابد من ضربهم باستمرار لبث روح اليأس فيهم واقناعهم بان الاستمرار في تبني الصراع العسكري كوسيلة لاستعادة الحقوق غير مجد.

وإذا كان الزمان تكراراً رتيباً لا يأتي بالسلام او بالتحولات الجذرية، لا يبقى إذن سوى المكان، الثابت الذي لا يعرف الزمان. وبالفعل نجد ان الارض تشكل حجر الزاوية في الايديولوجية الصهيونية وفي نظرية الامن الاسرائيلية، فالارض الخالية من العرب، أي من الزمان العربي، هي المجال الحيوي الذي يمكن توطين الشعب اليهودي فيه وتحويله الى عنصر استيطاني يقوم على خدمة المصالح الغربية في إطار الدولة الوظيفية. وبدون الارض سيظل الشعب اليهودي شعباً شريداً طريداً، بلا سيادة سياسية او اقتصادية والارض التي يستولي عليها الصهاينة لابد ان تعقم من زمانها التاريخي العربي، لكي تصبح ارضاً بلا زمان، أي ارضاً بلا شعب.

لكل هذا نجد ان نظرية الامن الاسرائيلية تؤكد البعد المكاني (الجغرافي ـ اللاتاريخي ـ اللازمني) بشكل مبالغ فيه وتهمل البعد التاريخي (الزماني ـ الانساني) وان قبلته فانها تفعل ذلك صاغرة وتحاول الالتفاف حوله تماماً

مثلما تلتف الطرق الالتفافية الصهيونية حول القرى العربية. ولذا فنظرية الامن الاسرائيلي تدور داخل فكرة الحدود الجغرافية الآمنة (ذات الطابع الجيتوي) التي تستند الى معطيات جغرافية مثل الحدود الطبيعية (نهر الاردن ـ هضبة الجولان ـ قناة السويس). وقد اقترح حاييم أرونسون ما سماه (الحائط النووي)، أي أن تقبع اسرائيل داخل حزام مسلح تحميه الاسلحة النووية. وهي فكرة بسيطة مجنونة، تتجاهل العنصر البشري الملتحم بالجسد الصهيوني نفسه. ولا تختلف فكرة المستوطنات/القلاع المحصنة كثيراً عن الحائط النووي، وهي سلسلة من المستوطنات التي تحيط بحدود اسرائيل في الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان والنقب، وهي مستوطنات أمنية مختلفة عن تلك التي اقيمت لاسباب دينية او اقتصادية (وهذه المستوطنات تذكر المرء تماماً بالشتلات التي اقامها النبلاء البولنديون (شلاختا) للملتزمين (ارانداتور) اليهود كي يحتموا بها ضد هجمات الفلاحين الاوكرانيين). وتحافظ هذه المستوطنات على العمق الاستراتيجي للمراكز البشرية والاقتصادية وتحول دون تعرض اسرائيل للهجمات العربية، كما انها تحقق النصر في حالة الهجوم بأقل قدر ممكن من الخسائر في الجانب الاسرائيلي، وتوفر الفرصة للقوات الاسرائيلية للقيام بأعمالها الانتقامية والتوسعية في الدول العربية المجاورة.

وتأكيد عنصر الارض يظهر في انشغال التفكير العسكري الاسرائيلي بمحدودية العمق الاستراتيجي للدولة الصهيوني، فاسرائيل في التصور الصهيوني كلها منطقة حدودية، ومن ثم لا يمكن السماح مطلقاً بأن تدور الحرب في أرض اسرائيل. ولذا لا يوجد مكان لعقيدة دفاعية في الفكر العسكري الاسرائيلي، نظراً لان أي فشل في العقدية الدفاعية سيؤدي حتماً الى اختراق اسرائيل نفسها. ومما عمق هذا الاحساس ادراك القيادة الاسرائيلية ضعف القاعدة السكانية الاسرائيلية بالنسبة للقوة البشرية العربية. ومن هنا ضرورة تفادي الحرب الفجائية وضرورة تحصين الحدود بعدد من المستوطنات (كما اسلفنا) وضرورة السبق لتوجيه الضربة الاولى من خلال حرب خاطفة لتجنب الحرب الطويلة والحرب الاستنزافية (لأن اسرائيل لا تتحمل التعبئة العسكرية الشاملة لفترة طويلة)، وضرورة إلحاق خسارة فادحة سريعة بالطرف العربي المهاجم لئلا تجبر اسرائيل على تقديم تنازلات سياسية او اقليمية.

وازاء مشكلة غيب العمق الاستراتيجي للكيان الصهيوني يحدد الفكر العسكري الاسرائيلي ما يسمى (ذرائع الحرب) على نحو فريد. فالدولة الصهيونية تعتبر كل دولة عربية مسئولة عن أي نشاط فدائي ينطلق من

أراضيها، وازدياد هذا النشاط يعد ذريعة من ذرائع الحرب. ويضاف الى هذا الذرائع التالية:

1 ـ قيام حشود عسكرية عربية على أي جانب من حدود اسرائيل.

2 ـ تغيير ميزان القوى العسكرية على حدود اسرائيل الشرقية نتيجة دخول قوات دولة اخرى الى الاردن، او قيام وحدة سورية الطبيعية او انشاء او قيام دولة فلسطينية معادية على حدود اسرائيل.

3 ـ تهديد الامن الاسرائيلي بسبب حصول الاطراف العربية على افضلية نوعية في سباق التسلح (مثل التسلح النووي).

4 ـ اغلاق المضائق او الممرات المائية، او أية خطوط بحرية او جوية.

5 ـ تحويل مصادر المياه في لبنان او في الجولان او الاردن بطريقة ترى اسرائيل أنها تهدد الامن الاسرائيلي.

لقد حددت الحركة الصهيونية فكرة الامن بشكل جغرافي واسقطت العنصر التاريخي، وتصورت انه عن طريق الاستيلاء على قطعة ما من الارض او على هذا الجزء من العالم العربي او ذاك وعن طريق التحالف مع الولايات المتحدة والقوة العسكرية فـانها تحل مشكلة الامن وتصل الى الحدود الآمنة. ولكن الانتصارات الاسرائيلية التي كان ترمي لتحقيق الامن كانت تؤدي الى نتيجة عكسية على طول الخط، حتى وصلت التناقضات الى قمتها مع انتصار 1967، وكان لابد ان تحسم هذه التناقضات، وهو الامر الذي أنجزت القوات المصرية والسورية يوم 6 أكتوبر 1973 جزءاً منه. ثم اندلعت الانتفاضة لتبيين العجز الصهيوني.

ومع هذا تجدر الاشارة الى انه ثمة اختلافات داخل المعسكر الصهيوني في مدى هيمنة مقولة الارض. ويمكن القول بان صهيونية الاراضي (الليكودية) تعبير عن هذا التمركز الشرس حول الارض واهمال الزمان والتاريخ. اما الصهيونية الديموغرافية او السكانية (العمالية) فهي تعبير عن ادراك الوجود العربي والزمان العربي وربما استعداد للتعامل معه، وان كان التعامل يظل في اطار المطلقات الصهيونية، وهي أن أرض فلسطين، أي إرتس يسرائيل في المصطلح الصهيوني، هي ملك خالص للشعب اليهودي وحده (كما تنص على ذلك لوائح الوكالة اليهودية والصندوق القومي اليهودي). ولكن ان اختلف الصهاينة بشأن بعض التفاصيل فثمة اجماع صهيوني راسخ بان أمن اسرائيل يتوقف على الدعم الغربي لها، وبخاصة الدعم الامريكي، ولذا لا يوجد أي اختلاف بشأن هذه النقطة.

والحقيقة التي فاتت الزعامات الصهيونية ان أمن اسرائيل يمثل مشكلة كيانية لان اسرائيل كيان مزروع بلا جذور، ممول من الخارج من قبل يهود الغرب والدول الامبريالية الغربية، لا يتفاعل مع الواقع التاريخي العربي المحيط به. ولكي تدافع اسرائيل عن امنها، أي كيانها، يضطر الكيان الاستيطاني الشاذ الى ان يعسكر نفسه عسكرة تامة ليتحول الى المجتمع/ القلعة الذي تجري العسكرية في عروقه والذي لا توجد فيه اية فواصل بين الشعب والجيش. وما تنساه الزعامات الصهيونية انه بغض النظر عن مقدار الامن الذي سيصل اليه هذا المجتمع وبغض النظر عن حجم انتصاراته فان عليه ان يخوض الحرب تلو الحرب ليدافع عن أمنه (المهدد) وذلك بسبب الحركة الطاردة في المنطقة. لقد بدأ الاستيطان الصهيوني مستنداً الى أسلوب المستوطنات ذات السور والبرج وعاش المستوطنون داخل هذا الأمن المؤقت يحلمون بالامن النهائي. وقد صعّدت المؤسسة الصهيونية آمالهم بأن (السلام سيحل عن قريب) وخاض المستوطنون، ومن بعدهم الدولة الصهيونية، عدة حروب ليصلوا الى الامن النهائي والحدود الآمنة الى ان وصل يوم 6 أكتوبر 1973 وكانوا لا يزالون واقفين وراء قناة السويس خلف سور وبرج كانا يعرفان باسم (خط بارليف) الذي كان يحيط بالحدود الآمنة المفترضة. ثم تحولت اسرائيل بأسرها الى أسوار وأبراج وطرق التفافية يحيط بها حزام أمني في لبنان وسلسلة من المستوطنات في الجولان، ومعابر مسلحة مع السلطة الفلسطينية.

وعبور القوات المصرية والسورية في أكتوبر وانتفاضة الفلسطينيين التي استمرت بشكل حاد حوالي ستة أعوام (ولاتزال مستمرة في صور أخرى في بعض النقاط الساخنة) واستمرار المقاومة اللبنانية بدرجات متفاوتة من الحدة أثبت ان نظرية الامن الاسرائيلي، كما حددتها المؤسسة العسكرية، لا أساس لها ولا سند، فسقطت أجزاء كبيرة من العقيدة الصهيونية وانكشف الغطاء عنها.

ان التعريف الصهيوني للأمن شجرة عقيم، فالحدود الجغرافية الآمنة لا يمكنها ان تهزم التاريخ، والامن لا يتحقق داخل المكان وحسب، عن طريق الآلات والردع التكنولوجي، وانما يتحقق داخل الزمان، فالأمن الدائم والنهائي والحقيقي علاقة بين مجموعات بشرية تعيش داخل الزمان وليس أسطورة لا تاريخية تفرض عن طريق الردع التكنولوجي. والدولة الصهيونية غير قادرة على تحقيق الامن لشعبها او للآخرين. ومع هذا نجحت في اقناع المؤسسة الحاكمة الجماهير الاسرائيلية انها لا يمكن ان تتعايش الا داخل الكيان الصهيوني الشاذ، وعلينا ـ نحن العرب ـ ان

نثبت ان العكس هو الصحيح، فصهيونية هذا الكيان هي السبب في انعدام أمنه وهي السبب في الزج بالجماهير الاسرائيلية في حروب متتالية، فلا أمن الا من خلال اطار ينتظم كل سكان المنطقة ولا يستبعد الاسرائيليين او الفلسطينيين. أما الامن الذي يتجاهل الواقع فهو امن مسلح مؤقت، هو سلام بمني على الحرب يهدف الى فرض الشروط الصهيونية.

ان الصهيونية تصدر عن رؤية تفترض انفصال اليهودي عن الأغيار ووحدته مع كل يهود العالم، وتحاول الدولة الصهيونية ان تترجم هذا الافتراض الى حقيقة. فإسرائيل تحاول ان تظل بمعزل عن حركة التاريخ في منطقة الشرق العربي وتتحرك في إطار فكرة وحدة (التاريخ اليهودي)، ولذلك فهي تمنع الفلسطينيين من العودة الى ديارهم ولكنها في الوقت نفسه تقوم بالحملات المسعورة لتهجير يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً)، ثم تبحث عن (الأمن) بعد هذا. وعلى العرب ان يثبتوا للإسرائيليين أن السير عكس الاتجاه الصهيوني هو المخرج الوحيد، أي دولة تعبر عن حركة التاريخ في المنطقة وتنتظم كل سكان فلسطين بغض النظر عن انتمائهم الديني او العرقي، دولة منفصلة عن ديناميات (التاريخ اليهودي) الوهمية متحررة من التصورات الخاصة بـ(وحدة الشعب اليهودي) في كل زمان ومكان.

وقد شبه احد الكتاب الاسرائيليين نظرية الامن بانها عبادة وثنية للعجل الذهبي (الشيء ـ المكان) الذي رقص حوله الاسرائيليون والعبرانيون مهملين عبادة الله الحق، المتجاوز للطبيعة والمادة والمكان.

تطور مفهوم الامن القومي الاسرائيلي

ينطلق الامن القومي الاسرائيلي من مقولة في غاية البساطة والسذاجة وهي أن فلسطين او إرتس يسرائيل هي أرض بلا شعب، ومن ثم ان وجد مثل هذا الشعب فلابد ان يغيب، أي أن مفهوم الامن القومي الاسرائيلي ينطلق من انكار الزمان العربي والوجود العربي، والفلسطيني على وجه التحديد. وهذا يعني ضرورة فرض الوجود الصهيوني والشروط الصهيونية بكل الوسائل المتاحة، أي ان ردع العرب واضعافهم هو هدف اساسي للأمن القومي الاسرائيلي، وان على الجيش الاسرائيلي ان يحتفظ بقدرته العسكرية، وان على الدولة الصهيونية ان تحتفظ بعلاقاتها المتينة بالعالم الغربي الذي يدعمها ويمولها ويضمن تفوقها العسكري الدائم.

ومع هذا طرأ على مفهوم الامن القومي الاسرائيلي بعض التعديلات نتيجة الحروب العربية ـ الاسرائيلية، والمتغيرات والمعطيات الغرافية والسياسية الناجمة عنها، وما تغير عبر هذه السنوات فقط أدوات تحقيق

هذا الامن ولكن ليس بمعنى التغير الكامل أو الإحلال. وقد تطور مفهوم الأمن القومي الاسرائيلي عبر عدة مراحل:

* قام مفهوم الامن القومي الاسرائيلي في مرحلته الاولى على مفهوم (الضربة المضادة الاستباقية)، الذي كان يرتبط بانعدام العمق الاستراتيجي لاسرائيل. وينطلق هذا المفهوم من مقولة مفادها ان من الحيوي عدم السماح مطلقاً بأن تدور الحرب في أرض اسرائيل، بل يجب نقلها وبسرعة الى أراضي العدو، وطورت مفهوماً للردع ثم استبدلته بمفهوم لذرائع الحرب الاستباقية يقوم على شن حرب استباقية اذا حاول العدو (العربي) التصرف في أرضه على نحو يقلق اسرائيل مثل المساس بحرية العبور او حشد قوات على الحدود الاسرائيلية او حرمانها من مصادر المياه. ولذا كانت عملية تأميم قناة السويس تستدعي عملاً عسكرياً تمثل في عملية قادش او ما نسميه (العدوان الثلاثي).

* تطوّر مفهوم الامن القومي الاسرائيلي لتظهر نظرية (الحدود الآمنة). وهي نظرية وضعت أسسها قبل 1967 لكنها تبلورت بعد حرب 1967، وقد شرحها آبا إيبان وزير الخارجية آنذاك بأنها نظرية تقوم على حدود يمكن الدفاع عنها دون اللجوء الى حرب وقائية. ويلاحظ في هذه النظرية غلبة المكان على الزمان بشكل تام، إذ ينظر للشعب العربي باعتبار انه يجب القضاء عليه تماماً او تهميشه، فنظرية الحدود الآمنة اعلان عن نهاية التاريخ (العربي).

* أكدت حرب 1973 فشل معظم نظريات الامن الاسرائيلي المكانية وهو ما استدعى تكوين نظرية جديدة هي نظرية (ذريعة الحرب)، وتذهب هذه النظرية الى ان اسرائيل لن تتمكن بأي شكل من الاشكال من الامتناع عن تبني استراتيجية الحرب الوقائية وتوجيه الضربات المسبقة في حال تعرضها لتهديد عربي.

واضافت اسرائيل الى هذا التصور مفهوم حرب الاختيار، ومفهوم ذريعة الحرب كمبررات لشن حرب من اجل تحقيق مكاسب سياسية او أمنية مزدوجة المعايير. كما تم تطوير استراتيجية الردع النووي. لذا شهدت هذه الفترة عقد اتفاق التعاون الاستراتيجي بين اسرائيل والولايات المتحدة عام 1981 من ناحية والذي توافق من ناحية اخرى مع صعود اليمين الامريكي الذي كان يسعى الى تصعيد المواجهة مع الاتحاد السوفيتي. وقد شن في تلك الفترة الهجوم على العراق ثم لبنان ثم تونس، في حين أوكلت باقي المهام الامنية لجهاز السياسة الخارجية وجهاز الاستخبارات الاسرائيلية اللذين قاما بجهودهما لاجهاض الكفاءات

العسكرية العربية كما قاما بأنشطة مشبوهة في أعالي النيل والقرن الافريقي وغيرها.

وقد حولت الانتفاضة (والمقاومة في الجنوب اللبناني) الانظار عن مفهوم الحرب الخاطفة اذ طرحت امكانية (حرب طويلة) تعتمد على الاحتكاك المباشر على الارض التي يفترض انها لا شعب لها ولا تاريخ. ولذا فقط نظر الصهاينة الى الانتفاضة باعتبارها حرب عصابات شعبية غير مسلحة تهدف الى تحقيق اهداف سياسية معادية لاسرائيل، هي فك الجيب الاستيطاني الصهيوني، الامر الذي يعني طرح قضية شرعية الوجود وبحدة. بل ان الانتفاضة هددت البعد الوظيفي، اذ ان الجيش الصهيوني فقد هيبته واثبت عجزه عن خوض الحرب الطويلة وهي نقطة قد تكون فاصلة في حالة نشوب صراع مع العرب. واذا كانت الدولة الوظيفية قد فقدت مقدرتها على قمع المواطنين الاصليين داخلها، فكيف سيمكنها ان تضطلع بوظائفها القتالية الاخرى؟

الامن القومي الاسرائيلي في التسعينيات

تضافرت مجموعة من العوامل تاركة آثاراً مهمة على مجمل الاوضاع في المنطقة العربية وعلى مقومات مفهوم الامن القومي الاسرائيلي، حيث شهد عقد التسعينيات تحولات وتطورات غيرت مفاهيم كثيرة كانت راسخة، وقلبت موازين كانت مستقرة، فقد اختفت الدولة السوفيتية من الخريطة السياسية العالمية، وأدى انتهاء الحرب الباردة الى فقدان العديد من الدول العربية الفاعلة حليفها الاستراتيجي القديم، والى انعدام هامش المناورة أمامها، الامر الذي قلص الى حد بعيد قدرتها على شن حرب ضد اسرائيل، ولكنها أدت الى تقوية الموقف الاسرائيلي في الميزان الاستراتيجي، فضلاً عن اتساع نطاق هجرة اليهود السوفييت وبخاصة من العلماء وذوي الكفاءات والخبرات، وتنامت العلاقات الروسية الاسرائيلية حتى توجت بتوقيع اتفاق للتعاون الدفاعي والامني في ديسمبر 1995. وفي ظل انفراد الولايات المتحدة بالهيمنة في الساحة العالمية، تم توطيد التحالف الاستراتيجي الامريكي ـ الاسرائيلي، وامتد الى مجال أنظمة التسلح الكبرى التي تعتمد في الاساس على الثورة التكنولوجية، كما أبرزت تلك التطورات العالمية علو شأن الاقتصاد والاتجاه نحو التكتلات الاقتصادية. ورغم ذلك فلم تعد الخيارات السياسية امام اسرائيل بالاتساع الذي كانت عليه سابقاً، وهذا ما يفسر مقولة جيمس بيكر (ان اسرائيل الكبرى فكرت ليست واقعية وليست ممكنة)، لان تحقيق ذلك الهدف يتطلب ان يكون لدى اسرائيل قوة تمكنها من فرض سيطرتها على المنطقة دون دعم خارجي تتحمل الولايات المتحدة تكلفته السياسية

والمالية وتتحمل معها مزيداً من العداء من قبل الشعوب العربية.

وعلى صعيد البيئة الاقليمية، أثبتت خبرة الحروب العربية ـ الاسرائيلية فشل الحرب في تأمين السلام لاسرائيل وعجزها عن توفير الامن لها، في حين رأى عدد كبير من اعضاء المؤسسة الصهيونية ان التفاوض مع العرب بضمانات دولية قد يلبي الحاجة الى الامن وخصوصاً في ظل تزايد ادراكها انها رغم تفوقها العسكري لم تتمكن فرض استسلام غير مشروط على العرب، بل على العكس فقد تمكن العرب من تجاوز العديد من مضاعفات وآثار هذا التفوق. واثبتت حرب 1973 وغزو لبنان 1982 محدودية القوة الاسرائيلية وعجزها.

ثم جاءت الانتفاضة، ويمكن القول بأن اقوى ضربة وجهت لنظرية الامن الاسرائيلي هي الانتفاضة التي اصبح بعدها انكار وجود الشعب الفلسطيني غير ممكن. ومن هنا كان الاعتراف بهم بوصفهم (الفلسطينيين)، كما في صيغة مدريد واتفاقية أوسلو. وبذلك لم تعد نظرية الامن الاسرائيلي تختص بالامن الخارجي إذ اصبح الداخل هو الآخر مصدر تهديد، وهو ما لا تستطيع اسرائيل حياله شيئاً فهي لا تستطيع ان تحرك جيوشها لقمع الانتفاضة. كما انها غيرت مفهوم الامن لديها من كونه تهديداً خارجياً الى كونه هاجساً أمنياً داخلياً لا يمكن السيطرة عليه مهما بلغت قوة اسرائيل العسكرية من بأس وشدة. ولعل هذا هو الذي دفع الاسرائيليين بالمطالبة بأن يتزامن توقيع اتفاق اوسلو مع اعلان الفلسطينيين وقف الانتفاضة، وهو ما لم ينجح أبداً.

وأدت حرب الخليج الثانية الى ابراز عدد من الفجوات في مفهوم الامن القومي الاسرائيلي، حيث أوضحت أولاً ان الجيش الاسرائيلي لا يمتلك قدرة ملائمة مضادة للتهديدات الصاروخية لا سيما التهديدات القادمة من بعد. وادى القصف الصاروخي العراقي ـ رغم محدودية تأثيره المادي ـ للعمق الاسرائيلي الى انكشاف المؤخرة الاسرائيلية بما فيها من تجمعات سكانية كثيفة، وازداد إدراك الخطر الصاروخي في ظل سعي دول المنطقة الى امتلاك قدرة صاروخية بامكانها اصابة اهداف استراتيجية اسرائيلية. كما ان حرب الخليج من ناحية ثانية أظهرت استحالة قيام الجيش الاسرائيلي بتنفيذ مفهومه الامني التقليدي القائم على نقل الحرب بسرعة الى أرض الخصم، وخصوصاً ان عنصر البعد الجغرافي قلل كثيراً قدرة السلاح الجوي الاسرائيلي على توجيه ضربات عنيفة الى العراق.

يضاف الى ذلك ان عملية تسوية الصراع العربي الاسرائيلي سوف تكون

لها انعكاسات استراتيجية بارزة، حيث يفترض ان تفضي هذه العملية الى قيام اسرائيل بتقديم تنازلات جغرافية اقليمية وهو ما يعني تأكل العمق الاستراتيجي، والتخلي عن مفهوم الحدود الآمنة بالمعنى الجغرافي، واقامة تعاون اقتصادي يكفل اقامة شبكة علاقات اقتصادية متداخلة بين جميع دول المنطقة.

لقد أثبتت حرب الخليج انعدام جدوى دور اسرائيل القتالي. ثم مع سقوط الاتحاد السوفيتي وظهور النظام العالمي الجديد بدأ مفهوم الامن القومي الاسرائيلي يتشكل حسب ألوان جديدة، هي مجرد تنويعات جديدة على النغمة الاساسية القديمة. فالثوابت ستظل كما هي (البقاء حسب الشروط الصهيونية وتوظيف الدولة في خدمة المصالح الغربية)، ولكنها ستكتسب اشكالاً جديدة مثل التعاون العسكرية مع بعض الدول العربية والمحيطة بالعالم العربي. والعدو هنا لم يعد النظم العربية الحاكمة ولا جيوشها، وإنما أشكال المقاومة الشعبية المختلفة.

والتقديرات الاستراتيجية الاسرائيلية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتدمير القوة العسكرية العراقية تخلص الى التهوين من احتمال نشوب حرب عربية شاملة ضد اسرائيل على المستويين القصير والمتوسط (مع عدم استبعادها على المدى الطويل)، مع تحول الدول العربية نحو الشكل السلمي للصراع، وفي ظل التحالف الاستراتيجي الامريكي الاسرائيلي. ورغم انكماش التهديدات الفعلية واسعة النطاق الماثلة امام اسرائيل، فان هناك طائفة واسعة من التهديدات المحتملة والكامنة والمقصورة، فمن ناحية أولى طرأت نوعيات جديدة من التهديد العسكري ليس من اليسير ايجاد حلول عسكرية واضحة لها، بل اصبح من الصعب تشخيصها وما اذا كانت ذات طبيعة دفاعية أم هجومية. وابرز مثال على ذلك الانتفاضة الفلسطينية، وانتشار الاسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية ووسائل ايصالها وبخاصة الصواريخ البالستية.

ومن ناحية ثانية أدى تطور العملية السلمية وانكماش التهديدات الخارجية واسعة النطاق الى بدء تبلور (التهديد الداخلي) الناتج عن ضعف التماسك الاجتماعي والتكامل القومي فتفاقمت التناقضات الداخلية الناتجة عن طبيعة التركيب الاجتماعي/ السياسي للدولة الصهيونية، وهو ما بلغ أخطر مراحله باغتيال رئيس الوزراء السابق اسحق رابين.

وتسود رؤية اسرائيلية أمنية لابعاد السلام مع المحيط العربي، فحاجة اسرائيل للسلام ترتبط بالخوف متعدد المصادر (الهاجس الامني)، لذلك توضح الترتيبات والمقترحات الامنية التي تطرحها اسرائيل في

المفاوضات والاتفاقات مع الدول العربية المحيطة انها تعتمد استراتيجية تهدف الى مواصلة اوسع قدر من السيطرة العسكرية على محيطها، وهذا ما تعكسه بدقة المقولة الاسرائيلية (السلام الاسرائيلي العربي سيكون سلاماً مسلحاً)، وحديث نتنياهو عن (السلام القائم على الامن)، أي على قوة اسرائيل العسكرية، وهي تكشف عن تأثير الايديولوجية الصهيونية وهيمنة الشأن الأمني على الشأن السياسي وأبعاد التسوية السياسية التي تتطلبها، وضمن ذلك رؤيتها للترتيبات المتعلقة بشئون المياه والسكان والحدود والعلاقات الاقتصادية، ولذا فان نظرة أحادية الجانب وصيغاً لترتيبات غير متكافئة تسيطر على أطروحات اسرائيل مع جوارها العربي كجزء من تنظيم شروط (اندماجها) الاقليمي في مرحلة ما بعد التسوية، وهو ما يتمثل في:

1 ـ احتلال الترتيبات الامنية والعسكرية حيزاً مهماً من اتفاق اوسلو واتفاقات القاهرة اللاحقة مع منظمة التحرير الفلسطينية، والاصرار على تضمين الاتفاقات مع الدول العربية بنوداً تفرض على الجانب العربي مناطق منزوعة السلاح واسعة نسبياً، وادخال تعديلات على الحدود لمصلحة توسع أسرائيل، واعادة النظر في بنية الجيوش العربية وتخفيض أحجامها، وتقليص قدراتها الهجومية.

2 ـ وجود توجه واضح لاقامة نظام أمني اسرائيلي/اردني/فلسطيني يرتبط لاحقاً، عبر اسرائيل بنظام أمني اسرائيلي/سوري/لبناني وذلك لتحويل أي انسحاب تقوم به اسرائيل من اية أراضي عربية محتلة الى رصيد أمني لها.

3 ـ تحويل مرحلة الحكم الذاتي الفلسطيني المنصوص عليها في اتفاق اوسلو الى مرحلة اختبارية لمنظمة التحرير والسلطة الفلسطينية، يكون مقياسها أمن مستوطنات اسرائيل وجيشها داخل مناطق الحكم الذاتي والمناطق المحتلة.

4 ـ النظر الى التجمعات الفلسطينية في الدول العربية وفي اسرائيل نفسها من منظور أمني، وتشترط أن تقبل الدول العربية التي تستضيفهم الموافقة على مبدأ توطينهم.

5 ـ النظر الى الاردن من زاوية الوظائف الامنية التي يمكن ان يؤديها كعازل بين اسرائيل وبين الدول العربية المجاورة للاردن.

6 ـ اعتماد مفهوم الامن اللامتكافئ في:

* اعتماد مقولة ان التفوق العسكري الاسرائيلي هو الذي ارغم الدول

العربية على التفاوض معها، وان الحفاظ على هذا التفوق أحد ضمانات السلام.

* استخدام العلاقة المتميزة التي تربط اسرائيل بالولايات المتحدة كدعامة من دعائم أمنها، أي قوة ردع مساندة لها في مواجهة محيطها العربي.

* اعتبار ان احتفاظ اسرائيل بتفوقها العسكري النوعي في مجال الاسلحة التقليدية والاسلحة غير التقليدية لفترة مفتوحة زمنياً امر لا بديل عنه، وبالتالي البقاء خارج أية معاهدات قد تضع قيوداً على تسلحها، وضمن ذلك معاهدة منع انتشار الاسلحة النووية.

* اعتبار ان وجود حالة عدم استقرار في الشرق الاوسط (والتي يجري توسيع حدودها لتشمل، اضافة للدول العربية، كلاً من ايران ودول آسيا الوسطى، وباكستان) يشكل تهديداً ممكناً لأمن دولة اسرائيل ومناقضاً لأية اجراءات يمكن ان تتخذ للحد من الاسلحة.

7 ـ مفهوم المنطقة العازلة منزوعة السلاح أو شبه المنزوعة:

تبلور هذا المفهوم كنتيجة لحرب 1973، وعلى أساسه تمت ترتيبات فصل القوات المصرية الاسرائيلية ثم اتفاق السلام سنة 1979. لكن مفهوم (المنطقة العازلة منزوعة السلاح) كبديل عن مفهوم العمق الاستراتيجي بقي ـ من منظور الامن الاسرائيلي ـ قابلاً للتطبيق على اوضاع الجبهة المصرية ـ الاسرائيلية فقط، وغير قابل للتطبيق على الجبهات الاخرى بدون ادخال ترتيبات اضافية. وازاء موضوع العمق الاستراتيجي برزت في اسرائيل مدرستان:

تعتبر المدرسة الاولى ـ التي تسود أوساط حزب العمل واليسار الصهيوني ـ ان نزع سلاح الضفة الغربية وقطاع غزة أمر حيوي في أية تسوية سياسية، وتميز بين مفهوم الحدود السياسية (حدود دولة اسرائيل) والحدود الأمنية. على العكس تصر المدرسة الثانية، التي تسود أوساط الليكود وأحزاب اليمين، على أن ابقاء السيطرة العسكرية (المباشرة) على عموم المنطق الفلسطينية المحتلة عام 1967 لا بديل عنه، وترفض الفصل بين مفهومي السيادة والسيطرة العسكرية. وتفترض المدرستان كلتاهما مواصلة سيطرة اسرائيل على السفوح الجبلية للضفة الغربية وغور الاردن، وتفترض المدرسة الاولى ان نزع سلاح الضفة الفلسطينية يفترض استمرار سيطرة اسرائيل على المعابر والطرق.

8 ـ تأكيد مفهوم الحرب الاختيارية كبديل للحرب الدفاعية او الاجهاضية،

ويقصد بها تلك الحرب التي تخوضها اسرائيل بمحض اختيارها وبدافع من رغبتها في تحقيق مصالحها القومية كما تراه وتحددها، وهي حرب تستجيب لتطور دور اسرائيل في الشرق الأوسط، من دولة تبحث عن الاعتراف والقبول الى دولة تؤكد دورها السياسي والاستراتيجي في المنطقة.

9 ـ يمثل البعد النووي في الأمن الاسرائيلي أحد المظاهر المهمة لسيطرة هاجس الأمن السرمدي الذي فرض ضرورة انفراد اسرائيل بامتلاك مقدراتها الخاصة بصرف النظر عن الارتباط العميق بدولة عظمى توفر لها المساندة السياسية والعسكرية.

والبعد النووي احتل موقعاً خاصاً في الفكر الاستراتيجي الشال للساسة الاسرائيليين انطلاقاً من اعتباره مظلة أمنية مستقلة لا تعتمد على محددات وعوامل حاكمة خارجية. ومن هنا ظهور ما يسمى (عقيدة بيجين) التي تعني منع دول الشرق الاوسط من التسلح باسلحة نووية ومن امتلاك التكنولوجيا النووية. وكانت عملية قصف المفاعل النووي العراقي 1981 فاتحة تطبيقات تلك العقيدة.

وموقع الخيار النووي في المنظومة الامنية لم يكن مرتبطاً بركيزة اضعاف الخصوم، وإنما المحافظة على البقاء، الامر الذي يتضح من كونه ذخيرة استراتيجية غير مطروحة للاستخدام المباشر الفعلي الا في حالات خاصة جداً هي على وجه الحصر تعرض الدولة لتهديد حقيقي بالفناء، فاستخدامه الفعلي لن يكون الا بعد اختلال الميزان التقليدي لصالح العرب ونشوب حرب شاملة تتعرض فيه الدولة لتهديد فعلي بانهاء وجودها أو ضرب مواقع حيوية فيها، فالسلاح النووي هو الملاذ الأخير. أما الاستخدام الفعلي للبعد النووي فكان الاستخدام السياسي سواء من خلال الضغط النفسي على الدول العربية بفرض ستار من الغموض حول حدود وطبيعة الخيار النووي يؤدي الى تحسين وضع اسرائيل التفاوضي او من خلال عملية الابتزاز التي تقوم بها مع الولايات المتحدة لتقديم مساعدات اقتصادية وسياسية وعسكرية ضخمة تغنيها عن اللجوء للقوة النووية.

الفصل التاسع

الرؤية الصهيونية/الاسرائيلية

للصراع وللحكم الذاتي

الاستيطانية الصهيونية تعبر عن نفسها ـ كما أسلفنا ـ من خلال المفهوم الصهيوني الاسرائيلي للأمن، كما تعبر عن نفسها من خلال المفهوم الاسرائيلي للصراع والسلام والحكم الذاتي للفلسطينيين، كما تعبر عن نفسها بشكل محسوس ومتعين من خلال الطرق الالتفافية. (كما سنبين في هذا الفصل).

المفهوم الصهيوني/الاسرائيلي للصراع العربي الاسرائيلي

لإدراك الابعاد الحقيقية للمفهوم الصهيوني/الاسرائيلي للسلام والامن قد يكون من المفيد العودة الى احد المؤتمرات الصهيونية الاولى (في عشرينيات هذا القرن) حين طرح أحد المستوطنين الصهاينة السؤال التالي: هل تريد الحركة الصهيونية الحرب مع العرب ام لا؟ وطرح السؤال على هذا النحو يلقي كثيراً من الضوء على القضية موضع البحث: فهل السلام مسألة ارادة ورغبة، أم مسألة بنية تشكلت على ارض الواقع، لها حركية مستقلة، تدوس كل من يقف في طريقها؟

ومن الواضح ان المستوطنين الصهاينة، في لحظات صدق كثيرة، تجاوزوا الديباجات الصهيونية البلهاء وأدركوا أن الارض مأهولة وأنهم جاءوا لاغتصابها وان اهلها لذلك سيشتبكون معهم دفاعاً عن حقوقهم. ففي خطاب له في 9 يوليو 1936 أمام اللجنة السياسية لحزب الماباي عرّف موشيه شاريت رئيس الوزراء الاسرائيلي السابق الثورة العربية بانها ثورة الجماهير التي تمليها المصالح القومية الحقة، واضاف ان الفلسطينيين يشعرون انهم جزء من الامة العربية التي تضم العراق والحجاز واليمن، (ففلسطين بالنسبة لهم وحدة مستقلة لها وجه عربي، وهذا الوجه آخذ في التغير، فحيفا من وجهة نظرهم كانت بلدة عربية، وها هي ذي قد اضحت يهودية). ورد الفعل ـ كما اكد شاريت ـ لا يمكن ان يكون سوى المقاومة. وفي 28 سبتمبر من العام نفسه، كان شاريت قاطعاً في تشخيصه الحركة العربية على انها ثورة ومقاومة قومية وان القيادة الجديدة تختلف عن القيادات القديمة، كما لاحظ وجود عناصر جديدة في حركة المقاومة: اشتراك المسيحيين العرب بل النساء المسيحيات في حركة المقاومة، كما لاحظ تعاطف المثقفين العرب مع هذه الحركة، وبين ان من أهم دوافع الثورة الرغبة في انقاذ الطابع العربي الفلسطيني وليس مجرد معارضة اليهود.

وقد توصل ديفيد بن جوريون لنفس النتائج وبطريقة اكثر تبلوراً عام 1938 حين قال: (نحن هنا لا نجابه ارهاباً وانما نجابه حرباً وهي حرب

قومية أعلنها العرب علينا. وما الارهاب سوى احدى وسائل الحرب لما يعتبرونه اغتصاباً لوطنهم من قبل اليهود ـ ولذا يحاربون، ووراء الارهابيين توجد حركة قد تكون بدائية ولكنها ليست خالية من المثالية والتضحية بالذات. يجب ألا نبني الآمال على ان العصابات الارهابية سينال منها التعب، فاذا ما نال التعب من أحدهم، سيحل آخرون محله. فالشعب الذي يحارب ضد اغتصاب أرضه لن ينال منه التعب سريعاً... وحينما نقول ان العرب هم البادئون بالعدوان وندافع عن أنفسنا ـ فإننا نذكر نصف الحقيقة وحسب. ومن الناحية السياسية نحن البادئون بالعدوان وهم المدافعون عن أنفسهم. إن الأرض أرضهم لانهم قاطنون فيها بينما نحن نريد أن نأتي ونستوطن، ونأخذها منهم، حسب تصورهم).

كان ثمة إدراك واضح المعالم من جانب الصهاينة لطبيعة الغزوة الصهيونية الاستيطانية الاحلالية وطبيعة المقاومة العربية. ولكن السلوك الناتج عن هذا الادراك كان متبايناً، فكان هناك نمط من الصهاينة أدرك طبيعة الجرم الكامن في عملية تغييب العرب هذه فتنكر لرؤية الصهيونية تماماً وتخلى عنها، وعاد الى أوربا. وهناك كثيرون من حزب بوعالي صهيون (عمال صهيون) عادوا الى الاتحاد السوفيتي بعد الثورة البلشفية حتى يشاركوا في الثورة الاجتماعية وحتى لا يشاركوا في الارهاب الصهيوني. ولكن هؤلاء قلة نادرة على ما يبدو، وعلى كل فانهم يختفون تماماً من التواريخ الصهيونية ومن الادراك الصهيوني. ولذلك فهم لا يؤثرون من قريب او بعيد في البرنامج السياسي الصهيوني او سلوك الصهاينة نحو العرب.

وهناك نمط ثان من الصهاينة أدرك طبيعة المقاومة العربية ولكنه لم يطرح رؤيته الصهيونية جانباً، وبذل محاولات يائسة لاعادة صياغة المشروع الصهيوني بطريقة تستوعب وجود العربي الحقيقي وتأخذه في الحسبان. ولكن من الملاحظ ان مثل هذه الشخصيات تحولت بالتدريج الى شخصيات مبهمة وهامشية، ومن وجهة نظر الصهيونية، تنتمي الى منظمات هامشية وتدافع عن رؤى هامشية لا تؤثر في المركز او الممارسات الاساسية. ولعل سيرة يتسحاق ابشتاين المسئول الصهيوني عن الاستيطان (1862 ـ 1943) وآرثر روبين وغيرهما خير دليل على ذلك. فهؤلاء الصهاينة، نظراً لاحتكاكهم الدائم بالواقع العربي، أدركوا مدى تركيبية الموقف فطرحوا صيغاً مركبة نوعاً مثل الدولة ثنائية القومية وطالبوا بالتعاون مع الحركة القومية العربية وأسسوا جمعية بريت شالوم ثم جمعية ايحود لاجراء حوار مع العرب يعترف بهم ككيان قومي ولا يتعامل معهم كمجرد مخلوقات اقتصادية. ولكن المحاولات كلها ظلت في

نهاية الامر تعبيراً عن ضمير معذب اكثر من كونها ممارسات حقيقية. ولعل يهودا ماجنيس (1877 ـ 1948) من أكثر الشخصيات المأساوية في تاريخ الصراع العربي الصهيوني، فهذا الرئيس السابق للجامعة العبرية، واليهودي الاصلاحي، أدرك الخلل العميق في وعد بلفور منذ البداية بانكاره وتغييبه للعرب، وادرك مدى عمق الصراع المحتمل بين المستوطنين الصهاينة والعرب، ولذا قضى حياته كلها يحاول ان يصل الى صيغة صهيونية تنيرها لحظة الادراك النادرة دون جدوى. وانتهى به الامر ان تنكر له مجل الجامعة العربية التي كان يترأسها.

ويمكن ان نذكر في هذا السياق آحاد هعام الذي رأى الدماء العربية النازفة فولول وكأنه أحد انبياء العهد القديم، يستمطر اللعنات على شعبه لما اقترف من آثام، ومع هذا نجده بعد ذلك في لندن مستشاراً لحاييم وايزمان، في الفترة التي سبقت إصدار وعد بلفور، يدلي له بالنصيحة بشأن كيفية الاستيلاء على فلسطين، ولا يذكره من قريب او بعيد بالمقاومة العربية ـ او الدماء النازفة. وينتهي به المطاف ان يستقر هو نفسه على الارض الفلسطينية، بكل ما يحمل ذلك من معاني اغتصاب وقهر. ولكنه حتى وهو في فلسطين، بعد وعد بلفور، ظلت تخامره الشكوك بشأن المشروع الصهيوني وظل موقفه مبهماً حتى النهاية.

وهناك اخيراً النمط الثالث، وهو أكثر الأنماط شيوعاً وهو النمط الذي يؤدي ادراكه لحقيقة المشروع الصهيوني وأبعاد المقاومة العربية الى مزيد من الشراسة الصهيونية. ولنضرب مثلاً على هذا النمط الصهيوني بفلاديمير جابوتنسكي ـ زعيم الحركة الصهيونية التصحيحية ـ الذي أدرك منذ البداية أن الصراع بين الصهيونية كحركة استيطانية مغتصبة للأرض والعرب أمر حتمي، فلم يختبئ وراء السحابة الكثيفة من الاعتذاريات الصهيونية عن الحقوق اليهودية الأزلية، ولم يختبئ وراء الحجج الليبرالية عن شراء فلسطين، او الحجج الاشتراكية عن رجعية القومية العربية وخلافه من الاستراتيجيات الادراكية، وإنما أكد دون مواربة أن الصهيونية جزء من التشكيل الاستعماري الغربي الذي لم يكن بمقدوره أن يحقق انتشاره إلا بحد السيف، ولذلك طالب منذ البداية بتسليح المستوطنين الصهاينة (تماماً مثلما يتسلح المستوطنون الاوروبيون في كينيا وفي كل مكان)، أي طالب بتعديل موازين القوى بطريقة تخدم التحيز الصهيوني. فالعرب ـ حسبما صرّح ـ لن يقبلوا الصهيونية (وتحيزاتها ورؤيتها) إلا إذا وجدوا انفسهم في مواجهة حائط حديدي.

ونفس النتيجة توصل اليها بن جوريون، إذ أن ادراكه للمقاومة العربية كان يحيده التزامه بالرؤية الصهيونية، ولذا توصل الى أنه لا مناص من فرض

هذه الرؤية عن طريق القوة وحد السيف. ولذا لم يبحث الزعيم الصهيوني عن سلام مع العرب، فمثل هذا السلام ـ على حد قولهـ مستحيل، كما لم يحاول أن يعقد اتفاقية معهم، فهذا ـ في تصوره ـ سراب بغير شك. إن السلام مع العرب، بالنسبة لبن جوريون، (إن هو إلا وسيلة وحسب، أما الغاية فهي الإقامة الكاملة للصهيونية، لهذا فقط نود أن نصل الى اتفاق (مع العرب). إن الشعب اليهودي لن يوافق، بل لن يجسر على أن يوافق، على أية اتفاقية لا تخدم هذا الغرض. ولذا فالاتفاق الشامل امر غير مطروح الآن، (فالعرب) لن يستسلموا في إرتس يسرائيل إلا بعد أن يستولي عليهم اليأس الكامل، يأس لاينجم عن فشل الاضطرابات التي يثيرونها أو التمرد الذي يقومون به وحسب وإنما ينجم عن نمونا (نحن اصحاب الحقوق اليهودية المطلقة في هذا البلد)). ثم استمر يقول: (لا يوجد مَثَل واحد في التاريخ لأمة فتحت بوابات وطنها (للآخرين). إن تشخيصي للموضوع أنه سيتم التوصل الى اتفاق (مع العرب) لأنني أؤمن بالقوة، قوتنا التي ستنمو، وهي إن حققت هذا النمو، فإن الاتفاق سيتم إبرامه). وهكذا تم رسم الصورة الصهيونية (للسلام مع العرب).

ولا يختلف شاريت عن هذه الرؤية التي تذهب الى أن المثل الأعلى الصهيوني لابد أن تسانده القوة حتى يمكن فرضه على الواقع. وهو ايضاً يتبنّى سياسة الحائط الحديدي، شأنه في هذا شأن بن جوريون وجابوتنسكيك: (لا أعتقد أننا سنصل الى اتفاق مع العرب حتى تنمو قوتنا. ولكني أعتقد أنه ستحين اللحظة حين نصبح أكثر قوة وسنبرم اتفاقاً ثابتاً مع بريطانيا العظمى، كقوة مع قوة أخرى، وسنصل الى اتفاق مع العرب كقوة مع قوة أخرى. لكن الشرط الأساسي هو ألا ينظر لنا العرب باعتبارنا قوة محتملة وإنما باعتبارنا قوة فعلية).

وقد أدرك وايزمان منذ البداية أن أي سلام مبني على العدل، أي يؤدي الى اعطاء الفلسطينيين حقوقهم السياسية والدينية والمدنية كافة، عواقبه وخيمة، إذ سيؤدي الى (سيطرة العرب على الأموال). فلو تم تأسيس حكومة في إطار هذا السلام العادل، فإن العرب سيمثّلون فيها، وهي حكومة ستتحكّم في الهجرة والأرض والتشريع ـ وبذا سيحقق الصهاينة السلام ـ ولكنه (سلام المقابر) (على حد قوله). والصهاينة شأنهم شأن كل من في موقفهم، كانوا لا يبحثون عن سلام المقابر لأنفسهم، وإنما للآخرين. ولذا فالاتفاق الذي يتحدث عنه جابوتنسكي ثم بن جوريون وشاريت ووايزمان ليس اتفاقاً مع العرب باعتبارهم كياناً مستقلاً له حقوقه وفضاؤه التاريخي والجغرافي إنما هو اتفاق مع طرف

آخر تم تغييبه او ترويضه عن طريق القوة والحائط الحديدي، ولذا فهو يقنع بالبقاء حسب الشروط التي يفرضها الآخر. وهذه رؤية ولاشك واقعية: إذ كيف يمكن أن يتوقع أحد من العرب أن يخضعوا طواعية لرؤية تلغي وجودهم؟

وهذا، على كل، ما أدركه العرب منذ البداية. فرغم كل محاولات الصهاينة المعلنة عن السلام والحوار والتفاوض والأخوة العربية اليهودية والأخذ بيد العرب، كان العرب يعرفون أن الصهاينة قد رفضوا ان يستقروا في المنطقة باعتبارهم رعايا عثمانيين وأصروا على أن يأتوا تحت راية الاستعمار الانجليزي ورماحه وبمساعدة جيوشه وبوارجه، وأن وعد بلور قد وعدهم بفلسطين، وأنه أشار بشكل عابر الى حقوق (الجماعات غير اليهودية)، أي أن الصياغة اللفظية نفسها قد قامت بتهميشهم وتغييبهم على مستوى المخطط، ولم يبق سوى التنفيذ والممارسة. ولم يكن العرب غافلين عن المفاهيم الصهيونية مثل العمل العبري أو عن المؤسسات الصهيونية مثل الكيبوتس والهستدروت والهاجاناه التي تستبعدهم وتستعبدهم وتغيبهم. وفي علاقاتهم اليومية مع مؤسسات ادارة الانتداب كانوا يعرفون أن بوابات وطنهم قد فتحت على مصراعيها ليهود الغرب ليستوطنوا فيه، كما كانوا يدركون أنه بغض النظر عن نوايا بعض الصهاينة الطيبة وبغض النظر عن إدراكهم لطبيعة المشروع الصهيوني وطبيعة المقاومة العربية فإن الواقع الذي كان آخذاً في التشكل كان واقعاً صراعياً، فالصهاينة كانوا يهدفون دائماً الى زيادة عدد اليهود في فلسطين والى إقامة كيان اقتصادي اجتماعي (عسكري) منفصل، وفي نهاية الأمر مهيمن.

وقد تنبأ نجيب عازوري، هذا المؤلف الفلسطيني العربي المسيحي الذي كان من اوائل من أدرك حقيقة ما يحدث (بأن الصراع سيستمر الى أن يسود طرف على الآخر). وهذا الرأي ليس رأياً متشائماً ينكر مثاليات البشر، وإنما هو رأي يحكم على هذه المثاليات في ضوء الطموحات والممارسة، وفي ضوء ما تشكّل في الواقع بالفعل.

وقد تنبه أحد زعماء حزب الاستقلال في فلسطين الى أن الرؤية الصهيونية للسلام مع العرب، مهما بلغت من اعتدال، هي في نهاية الأمر رؤية وهمية (ايديولوجية بالمعنى السلبي للكلمة) وأن أي تحقق لها يعني سلب حقوق العرب. ولذا حينما كتب له يهودا ماجنيس يقترح إمكانية التخلي عن فكرة الدولة اليهودية على أن يسمح لجماعة يهودية أن يسمح لجماعة يهودية أن تتمتع بحكم ذاتي محدود في فلسطين، رد عليه قائلاً: (لا أرى أي شيء في اقتراحاتك سوى استفزاز صريح ضد العرب، الذين

لن يسمحوا لأحد أن يقاسموا حقوقهم الطبيعية. أما بالنسبة لليهود فليس لديهم أية حقوق سوى ذكريات روحية مفعمة بالكوارث والقصص المحزنة. ولذا من المستحيل عقد لقاء بين زعماء الشعبين ـ العربي واليهودي).

وكان العرب يدركون تماماً أن الحديث العذب عن التقدم الزراعي والصناعي وخلافه إنما هو حديث عن التغيب وعن سلب الوطن. إن التقدم في إطار غير متزن من القوة لصالح المغتصب يعني أن العرب سيفقد كل شيء، وبخاصة إذا كان الآخر لا يعترف بالعربي ككيان تاريخي وإنما كمخلوق اقتصادي. ولذا تغيّر كثير من الشعوب المقهورة استراتيجياتها التحررية وبدلاً من البحث عن التقدم تفضل الدفاع عن البقاء من خلال التشرنق.

وهكذا أدرك الصهاينة والعرب من البداية أن الصراع بينهما له طابع بنيوي وأدركا أن السلام الذي يعرضه الصهاينة هو سلام المقابر، سلام مبني على الظلم والحرب.

والأمر لا يختلف كثيراً هذه الأيام. فلا يزال السلام المبني على العدل يعني، في واقع الأمر، مشاركة العرب الكاملة في حكم فلسطين، أي أنه (سلام المقابر) (عبارة وايزمان) بالنسبة للصهاينة. ولذا يحاول الصهاينة التوصل الى السلام المبني على الحرب والظلم، والى الأمن المبني على الإكراه والعنف.

المفهوم الصهيوني / الاسرائيلي للسلام

ظلت بنية الصراع العربي الاسرائيلي واضحة حتى عام 1967 مع هزيمة العرب، ومنذ ذلك الحين بدأ الحديث عن (السلام) والرغبة في التسوية من جانب الطرفين. ويرى دعاة السلام أن الرغبة في السلام من الطرفين العربي والاسرائيلي اصبحت قوية وصادقة وحقيقية، وهو أمر قد يكون مفهوماً بالنسبة للعرب (بعد الهزائم المتكررة). ولكن الأمر بالنسبة للاسرائيليين قد يحتاج الى قليل من الشرح والتفسير. ويمكننا أن ندرج الأسباب التالية التي ولّدت لدى الاسرائيليين الرغبة في السلام:

1ـ لم تأت الانتصارات العسكرية بالسلام للاسرائيليين رغم أن الآلة العسكرية الاسرائيلية وصلت الى ذروة مقدرتها الحربية، بل إنها أتت لهم بالمزيد من الحروب وتحققت النبوءة القائلة بأن أقصى ما يطمح له المستوطنون الصهاينة هو حالة من (الحرب الراقدة).

2ـ منطق جيش الشعب (النظامي والاحتياطي) لم يعد ممكناً بالسهولة

التي كان عليها سابقاً وذلك بسبب مقتضيات الاقتصاد الاسرائيلي في اطار النظام العالمي الجديد والتكنولوجيا المتقدمة.

3ـ لم يعد الاسرائيليون قادرين على تحمل الحرب الدائمة والاستنفار المتواصل، باعتبار أن الحرب الخاطفة الساحقة، أي الحرب بدون تكلفة بشرية واقتصادية عالية، لم تعد ممكنة.

4ـ تزايدت تكلفة الحرب وهو ما يعني تزايد اعتماد إسرائيل على الولايات المتحدة. والولايات المتحدة حليف موثوق به تماماً، ومع هذا بدأت تظهر عليه علامات تثير القلق مثل تزايد المزاج الانعزالي الذي قد يتحول في أية لحظة (بضغط من القوى الشعبوية) الى تحرك سياسي يرفض التورط في مغامرات خارجية والى تخفيض المعونات الاقتصادية لحلفائه وعملائه.

5ـ ومما يزيد الرغبة في السلام عند المستوطنين الصهاينة أن الشعب اليهودي (أي الجماعات اليهودية المنتشرة في أنحاء العالم) قرر عدم ترك منفاه وهو ما يثير قضية سبب بناء المستوطنات أساساً (هذا في الوقت الذي يتزايد فيه العرب في الأراضي الفلسطينية التي احتلت قبل عام 1967).

6ـ وقد بدأت تظهر علامات الإرهاق والتذمر بين المستوطنين الصهاينة ويظهر هذا في أزمة الخدمة العسكرية والتكالف على الاستهلاك.

7ـ بدأ العرب يطورون نظماً هجومية ودفاعية، صاروخية وربما ميكروبية تعادل القوة النووية الاسرائيلية.

8ـ مسألة التسليم والاستسلام، وبخاصة بالنسبة للفلسطينيين حتى بعد اوسلو، لم تعد واردة (مَن يستسلم لمَن؟).

9ـ رغم كل سلبيات اتفاقيات اوسلو الا أن قيام السلطة الفلسطينية يشكل أول اختراق للعمق الاستراتيجي الاسرائيلي، إذ توجد كتلة بشرية ضخمة (مليونا فلسطيني في الأرض المحتلة بعد عام 1967، مليون في الأراضي المحتلة بعد عام 1948) لها مؤسساتها وإرادتها وطموحاتها.

10ـ لخص المفكر الاستراتيجي المصري أمين هويدي الموقف في هذه الكلمات: (نحن نعيش الآن كعقارب سامة وضعت في أنبوب واحد ستلدغ بعضها بعضاً قبل أن تموت وتفنى، أو كراكبي سيارة أصبحت في منتصف السفح تحاول أن تصل الى القمة، فإن سقطت الى القاع تحطمت بمن فيها. وعليها ـ أي اسرائيل ـ أن تعرف سواء وهي تحت قيادة بيريز او نتنياهو أنه إن كان في يدها الأرض ففي يدنا السلام، وإن كان بيديهم عناصر القوة ففي يدنا عناصر القدرة من مياه وأرض وسوق وقوة بشرية

ورأس مال وغاز ونفط، وإن كان في قدرتهم اختراق الحدود ففي يدنا مقومات الوجود. وعليها أن توقن أخيراً بأنها إن كانت قد فشلت في تحقيق الهيمنة الإقليمية عن طريق استخدام القوة فإن مصيرها لن يكون افضل حالاً لو أنها حاولت ذلك عن طريق وسائل أخرى).

لاشك إذن في أن الرغبة الاسرائيلية في السلام حقيقية وصادقة. ولكن بنية الصراع لا تزال قائمة، فالدولة الصهيونية هي دولة استيطانية احلالية، اغتصبت الأرض وحاصرت سكانها. ولا يزال المستوطنون الصهاينة متمسكين بالأرض والسيادة عليها وبمحاولة فرض سلام المقابر على الفلسطينيين. ولذا نرى أن ما حدث هو أن الرؤية العدوانية القمعية لا تزال كما هي والسلوك العدواني والقمعي لم يتغير وما تغير هو الديباجة والخطاب نظراً لتغير الظروف الدولية وظهور النظام العالمي الجديد المبني على التفكيك والإغواء بدلاً من المواجهة المباشرة مع شعوب العالم الثالث. ولذا بدلاً من دق طبول الحرب، فإن الاعداد للحرب يستمر على أن تعزف نغمات السلام.

وتبدأ معزوفة السلام الاسرائيلية بالمناداة بالبعد عن عقد التاريخ وأن تتناسى كل دول المنطقة خلافاتها لمواجهة الخطر الأكبر (الاتحاد السوفيتي ـ السلام ... الخ). وأن نقطة البداية لابد أن تكون الأمر الواقع. وهذا المفهوم يفترض ان اسرائيل ليست التهديد الأكبر، مع أن الأمر الواقع الذي يطلب منا أن نبدأ منه يقول عكس ذلك. فهو أمر واقع مؤسس على العنف ويؤدي الى الظلم والقمع وهو ليس ابن اللحظة وانما هو نتيجة ظلم تاريخي ممتد من الماضي الى الحاضر. وهذا الظلم والقمع هو مصدر الصراع والحروب والاشتباك. فالمسألة ليست عقداً آنية او تاريخية، وإنما بنية الظلم التي تشكلت في الواقع ولا يمكن تأسيس سلام حقيقي إلا إذا تم فكّها.

بعد تناسي عقد التاريخ يطالب الصهاينة بوقف المقاومة واستسلام الفدائيين مقابل تسليم بعض المدن والقرى التي لا (تنسحب) منها القوات الاسرائيلية الغازية، وانما (يعاد نشرها)، وهذا ما يسمونه (الأرض مقابل السلام). والقوات الوطنية لا تنسحب من أرض الوطن وإنما يعاد نشرها فيه وحسب. ولذا رغم اتخاذ هذه الخطوة الرمزية الاعلامية فإن الاستيطان سيستمر على قدم وساق (تحدّث شامير عن استمرار التفاوض في مدريد لمدة عشر سنوات والمضي أثناء ذلك في الاستيطان) والقدس ستظل عاصمة اسرائيل الأبدية.

إن كل هذه التصورات للسلام تنبع من ادراك أن ارض فلسطين هي

ارتس يسرائيل، وأن الاسرائيليين لهم حقوق مطلقة فيها، أما الحقوق الفلسطينية فهي مسألة ثانوية، فالأرض في الأصل ارض بلا شعب. وتتبدّى هذه الخاصية بشكل واضح ومتبلور في المفهوم الاسرائيلي للحكم الذاتي.

وتصور اسرائيل لمستقبل المنطقة لا يختلف كثيراً عن ذلك، فالمركز هو اسرائيل وهي التي تمسك بكل الخيوط، أما بقية (المنطقة) فهي مساحات وأسواق. واسقاط عقد التاريخ هنا يعني اسقاط الهوية التاريخية والثقافية بحيث يتحول العرب الى كائنات اقتصادية، تحركها الدوافع الاقتصادية التي لا هوية لها ولا خصوصية. هنا تظهر سنغافورة كصورة اساسية للمنطقة وكمثل أعلى: بلد ليس له هوية واضحة ولا تاريخ واضح، نشاطه الأساسي هو نشاط اقتصادي محض. وحينما يتحول العالم العربي الى سنغافورات مفتتة متصارعة فإن الاستراتيجية الاستعمارية والصهيونية للسلام تكون قد تحققت دون مواجهة ومن خلال (التفاوض) المستمر!

جاء في مجلة نيوزويك الاميركية أنه بعد أن قبل الرئيس السادات توقيع اتفاقية كامب ديفيد طلب تخصيص رقعة ما في القدس ترفع عليها الأعلام العربية، فاقترح اعضاء الوفد الاسرائيلي أن ترفع الأعلام على المقابر العربية، أي أنه اقترح (سلام المقابر). أما ديان فارتفع عن هذا قليلاً ووصف طلب الرئيس السادات بأنه (بقشيش)، أي انه اقترح سلام السادة والعبيد. وما بين المقابر والبقشيش يقع المفهوم الاسرائيلي للسلام.

المفهوم الصهيوني / الاسرائيلي للحكم الذاتي

يدور المفهوم الصهيوني / الاسرائيلي للحكم الذاتي داخل الإطار الصهيوني الاستيطاني الاحلالي، الذي يرى أن فلسطين أرض بلا شعب، وأنه إن وجد فيها شعب فوجوده عرضي، وأن هذا الشعب لا يتمتع بنفس الحقوق المطلقة التي يتمتع بها المستوطنون الصهاينة.

وقد تفرّغ عن هذا الإطار الكلي عدة أفكار صهيونية مختلفة بشأن الدولة الفلسطينية قد تبدو متضاربة ولكنها في واقع الأمر تتسم بالوحدة. ولتبسيط الصورة حتى يمكن تناولها بشيء من التحليل سنقسم المواقف الصهيونية المختلفة الى ثلاثة، يقترب أولها من الحد الأقصى الصهيوني أي تغييب العرب ويكاد يلتصق به، ويبتعد ثالثها عنه حتى يبدو كأنه نقيض، ويقف ثانيها في نقطة اعتبارية متوسطة بينهما. وقد اخترنا شموئيل كاتس ـ أحد مؤسسي حركة حيروت وقد شغل منصب مستشار رئيس

الوزراء مناحم بيجين عام 1978 كممثل للنموذج الأول. وليعبّر كاتس عن وجهة نظره في الدولة الفلسطينية يقتبس كلمات بن جوريون الذي يشير فيها الى (تاريخ اليهود) والى (بلاد اسمها يهودا وهي التي نسميها ارض اسرائيل ... إن هذه البلاد جعلت منا شعباً، وشعبنا خلق هذه البلاد). ويضيف كاتس: (خلال مئات السنين هذه التي تخللتها عمليات قتل وطرد وتمييز ومستوى معيشي سيء لم يتأثر بالوجود اليهودي في فلسطين ولم يتخل اليهود عن عاداتهم وتقاليدهم).

وخلال هذه الفترة (لم يتأثر التراث اليهودي كما لم تتأثر الثقافة اليهودية أي اللغة العبرية التي بدأ استعمالها في القرن العاشر في طبرية). ونحن لن نحاول تفنيد هذه الأفكار الصبيانية او الرد عليها فهي من التفاهة بحيث لا يصح أن ينشغل المرء بها إلا بمقدار كونها مؤشراً على حدود صاحبها الإدراكية. وكاتس لا يرى سوى حضور يهودي كامل وثابت عبر التاريخ يقابله غياب عربي كامل. وهذا هو الحد الأقصى الصهيوني الذي ينكر العرب تماماً، فالبشر الذين وجدوا في فلسطين ليسوا فلسطينيين وإنما مجرد مهاجرين من البلاد المجاورة (عناصر متحركة).

أما النموذج الثالث فيمثله مائير بعيل، وهو من نشطاء مابام، ومن المنادين بالصهيونية ذات الديباجة اليسارية. وأطروحاته العقائدية وإطاره التاريخي لا يختلفان عن اطروحات وإطار كاتس، فهو يعرّف الحركة الصهيونية بأنها حركة تحرر وطني (أي حركة تغييب للفلسطينيين). وقد امتازت الصهيونية (بأنها ضمت يهوداً من مختلف الاتجاهات والميول رأوا بأعينهم هدفاً مشتركاً هو جمع شتات الشعب اليهودي وبناء أمة يهودية متجددة على أساس العمل العبري في أرض اسرائيل). فبعيل ينطلق إذن من الإيمان بأن للشعب اليهودي حقوقاً تاريخية كاملة في أرض اسرائيل. ثم يفسّر وجود الشعب الفلسطيني في أرض فلسطين على أساس صهيوني (فلولا قيام الحركة الصهيونية لما ظهر الفرع الفلسطيني التابع للحركة القومية العربية. ويمكن الاعتقاد بأن مجيء اليهود الى ارض اسرائيل واستيطانهم فيها كان الحافز الذي أدّى الى نشوء الكيان الفلسطيني). بل إنه يؤكد أن (من الصعب أن نتصور اليوم كيف كانت ستبدو الأوضاع في أرض اسرائيل لو لم يتحقق فيها الفكر الصهيوني).

فوجود الفلسطينيين ـ حسب تصوره ـ عرضي وتابع للوجود الصهيوني، ولكنه ـ وهنا مصدر الاختلاف بينه وبين كاتس ـ ليس بالضرورة زائلاً، فهو يرى أن بعض الصهاينة قد اعترفوا بحقوق الشعب الفلسطيني (بصفته يمتلك حقوقاً طبيعية في بلاده). ولا ندري ما الفارق بين حقوق اليهود التاريخية وحقوق العرب الطبيعية، ولكن ما يهمنا في سياق هذا المدخل

أن ثمة اعترافاً ما بوجود العرب وبحقوقهم. وهذا الاعتراف نابع من خوف عميق من أن العنصر الفلسطيني داخل الدولة الصهيونية يهدد هويتها اليهودية ويهدد الطبيعية الإحلالية للكيان الصهيوني، بل إن بعيل يطرح السيناريو التالي: (هناك مخاوف من أنه إذا استمرت سيطرة اسرائيل على الضفة الغربية وقطاع غزة سوف تشتد حدة المقاومة الفلسطينية للاحتلال الاسرائيلي، لتصل حمى المقاومة الى العرب الاسرائيليين المقيمين في المثلث الصغير وفي الجليل بحيث يطلب عرب اسرائيل بعد جيل او جيلين الانضمام الى المطالبين بحق تقرير المصير للفلسطينيين).

ولكن كيف يمكن التصدي لهذا التيار وتلك الحمى؟ يرى بعيل (أن ذلك يتم من خلال إقامة دولة فلسطينية الى جانب اسرائيل ... وكلما سارعت اسرائيل في تقديم مبادرة السلام المقترحة للشعب الفلسطيني كان أفضل لها). ثم يأتي بعد ذلك بحشد هائل من التفاصيل عن الجمارك والكهرباء وعن ارتباط الدولة الجديدة بالأردن، إذ لابد أن تولد الدولة مقيدة.

أما شلومو افنيري فهو مثال جيد للنموذج الثاني (الوسط). وأفنيري من كبار المفكرين السياسيين الاسرائيليين (شغل منصب مدير عام وزارة الخارجية في حكومة العمال بين عامي 76 ـ 1977). وهو يتحدث ايضاً عن أرض اسرائيل ذات التراث اليهودي المجيد وأرض الخلاص بالنسبة لليهود. والصهيونية هي الحركة القومية اليهودية التي ستقوم بعملية الخلاص هذه (وهو في واقع الأمر تخليص الأرض وتغييب اصحابها الاصليين، أي العرب). وهو يرى أن المطالب الصهيونية خضعت لقرار التقسيم لأن (أحداً في العالم لم يكن يؤيد المطالب اليهودية)، أي أنه كان خضوعاً عملياً لا علاقة له بالمبادئ الكلية والنهائية. ثم يضيف الى هذا ديباجات اخلاقية عن (أن الصهيونية تجد صعوبة في المطالبة بحق تقرير المصير لنفسها، ومعارضة منح هذا الحق لفئة سكانية أخرى). ويسمّي افنيري نفسه بأنه من أتباع الصهيونية السوسيولوجية (مقابل صهيونية الأراضي) وهي صهيونية تهتم بالطابع اليهودي للدولة، أما صهيونية كاتس فتركز اهتمامها على ضم الأراضي، ومن هنا حديث (المعتدلين) عن الأرض مقابل السلام. ولكن مهما كانت الأسباب (الضغوط الدولية او عذاب الضمير الصهيوني أو الخوف على الطابع اليهودي للدولة) فإن افنيري يطرح الحل التالي الذي يسميه حلاً وسطاً: (لا دولة اسرائيل الكاملة ولا دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، بل استعداد بعيد الأثر لقبول الحل الوسط في إطار حل اردني ـ فلسطيني). ولعل هذه النماذج الثلاث تغطي كل الاتجاهات السياسية الاسرائيلية تجاه

الدولة، مع اختلاف طفيف في الديباجات، فجوش إيمونيم والليكود ينتميان للنموذج الأول بينما تنتمي بعض الأحزاب الصغيرة الليبرالية ومابام للنموذج الثالث، وينتمي المعراخ للنموذج الثاني. فالعمل يقبل التفاوض على الأرض، ويطرح فكرة إمكانية تقديم تنازلات اقليمية في أراضي الضفة والقطاع.

رغم كل الاختلافات بين الاتجاهات الصهيونية الثلاث إلا أنه يجب ملاحظة الوحدة بينهم التي تتبدّى فيما يلي:

1ـ يلاحظ أن جميع الصيغ الصهيونية، المتطرف منها والمعتدل، اليميني منها واليساري، لا تتوجه البتة لقضية الفلسطينيين الذين طردوا عام 1948 واستوطنوا سوريا ولبنان والأردن ومصر وأنحاء أخرى متفرقة من أنحاء العالم العربي، ولا تذكر بتاتاً قضية الفلسطينيين الذين يطالبون بحقوقهم في حيفا ويافا وعكا وكل بقعة في أرض فلسطين المحتلة والذين صدر قرار من هيئة الأمم لتأكيد حقهم في العودة الى ديارهم او التعويض لمن لا يريد العودة.

2ـ لا يتحدث الصهاينة البتة عن الأراضي خلف الخط الأخضر التي خصصها قرار التقسيم للفلسطينيين مثل الجليل وغيرها من المناطق. وهكذا حوّل الخطاب الصهيوني الخط الأخضر الى مطلق صهيوني جديد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلينا قبوله والخضوع له. وهذا ايضاً امر منطقي ومفهوم، فالتفاوض بشأن الأراضي فيما وراء الخط الأخضر وبشأن حق العرب في السكنى في فلسطين المحتلة قبل 1948 هو في واقع الأمر تفاوض بشأن فك الكيان الصهيوني.

3ـ يلاحظ أن كل الحلول مبنية على فكرة القسر والخضوع، وأن أحد الأطراف سيدفع الطرف الآخر مضطراً للتسليم بوجهة نظره. فالصهاينة يرون أن رؤيتهم للتاريخ هي الرؤية الوحيدة السليمة التي لا يمكن التراجع عنها على مستوى العقيدة حتى لو تم التراجع عنها على مستوى الاجراءات البرجماتية. وقد لخص ذلك الموقف أهارون ياريف بقوله: (الصهيونية هي حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي ... اصطدمت بالحركة القومية العربية عامة والحركة القومية الفلسطينية خاصة). ولكنه يضيف: (إن أقوالي هذه لا تنطوي على تنازل او استعداد للتنازل عما نعتبره حقنا التاريخي في ارتس يسرائيل وفي علاقتنا التاريخية بها). هذا الموقف المبدئي السائد في صفوف الجميع يخلق استعداداً كامناً دائماً لدى كل الصهاينة، مهما كان موقعهم على خريطة المتصل الادراكي السياسي، ان ينزلقوا دائماً نحو تغييب العرب وإنكار حقهم في انشاء

دولة حقيقية خاصة بهم إن سنحت الظروف، كما أنه يضفي صفة الشرعية على موقف دعاة اسرائيل الكبرى. فالأصل في الموقف الصهيوني هو ابتلاع كل الأرض وتغييب كل العرب، والاستثناء هو المرونة والاستعداد للتفاوض بشأن الأرض خارج الخط الأخضر وبشأن الفلسطينيين خارجه. ولعل هذا يفسر كل أن الأستيطان الصهيوني في الضفة الغربية قد بدأ إبان حكم العمال المعتدلين وأنهم اعتمدوا ملايين الدولارات لانشاء مستوطنات هناك في الأرض نفسها التي بدأ بيريس بالإعلان عن استعداده للتنازل عنها مقابل السلام.

في هذا الاطار ظهر مفهوم الحكم الذاتي الذي يرى أن الحقوق اليهودية في فلسطين مطلقة، أما الحقوق الفلسطينية فليست اصيلة. فالأرض ملك للشعب اليهودي وقد تصادف وجود شعب فيها. ولذا فإن أية حقوق تمنح للفلسطينيين هي من قبيل التسامح الصهيوني او التكيف البرجماتي مع أمر واقع وتعبيراً عن هذا تقرر فصل الشعب (العرضي الزائل) عن الأرض الصهيونية. ولذا فالحكم الذاتي هو تعامل مع بشر وليس مع أرض، ومنح السكان بعض الحقوق دون أن يكون على الأرض ظل من السيادة، فالحكم الذاتي باختصار حكم للشعب دون الأرض. ولذا فالسلطة الفلسطينية ليس لها سلطة على المجال الجوي او موارد المياه في الأراضي وليس من حقها تشكيل جيش فلسطيني. والفلسطينيون يعيشون في مدن وقرى أشبه بالمعازل في المناطق كثيفة السكان إذ تظل اسرائيل المسؤولة عن الأمن في كل المناطق وتحديد المعابر والشواطئ والطرق الرئيسية. فالحكم الذاتي قد منح الفلسطينيين درجة من الاستقلال على أن تبقى الصلاحية في أيدي الصهاينة.

وقد وُصفت السلطة الفلسطينية بأنها أكثر من حكم ذاتي وأقل من دولة. فقال احد الكتّاب العرب إن الحكم الذاتي يعني، في واقع الأمر، قيام محمية اسرائيلية تخدم المصالح الاسرائيلية. وقد شبهه نتنياهو بالنظام السياسي القائم في أندورا وبورتوريكو (وهي دولة حرة تابعة للولايات المتحدة يحمل سكانها الجنسية الاميركية دون ان يكون لهم حق التصويت في الانتخابات). ولعل بورتوريكو قد لاقت هوى في نفس نتنياهو لأنها جزيرة وليست جزءاً من الأرض الاميركية، فهي بمنزلة معزل لسكانها. وقد وصف أحدهم الحكم الذاتي بأنه يعرّف فلسطين بأنها 500 قرية وثماني مدن رئيسية تفصل بينها طرق التفافية وتديرها اسرائيل وفق تصورها للامن، أي أن الوطن الفلسطيني تم تفكيكه ليصبح معازل، تماماً كما فكّك مفهوم الفلسطيني ليصبح كائناً اقتصادياً لا انتماء له.

ومع هذا لابد أن ندرك أن ثمة فروق قد لاتكون جوهرية ولكنها كبيرة بين

رؤية حزب العمل والرؤية الليكودية للحكم الذاتي تنبع من تصورهم لوضع اسرائيل الدولي والمحلي ومقدرتها على قمع الفلسطينيين وتحقيق الأمن لنفسها. وهذه الفروق تعبّر عن نفسها في البرامج السياسية لكلا الحزبين. ومع هذا من الملاحظ أننا حينما ننتقل من عالم النظرية والبرامج الى عالم الممارسة فإن نقط الاتفاق والإجماع تؤكد نفسها على حساب نقط الاختلاف.

بيريز ونتنياهو ورؤيتهما للسلام

حدثت تشققات عديدة في الاجماع الصهيوني لأسباب عديدة (عدم تجانس المهاجرين اليهود ـ تزايد الاستهلاكية والعلمنة في المجتمع الاسرائيلي). ولكن أهم الأسباب هو اندلاع الانتفاضة التي فرضت على عدد كبير من المستوطنين أن يكتشفوا أن الحلم الصهيوني القديم بتوسعيته المستمرة أمر مستحيل، وأنه في إطار النظام العالمي الجديد من الصعب التمسك به وأن مشكلة اسرائيل السكانية (تزايد العرب وتناقص اليهود بسبب الاحجام عن الانجاب وبسبب جفاف المصادر البشرية في الخارج) آخذة في التفاقم. لكل هذا انقسم الصهاينة فيما بينهم من دعاة التمسك بالأرض المحتلة دون التنازل عن شبر واحد من الأراضي (صهيونية الأراضي) مقابل من يطلبون بالتنازل عن بعض الأراضي نظير الاحتفاظ بالصبغة اليهودية الخالصة للدولة الصهيونية. ولذا يمكن القول بأن الفريق الأول الذي يمثله نتنياهو (لا يملك رؤية للسلام) أما الفريق الثاني (الذي يمثله بيريز) فله رؤية محددة للسلام. وقد فصّل بيريز رؤيته هذه في كتابه الشرق الأوسط الجديد فهو يذهب الى أن السلام لابد أن ينطلق من نوايا جماعية لدى اطرافه المعنية تدفع باتجاه الثقة وتزيل مشاعر الشك والقلق، ومن ترتيبات ومؤسسات مشتركة، فتصبح المنظمات الاقليمية مفتاح الأمن والسلام والاستقرار في المنطقة. وبالتالي، فإن القضاء على مشكلات الإقليم لا يتم بالاتفاقات الثنائية، بل عن طريق ثورة عامة في المفاهيم. من هنا، يجب أن تعكس السوق الاقليمية المشتركة توجّهات جديدة في المنطقة بحيث يسود نمط الحضارة الغربي، الذي اصبحت (السوق) بمقتضاه أكثر اهمية من الدول المنفردة، واصبح الجو التنافسي اهم من وضع الحواجز على الطريق. ولهذا، ينبغي ألا تؤجّل العلاقات الاقتصادية او ترتبط بعملية السلام؛ إذ في الإمكان الشروع في تعاون اقتصادي لامتصاص المعارضة السياسية، وفي الإمكان بالتالي أن تقوم العلاقات الاقتصادية بتسويق العلاقات الدبلوماسية.

وهذه الرؤية تقتضي توفير مناخات اقتصادية تطبيعية تهمّش الشأن

القومي التاريخي ((العقد التاريخية) كما يسمونها، و(الذاكرة التاريخية) كما نسميها نحن) وتلغيه وتحل محله شأناً جيو ـ اقتصادياً جديداً، وهذا ما دعاه بيريز (الشرق الاوسط الجديد) باعتباره وحدة متكاملة اقتصادياً وامنياً وسياسياً، بما يحقق الهدف الاسرائيلي المتمثل في (اسرائيل العظمى) عبر السيطرة على المنطقة ويضمن أمنها عبر موافقة معظم الأنظمة العربية المشاركة في مؤتمر شرم الشيخ على ضمان أمن اسرائيل. في هذا الإطار يمكن السماح بقيام دولة فلسطينية مستقلة على جزء من أرض فلسطين المحتلة على أن تظل هذه الدولة خاضعة للاعتبارات الأمنية الاسرائيلية.

أما رؤية نتنياهو فترفض الفكرة السابقة وتعارض اسلوب بيريز، باعتبار أنها اضعفت السياسة الاسرائيلية وشلتها استراتيجياً، فالمؤسسات والاتفاقات التي ركزت عليها حكومة بيريز فشلت جميعها في توفير الأمن لاسرائيل، ولذلك لابد من اجراءات اكثر حسماً، واعادة ترتيب سلم الأولويات وفق رؤية اخرى طرحها نتنياهو في كتابه (مكان تحت الشمس) ليكون:

1ـ الأمن قبل الاقتصاد، والأرض ملازمة للامن (وهو ما يعني استمراراً لفكرة العمق الاستراتيجي) فلابد من وضع أسس جديدة للمفاوضات تستند الى مبدأ (السلام مقابل السلام) بدلاً من مبدأ (الأرض مقابل السلام) الذي أدّى الى تراجع مكانة اسرائيل الاستراتيجية. وعلى الجيش الاسرائيلي ان يتولى مباشرة حماية الاسرائيليين في أي مكان دون قيود او حدود. والسلطة الفلسطينية مطالبة بتوفير الأمن لاسرائيل، أما الجولان فهو غير قابلة للتفاوض في هذه المرحلة لأنها تشكل العمق الاستراتيجي لاسرائيل.

2ـ الاقتصاد قبل السياسة، فاسرائيل القوية هي التي تجذب الاستثمار، وتصبح قوة اقتصادية تقود المنطقة، وتدخل الاقتصاد العالمي دون حاجة الى جسر شرق أوسطي لأنه جسر الفقراء. ولكن شعار (الأمن قبل الاقتصاد) لا يلغي الاقتصاد او يغفله، لأن عنصر الأمن الداخلي الاسرائيلي هو الشرط الأساسي لجذب الاستثمار وازدهار الاقتصاد. وترفض هذه الرؤية فكرة أن تراجع عملية التسوية يمكن أن يؤدي الى تراجع معدلات النمو الاقتصادي في اسرائيل، لأن الهجرة اليهودية ستواصل تحريك الاقتصاد الاسرائيلي بجانب التطور التكنولوجي والمساعدات الخارجية.

3ـ السياسة قبل السلام، فالسلام يجب ان يبنى على مرتكزات موضوعية راسخة بصرف النظر عن القادة والزعماء، لأن الفرق بين اسرائيل

والعرب هو الاختلاف في القيم السياسية المتعلقة بالديمقراطية وحقوق الإنسان. وتنطلق هذه الرؤية مما أشار نتنياهو اليه في كتابه من أن (السلام) الذي يمكن تحقيقه في الشرق الأوسط هو السلام المبني على الأمن، أي الردع، إذ ان اسرائيل هي الدولة الديموقراطية الوحيدة في المنطقة، في حين أن الدول العربية جميعها ذات نظم استبدادية، وبالتالي فإن (سلام الردع) هو البديل الوحيد الممكن، فكلما بدت اسرائيل قوية أبدى العرب موافقتهم على إبرام سلام معها. لذا، فإن الأمن، أي قوة الردع المعتمدة على قوة الجسم، هو العنصر الحيوي للسلام، ولا بديل عنه.

وثمرة هذا الموقف هو غياب أية استراتيجية للسلام. وكما يقول عزمي بشارة: (ان الليكود يكتفي بطرح الحكم الذاتي الموسع على الفلسطينيين في ظل السيادة الاسرائيلية. ويكتفي في الحالة السورية بمحاولة التوصل الى اتفاق امني في لبنان في هذه المرحلة لايقود بالضرورة الى اتفاق سلام، بل يضمن الامن الحدودي كما في الجولان. وفي الحالة فلسطينية، لا يقبل الليكود الارض مقابل السلام، ويطرح مقابلها السلام مقابل السلام، اما في الحالة اللبنانية، فانه مستعد لاعادة الارض دون السلام: الارض مقابل الامن فقط).

الطرق الالتفافية والمعازل

تتضح الرؤية الصهيونية/الاسرائيلية للحكم الذاتي في الطرق الالتفافية وهي طرق تبنيها الدولة الاستيطانية (الاحلالية) الصهيونية يقتصر استخدامها على المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية بحيث تتحول التجمعات الفلسطينية الى كانتونات محاصرة بالمستوطنات والطرق الالتفافية والمنشآت العسكرية. والطرق الالتفافية بذلك تكون بمنزلة سياج أمني حول المستوطنات، كما انها تجعل المستوطنين الذين يعيشون وسط القرى والمدن العربية قادرين على التحرك دون ان يضطروا الى عبور الاراضي الفلسطينية او مواجهة الفلسطينيين.

وتستند خطة الاستيطان أمناه (وهي برنامج واسع للاستيطان والبناء في أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة) على نظام متكامل من الطرق الالتفافية أعلنها الجيش الاسرائيلي رسمياً في أواخر سنة 1994 أثناء حكم حزب العمل واكتسبت شرعيتها من خلال اتفاق توسيع الحكم الذاتي عام 1995 (اوسلو ـ 2) وموافقة السلطة الفلسطينية عليها لارتباطها بخطة اعادة الانتشار من المناطق الفلسطينية الآهلة.

وقد كثفت اسرائيل بناء هذه الطرق التي تخترق معظم مناطق الضفة

الغربية المأهولة بالسكان منذ عام 1995 وتم الاعلان عن خطط لشق طرق جديدة، يتم من خلالها تجديد طرق ترابية قائمة وشق أخرى، اضافة الى فتح طرق سريعة من الشمال الى الجنوب عبر وادي الاردن، وشق مداخل ومخارج جديدة في شمال الضفة الغربية، وشق مجموعة طرق عسكرية. وأهم هذه الطرق الطريق رقم 60، والطريق رقم 20.

وقد بلغ عدد هذه الطرق عام 1996 حوالي عشرين طريقاً تغطي 400 كم تتفرع من الطريق الرئيسي المعروف باسم (الطريق 60) الذي يمتد من الشمال الى الجنوب لجزئي الضفة الغربية. وبعض هذه الطرق مازال قيد الانشاء، وتعتزم سلطات الاحتلال بناء خمس طرق أخرى. ويلتف الطريق 60 حول المدن الفلسطينية في الضفة ويربط عشرات المستوطنات المنتشرة في كل انحاء الضفة. ويتم الاستيلاء على معظم الاراضي اللازمة لبناء هذه الطرق من خلال أوامر وضع اليد، وهي غطاء قانوني يحجب المصادرة، وهي أولى الخطوات نحو المصادرة النهائية، والتبرير المعطى في أ:ثرية أوامر وضع اليد هو الأمن والضرورة العسكرية، وهو تبرير لا يمكن الملاك الفلسطينيين من الاحتجاج ضده.

وتؤدي هذه الطرق الى اتلاف آلاف الدونمات من الاراضي الزراعية وتدمير مئات المنازل، والحاق خسائر فادحة لان هذه الاراضي مزروعة بكثافة بأشجار الزيتون، الامر الذي يؤدي الى تدمير مصدر رزق العائلات الفلسطينية الوحيد. كما يؤدي شق هذه الطرق الى اعاقة نمو القرى الفلسطينية والحد من قدرة البلديات الفلسطينية على توسيع الخدمات البلدية.

كل هذا يجعلنا نرى الطرق الالتفافية لا باعتبارها مجرد ظاهرة سياسية اقتصادية وانما صورة مجازية تعبر بشكل متبلور عما آل اليه الاستعمار الاستيطاني الاحلالي الصهيوني في فلسطين المحتلة. فهو استيطان يستند الى أكذوبة (ارض بلا شعب) لم يعد بمقدور صاحبها الاستمرار فيها فدب فيها الموت. ولكن الأكذوبة أساسية لبقائه واستمراره ولذا فهو يحاول ان يتشبث بها ويبث فيها الحياة بقدر الامكان بالطرق الالتفافية، فهي محاولة أخيرة يائسة بعد ان فشل الاستيطان الصهيوني في جانبه الاحلالي، ولم يتمكن من ابادة الشعب او طرده حتى تقليل كثافته وأثبتت فلسطين انها ليست ارضاً بلا شعب بل أرض مأهولة يزرعها ويحرثها نسلها. ولذا فالحل ان تصبح فلسطين (أرضاً يسكنها شعب لا تقع عيوننا عليه، فكأنها بالفعل ارض بلا شعب، وان ظهر الشعب على طرقنا الالتفافية حصدته رصاصات جيش الدفاع الاسرائيلي، فتستمر الاكذوبة).

ومن الواضح ان فلسطين ثابتة، فمدنها وقراها لا تتحول، وسكانها لا يكفون عن المقاومة. فالطرق الالتفافية من ثم تعبير عن قدرة الصهاينة على خداع الذات. ولكنه خداع للذات يكلف صاحبه الكثير من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية. فالطرق الالتفافية تتناقض مع أبسط معايير الجدوى الاقتصادية (أن يكون هناك طريق للمستعمر وآخر للسكان الاصليين) وهدفها تحقيق قدر كبير من الراحة النفسية لصاحبه. ولكن لا شك في ان وجود الجنود الاسرائيليين لحراسة هذه الطرق يؤدي الى القلق ويذكر المستوطنين (بالشعب الذي لا تقع عيوننا عليه).

والطرق الالتفافية تذكر المرء بتجربة أعضاء الجماعات اليهودية في أوكرانيا حين اسس النبلاء البولنديين (شلاختا) للملتزمين اليهود (أرانداتور) مدناً صغيرة شتلت شتلاً في أوكرانيا (الشتتل) وهي جيتوات متكاملة كان أعضاء الجماعة اليهودية الوظيفية يمارسون فيها حياتهم كاملة، لا يتعاملون مع البيئة الجغرافية والتاريخية والاجتماعية المحيطة (بل والمحدقة) بهم، فهم فيها وليسوا منها، لا يتعاملون مع الاغيار الا في السوق، في عمليات التبادل المجردة، التي لا تتخللها أية حميمية ولا تعبر عن أي تراحم. والطرق الالتفافية تحقق هذا للمستوطنات الصهيونية الشتولة في الضفة الغربية، فهم في الضفة الغربية وليسوا منها، ولا يقابلون السكان الاصليين الا في السوق.

ورغم ان إقامة الشتتلات كان يهدف الى حماية أعضاء الجماعة اليهودية، حتى يمكنهم الاستمرار في استغلال الفلاحين الاوكرانيين لصالح النبلاء البولنديين، فإن الشتتلات تحولت الى معازل محصنة مسلحة، وحتى المعبد اليهودي نفسه تمت اعادة صياغته معمارياً بحيث اصبح معبداً وقلعة في آن واحد، يتعبد فيه اليهود ومنه يقاتلون، معبداً له أبراج بها كوات تخرج منها المدافع والبنادق، وهو ما يذكرنا بالدولة الصهيونية الوظيفية، التي تزعم انها في الشرق الاوسط وليست منه، والتي تحاول الا تتعامل مع العرب الا في السوق الشرق أوسطية. فهي الدولة/الشتتل، او الدولة/الجيتو وهي في الوقت نفسه المعبد/القلعة.

وقد كان الجنود البولنديون يقومون على حراسة الشتتلات حتى لا يهاجمها الفلاحون الاوكرانيون، وهذا ما يفعله الدعم العسكري والاقتصادي الامريكي الذي يصب في الكيان الصهيوني فيقوي عضده ويجعله قادراً على بناء طرق التفافية ليس لها أية جدوى اقتصادية. وحينما هبت انتفاضة شميلنكي لم تكتسح في طريقها القوات البولندية وحسب وانما اكتسحت الشتتلات المحصنة والمعابد/القلاع أيضاً.

ومن هنا خطورة الطرق الالتفافية، فبدلاً من ان يواجه الاسرائيليون طبيعة وضعهم ويتعاملوا مه خارج الاطار الصهيوني (الذي يؤدي الى عزل الآخر وتحصين الذات واطاحتها بسياج عسكري) فانهم يحاولون اطالة عمر الأكذوبة، وهو ما يعني ان الفلسطينيين لن ينالوا حقوقهم الا من خلال الانتفاضات المتتالية، التي ستقضي على الطرق الالتفافية وغيرها من الطرق.

اما (المعازل) فهي كلمة عربية تستخدم لوصف القرى والمدن العربية في الضفة الغربية، وربما يقابلها في اللغة الانجليزية كلمة (جيتو). فبعد ان تحقق الصهاينة من ان فلسطين ارضاً بلا شعب، وبعد إدراكهم ان الشعب لا يود ان يخضع لآليات الترانسفير المختلفة، بل انه يتوالد ويتكاثر تقرر تأسيس مستعمرات استيطانية صهيونية في مناطق استراتيجية وطرق التفافية مختلفة تربط هذه المستعمرات بحيث تتحول القرى والمدن الفلسطينية الى (مناطق) مأهولة بالسكان معزولة خاضعة للرقابة العسكرية الصارمة، وتمارس حق تقرير المصير في حدود المفهوم الصهيوني للادارة الذاتية بحيث تتحول فلسطين من وطن الى أرض، ومجموعة من القرى والمدن الممتازة (يعزل) الفلسطينيون فيها ويتم حصارهم.

ونحن نرى انه قد يكون هناك نقط تشابه كبيرة بين التصور النازي والصهيوني للحكم الذاتي، فالنازيون أسسوا جيتوات (معازل) كانت تأخذ شكل مناطق قومية تتمتع بقدر كبير من الاستقلال. فكان يتم اخلاء رقعة من احدى المدن من غير اليهود ثم ينقل اليها عشرات الآلاف من اليهود ويعاد نشر القوات النازية وتسلم لسلطة يهودية شبه مستقلة تسمى (مجلس الكبراء) (كانت السلطات النازية تعين أعضاءه). وكان لجيتو (او معزل) وارسو (أهم المناطق القومية) طوابعه وشرطته (التي كانت تحرس مداخل الجيتو مع الشرطة البولندية والنازية). وكانت الشرطة اليهودية متعاونة تماماً مع النازيين في كبح جماح اليهود. وكان للجيتو اقتصاده (المستقل) الذي كان يعتمد اعتماداً كاملاً على النظام النازي. فقد كان الجيتو يقوم باستيراد كل ما يحتاجه من مواد صناعية او غذائية من سلطة الاحتلال النازية على ان يسدد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية التي كان الجيتو ينتجها، او الخدمات التي كان يؤديها بعض اعضائه. وكلن وضع التبادل لم يكن متكافئاً، فقيمة السلع التي كان الجيتو ينتجها والخدمات التي كان اعضاؤه يؤدونها كانت دائماً دون حد الكفاف، وهو ما كان يعني سوء التغذية وتزايد الفقر ويؤدي الى الموت جوعاً، وبذلك كانت تتم إبادة اليهود بالتدريج وببطء دون أفران غاز.

الفصل العاشر

الاستيطان والاقتصاد

هل الصهيونية فكرة ام بنية استيطانية (احلالية)؟ للاجابة على هذا السؤال، سنحاول في هذا الفصل ان ندرس طبيعة الاقتصاد الاسرائيلي، بل ونسأل هل هو اقتصاد سلم ام اقتصاد حرب؟ ثم نتناول اهم المؤسسات (الاسرائيلية) الاستيطانية الصهيونية/الاسرائيلية، أي الهستدروت والكيبوتس.

الاقتصاد الاستيطاني الصهيوني في فلسطين قبل عام 1948: اسباب ظهوره

لا يحكم على اقتصاد اية دولة بالنجاح او الفشل من خلال معايير اقتصادية عامة وانما من خلال مشروعها القومي ككل. ففي النظم الرأسمالية يكون المعيار الاساسي عادةً هو الربح ومراكمة الثروة وربما توسع نطاق الحرية الفردية، وخصوصاً حرية رأس المال. اما في النمط الاشتراكي فيكون المعيار هو التقدم العلمي والتكنولوجي الذي لا يتناقض مع مفاهيم العدالة الاجتماعية وسيطرة الطبقة العاملة على وسائل الانتاج حتى لا تنشأ طبقة رأسمالية تفرض ايديولوجيتها. واسرائيل قد يكون لها كثير من الملامح (الاشتراكية) وبعض الملامح الرأسمالية (الاقتصاد الحر)، ولكنها لا تنتمي الى أي من النمطين، بل تنتمي الى ما يمكن تسميته (الاقتصاد الاستيطاني) الذي يأخذ أشكالاً متباينة تختلف من مجتمع لآخر، ومع هذا يتسم ببعض السمات الثابتة التي لا تتغيّر.

ومن أهم هذه السمات أن الاقتصاد الاستيطاني يعطي الأولوية للاعتبارات الاستيطانية على أية اعتبارات أخرى، بمعنى أنه في حالة تعارض مقتضيات الرشد الاقتصادي (القائمة على حساب التكلفة الاقتصادية والمردود الاقتصادي) مع النشاط الاستيطاني فان الأولوية لا تكون للاعتبارات الاقتصادية وانما لضرورات الاستيطان. وأهم هذه الضرورات الأمن والبقاء المادي، وهذا أمر مفهوم تماماً، فالاعتبارات الاقتصادية تعبير عن الرغبة في النجاح الاقتصادي، بينما يرتبط الامن بوجود الجيب الاستيطاني نفسه، والنجاح الاقتصادي يأتي في المرتبة الثانية بعد البقاء

المادي. ويرتبط بالبقاء المادي البقاء الاثني او الحضاري والاجتماعي، وهو يعني ان جماعة المستوطنين تود الحفاظ على نفسها كجماعة بشرية مستقلة ذات خصائص مستقلة.

وهذا الاستقلال الاثني والاجتماعي مرتبط تمام الارتباط باستمرار جماعة المستوطنين باعتبارها جماعة غازية متفوقة عسكرياً تقوم باستغلال السكان الاصليين وإبادتهم ان لزم الامر. فهذا الاستغلال يصبح الاساس المعنوي والخلقي الذي يولد الديباجات العنصرية ويبرر علميات القتل والغزو، وهو يحل مشكلة المعنى بالنسبة للمستوطنين. ولذا تقوم جماعة المستوطنين بعزل نفسها عن السكان الاصليين وتلجأ لشعائر اجتماعية مركبة وقوانين مباشرة لتحقيق هذا الهدف.

والبعدان (الامني والثقافي) ليسا منفصلين بأية حال، فهما وجهان لعملة واحدة. فالاستقلال الثقافي والحضاري وما يؤدي له من عزلة وما يصاحبه من عمليات استغلال وقهر للآخر تستجلب العداء الذي يؤدي الى تفاقم المشكلة الامنية. وتؤدي المشكلة الامنية بدورها الى تعميق العزلة الثقافية فالاجتماعية.

يؤدي هذا الوضع الى افراز أهم سمات الاقتصاد الاستيطاني، أي جماعيته وعسكريته (التي يسمونها في الخطاب الصهيوني (التعاونية الاشتراكية)). ففي داخل هذا الاطار من العزلة ومع سيطرة الهاجس الامني يصبح وضع المستوطنين بمفرده في مواجهة البيئة الطبيعية والانسانية المعادية أمراً مستحيلاً، إذ لابد من حشد الجهود البشرية والمادية، ولابد من التنظيم الاقتصادي والعسكري. وهذا ما فعله المستوطنون الصهاينة، فقد حولوا أنفسهم الى جماعة استيطانية متماسكة منظمة عسكرياً تستبعد العرب، وقاموا بتطوير مؤسسات (اقتصادية) وزراعية لا تخضع لمقاييس الرشد الاقتصادي ولا تنبع من مفهوم الجدوى الاقتصادية وتهدف الى تكثيف جهود الافراد وتجميع مصادرهم البشرية (المزارع الجماعية ـ الهستدروت)، وطوروا مجموعة من المفاهيم ذات الطابع الجماعي التي لا تكترث بالعائد الاقتصادي (العمل العبري ـ اقتحام الارض والعمل والحراسة والانتاج. انظر الفصل الثاني).

وكما صرح احد الزعماء الصهاينة، فإن المشروعات الناجحة هي أقل المشروعات نفعاً من الناحية الاستيطانية (لاعتمادها على العمل العربي والمستهلك العربي ولصعوبة الدفاع عنها... الخ)، اما المشروعات الصهيونية الخاسرة مالياً، فهي أكثرها نفعاً لانفصالها الكامل ولاعتمادها على العمل العبري والسوق العبرية، أي انها النواة الحقيقية للدولة

الصهيونية المنفصلة.

وجماعية هذا الاقتصاد أو (تعاونيته) تعبير عن ضرورات الاستيطان العسكرية الامنية وليست تعبيراً عن رؤية انسانية ترى أسبقية المجتمع على الفرد والعدالة الإجتماعية على الربح. ولذا نجد ان كل المجتمعات الاستيطانية، وخصوصاً الاحلالية، تأخذ هذا الشكل الجماعي في التنظيم في مراحل الاستيطان الاولى. فالبيوريتان (المتطهرون) المستوطنون الأوائل في الولايات المتحدة كانوا أصحاب واحدة من أكثر الايديولوجيات الرأسمالية البروتستانتية تطرفاً في فرديتها، ومع هذا نظموا أنفسهم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً بشكل جماعي، ففي مواجهة السكان الاصليين كان عليهم ان يفعلوا هذا.

بعد ان تناولنا السمة الاساسية للاقتصاد الاستيطاني (الجماعية) والسبب الاساسي لظهورها (الهاجس الامني) قد يكون من المفيد الاشارة الى بعض العناصر المقصورة على المشروع الصهيوني التي دعمت من هذه الجماعية وغلبت الاعتبارات الاستيطانية على اعتبارات الجدوى الاقتصادية:

1 ـ ينظر التشكيل الامبريالي الغربي الى الدولة الصهيونية باعتبارها قاعدة عسكرية متقدمة بالدرجة الاولى، ومركزاً استثمارياً بالدرجة الثانية. ولذا فالاعتبار العسكري بالنسبة للقوة الراعية كان أكثر أهمية من الاعتبارات الاقتصادية.

2 ـ تقوم الدولة الصهيونية والمنظمة الصهيونية (العالمية) بجمع التبرعات من يهود العالم، وهذه التبرعات، شأنها شأن الدعم الغربي، تصب في المستوطن الصهيوني من خلال مؤسسات الدولة المختلفة.

3 ـ الدولة الصهيونية دولة وظيفية تتمتع بالدعم السخي الذي يقدمه التشكيل الامبريالي الغربي، الذي كان يصب في المستوطن الصهيوني من خلال مؤسسات الدولة الصهيونية مما يعني تقوية قبضتها وتقوية جماعية الاقتصاد.

4 ـ مما ساعد على تقوية الجانب الجماعي الاقتصادي الصهيوني ظهور النازية في ألمانيا إذ تم عقد معاهدة الهعفراه (الترانسفير او النقل) بين الصهاينة والنازيين التي ادت الى تدفق كثير من المهاجرين اليهود الألمان ورؤوس الاموال على هيئة بضائع ومعدات قدمتها ألمانيا النازية الى المستوطنين في فلسطين. وبعد قيام الدولة الصهيونية دفعت ألمانيا مبالغ طائلة كتعويضات للدولة الصهيونية عما لحق باليهود من أذى. وكل هذه المعونات تقوي شوكة الدولة والاقتصاد الجماعي.

5 ـ طرحت الدولة الصهيونية نفسها على مستوى الديباجة بوصفها دولة يهود العالم، أما على مستوى البنية فهي دولة استيطانية تحتاج دائماً لمادة بشرية للقتال والاستيطان، ومن ثم فلابد ان تفتح أبوابها للمهاجرين حتى لو تناقض ذلك مع مصالحها الاقتصادية المباشرة.

وتوجد أسباب خاصة بطبيعة المادة البشرية اليهودية التي تم نقلها (أي المستوطنين الصهاينة) دعمت النزعة الجماعية:

1 ـ كانت المادة البشرية التي سيتم نقلها من اوربا تحتاج الى عملية تحديث وتطبيع (من المنظور الصهيوني)، أي شفاؤها من امراض المنفى مثل الطفيلية والاشتغال بأعمال السمسرة والمضاربات، أي انه كان المطلوب تحويل يهود الجيتو الى شعب منتج يسيطر على كل المراحل الانتاجية ويحقق لنفسه السيادة الاقتصادية والسياسية. كما ان عملية التحديث هذه كانت تعني في واقع الامر تحويل يهودي الجيتو (السمسار المرابي) صاحب رأس المال الربوي الذي يستخدمه في عملية استغلال الشعوب (لصالح الامير او الحاكم) الى المستوطن المقاتل الذي يحمل السلاح ضد السكان الاصليين ويقمعهم لصالح القوة الامبريالية الراعية. وعمليات التحديث هذه كانت تتجاوز معايير الجدوى اقتصادية، وتتطلب توليد روح جماعية في يهود الجيتو.

2 ـ كان معظم المستوطنين الصهاينة من طبقة البورجوازية الصغيرة او البروليتاريا الرثة التي صعدت حركة الاعتاق احلامها الطبقية على حين ضيقت الرأسماليات المحلية عليها الخناق، الامر الذي جعلها مهددة دائماً بالهبوط الى مستوى البروليتاريا. فكانت الصيغة التعاونية وسيلة تحقق قدراً من أحلامهم الطبقية بتحويلهم الى ملاك زراعيين. ورغم ان الملكية لم تكن كاملة ولا فردية، الا انها مع هذا كانت نوعاً من الملكية يشبع طموحهم الطبقي. فهم لم يصبحوا مجرد اجراء، والمالك لم يكن شخصاً معيناً وانما شخصية معنوية تسمى (الشعب اليهودي). وقد كان لهذه الملكية الصورية أثرها الكبير في تثبيت كثير من المستوطنين في أملاكهم (التعاونية) الجديدة رغم الظروف المعادية.

3 ـ كان من العسير إصدار الاوامر للمستوطنين وكان من الصعب عليهم تقبلها والانصياع لها، بحكم خلفيتهم الطبقية، ولذا كانت الصيغة التعاونية مناسبة لاقصى حد.

4 ـ كان كثير من المستوطنين الصهاينة يحملون أفكاراً وديباجات اشتراكية متطرفة كان لابد من تفريغها وتسريبها. وقد تم ذلك من خلال الاقتصاد الجماعي العسكري، الذي سمي (تعاونياً اشتراكياً) واستخدمت

الديباجات الاشتراكية المتطرفة في تبريره.

5 ـ كان المهاجرون اليهود الجدد يأتون من وسط هامشي ولم تكن لهم خبرة بالزراعة، وبالتالي كانوا دائماً في حاجة الى مساعدة واشراف فنيين، ولذا أمكن تدريب المزارعين الجدد على أيدي المزارعين ذوي الخبرة داخل اطار الاقتصاد الجماعي.

6 ـ كان مجتمع المستوطنين الصهاينة (ولا يزال الى حد كبير) مجتمع مهاجرين. ومجتمع المهاجرين يتسم بسيولة كبيرة، فبعد استقرار فريق من المهاجرين كان كثير منهم يترك الارض بعد قليل ليذهب الى الولايات المتحدة حيث توجد فرص أفضل للعمل ومستوى معيشي أعلى. وقد تمكن الصهاينة من التغلب على هذه الصعوبة عن طريق الصيغة الجماعية لان انسحاب بعض المزارعين لم يكن يعني التوقف الكامل للعملية الانتاجية (الامر الذي كان يمكن ان يحدث في حالة الملكية الفردية) وكانت الحركة الصهيونية تقوم باستبدال مهاجر آخر بمن ترك الأرض.

7 ـ اثبتت الصيغة الجماعية انها أفضل الصيغ لاستيعاب المهاجرين الجدد، فهي قادرة على ايجاد اعمال ووظائف لهم، لان المزارع التعاونية والتنظيمات الجماعية الاخرى كانت تشمل كل جوانب الحياة. كما ساهم التنظيم الجماعي في تخفيف حدة الصراعات العرقية داخل جماعات المستوطنين. فكل مهاجر كان ينظم للتنظيم التعاوني الذي تسود فيه قيمه الحضارية ويسيطر عليه بنو جلدته من رومانيين أو روس او بولنديين وهكذا.

وقد أدرك القائمون على المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية هذه الحقيقة وأن الطريقة الوحيدة المتاحة أمام المشروع الصهيوني ليس مجرد الاستيلاء على الارض وانما ادارته على أساس جماعي عسكري. ولذا فرغم ان اتجاهاتهم الايديولوجية كانت رأسمالية ليبرالية تؤمن بالاقتصاد الحر الا انها قبلت عملية التنظيم الجماعي هذه (التعاونية الاشتراكية) وقامت بدعمها وتمويلها بلا تردد ودون التقيد بأية اعتبارات اقتصادية أو أيديولوجية خارجية. فكانت الوكالة اليهودية تقوم بشراء الارض (من سلطات الانتداب أو بعض الاقطاعيين العرب المقيمين خارج فلسطين او من خلال وسطاء) باسم (الشعب اليهودي) وتؤجرها لتعاونية عمالية تدفع أجور العمال فيها حسب ما تنتجه كل مجموعة، وعينت مديراً لكل تعاونية من قبل المنظمة الصهيونية. وقد حل هذا الشكل من الزراعة كثيراً من مشاكل الاستيطان الصهيوني، فعلى سبيل المثال، يستطيع تجمع المستوطنين ان يقسم نفسه الى مجموعتين، تقوم واحدة

بالزراعة والاخرى بالحراسة ومطاردة العرب وارهابهم (والزراعة الصهيونية التي نسميها (الزراعة المسلحة) مرتبطة تمام الارتباط بالعسكرية الصهيونية، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، فهما وجه واحد لعملية الاستيطان والاستيعاب). كما ان الحركة الصهيونية تستطيع ان تمول هذه التجمعات بحيث لا تؤدي عدم انتاجيتها، بسبب جهل المستوطنين بشئون الزراعة، الى سقوط الارض مرة أخرى في يد العرب. اما المستوطنات التي تمنى بالخسائر الفادحة، فكانت المنظمة الصهيونية تقوم بدفع خسائرها، كما ان المستوطنة الجماعية التي يتلقى أعضاؤها اجرهم من المنظمة الصهيونية العالمية لن تحتاج للعمالة العربية الرخيصة.

وقد انتصر الاقتصاد الاستيطاني مع صعود الاحزاب العمالية الى مواقع القيادة الصهيونية بانتصار جناح وايزمان في مؤتمر الحركة الصهيونية الذي عقد في لندن سنة 1921، وتمكنت الاحزاب العمالية من السيطرة على رأس المال اليهودي العام الموجود في تصرف الحركة الصهيونية، على أساس ان ذلك يتيح لها فرصة تأسيس اقتصاد عمالي، أي استيطاني، قادر على اخضاع راس المال الخاص ليعمل وفق اهداف بناء الدولة الصهيونية (الجماعية). واستطاعت الاحزاب العمالية ايجاد خطة لجذب المهاجرين الشبان.

وقد سيطر الهستدروت على الانشطة الاقتصادية كافة وحدد مهامها بأنها توحيد العمال المستخدمين، وانشاء كتائب العمل وجماعات الزراعة والحرث واستقبال المهاجرين. وكان تأسيس الهستدروت استمراراً لنفس الاستجابة لمعضلة الاقتصاد والايديولوجيا الاستيطانية. فالهستدروت لم ينشأ للتعبير عن مصالح طبقة عاملة يهودية تبلورت في فلسطين، وانما أداة لخلق هذه الطبقة ونواة للاقتصاد العمالي. كما أنه بامتلاكه العديد من المشروعات كان يسعى لتكوين علاقة خاصة جداً مع رأس المال الخاص، هو ما عبر عنه بن جوريون بقوله: (اننا لا نسعى لمشاركة العمال في أعمال يديرها راس المال الخاص ويشترك العمال في أرباحها، وانما على العكس نسعى لمشاركة رأس المال الخاص في اعمال يديرها العمال ويشرف الهستدروت عليها، ويأخذ رأس المال الخاص نسبة ثابتة من أرباحها).

وتبدى عنصرا الجماعة والامن باعتبارهما أهم أسس الاقتصاد العمالي الاستيطاني في تنظيم الكيبوتس على أسس شبه عسكرية لتفريخ المستوطن المقاتل وقد تم تأسيس الهاجاناه بعد تأسيس الهستدروت بعام واحد، وتم تدريب عشرات الآلاف من اعضائها، ثم تأسست بعد ذلك

قوتها الضاربة البالماخ عام 1941 لتأدية المهام الصعبة. وكان معظم اعضائها مرتبطين بالكيبوتس، وخصوصاً تلك الكيبوتسات التابعة للحزب الصهيوني ذي الديباجة اليسارية: المابام. وكانت الهاجاناه ضمن مسئولية الهستدروت، وضابطها في معظمهم مسئولون فيه، واعتبرت بمنزلة الجناح العسكري للمجتمع الجديد لتقوم بمهام الحماية وتوفير الامن للاقتصاد الاستيطاني العمالي.

ولم يختف الهاجس الامني (الاستيطاني) بطبيعة الحال بعد عام 1948، بل ربما ازداد حدة. وقد تطلب هذا استمرار الصيغة الجماعية (التعاونية العمالية الاستيطانية) وتهميش الاعتبارات الاقتصادية وتخصيص موارد اقتصادية هائلة لحراسة الحدود لضمان استمرار السيطرة الصهيونية على الأرض والسكان الاصليين واستيعاب المهاجرين الجدد واعادة تأهيلهم واتمام المشروع الصهيوني بما يتطلبه من توسع جغرافي ومحاولة التوصل الى الحدود الآمنة بشكل نهائي وتحديث الجيش الاسرائيلي وتزويده بكل الاسلحة التي يحتاجها وبناء صناعة سلاح ذات تكنولوجيا عالية متطورة.

وقد تمكنت الاحزاب العمالية من تأسيس نظام اقتصادي تقوم فيه الدولة بالاشراف والتخطيط المركزي الذي يشمل مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية كافة، كما انها تشرف على كل مجالات النشاط الاقتصادي عبر سياساتها الضريبية والنقدية والمالية، وعبر سياسة التشجيع والدعم حتى أنه يمكن القول بأن دور الدولة في الاقتصاد الاسرائيلي أكبر من دور أية دولة اخرى في اقتصادها، عدا الدول الشيوعية.

وقد ظل نموذج الصهيونية العمالية، وقوامها الهستدروت، المعلم الاساسي للاقتصاد العمالي في فلسطين قبل عام 1948، ثم للاقتصاد الاسرائيلي بعد قيام الدولة، الى ان بدأ اهتزاز هذا النموذج مع الازمة الاقتصادية التي بدأت في اعقاب عام 1973، وبلغت ذروتها في منتصف الثمانينيات معلنة عن انتهاء قدرة هذا النمط من الادارة الاقتصادية على الاستمرار وتجاوز أزماته. وقد عبر هذا الاقتصاد العسكري/الاستيطاني عن نفسه من خلال مؤسسات عديدة من أهمها الهستدروت والكيبوتس.

الهستدروت

اختصار للمصطلح العبري (هستدروت هاكلاليت شل هاعو فديم هاعفريم بايرتس يسرائيل) أي (الاتحاد العام للعمال العبريين في إرتس يسرائيل). ثم حذفت كلمة (العبريين) من اسمه عام 1969. وقد أنشأ الصهاينة هذا الاتحاد العمالي عام 1920 لا ليمثل أية طبقة عاملة وانما ليساهم في

توطين المهاجرين الصهاينة وليبلور وينمي، بالاشتراك مع الوكالة اليهودية، جماعة المستوطنين الصهاينة في فلسطين حتى تصبح بناءً استيطانياً متكاملاً توجد داخله طبقة عاملة. وقد عبر بن جوريون عن هذه الفكرة بمصطلحه الغيبي حينما قال: (ليس الهستدروت نقابة عمالية ولا حزباً سياسياً ولا هو تعاونية وجمعية لتبادل المنفعة، انه اكثر من ذلك. الهستدروت هو اتحاد شعب يقوم ببناء موطن جديد ودولة جديدة وشعب جديد، ومشاريع ومستوطنات جديدة، وحضارة جديدة. انه اتحاد للمصلحين الاجتماعيين لا تمتد جذوره الى بطاقة عضويته الخاصة بل الى المصير المشترك والمهمات المشتركة لجميع اعضائه في الموت والحياة)، أي ان دينامية الهستدروت هي دينامية صهيونية استيطانية إحلالية. ولذا يمكننا القول بان الهستدروت ليس (اتحاد عمال) كما قد يوحي اسمه، وانما هو مؤسسة صهيونية استيطانية بالدرجة الاولى، بل أهم المؤسسات الاستيطانية على الاطلاق، فهو المؤسسة الوحيدة داخل الحركة الصهيونية التي تشرف على معظم النشاطات، وتتحرك داخلها كل الاحزاب وتربط المستوطن الصهيوني بالجماعات اليهودية في العالم. انها التجربة الصهيونية بالدرجة الاولى.

وقد نص قانون انشاء الهستدروت على انه يعتبر أداة لعملية الاستيطان، ولتنشيط الهجرة اليهودية الى أرض فلسطين. ومن هذا الهدف تعددت مجالات عمل الهستدروت وأدواته التنفيذية: فهو اتحاد للتعاونيات، ومؤسسة لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وهيئة للتأمين الصحي، وجمعية لتقديم الخدمات الثقافية والتعليمية. ولذا تضم لجنته التنفيذية الادارات التالية: التنمية والاستيعاب ـ المساعدة المتبادلة ـ التوظيف والتدريب المهني ـ العمال الاكاديميين ـ والشئون الدينية ـ الشئون العربية والتعليم العالي ـ التعويضات.

وتتضح طبيعة الهستدروت الخاصة في أن الاعضاء يشتركون فيه مباشرةً ويدفعون رسوماً تتراوح بين 3 ـ 4.5% من أجورهم الى صندوقه المركزي، ثم يلتحقون بالاتحاد العمالي الخاص بهم، أي أنهم ينتمون أولاً للمؤسسة الاستيطانية ثم ينتمون الى اتحاد عمالي ايضاً. والهستدروت في هذا يشبه الاحزاب السياسية في اسرائيل فهي الاخرى مؤسسات استيطانية بالدرجة الاولى وأحزاب ايضاً. وقد يكون من الصحيح ان الطابع الاستيطاني للاحزاب والهستدروت قد خفت بعض الشيء بعد اعلان الدولة ولكن الطابع الاستيعابي (وهو الامتداد الطبيعي للاستيطانية او استيطانية ما بعد 1948 بالتحديد) قد زادت حدته. ويجري التخطيط والتنفيذ في الهستدروت والمؤسسات التابعة له من خلال المؤتمر

القومي (السلطة التشريعية) والمحلي العام (السلطة العليا) واللجنة التنفيذية (أعلى سلطة تنفيذية).

وكان الهستدروت ومنشآته الاقتصادية بمنزلة العمود الفقري للاقتصاد العمالي الصهيوني، فمنذ تأسيسه عام 1920 يقوم بانشاء مستعمرات زراعية ومؤسسات صناعية. ففي عام 1921 اسس بنك هابوعاليم (بنك العمال)، وبعد سنتين أسس شركة حفرات هعوفديم (شركة العمال). ومنذ عام 1927 ونشاط الهستدروت يتجه نحو تأمين رأس المال اللازم لادارة مؤسساته الاقتصادية.

ويعد الهستدروت من (كبار اصحاب العمال) في اسرائيل، وهو أكبر جسم اقتصادي في الدولة، وأكبر مستخدم منفرد للعمال. ويضم الهستدروت مجموعتين كبيرتين من المصالح الاقتصادية، المجموعة الاولى تضم التعاونيات التي تنقسم بدورها الى نوعين أساسيين: المستوطنات التعاونية مثل الموشافيم والكيبوتسات، والتعاونيات الانتاجية والخدمية التي تضم أكبر شركتين للمواصلات (ايجيد ودان).

والمجموعات الثانية تضم مجموعة شركات ضخمة تابعة لشركة العمال (الشركة الام) في فروع الصناعة والبناء والتجارة والمصارف. واهم مؤسسات الهستدروت الصناعية مجموعة كور، التي يعمل في شركاتها نحو 23 ألف عامل في 100 مصنع تقريباً، وتملك أهم شركات صناعة الالكترونيات، وتضم شركة سوليل بونيه، وشركة تاديران، ومصانع سولتام، وصحيفة دافار. وفي الخدمات المصرفية، يمتلك الهستدروت جزءاً كبيراً من بنك هابوعاليم، ويشارك في ملكية بنوك ومؤسسات مالية أخرى. كما ان الهستدروت يشارك في الاستثمار في شركة كلال وشركة تسيم وسايتكس. وقد أشرنا الى امتلاكه شركتي ايجد ودان، واحتكاره فرع المواصلات العامة. وفي التجارة يمتلك الهستدروت شركة همشبير، وشركة تنوفا.

ويدل توزيع ملكية المنشآت الصناعية ان حصة الهستدروت النسبية قد ازدادت في السبعينيات ومنتصف الثمانينيات، كما ان حجم صادرات المنشآت الاقتصادية التابعة للهستدروت قد ازداد ازدياداً مطرداً ولا سيما في القطاع الزراعي حيث وصلت نسبة ما صدره عام 1985 الى 77% من الصادرات الزراعية، و23.5% من الصادرات الصناعية. ويقوم الهستدروت بالاشتراك الفعلي في تقرير سياسات المؤسسات الاقتصادية التي لا يشترك في ملكيتها، سواء مباشرةً او من خلال شركات العمال او عن طريق مندوبين له في مجالس ادارة هذه المؤسسات. وهو ما يدعم

هيمنة الهستدروت وسيطرته على القطاع التعاوني في الاقتصاد الاسرائيلي. وهو يشترك في الهيئة الاقتصادية العليا التي تخطط للاقتصاد الصهيوني وتنسق بين القطاعات الثالثة وهي العام والخاص والتعاوني.

وقد بدأت مكانة الهستدروت في التدهور منذ أو اخر الثمانينيات نتيجة الاوضاع الاقتصادية المتردية في اسرائيل في تلك الفترة (التي نجمت عنها بطالة واسعة النطاق) ونتيجة انهيارات في بعض انشطة ومشاريع الهستدروت، ووجهت الاتهامات لزعامة الهستدروت بسوء الادارة والمحسوبية والفساد، حتى قرر الكنيست في مايو 1995 وضع الهستدروت. تحت اشراف المراقب العام للدولة إثر الكشف عن فضائح فساد بعض قيادات حزب العمل الذين قاموا باستغلال موارد الهستدروت في تمويل الحملات الانتخابية.

ويقوم الهستدروت بصفته ممثلاً للعمال والمستخدمين والنقابات المهنية بالتفاوض مع اتحاد الصناعيين والحكومة في شأن الأجور وشروط العمل وهو دور نقابات العمال الطبيعي. ولكن هوية الهستدروت كصاحب عمل، وليس كاتحاد عمال فقط، تظهر في ان مورده الاساسي ليس من اشتراكات الاعضاء وانما نتيجة استثمارات تجارية، كام ان اضرابات العمال يمكن ان تتم ضده وليس بمساندته، بل ان الهستدروت يقوم كثيراً بدور المهدئ للطبقة العاملة حتى تستمر في الانتاج داخل البناء الصهيوني.

ويضم الهستدروت في عضويته فئات متعددة ذات مصالح متضاربة في الغالب، فهو يضم في صفوفه، بالإضافة الى العمال، الأغلبية الساحقة من الموظفين والمستخدمين في الحكومة وفي نشاطات القطاعين العام والخاص، وكل أعضاء الحركة الزراعية التعاونية (الكيبوتسات والموشافيم)، وشرائح مهنية واسعة تنتمي بوضوح الى الطبقة الوسطى مثل: الأطباء، والمهندسين، والمحامين، والأكاديميين، والمعلمين ... الخ.

ويضم الهستدروت نحو 1.8 مليون عضو (عمال مع عائلاتهم) يشكلون 58% تقريباً من السكان، وهو يوظف 25% من اليد العاملة في مختلف مؤسساتها الاقتصادية، ويغطي برنامجه للتأمين الصحي أغلبية التأمين الصحي في اسرائيل، ويدير أهم النوادي الرياضية (هابوعيل) الذي يوجد له 600 فرع منتشرة في جميع أنحاء اسرائيل.

ويساهم الهستدروت بدور مهم جداً في عملية التربية والتعليم وذلك من خلال الجهاز الرسمي والمؤسسات غير الرسمية. فهو يملك مؤسسات كثيرة لمختلف الأجيال، يختص معظمها بحقول تعليمية محددة.

وفي إحصاء قام به الهستدروت بين أعضاء أحد المؤتمرات القومية في السبعينات (وكان يبلغ عددهم 1001) عن رؤيتهم لأنفسهم قال 64.6% منهم (أو حوالي 885) أنهم يعتبرون أنفسهم مديرين او موظفين، وقرر 16% إنهم أصحاب مهن حرة وقرر 9.3% أنهم مزارعون، بينما قال 5.3 أنهم صناع وحرفيون. وفي احصاء آخر بين أعضاء الهستدروت عن سبب التحاقهم بهذا التنظيم (النقابي) قرر 27% منهم أنهم انضموا للاستفادة من خدمات كوبات حوليم (او التأمين الصحي)، و26% لا يعرفون سبب انضمامهم اساساً، و18% انضموا لأن رب العمل طلب ذلك، و5% فعل ذلك من باب طاعة الوالدين، ولا يذكر الاحصاء شيئاً عن الأربعة وعشرين في المائة الباقية ـ أي أن الهستدورت في بنائه واقتصادياته ووعي اعضائه بأنفسهم ليس له علاقة كبيرة باتحادات نقابات العمال.

ويمكن النظر للهستدروت على أنه تنظيم اقتصادي يأخذ (شكلاً جماعياً) لمساعدة التجمع الاستيطاني / الصهيوني بعماله ورأسماليه، وهو تجمع لا يمكن أن يأخذ شكلاً رأسمالياً تقليدياً بسبب وضعه الشاذ في المنطقة إذ أن عليه أن يخوض الحرب تلو الحرب للدفاع عن نفسه وبالتالي عليه أن يجند المستوطنين دائماً في تنظيمات عسكرية اقتصادية متماسكة، وهو ما يفرض أشكالاً جماعية قد تشبه التنظيمات الاشتراكية من بعض النواحي، ولكنها خالية من أي محتوى إنساني ثوري. ومما دعّم هذه الأشكال الجماعية أن المنظمة الصهيونية العالمية وصهاينة العالم لا يمكنهم التعامل مع رأسماليين اسرائيليين مباشرة، بل لابد أن تتعامل المؤسسات مع مؤسسات مثلها، فيقوم الهستدروت بتلقي المساعدات، وتوزيعها على كل طبقات الكيان الصهيوني عمالاً ورأسماليين، أي أن الأشكال الجماعية التي يمثلها الهستدروت لا علاقة لها بأية منطلقات ثورية انسانية، وإنما هي جزء ن استيطانيته. ولعل أكبر دليل على ذلك أن كل اتجاه صهيوني، بغض النظر عن انتمائه الايديولوجي قبل انشاء الدولة، كان يحاول أن يكون له (هستدروته الخاص) به. فيوجد هستدروت للصهاينة التصحيحيين، وآخر للدينيين، تماماً كما كان هناك تنظيم عسكري للعمال وآخر للتصحيحيين. وقد استمرت بعض هذه الهستدروتات بعد انشاء الدولة. ثم انضمت له عام 1965 للاستفادة من نشاطاته وخدماته ومحاولة التأثير فيه من الداخل دون أن تغيّر آراءها فيما يتعلق بدوره. ومما يدل ايضاً على أن الأشكال الجماعية التي يدعو لها الهستدروت لا علاقة لها بالاشتراكية وإنما هي جزء من دوره الاستيطاني (والاستيعابي فيما بعد) أن حزب حيروت الذي يمثل أيديولوجية الاقتصاد الحر عضو في الهستدروت ويحرز انتصارات لا بأس بها، وأن حزب الأحرار الرأسمالي

والأحزاب الدينية كلها ممثلة داخل الهستدروت.

وارتباط الهستدروت بالاستيطان يظهر في علاقته بالعسكرية الصهيونية، فقد اسست الهاجاناه بعد عام واحد من تأسيس الهستدروت. وقد كان الهستدروت مشرفاً عليها، كما كان 60% من رجال الهاجاناه والإرجون وشتيرن ينتمون الى عضويته، كما أنه يقوم بإعالة عائلات الرجال المتطوعين في الجيش سواء قبل عام 1948 او بعده. ومثل معظم المؤسسات الاستيطانية الصهيونية نجد أن الهستدروت مؤسسة عسكرية / اقتصادية موجهة أساساً ضد العرب، ولذا نجد أن هذا الاتحاد العمالي أسس لتنفيذ سياسة اقتحام العمل وفلسفة العمل العبري، فكان يرفض تشغيل العرب بل طرد أعضاءه الشيوعيين عام 1923 بسبب إثارتهم قضية تأجير العمل العربي، كما كان ينظم مظاهرات ضد الرأسماليين اليهود الذين يستأجرون عمالاً عرباً. ولكن بعد ظهور الدولة وبعد أن ثبتت اركانها، ومع ازدياد الحاجة للأيدي العاملة العربية أخذ في التنازل تدريجياً عن هذا التشدد. وسمح الهستدروت بانضمام العمال العرب لعضويته، ولكن العمال العرب لا يتمتعون من الناحية الواقعية بالمزايا التي يتمتع بها العمال اليهود، فأجورهم أقل كثيراً من اجور نظرائهم، كما أنهم اكثر تعرضاً للبطالة. وكثيراً ما تثار قضية العمل العرب داخل الهستدروت، إلا أنها غالباً ما تنتهي الى لا شيء، بل على العكس من ذلك يساهم الهستدروت في تسهيل وإيجاد الظروف الملائمة لتهجير العمال العرب الى الخارج.

الهستدروت إذن جزء عضوي ورئيسي في المجتمع الصهيوني الاستيطاني، وقد ترتب على قوة وسطوة الهستدروت وتعدد مجالات تأثيره أن اصبح الشخص الذي لا ينتمي اليه يجد مشقة كبيرة في الاستمرار في الحياة، فهو لا يستطيع أن يحصل على الخدمات بسهولة ـ وأهمها الحصول على عمل والخدمات الصحية ـ وإذا حصل عليها فبتكاليف باهظة.

ويعتبر الهستدروت الأداة الأساسية التي تعبر من خلالها التفاعلات السياسية في المجتمع عن قراراتها في مختلف نواحي الحياة، إذ أن التنظيم التشريعي والتنفيذي للهستدروت يتكون من ممثلين عن الأحزاب بحسب نسبة قوتها الانتخابية، وبالتالي فإن سياسات الهستدروت في النهاية ليست سوى انعكاس للتفاعل بين وضع الأغلبيات والأقليات الحزبية. بل يمكن القول بأن سياسات الهستدروت تقرر داخل الأحزاب وليس في المؤتمر القومي، ولعل هذا هو أحد العناصر التي تفسير انصراف الأعضاء عن الاشتراك في انتخاب مندوبي المؤتمر، ففي عام

1959 وصل عدد المشتركين الى 84% ثم انخفض الى 65% عام 1969 ثم انخفض الى 56.6% عام 1989.

وقد كان من أهم أسباب نجاح الهستدروت في ممارسة ادواره المتعددة سيطرة الاحزاب العمالية عليه بشكل شبه كلي حتى سنة 1977، وبشكل جزئي بعد ذلك، وهو ما اتاح لها مساندة اقتصاد الهستدروت. كما أن احتفاظ حزب العمل بموقعه ومركزه في الحياة السياسية الاسرائيلية يعود الى علاقته القوية بالهستدروت. ومنذ عام 1932 حينما كان الماباي الموجه الفعلي، كانت له اكثرية مطلقة في المجلس التنفيذي للهستدروت. ولم يتغير الوضع كثيراً حتى الستينيات، فالتجمع العمالي (المعراخ) احرز نسبة مئوية قدرها 88.5% من الأصوات في انتخابات الهستدروت عام 1965. وتتضح لنا هذه العلاقة أكثر بمعرفة أن بن جوريون كان اول سكرتير عام للهستدروت، ولكن تجب الاشارة الى أن هيمنة المعراخ والصهيونية العمالية آخذة في التآكل، ولذلك يلاحظ تآكل النسبة المئوية التي حصل عليها المعراخ في الانتخابات الأخيرة. ففي انتخابات اعوام 1981، 1985، 1989 حصل تحالف حزب العمل على نسبة 64%، 67%، 64% على التوالي أما الليكود فحصل على 26%، 21%، 27 على التوالي.

بنية الكيبوتس

المؤسسة الاقتصادية الاستيطانية العسكرية الثانية هي الكيبوتس، و(الكيبوتس) كلمة عبرية تعني (تجمع) وجمعها (كيبوتسيم) وتصغيرها (كيبوتساه). وهي شأنها شأن معظم المصطلحات الصهيونية (مثل (عالياه) بمعنى (الارتفاع) او (السمو) والتي تعني (الهجرة الى اسرائيل)) لها بعد شبه ديني. ولعل الاصطلاح الديني اليهودي (كيبوتس جاليوت) او (تجميع المنفيين) ولم شمل كل يهود العالم في فلسطين هو الذي استقى منه الصهاينة هذه التسمية. وتستخدم الكلمة في الكتابات الصهيونية للإشارة الى مستوطنةٍ تعاونية تضم جماعة من المستوطنين الصهاينة، يعيشون ويعملون سوياً، ويبلغ عددهم بين 450 و600 عضو، وإن كان العدد قد يصل الى ألف في بعض الأحيان.

ويعد الكيبوتس من أهم المؤسسات الاستيطانية التي يستند اليها الاستعمار الصهيوني في فلسطين المحتلة. بل يقال إن الكيبوتس هو أهم المؤسسات السياسية والاجتماعية على الاطلاق داخل الكيان الصهيوني. وهو مؤسسة فريدة مقصورة على المجتمع الصهيوني. إذ لا توجد أية مؤسسة تضاهيها في الشرق الأوسط او خارجه (وإن كنا نجد بعض

مواطن الشبه بينها وبين بعض المؤسسات التي تضم جماعات وظيفية قتالية مثل الانكشارية والمماليك). بل يمكن النظر للكيبوتس باعتباره مؤسسة نماذجية لتوليد جماعة وظيفية شبه عسكرية، ولعل مركزيته تعود الى أن الدولة الصهيونية نفسها دولة وظيفية.

ورغم تنوع انتماءات الكيبوتسات السياسية فإن كل المستوطنات، شأنها شأن الاحزاب السياسية في اسرائيل، تلتزم بالرؤية الصهيونية وبالخط الصهيوني، بل إنها كوّنت عام 1963 تنظيماً عاماً لحركة الكيبوتس تشترك فيه كل المزارع الجماعية بغض النظر عن انتمائها السياسي. وتدين كل الكيبوتسات بالولاء للحركة الصهيونية، وهذا أمر منطقي تماماً لأنها مشاريع غير مربحة وممولة من قبل هذه الحركة.

وحتى ندرك مدى أهمية الكيبوتس داخل الكيان الصهيوني، سنورد بعض الاحصاءات التي قد تعطي القارئ فكرة واضحة ومثيرة عن مدى اسهام هذه المؤسسة في المجتمع الصهيوني. فعلى سبيل المثال لا الحصر، بلغت نسبة اعضاء الكيبوتس في النخبة الحاكمة (أي بين قيادات المجتمع الاسرائيلي) سبعة اضعاف نسبتهم في المجتمع (ويكفي أن نذكر أن بن جوريون وموشيه ديان وشيمون بيريز وبيجال آلون وغيرهم من أبناء الكيبوتسات). ومع أن اهمية الكيبوتس آخذة في التناقص إلا أن النسبة في الوقت الحاضر لا تزال اربعة اضعاف. وكان ثلث الوزراء الاسرائيليين من 1949 حتى 1967 من أعضاء الكيبوتس، كما أن 40% من انتاج اسرائيل الزراعي و 7% من صادراتها من انتاج الكيبوتسات، و 8% من انتاجها الصناعي.

ويمكن القول بأن تاريخ نشأة الكيبوتس وتطوره وبنيته وما لحق من تآكل وما يواجهه من أزمات يجعل منه نموذجاً مصغراً للاستيطان الصهيوني: أصوله ـ تاريخه ـ طبيعته ـ أزمته. ولذا فدراسة الكيبوتس أمر مهم من الناحية المنهجية من منظور دراسة الصهيونية والاستيطان الصهيوني. والسمة الأساسية للكيبوتس، شأنه شأن أية مؤسسة استيطانية احلالية، أنه مؤسسة عسكرية بالدرجة الأولى. فعلى سبيل المثال، كان اختيار موقع الكيبوتس يتم لاعتبارات عسكرية بالدرجة الأولى، ثم لاعتبارات زراعية بالدرجة الثانية. وتظهر طبيعة الكيبوتس العسكرية في أن أعضاءه لا يتدربون على الزراعة وحسب، وإنما على حمل السلاح ايضاً. ويقوم الكيبوتس بغرس القيم العسكرية في اعضائه من خلال الدعاية الايديولوجية والتربية الرسمية وغير الرسمية اليومية، وبخاصة من خلال أسلوب الحياة.

وقد ساهمت الكيبوتسات في انشاء الكيان الصهيوني والحركة الاستيطانية الاحلالية، قبل وبعد انشاء الدولة الصهيونية. فقامت الكيبوتسات بتنظيم الهجرة غير الشرعية الى فلسطين منذ عام 1934. واستمرت في هذا النشاط حتى بعد أن تأسست منظمة خاصة للهجرة غير الشرعية عام 1939. وكان نظام الكيبوتس مبني على ما نسميه (الزراعة المسلحة)، فأطفال الكيبوتس (في عنابرهم الجماعية) كانوا يتدربون على فلاحة الأرض وعلى القتال في ذات الوقت (كان الأطفال يرسلون الى العنبر الجماعي بعد ولادتهم مباشرة ويظلون فيه وحتى سن الالتحاق بالجيش) ويتوجه ولاؤهم اولاً وأخيراً للاطفال الذين يشاركون الحياة من داخل مؤسسة الكيبوتس بشكل عام، ثم داخل الكيبوتس الذي يعيشون فيه، على وجه الخصوص.

وبسبب تكامل الاستيطان والقتال، زاد عدد مزارع الكيبوتس بعد الثلاثينيات اثناء الثورة العربية. فقبل هذا التاريخ كانت مزارع الموشاف (وهي مزارع تعاونية أقل جماعية ولا تتسم بالصبغة العسكرية) تنمو بنسبة تفوق مزارع الكيبوتس. ولكن بعد عام 1936 تغيرت النسبة لصالح الكيبوتس (ويلاحظ كذلك أنه بعد انشاء الدولة وبظهور الجيش الاسرائيلي الذي يضطلع بمهام الدفاع زاد عدد مزارع الموشاف مرة أخرى، وتراجع عدد الكيبوتسات).

لعبت الكيبوتسات دوراً بارزاً في منظمة الهاجاناه العسكرية الصهيونية قبل عام 1929. وتؤكد موسوعة الصهيونية واسرائيل أن كل اعضاء الكيبوتسات كانوا اعضاء في الهاجاناه، وأن عدداً كبيراً من ضباط الهاجاناه أتوا من الكيبوتسات. وتضيف الموسوعة أن هذا لم يكن غريباً على الاطلاق (لأن بنية الكيبوتس نفسها ونظامه يشبهان من بعض النواحي التنظيم العسكري). فأعضاء الكيبوتس ليسوا مرتبطين بأي بناء أسري، ولم يكن مفروضاً عليهم توفير الرزق لأعضاء اسرهم، وانما كانوا افراداً لا تربطهم أية اواصر صداقة مع أحد، ويمكن استدعاؤهم للخدمة العسكرية كلما وحيثما دعت الحاجة لذلك (فهم بنيوياً مثل الجنود المرتزقة). كما أن معظم اعضاء الكيبوتسات في تلك الفترة ذكوراً كانوا أم إناثاً، كانوا شباناً في سن الخدمة العسكرية ليس بينهم أطفال او عجائز. ولذا كان من السهل إقامة الكيبوتسات بسرعة والدفاع عنها بصلابة.

وقد قامت حركة الكيبوتسات في السنوات الأخيرة من حكم الانتداب البريطاني بدور اساسي في (خلق الحقائق) بإنشاء مستوطنات جديدة في المناطق النائية. فاستوطن اعضاء الكيبوتس في شمال النقب،

وجبال القدس ومناطق أخرى. وقد أنشأ المستوطنون الصهاينة ما يزيد عن 52 مستوطنة من نوع السور والبرج، وكان من بينها 37 مزرعة كيبوتسية.

وحينما قررت الهاجاناه إنشاء وحدات الصاعقة النظامية (البالماخ) ولم تكن تملك الاعتمادات الكافية، بادرت حركة الكيبوتس بتجنيد الأعضاء ورتبت ساعات العمل لهم بحيث اصبح في مقدور عضو الكيبوتس أن يعمل نصف شهر في المزرعة الجماعية، والنصف الآخر في صفوف البالماخ. ولذا حينما اندلعت حرب عام 1948 بعد إعلان قيام الدولة الصهيونية كان حوالي 2000 عضو في البالماخ يعيشون في 41 كيبوتس.

وكانت الكيبوتسات تشكل مواقع للترسانات العسكرية ومصانع للذخيرة، لذلك كانت القوات البريطانية تهاجم الكيبوتسات دائماً بحثاً عن الذخائر وعن اعضاء البالماخ كما حدث يوم 29 يونيه 1946 حينما هاجمت القوات البريطانية عشرات الكيبوتسات.

وقد استمر الكيبوتس في أداء هذا الدور الأساسي في المؤسسة العسكرية بدرجات متفاوتة، فساهم في التوسع الصهيوني في الأراضي العربية التي احتلت عام 1967، كما أنه لا يزال ينهض بدور مهم في عملية الاستيطان التي تتم في الضفة الغربية (وإن كانت الأشكال الأخرى من الاستيطان مثل الموشاف هي الأكثر شيوعاً الآن).

ولا تزال نسبة كبيرة من القيادات العسكرية في الجيش النظامي والاحتياط تأتي من هناك. فعلى سبيل المثال، ورد في إحدى الإحصاءات أن ربع ضباط جيش الكيان الصهيوني وثلث الطيارين المقاتلين أعضاء في الكيبوتس. ولعل أكبر دليل على أن الكيبوتس يمثل العمود الفقري للعسكرية الصهيونية هو أن 33% من ضحايا حرب 1967 من أبناء الكيبوتس (ولنتذكر أن نسبتهم القومية هي أقل من 4%). ويقوم أبناء الكيبوتس بأشق المهام العسكرية وأخطرها، كذلك المهام السرية في الداخل والخارج ذات الطابع الانتحاري (مثل عملية مطار عنتيبي في أوغندة). ويوجد عدد كبير منهم في الوحدات الخاصة مثل المظليين والضفادع البشرية.

ورغم أن الكيبوتس مؤسسة عسكرية إلا أنها ليست مؤسسة عسكرية بالمعنى المألوف للكلمة، فأعضاء الكيبوتس هم جماعة وظيفية عسكرية استيطانية (مملوكية) وظيفتها هي القتال والاستيطان، وما عدا ذلك من وظائف فثانوي. ويتضح هذا في الطبيعة المملوكية لنمط الحياة. وبالفعل نجد أن الحياة داخل الكيبوتس جماعية الى أقصى حد، كما نجد أن أشكال

التعبير الفردية في حكم المنعدمة، فملكية الأرض والمباني والأدوات، بل أحياناً الملابس الشخصية، ملكية جماعية.

وحينما ينضم عضو للكيبوتس فهو لا يشتري شيئاً لأنه لن يملك شيئاً، وحينما يترك الكيبوتس فإنه لا يبيع شيئاً ولا يأخذ معه شيئاً (وإن كانت السنوات العشرون الأخيرة بدأت تشهد منح العضو مكافأة مالية صغيرة في بعض الأحيان). ولا يتقاضى الأعضاء مرتبات وإنما يحصلون على كل احتياجاتهم الأساسية دون مقابل مثل الطعام والمسكن والملبس وأحياناً اصلاح الملابس وغسلها، والرعاية الطبية ورعاية الأطفال والتعليم. أما احتياجات الفرد الأخرى مثل شراء بعض السلع الاستهلاكية الصغيرة (إناء زهور مثلاً) أو قطع الملابس الكمالية وتكاليف الاجازات التي يقضيها خارج الكيبوتس فيقوم بدفع تكاليفها بنفسه من مصروف جيبه الشهري الذي يعطيه له الكيبوتس، وإن تبقى معه أي مبلغ من النقود فعليه أن يعيده لصندوق الكيبوتس (بل كان من المحظور على أي عضو حتى عهد قريب أن يكون له حساب خاص في البنك).

ويقوم أعضاء الكيبوتس بالعمل في أحد الأنشطة التي يقوم عليها الكيبوتس. مع ذلك فإن بعضهم يقوم بالعمل خارج نطاق الكيبوتس سواء في المشروعات التي يتولى الكيبوتس تنفيذها في الأقاليم او في مؤسسات الدولة او في أماكن أخرى. وفي هذه الحالة يستمر هؤلاء في العيش داخل الكيبوتس ويستفيدون من خدماته الاجتماعية الى جانب تناول الطعام، ويحصلون على الخدمات نفسها التي يحصل عليها بقية الأعضاء الى جانب قيامهم بتناوب خدمات الحراسة (وهذه مهمة أساسية والكيبوتس). وهذه الخدمات التي تحصل عليها هذه الشريحة من الأعضاء بالطبع ليست بالمجان، ولكنهم يحصلون عليها مقابل تنازلهم للكيبوتس عن مرتباتهم التي يتقاضونها في الخارج. ولكن أعضاء الكيبوتس لا يتمتعون بأية حياة اسرية مستقلة، فقد كانوا يتناولون معظم الوجبات سوياً (وعدم تناول الطعام مع الجماعة في الكيبوتس يعد رفضاً لها وارتداداً الى حياة الجيتو). والأطفال كذلك يعيشون بعيداً عن والديهم، وكانوا لا يقومون بزيارتهما إلا بعض الوقت بعد الدراسة وبعد ساعات العمل.

وإضعاف الروابط الأسرية في الكيبوتس يتم لحساب الروابط القومية ولحساب الولاء للدولة او المؤسسة. فالفرد الذي لا يعيش حياة خاصة به، والذي ليس له ذكريات فردية، ولا يربطه أي رباط بأي إنسان آخر، هو الفرد القادر على الانتماء بسهولة ويسر الى جماعته الوظيفية، وهو الإنسان القادر على تكريس ذاته لوظيفته مهما بلغت من لا إنسانية، وهو

الإنسان القادر على الإيمان بمجردات وأوهام ليس لها سند في الواقع. ويبدو أن التنشئة الاجتماعية في الكيبوتس كانت تهدف الى هذا أساساً. فالطفل الذي يعتمد على المؤسسة (لا على أبيه أو أمه) في معيشته وملبسه، تضعف العلاقة بينه وبين أبويه وتقوى بينه وبين المؤسسة التي يتبعها بعد ولادته ببضعة أيام حيث يوضع في بيت الأطفال ويمكث هناك مدة سنة ينتقل بعدها الى بيت الصغار. وفي تلك المرحلة يسمح للأبوين باصطحاب طفلهما الى البيت لقضاء بضع ساعات معهما.

وفي سن الرابعة كان الطفل يرسل الى دار الحضانة، وينتقل منها الى المدرسة الابتدائية عند بلوغه السابعة. والمرحلة النهائية من النظام التعليمي هي المرحلة الثانوية التي يدلها الطفل في سن الثانية عشرة حتى يبلغ الثامنة عشرة. وعبر كل هذه المراحل كان الطفل يلقّن العقيدة والقيم الصهيونية ويدرس مواد دراسية مثل المادة التي تسمّى (الوعي اليهودي).

ولكل كيبوتس كبير مدارسه الخاصة بجميع مراحل النظام التعليمي. وتشترك الكيبوتسات الصغيرة سوياً وتنشئ المدارس الخاصة بها. ومستوى التعليم في هذه المدارس عال، وخصوصاً أن المدرسين فيها من أعضاء الكيبوتس، ولذلك فهم يتسمون بنفس التفاني في خدمة الجماعة، فهم لا يُضربون عن العمل لزيادة الأجر، كما هو الحال مع زملائهم في النظام التعليمي العام. وعند بلوغ الثامنة عشرة يقوم عضو الكيبوتس بأداء الخدمة العسكرية الإلزامية (لمدة ثلاثة سنوات) وعند عودته قد ينضم الى إحدى الجامعات او المعاهد الفنية.

وهكذا ينشأ عضو الكيبوتس من المهد الى اللحد دون الدخول في علاقة انسانية فردية مباشرة. فهو دائماً عضو في هذه المؤسسة او تلك، وهو ما يجعله انساناً قادراً على تلقي الأوامر دون تفكير او احتجاج. وكثير من أطفال الكيبوتس يفقدون كل صلة بآبائهم بعد بلوغهم الثالثة عشرة، وهم في هذا يشبهون المماليك الذين كانوا يختطفون من بلادهم في سن مبكرة، ثم ينشئون تنشئة جماعية تفقدهم فرديتهم وانسانيتهم، وتحولهم الى جماعة محاربة ليس لها روابط اجتماعية او انسانية، متفرغة تماماً للقتال وحسب.

وكانت جماعية الكيبوتس في بداية الأمر لا تلتزم بأية معايير، فقد كان كل شيء مملوكاً ملكية جماعية حتى الملابس الداخلية. ولم تكن هناك حمامات منفصلة للرجال والنساء. ولكن بعض هذه الأشكال الجماعية المتطرفة قد اختفت وإن احتفظ الكيبوتس بطابعه الجماعي الأساسي.

وتظهر جماعية الكيبوتس في طريقة الإسكان، الذي يتبع خطاً واحداً متكرراً من كيبوتس لآخر. إذ تقسم مباني المزارع الجماعية الى قسمين: المساكن والمباني الأخرى. أما المساكن فهي عادة وحدات متقاربة يتكون كل منها من طابق واحد، تقع بين مجموعة من الأشجار، وكل وحدة سكنية مقسمة الى شقتين او ثلاثة، وتتكون كل شقة من غرفة صغيرة يقطنها رجل وامرأة. ويتم تنظيف الثياب وكيها في بيت الغسيل العام. وأثاث هذه المنازل بسيط إن لم يكن متواضعاً، وإن وجد تليفزيون او جهاز ستيريو فيوضع عادة في غرفة المعيشة الجماعية.

ويضم الكيبوتس ايضاً عدة مبان: مبنى الثقافة (وهو من أهم المباني)، ومبنى الاجتماعات، وحمام سباحة، وقطعة أرض مخصصة للرياضة. وعلى مقربة من المجموعة السكنية من المباني توجد المجموعة الإنتاجية، وتضم حظائر الحيوانات والمصانع والمزارع نفسها. وتوجد منازل الكيبوتس وصالة الطعام والمدرسة وقاعة الاجتماعات والمباني الأخرى في وسط الكيبوتس، أما المزارع والمصانع والحقول فإنها تلتف من حوله (وهو ما يبيّن طبيعته العسكرية).

ويهدف التصميم المعماري للكيبوتس الى اضعاف الروح الأسرية وتقوية الروح الجماعية، فكثير من أعضاء الكيبوتس يرون أن الزواج مؤسسة بالية لابد من التخلي عنها، فهي مظهر من مظاهر الجيتوية والفردية التي ينبغي التخلي عنها. وحتى الآن لا يتطلب عقد الزواج سوى التقدم بطلب للحصول على غرفة مشتركة، وعند الطلاق يلغى هذا الترتيب. بل في بعض الأحيان تم الغاء تعبير (شاب) و(شابة)، وأحياناً يشار للازواج على أنهما (زوج) بمعنى (اثنين)، وقد نتج عن كل هذا بطبيعة الحال ارتفاع معدلات الطلاق.

ومن أهم العناصر التي تحافظ على جماعية الكيبوتس وتدعمها وتحولها الى ممارسة حياتية يومية، لجان الأمن التي كانت تقوم بالتجسس على الأعضاء وبتفتيش غرفهم وفتح خطاباتهم. وتقوم هذه اللجان بالتنسيق مع الجيش وتؤدي كثيراً من وظائف الدولة، أي أنها تضطلع بوظيفة ترويض اعضاء الكيبوتس وترشيدهم واستئناسهم لصالح المؤسسة الحاكمة. وتتم هذه العملية من خلال ممارسة ضغط اجتماعي هائل مباشر، فالكيبوتس مجتمع كامل صغير. وقد وصف موتكي يحزقيلي، وهو مدرس في أحد الكيبوتسات، هذه الروح الجماعية التي تهدف الى تفريخ المقاتلين بقوله: إن عضو الكيبوتس ينشأ في جو كثيف من الناحية الجسمية والعقلية، فديناميات الكيبوتس الاجتماعية قاسية لأقصى درجة. فالجماعة هي التي تقرر نوع الموسيقى التي ستسمعه وأية آلة موسيقية ستلعبها وفي أية

وحدة عسكرية ستكون خدمة عضو الكيبوتس العسكرية. وإذا رفض أحد الأعضاء التطوع في الجيش واتخذ موقفاً من حرب لبنان (على سبيل المثال) تقوم لجنة الأمن بعملية تحيض ضده من خلال اعضاء الأسرة الكيبوتسية، فيُتهم بأنه ليس محارباً ولا مقاتلاً، بل يتهم في رجولته، ويتم هذا الأمر في محيط الحياة العامة الخارجية، وفي محيط الأسرة، وفي حياته الخاصة، الأمر الذي يجعل الضغوط ذات تاثير قوي.

ومن المبادئ الأساسية التي تنطلق منها حركة الكيبوتس، مبدأ الديمقراطية والمساواة بين الأعضاء في كل شيء. ويترجم هذا نفسه الى ما يسمى (سياسة الحكم الذاتي). إذ تتخذ كل القرارات الخاصة بالكيبوتس من خلال نظام إداري يتم بالانتخاب. والسلطة العليا هي المؤتمر العام للكيبوتس، الذي يضم جميع الأعضاء ويأخذ شكل اجتماع اسبوعي (عادة يوم السبت).

ولكن مع هذا يبدو أن سلطة المؤتمر العام للكيبوتس لا تمتد إلا الى التفاصيل. إذ تظل القرارات الأساسية بشأن غدارة مزارع الكيبوتس وتحديد سياستها الانتاجية والاقتصادية متروكة لأمانة اتحادات مزارع الكيبوتس وتحديد سياستها الانتاجية والاقتصادية متروكة لأمانة اتحادات مزارع الكيبوتس بالاشتراك مع امانة الاحزاب التي تنتمي اليها. وتضوع هذه القرارات موضع التنفيذ داخل الكيبوتس من خلال فئة صغيرة من الأفراد يتناوبون المراكز القيادية فيما بينهم. ولعل هذا يفسر انصراف الأعضاء عن حضور مثل هذه المؤتمرات التي من المفروض أن تكون لها كل السلطة. ولذا نجد أن السلطة داخل الكيبوتس تتركز في يد السكرتير العام للمؤتمر والمدير الاقتصادي.

ومن أشكال المساواة المتطرفة في الكيبوتس، المساواة بين الرجل والمرأة، فيقوم الجميع بالأعمال اليدوية نفسها، شاقة كانت أم هيّنة. وقد بلغ البعض في تطرفه أنه أنكر على المرأة حقها في التزين، لأن هذا من شأنه أن يخلق الحواجز والتفرقة بين الرجل والمرأة. وقد نجح الكيبوتس الى حد كبير في إعداد الكثير من النساء للقوات المسلحة الاسرائيلية، وإن كان معظمهن يقمن بأعمال ادارية، مثل الأعمال الكتابية والتمريض في الميدان، ويبتعدن عن المهام القتالية.

وهذا الحديث عن المساواة والديمقراطية يجب ألا يعمينا عن حقيقة الكيان الصهيوني التسلطية العنصرية. فالمساواة قد تكون أمراً مطبقاً داخل أسوار الكيبوتس، وحتى هذا أمر مشكوك فيه، ولكنها لا تتعداه على الإطلاق، إذ يظل محظوراً على العرب (بل على اليهود الشرقيين الذين

جاءوا من بلاد عربية) الانضمام لهذه الكيبوتسات، فهي شأنها شأن الجيش الاسرائيلي، مؤسسة اشكنازية (يهودية غربية بيضاء).

ومن المفاهيم الأخرى التي تستند اليها حركة الكيبوتس (شأنها في هذا شأن الحركة التعاونية الصهيونية)، مفهوم العمل العبري الذي يذهب الى أن اليهودي كي يشفي نفسه من طفيليته الجيتوية ومن ضعفه وخوره، لابد أن يعمل بيديه، وأن الأمة اليهودية لن تصبح أمة بمعنى الكلمة إلا إذا ضمّت في صفوفها عمالاً وفلاحين. ومن هنا يصبح العمل اليدوي الطريقة التي يولد بها اليهودي الجديد ليحل محل يهودي الجيتو القديم.

ولكن العمل اليدوي، شأنه شأن الجوانب الأخرى للحياة في الكيبوتس، هو رد فعل للظروف في فلسطين والنسق الصهيوني الفكري. فالصهيوني الذي يعمل بيديه سيشفي نفسه من أمراضه الهامشية والطفيلية (وهذا هو الجانب العقائدي) ولكنه ين يضطر الى استئجار العرب، وبالتالي سيتمكن من طردهم (وهذا هو الجانب العملي).

ولكن لا الجماعية ولا العمل اليدوي نجحا في جعل الكيبوتس مشروعاً اقتصادياً ناجحاً، إذ ظل الكيبوتس في الماضي والحاضر جزءاً من الاقتصاد الاستيطاني الذي يعتمد بالدرجة الأولى على التمويل الخارجي. والكيبوتس لا يختلف كثيراً عن الدولة الصهيونية التي تعتمد على المعونات الخارجية. وكما أن الدول العظمى تمول اسرائيل، نجد أن الوكالة اليهودية تدعم المستوطنات وتمولها، ويأخذ هذا الدعم اشكالاً مختلفة، فالمساحات الشاسعة التي حصل عليها الكيبوتس (وهي رأسماله الثابت الأساسي)، حصل عليها دون مقابل عن طريق الاغتصاب من العرب، وهو لا يدفع عنها سوى ايجار زهيد للوكالة اليهودية. وتنال الكيبوتسات معاملة مفضلة من حيث الاعفاء من الضرائب وتقديم المساعدات والهبات المالية والقروض المعفاة من الفوائد او بفوائد منخفضة. وتوفر الدولة والمصادر الصهيونية الرسمية الوقود والأسمدة والكهرباء والمياه، كما يوجد سعران متفاوتان لمياه الري، واحد يطبّق على العرب والآخر يطبق على يهود مزارع الكيبوتس. هذا بالإضافة الى الاجراءات الخاصة التي تتخذ لحماية مستوطنات الكيبوتس والتسهيلات الائتمانية التي تمنح لها، أي أن اكتفاء مزارع الكيبوتس الذاتي الذي تروج له بعض المراجع الصهيونية، يشبه من بعض الوجوه اكتفاء اسرائيل الذاتي الممول. وإذا كانت الدول العظمى تمول اسرائيل وتدعمها حتى تحولها الى قاعدة عسكرية لا تملك اسباب البقاء بمفردها، فإن الحركة الصهيونية تمول المستوطنات والكيبوتسات للسبب نفسه، إذ كلما ازداد التمويل والدعم، ازداد اعتماد المستوطنات والمستوطنين على المؤسسة

الصهيونية. وبالتالي يصبح التمويل من قبيل التكبيل، إذ حينما ينضم الاسرائيلي الى احدى المستوطنات فهو لا يدفع شيئاً حقاً، ولكن تنفق عليه اموال باهظة (نفقات تعليم وإسكان وخلافه)، ولذلك يصبح من العصير عليه الانسحاب من المشروع الذي انضم اليه.

الكيبوتس وتحولاته الجوهرية

إذا كان الكيبوتس هو المجتمع الصهيوني مصغراً ومبلوراًن فأزمته هي ايضاً ازمة هذا المجتمع مصغرة ومتبلورة. والتحولات التي طرأت عليه هي تعبير مصغر متبلور عن التحولات التي طرأت على العقيدة الصهيونية. وفكرة الكيبوتس الاصلية كانت قائمة على أن مصلحة الجماعة أهم من مصلحة الفرد. ولكن مع تصاعد معدلات العولمة والاستهلاكية، وبعد عام 1967 بدأت النزعات الفردية في التطور، وبدأت الجماعة تفقد اهميتها واصبحت الاولوية للفرد على حساب الجماعة. وثمة مظاهر كثيرة لتحولات الكيبوتس وللأزمة التي يواجهها يمكن أن نذكر منها ما يلي:

1ـ المرأة:

الحركة الكيبوتسية ـ كما أسلفنا ـ أن تقضي على بعض المؤسسات الاجتماعية الانسانية ـ مثل الزواج والأسرة بحجة أنها مؤسسات بورجوازية قديمة بالية، وأن (التقدم) يتطلب ان نطرحها جانباً. بل إن كثيراً من الكيبوتسات حاولت ان تلغي الفروق بين الرجل والمرأة حتى يتم (تحرير) المرأة تحريراً كاملاً، ولذلك تم توزيع العمل بين الأعضاء بغض النظر عن الأساس الجنسي، واصبح من الممكن ان يوكل للمرأة أي عمل او وظيفة. ومما ساعد على هذا الاتجاه ان تنشئة الاطفال الجماعية، بعيداً عن نفوذ الوالدين (أعفى) المرأة من وظيفة الأمومة، وهي الوظيفة التي تعوقها في جميع المجتمعات الأخرى عن القيام بوظائف الرجال وأعمالهم.

هذا البرنامج التحرري برنامج غير إنساني، ينكر الكثير من حقائق الحياة البيولوجية والنفسية التي لا مناص من قبولها. ولذلك ليس من قبيل الصدفة أن اولى المشاكل التي واجهها الكيبوتس هي مشكلة المرأة التي يهدف الى (تحريرها) من سجنها البيولوجي والى (اعفائها) من أمومتها. ولكن ما حدث أن المرأة لم تجد الخلاص في الكيبوتس، بل اصبحت من أكبر عناصر عدم الاستقرار فيه للأسباب التالية:

أ ـ الاعمال اليدوية التي توكل لها شاقة ومضنية في غالب الأحيان، وهو ما يسبب لها العناء والإجهاد.

ب ـ لم يتمكن الكيبوتس من تحقيق المساواة التامة بين الرجل والمرأة بسبب العوامل البيولوجية، فالمرأة الحامل غير قادرة على القيام بالأعمال الشاقة، وكثيراً ما تترك وظيفتها وتستعصي عليها العودة اليها بسبب قيام غيرها بها، بل إن كثيراً من المناصب القيادية في الكيبوتس آلت الى الرجال لهذا السبب.

ج ـ نتيجة كل هذه الظروف وجدت المرأة نفسها في قطاع الخدمات (الطبخ والتنظيف والغسيل) وهو قطاع لا ينال احترام اعضاء الكيبوتس لأنه (قطاع غير انتاجي)، ولذا تحس المرأة إحساساً عميقاً بالنقص. كما أن كثيراً من هذه الأعمال غير خلاق وممل، وبخاصة إذا كان يؤدّى للغير بشكل دائم وخارج نطاق الأسرة المباشرة، ويقال إن المرأة التي تعمل في الكيبوتس في قطاع الخدمات، تقضي ثماني ساعات يومياً في اعداد الطعام او غسل الملابس.

د ـ وهناك اخيراً رغبة المرأة في استرجاع أمومتها التي (تحررت) منها، وبيتها الخاص الذي (اعفيت) منه، واطفالها الذين (تخلصت) منهم.

لكل هذه الأسباب نجد أن المرأة وراء المطالبة بالملكية الفردية والحياة الخاصة (وهي عكس الحياة الجماعية شبه العسكرية التي يتطلبها الكيبوتس)، بل إن كل الذكور الذين تركوا الكيبوتسات إنما فعلوا ذلك بسبب تعاسة المرأة وعدم رضاها عن اوضاعها. وهناك عدد كبير من النساء يرغبن في ترك الكيبوتس ولا يمكنهن ذلك بسبب ظروف الازواج.

2 ـ الترف:

التقشف سمة من السمات الأساسية في الحياة داخل الكيبوتس، باعتباره مؤسسة عسكرية، ويظهر هذا التقشف في تحريم تملّك الافراد للارض او للآلات. وينصرف التحريم احياناً الى الأشياء الشخصية مثل الملابس. وقد كان التقشف يظهر ايضاً في اسلوب الحياة نفسها، من تحريم لتناول الطعام على انفراد الى ممارسة اية نشاطات فردية. وجو التقشف هذا يشكل اساس التنشئة الاجتماعية العسكرية، وهو تكتيك عرفه المماليك من قبل، وعرفته كل المجتمعات التي كانت تعتمد على جماعات من المحاربين المرتزقة لحماية أمنها.

ولكن هذا الجانب من الحياة في الكيبوتس بدأ هو الآخر بالتآكل. فعلى سبيل المثال، بدأت تظهر الجماعات المنفصلة (للرجال والنساء)، ثم بعد ذلك الحمامات المستقلة لكل أسرة، وظهرت كذلك المطابخ المستقلة، بل أحياناً المسكن المستقل (غرفتان وصالة ـ في العادة ـ وملحق مكوّن من مطبخ وحمام).

وبعض هذه المساكن مؤثث تأثيثاً فاخراً ويحتوي على ادوات ترفيه مثل الاستيريو والتليفزيون الملون. ويقال ان حمى الفيديو بدأت تكتسح اسرائيل بما في ذلك الكيبوتسات. وتجدر الاشارة الى أن هناك سيارات خاصة بالكيبوتس تقوم بنقل الاعضاء الى المدينة، وبإمكان العضو أن يحجز سيارة ليستخدمها بمفرده. وقد وصف احد الكتاب كيبوتس دجانيا عام 1986، بمناسبة مرور 75 عاماً على تأسيسه، فأشار الى الترف الذي لم يحلم به المؤسسون الأوائل، مثل ملاعب التنس وحمام السباحة الذي تكلّف نصف مليون دولار، وغرفة الطعام التي تكلف مليون ونصف مليون دولار. ولنلاحظ هنا أن الابتعاد عن حياة التقشف ينتج عنه نوع من الاسترخاء، ولكن الأهم من هذا أنه يفت في عضد الاتجاه الجماعي الذي يعدّ ركيزة أساسية للشخصية العسكرية.

ولعل من أهم التطورات الاخرى في هذا الاتجاه (وهو تطور يعد سلبياً من وجهة نظر مؤسسي الكيبوتس وقياداته)، هو عودة الأسرة للظهور كما يتضح في عودة المسكن المستقل، وفي انضمام كثير من الأطفال الى ذويهم وقضائهم كل او معظم اوقات فراغهم في (منازلهم) او وحداتهم السكنية المستقلة، بعيداً عن المدرسة وعن مؤسسات الكيبوتس المختلفة. بل إن بعض الكيبوتسات بدأت في انشاء مساكن تشبه شقق الطبقات المتوسطة في أي بلد غربي حديث. وقد اندثرت تماماً تجربة تربية الأطفال الجماعية داخل الكيبوتس، وأغلق عنبر تربية الأطفال مستعمرة باراة، وهي آخر مستعمرة (من 250 مستعمرة) احتفظت بتقاليد التربية الجماعية للأطفال. وكان العنبر يضم 566 من الأطفال البالغين. وبذلك انتهت تجربة تربية وتعليم الأطفال داخل الكيبوتس (ويبدو أن الأسر هي التي ضغطت من أجل عودة الأطفال الى الإطار الأسري).

وبينما كان تناول الطعام على انفراد يعد عودة للجيتوية اصبح الآن أمراً أكثر شيوعاً، وخصوصاً أن الصالة الملحقة بالمنزل المستقل اخذت تتحول بالتدريج الى غرفة طعام يتناول فيها أعضاء الأسرة الواحدة بعض وجباتهم اليومية (ولكن مع هذا تظل طقوس الطعام الجماعي أمراً مهماً جداً في الكيبوتس).

والى جانب تقلص التقشف على مستوى الحياة الفردية، نجد أنه آخذ ايضاً في التقلص على مستوى الحياة الجماعية في الكيبوتس ككل. فيلاحظ مثلاً أن بعض الكيبوتسات لها متحف خاص بها (ونهب آذار فلسطين من الهوايات الصهيونية الأثيرة. ويعد موشي ديان، ابن الكيبوتس، من أكبر لصوص الآثار في الكيان الصهيوني). ويوجد الآن فنانون مقيمون في الكيبوتسات، إذ وجدوا أن اسلوب الحياة في هذه المزارع الجماعية يوفر

لهم الراحة والدعة المطلوبة كما أنه يوفر ا لأمان المالي. وبعض هؤلاء الفنانين ليسوا أعضاء في الكيبوتسات، وهذا في حد ذاته يعدّ تطوراً عميقاً ـ أن يسمح لمستوطَن صهيوني أن يعيش داخل الكيبوتس دون ان يكون عضواً فيه.

ومن أشكال الرفاهية الأخرى في الكيبوتس صالونات التجميل (الكوافير) لتصفيف شعر النساء، وقيام الكيبوتس بتنظيم رحلات لزيارة المسارح والمتاحف في المدن الكبيرة. بل إن الكيبوتس يقوم بتنظيم رحلات سياحية الى الخارج لأعضائه الذين يقومون بجولاتهم داخل وخارج اسرائيل كجماعة، كما أنه يمول أعضاءه الذين يقومون بدراسات جامعية وعليا، فهم يحصلون على ما يشبه الإجازة الدراسية بمرتب. وقد نشرت احدى الصحف مؤخراً مفردات متوسط دخل عضو الكيبوتس، فبيّنت أن دخله الفعلي السنوي يضعه في شرائح المجتمع الاسرائيلي العليا.

من كل هذا يمكننا أن نستنتج أن الصورة النمطية المألوفة عن حياة التقشف داخل الكيبوتسات لم تعد دقيقة، وأن اعضاء الكيبوتسات قد لا يملكون شيئاً مثل المماليك، ولكنهم، شأنهم شأن المماليك ايضاً، يرفلون في حلل النعيم، ويكوّنون في نهاية الأمر تشكيلاً طبقياً متميزاً، يتحكم في المجتمع وينعم بخيراته.

3ـ من الزراعة الى الصناعة:

أشرنا الى أن الطابع الزراعي العسكري للكيبوتس ليس مجرد صفة عرضية، وانما سمة بنيوية (أي لصيقة ببنيته)، ومن هنا ايضاً فإن تحوله من الزراعة الى الصناعة يعدّ تحولاً بنيوياً عميق الدلالة، لأنه سيترك اثره في نمط الحياة داخله، وهذا ما يحدث الآن.

وقد بدأ هذا التحول في اواخر الخمسينيات حينما حقق الكيان الصهيوني فائضاً زراعياً كبيراً، ووصف الكيبوتس حينئذ بأنه (عدو الدولة) اللدود، فكان على الكيبوتس حينئذ أن يتحول بالتدريج ليضمن لنفسه النجاح والبقاء الاقتصادي.

وقد يكون من المفيد أن نذكر بعض الحقائق قد تعطي القارئ فكرة عن هذا التحول. ففي عام 1960 كان 30% من أعضاء الكيبوتس يعملون في الصناعة، أما عام 1970، فقد بلغت نسبتهم 45% وتزيد النسبة الآن عن 50%.

ولم تعد مزارع الكيبوتس (مزرعة جماعية) وانما اصبحت مجموعة من المشروعات الصناعية الضخمة، تساوي ملايين الدولارات. وقد وصف

مراسل الواشنطن بوست كيبوتس دجانيا بأنه (كيبوتس يديره مصنع).
وقد نجم عن هذا الانتقال تحول في طبيعة الكيبوتس ونشوء عدد من المشاكل التي لم يضعها مؤسسو الكيبوتس في الحسبان:

أ ـ نظراً لطبيعة الكيبوتس الإحلالية يتحتم على الأعضاء أن يعملوا بأنفسهم، وهذا أمر مناسب لمهنة الزراعة، ولكنه غير مناسب للمشروعات الصناعية التي تتطلب أيادي عاملة وخبراء يتم تدريبهم خارج الكيبوتس في المعاهد والكليات الفنية المختلفة ولا يدينون بالولاء له.
ويحاول الكيبوتس ان يحل المشكلة عن طريق الاستعانة بالصناعة الاوتوماتيكية او عن طريق مشاركة العمال الحضريين الذين يعملون في الكيبوتس دون ان يصبحوا اعضاء فيه.

ب ـ نظراً لانصراف عدد كبير من اعضاء الكيبوتسات الى الأعمال الصناعية بدأت العمالة العربية الأجيرة تظهر مرة أخرى داخل الكيبوتس للقيام بالأعمال الزراعية، وهذا يعد ـ من وجهة نظر صهيونية ـ ضربة في الصميم لمفهوم العمل العبري.

ج ـ انقسام العاملون في الكيبوتس الى فريقين: احدهما يعمل بالزراعة والآخر يعمل بالصناعة، وهو ما خلق كثيراً من التوترات، ومما عقّد الأمور، أن المشروع الصناعي على عكس المشروع الزراعي، يجب أن يكون حجمه كبيراً نوعاً ما، والكيبوتس كان المفروض فيه أن يظل حجمه صغيراً حتى يتسم بالدينامية وحتى تمكن ادارته ذاتياً، بل يمكن القول بأن الادارة الذاتية للكيبوتس اصبحت أمراً عسيراً جداً بعد زيادة القطاع الصناعي داخله، لأن القضايا التي يواجهها اعضاء الكيبوتس تتطلب خبرة المتخصصين، وهذا أمر غير متاح للأعضاء العاديين الذين لم يتلقوا تدريباً او تعليماً خاصاً.

لكل هذا، يمكن القول بأن الانتقال من الزراعة الى الصناعة قد اضعف تماسك الكيبوتس كمؤسسة، وولّد داخلها مجموعة من التوترات التي تؤثر في مقدار فعاليتها ومدى اسهامها في الكيان الصهيوني.

4ـ من التضامن الاشتراكي الى التماسك العرقي:

يبدو أن الكيبوتس رغم كل الادعاءات الطليعية والتجريبية قد بدأ يأخذ شكل العائلة الكبيرة المكتفية بذاتها او القبيلة الصغيرة المنغلقة على نفسها.

وقد نشأ الكيبوتس في بداية أمره كتنظيم اشتراكي حديث، من الوجهة النظرية على الأقل، أساس التضامن فيه هو الولاء الايديولوجي، بل

(هوجمت عملية تكوين وحدات عائلية، بدعوى أن تضر بوحدة المجتمع). وفسر الاتجاه الجماعي في الكيبوتس على أنه تعبير عن المثل الاشتراكية التي تنطلق منها هذه المؤسسة الزراعية / العسكرية.

ولكن رغم نقطة الانطلاق هذه فإن الطبقية والظروف السياسية والتاريخية فعلت فعلها، وازدادت العائلات وتوسعت، وتحول الكيبوتس الى جماعة منغلقة، يتزاوج افرادها فيما بينهم. فيلاحظ ان الزيادة الطبيعية طوال الخمسين عاماً الماضية هي المصدر الأساسي للزيادة في عدد سكان الكيبوتسات، أما الاستيعاب الاجتماعي من الخارج فيشكل الآن ظاهرة هامشية. وفي الوقت الحاضر يعيش قرابة 9% من سكان الكيبوتسات في مستوطنات قامت قبل عام 1950، ووصلت الى الجيل الثالث والرابع. فالمجتمع الكيبوتسي قد أصبح (مجتمعاً عائلياً متوارثاً) ـ (مجتمعاً طبيعياً) ـ (مجتمعاً متعدد الأجيال)، أي أن الكيبوتس لا يستند الى التضامن العقائدي والاشتراكي المزعوم، وانما الى التضامن العائلي او القبلي او الجيتوي (الصهيوني).

بل يبدو أن الأطر الايديولوجية الاولى لم تكن سوى ستار كثيف يغطي (قرابة الدم بين اليهود) التي كانت بمنزلة الملاذ الحقيقي، أما هؤلاء الذين لم يؤمنوا بقرابة الدم هذه، فقد خرجوا الى صفوف الاشتراكية الليبرالية او الماركسية في صيغة انسانية عامة او الى مواطنة العالم، ولم يصلوا الى الكيبوتس، أي أن انغلاق الكيبوتس العائلي (وربما الجيتوي) على نفسه لم يكن تطوراً عرضياً وانما كان امراً كامناً منذ البداية، وكانت الصهيونية (الدموية)، أي التي تستند الى قرابة الدم، اساس بقائه الحقيقي رغم ادعاءاته الاشتراكية الصاخبة.

الكيبوتس وعلاقته بالمجتمع الاستيطاني

ثمة عوامل اخرى تخص علاقة الكيبوتس ككل مع المجتمع الاستيطاني في فلسطين المحتلة أدّت الى ازمته وعزلته.

1ـ قيام الدولة الصهيونية:

من المعروف ان عدد الكيبوتسات لم يزد كثيراً بعد عام 1948، بل انخفض عدد سكان الكيبوتسات بالنسبة لعدد السكان في الكيان الاستيطاني من 7.1% عام 1947 الى 3.7% عام 1962، وقد زاد عدد سكان الكيبوتسات قليلاً بعد ذلك التاريخ، ولكن مع هذا لا يمكن القول بأن الكيبوتس استعاد ما كان له من جاذبية وبريق. ويقال إنه بانتهاء مرحلة الاستيطان الأولى (حتى عام 1948) انتهى دور الكيبوتس وتحول الى مؤسسة لا تتمتع بمركزيتها السابقة، وأصبح دورها مقتصراً على اعضائها

وحسب. كما يقال إن اعضاء الكيبوتس لم يعودوا رواد الاستيطان وطليعة التجمع الاستيطاني، كما كانوا من قبل، وانما هم عاملون بالصناعة ومديرو اعمال صناعية ومستهلكون مترفون.

إن الكيبوتس باختصار ـ حسب هذا الرأي ـ لم يعد سوى مجرد جيب خاص، مغلق على نفسه، ولم يعد يعبّر عن الآمال الصهيونية. فالكيبوتس قبل عام 1948 كان أداة الاستيطان والاستيعاب الكبرى، ثم حلت الدولة الصهيونية محل الكيبوتس في أداء كلتا الوظيفتين بعد عام 1948. فالاستيلاء على الأرض العربية تقوم به المؤسسة الصهيونية الحاكمة من حكومة وشرطة ومخابرات وأجهزة قمعية أخرى، وبخاصة الجيش الذي أوكلت اليه مهمة القتال وقمع أية محاولات عربية لاسترداد الأرض (وإن كانت عملية الاستيطان قد ظلت تابعة للوكالة اليهودية، قبل انشاء الدولة وبعده، فهي التي تقوم بتمويلها، ولكن الذي اختلف هو أدوات التنفيذ، إذ حل محل الارهاب الكيبوتسي الارهاب الحكومي، الذي يشكل الكيبوتس جزءاً منه وحسب).

وهذا القول ينطبق على استيعاب المهاجرين، اذ أصبحت هناك اجهزة حكومية خاصة أوكلت لها هذه المهمة. وقد أثبت الكيبوتس بالذات عدم كفاءته في المهمة الاستيعابية، حيث إنه مؤسسة متماسكة لها قيمها الخاصة واحساسها بمكانها ومكانتها، بينما كان المتوقع منها كمؤسسة استيعابية أن تفتح ذراعيها لكل المستوطنين الجدد بغض النظر عن انتمائهم العقائدي او العرقي، وهو الأمر الذي رفضه المهيمنون على الكيبوتس باعتبار أنه سيفقده تماسكه وشخصيته المستقلة والفريدة، ومكانته الخاصة.

ولعل من أهم العوامل التي أدّت الى تآكل مكانة الكيبوتس وصول الليكود برئاسة بيجن ومن بعده شامير الى السلطة عام 1977. فمن المعروف أن الكيبوتس كان تابعاً دائماً للصهيونية العمالية التي يمثلها المعراخ العمالي الذي حكم الكيان الصهيوني منذ تأسيسه حتى عام 1977. وعندما كانت الأحزاب العمالية في الحكم وكانت معظم قياداته مثل بن جوريون وبيريس ورابين من أبناء الكيبوتس، كانت الكيبوتسات تتمتع برعاية الدولة ومعوناتها وتسهيلات اخرى عديدة، وهو امر لم يستمر بطبيعة الحال مع صعود الليكود الى الحكم.

2ـ الأزمة الاقتصادية:

الكيبوتس يعتمد في تمويله على المؤسسة الصهيونية، فهو ليس استثماراً اقتصادياً، ومع هذا يلاحظ ارتباك احواله المالية (وإن كان يجب ألا نفصل

ذلك عن الوضع الاقتصادي المتردي بشكل عام في الكيان الصهيوني).

ويبدو أن الكيبوتسات، شأنها شأن كثير من المؤسسات والأفراد في المجتمع الصهيوني، قد دخلت حلبة المضاربات (وأعمال الجيتو الهامشية الطفيلية). فقد تراكمت على مر السنين ارباح الكيبوتسات، ولكن بدلاً من اعادة استثمارها في الاقتصاد بشكل انتاجي، راح اعضاء النخبة الاشتراكية في اسرائيل يبحثون عن الارباح السريعة والثروة الفورية عن طريق المضاربات وشراء السندات، حتى اصبح هذا النوع من الاستثمار يشمل ثلث دخل الكيبوتسات (وهكذا ينتقل الكيبوتس من الزراعة الى الصناعة ومن الصناعة الى سوق الاوراق المالية ـ والطفيلية والهامشية).

3ـ عزلة الكيبوتس البنيوية والثقافية:

من المشاكل الرئيسية التي يواجهها الكيبوتس في الوقت الحالي ازدياد عزلته وانفصاله عن المجتمع الصهيوني، وهو ما يزيد تآكل مكانته. والكيبوتس بحكم تكوينه خلية مغلقة، يتبع نمط حياة مستقلة يختلف عن نمط الحياة المحيط به في عديد من الوجوه، رغم أنه يبلور تقاليد هذا المجتمع ويخدم أهدافه. والكيبوتس في هذا يشبه طبقة المماليك الذين كانوا ينشئون في خلايا اجتماعية مغلقة، يتعلمون ويتدربون على حمل السلاح في عزلة عن المجتمع، رغم أنهم الطبقة المحاربة الأساسية وربما الوحيدة فيه. ويمكن القول بأن اتجاه الكيبوتس التدريجي نحو الصناعة قد يؤدي به، في نهاية الأمر ، الى الامتزاج بالمجتمع الصهيوني، ولكن يبدو أن حركة الكيبوتسات شيّدت مؤسستها الصناعية المستقلة التي تقوم بتمويل المشروعات الصناعية الكيبوتسية وتسهيل التعامل بين القطاعات الصناعية الموجودة في كل كيبوتس، ولذا نجد أن القطاع الصناعي في الكيبوتس منغلق على نفسه، منفصل اقتصادياً عن بقية البيئة، شأنه في هذا شأن الكيبوتس نفسه.

وانفصال الكيبوتس ثقافياً امر واضح للجميع، ويقال إنه اصبح يشكل الآن ثقافة مستقلة داخل اسرائيل، فأطفال الكيبوتس يذهبون الى مدارس خاصة بهم منذ الطفولة الى ان يبلغوا الثامنة عشرة من العمر، وحتى بعد أن يذهبوا الى الجامعة ويتخرجوا فيها، فهم يحتفظون بانفصالهم وتميزهم. وكما بيّنا في جزء سابق كان اعضاء الكيبوتس يتبعون نمط حياة مترفاً يختلف عن نمط حياة بقية اعضاء المجتمع الصهيوني، الأمر الذي يعمق من عزلته الحياتية والثقافية. إن الكيبوتس كخلية صهيونية طليعية تحوّل الى تشكيل ثقافي طبقي قبلي (او عائلي) مستقل، ومن هنا ازدادت عزلته وتآكلت مكانته.

4ـ انحسار الايديولوجية الصهيونية واثرها على الكيبوتس:

ولكن لعل العنصر الأساسي المؤثر في الكيبوتس وهو العنصر الذي بدأ يغيّر توجهه وأهدافه بعمق، هو انحسار الايديولوجية الصهيونية تدريجياً، التي بدأت تتحول من كونها دليلاً للعمل لأعضاء التجمع الصهيوني الى محط سخريتهم. وقد أشرنا في مدخل سابق الى أن الشحنة العقائدية الأولى التي دفعت الصهاينة الى الاستيطان في فلسطين في ظروف صعبة جداً، كانت تخفي قدراً كبيراً من العلاقات التقليدية وقرابة الدم ـ او ما يمكن تسميته ايضاً (الانغلاق الجيتوي)، وأن الحديث عن الأممية والأخوة الإنسانية كانت من قبيل الديباجات التسويغية. ومهما كان الأمر، فإن هذه الديباجة التي كانت تجعل الصهيوني مقاتلاً شرساً قد استنفدت او فترت الى حد كبير، ولم يعد الدافع العقائدي واضحاً، ولم تعد الديباجة الاشتراكية الصهيونية هي المهيمنة او حتى الغالبة على هذا المجتمع الصهيوني الصغير او على المجتمع الصهيوني الكبير، كما لم تعد محل جاذبية حقيقية بالنسبة لاعضاء الجماعات اليهودية في العالم.

وتتضح ازمة الصهيونية وانحسارها اكثر ما تتضح في عملية الاستيطان. فالحركة الصهيونية أصبحت غير قادرة على العثور على (يهود) لتوطينهم في المستوطنات الجديدة. ولذلك فبرغم كل الادعاءات الرنانة والبرامج الضخمة التي تهدف الى توطين الالوف، يظل كثير من المستوطنات بدون مستوطنين (بل ان مستوطنات شمال النقب هي الأخرى مهددة بفقدان مستوطنيها). والكيبوتس ليس استثناء من القاعدة، ففي أواخر السبعينات بلغت نسبة الذين يتركون الكيبوتس 50% من مجموع الرجال البالغين ومعظمهم من الأعمار بين 20 ـ 30، وهي أهم اعمار بالنسبة للكيبوتس. ومنذ الستينات اصبحت الزيادة في الكيبوتس مرهونة بالتكاثر الطبيعي هناك ومدى بقاء اعضاء الكيبوتس في مستوطنتهم، فيصل معدل الأولاد في عائلة الكيبوتس اليوم الى ثلاثة أولاد. وحتى يضمن أي مجتمع لنفسه التجدد الطبيعي للسكان فإن المطلوب أن يبلغ عدد أولاد العائلة في هذا المجتمع ما بين 2 ـ 3 اولاد. ولكن عندما تصل نسبة من يغادرون الكيبوتسات الى 50% فإن تجدد السكان هناك يحتاج على الأقل ما بين 4 ـ 5 اولاد للعائلة الواحدة. ويؤدي هذا الوضع الى زيادة اليأس بين أعضاء الكيبوتس، وهو ما يؤدي بدوره الى زيادة ترك الكيبوتس ومغادرته ـ أي أن الأزمة السكانية التي تهدد المشروع الصهيوني الاستيطاني قد وجدت طريقها الى الكيبوتس.

ويظهر انحسار الصهيونية ايضاً في تغيير دوافع الاستيطان وديباجته، فبدلاً من الحديث عن بناء الوطن القومي وتطبيع الشخصية اليهودية والذوبان

في الشعب اليهودي، تقوم الوكالة اليهودية بمحاولة جذب للمستوطنين عن طريق التوجه لدوافعهم المادية النفعية، فتدفع آلاف الدولارات لبناء مستوطنات مريحة مترفة، مكيفة الهواء، فيها مستشفيات ورياض اطفال، ويقوم الجيش الصهيوني بحراستها، وتمهد لها الطرق الخاصة بعيداً عن مراكز تجمع العرب. ويقال إن الاستيطان يمثل الآن أكبر اسباب استنزاف الخزانة الاسرائيلية (ذلك (الصنبور الذي لا يغلق) على حد قول احد المعلقين السياسيين في اسرائيل). في مثل هذا الجو يصبح الكيبوتس غريباً، وشيئاً مرفوضاً لأن المستوطن الصهيوني الجديد ذا التوجه المادي النفعي لا يحترم كثيراً قيم الكيبوتس التقشفية المملوكية، وهو ما يؤدي الى مزيد من تآكل مكانة الكيبوتس.

ولكن، لا يمكن عزل الخلية عن الجسم الأكبر، ولذا وجدت هذه القيم النفعية الفردية طريقها الى الكيبوتس. ومن أهم المشاكل التي يواجهها الكيبوتس في الوقت الحاضر انسحاب كثير من اعضاء الكيبوتسات للعمل خارجها نتيجة ضعف الإيمان بالمبادئ والقيم الصهيونية التي تأسست عليها الكيبوتسات. والسبب الرئيسي لترك الكيبوتس الذي يذكره معظم المغادرين هو (أن الموازنة الشخصية لم تعد كافية لتمويل النفقات اليومية)، أي أن النموذج الفردي النفعي الذي تصور مؤسسو الكيبوتس أنهم بإمكانهم القضاء عليه آخذ في تأكيد نفسه.

ويجب ألا ننظر الى مظاهر التحول المختلفة، التي طرأت على الكيبوتس، الواحد بمعزل عن الآخر، فتآكل مكانة الكيبوتس وعزلته لا تمكن رؤيتها بمعزل عن زيادة الترف داخله او عن تحوله من التضامن الاشتراكي الى التضامن العرقي. ولا تمكن رؤية العنصر الأخير بمعزل عن انتشار الرؤية النفعية الفردية في المجتمع الصهيوني وداخل الخلية الكيبوتسية وانحسار الايديولوجية الصهيونية عنهما، فهذه جميعاً ليست سوى جوانب مختلفة تعبّر عن الظاهرة نفسها.

5ـ اليهود الدينيون والكيبوتس:

لابد أن نشير ابتداء الى أن ثمة تياراً الحادياً علمانياً شاملاً شرساً وقوياً داخل الحركة الصهيونية يحارب كل الأديان وضمن ذلك الديانة اليهودية نفسها. وأن الحركة الكيبوتسية التي ولدت في أحضان الصهيونية العمالية، كانت إلحادية التوجه منذ بدايتها ترفض اليهودية قلباً وقالباً. ولا يزال هذا هو الحال في معظم الكيبوتسات. وقد كتب احد الاسرائيليين المؤمنين باليهودية خطاباً لجريدة الجيروساليم بوست يستنكر فيه أن المتطوعين اليهود الذين أتوا من الخارج محرّم عليهم ممارسة شعائرهم

الدينية داخل الكيبوتسات، وأن مدارس الكيبوتس تعلّم الاطفال أن ارتداء التيفلين (شال الصلاة عند اليهود) عادة من مخلفات العصور الوسطى.

وقد رد عليه أحد أعضاء الكيبوتسات في العدد نفسه وأخبره أن الكيبوتسات مؤسسة علمانية شاملة، وأن المتطوعين الذين يأتون للكيبوتسات عليهم ألا يتوقعوا من المزارع الجماعية أن تغير اسلوب حياتها، وأن تقدم له خدمات تعليمية تتصل بعقائد وعادات (أي الدين اليهودي) تقع خارج نطاق طريق الحياة التي يقبلها اعضاء الكيبوتس.

إن الحركة الصهيونية كانت ولا تزال في أساسها حركة علمانية شاملة ومع ذلك أخذ الاتجاه الصهيوني الديني في التعاظم، وبخاصة منذ عام 1967. وقد عبّر هذا عن نفسه على شكل تزايد الديباجات الدينية في الكيان الصهيوني. ولكن الأهم من هذا هو أن الحركة الاستيطانية التوسعية لم تعد حكراً على الصهيونية العمالية، بل على العكس اصبحت الجماعات شبه الدينية مثل جوش ايمونيم وحركة اسرائيل الكبرى، هي وحدها المطالبة بالاستمرار في الاستيطان. ولذا اصبحت العمود الفقري والقوة المحركة للحركة الاستيطانية ككل، ومعظم المستوطنات التي انشئت في الضفة الغربية مستوطنات صهيونية دينية، تؤمن بضرورة تبني الأشكال الدينية اليهودية (دون مضمونها الخلقي او الروحي).

6ـ اليهود الشرقيون والكيبوتس:

ومما يزيد عزلة الكيبوتس أنه بالدرجة الأولى مؤسسة إشكنازية، والحركة الصهيونية قد بدأت اساساً كحركة اشكنازية تتوجه الى يهود الغرب، ولم تحاول قط قبل 1948، أن تهجّر يهود البلاد العربية من السفارد الشرقيين. بل إن آرثر روبين عالم الاجتماع الصهيوني، قال إن اليهودي ـ حسب تصوره ـ هو الإشكنازي فحسب، أما السفاردم فهم ليسوا يهوداً على الإطلاق، أو على الأقل لا نصيب لهم في المشروع الصهيوني.

ولذلك حينما أُعلن قيام الدولة الصهيونية عام 1948 لم تكن دولة يهودية وإنما إشكنازية بالتحديد، ولكن مع هجرة اليهود العرب والسفاردم من البلاد العربية مثل العراق واليمن ومصر والمغرب، تحوّل التركيب السكاني في الدولة الصهيونية واصبحت غالبية سكانها من الشرقيين. ولكن الكيبوتس مع هذا احتفظ بتركيبه الحضاري الإشكنازي. ورغم أنه مؤسسة استيطانية واستيعابية، إلا أنه لم يضم في صفوفه سوى يهود إشكناز ولم يستوعب سوى القادمين من الغرب. وإن حدث أن انضم بعض الشرقيين الى عضوية أحد الكيبوتسات فإنهم عادة ما يعانون من العزلة والتفرقة العنصرية. ولعل أكبر دليل على مدى عزلة الكيبوتس عن

المجتمع الصهيوني ككل ان 50%من اليهود الشرقيين ممن استطلع رأيهم، اشاروا الى أنهم لم يروا في حياتهم أحد الكيبوتسات.

ولعل الأمر لو توقّف عند الجهل بالكيبوتس لأصبح بالإمكان تنظيم حملة اعلامية للتوعية، ولكن من الواضح أنه اصبح مكروهاً لا من الاسرائيليين العاديين وحسب وإنما من أعضاء تجمع المعراخ ايضاً، أي من اليمين واليسار. أما بالنسبة لليسار فأعضاؤه يرون الكيبوتس مؤسسة (نخبوية) تتكون من (ارستقراطية ملاك الأراضي) و(رأسماليين اجتماعيين)، بل ومستغلين للطبقة العاملة. أما بالنسبة للكراهية من اليمين، سواء من أثرياء الإشكناز أم فقراء السفارد والعرب اليهود، فهي شاملة. وفي محاولة تفسير هذه الظاهرة يُقال إن الرأي الشائع في بيسان (المدينة التي درس موقف سكانها من الكيبوتس) هو أن الكيبوتسات استولت على خير الأراضي في فلسطين المحتلة، وأنها تحصل على القروض والتسهيلات الائتمانية. وأن هذا لا يترك الكثير للمدينة. بل إن سكان المدينة ككل يرون أن وجود الكيبوتس يعوقها عن أي تطور او توسع، لأن الأرض المجاورة للمدينة، مجالها الحيوي إن صح التعبير، تابعة للكيبوتس. ويشكو أثرياء المدينة بالذات من أن وجود الكيبوتس جعلهم غير قادرين على شراء منازل (فيلات) خارج نطاق المدينة.

أما الفقراء فيرون أن الكيبوتس يتمتع بمستوى معيشي راق (حمامات سباحة، تلفزيونات ملونة ـ طمأنينة مالية) ولذا فهم يطلقون على الكيبوتس اصطلاح (اسرائيل الجميلة) أي (اسرائيل الثرية). ويشير سكان بيسان الى أن فرص العمل في الكيبوتس في الوظائف المهمة مغلقة دونهم، ولا يوجد سوى العمالة اليدوية الرخيصة، ومعظم سكان بيسان من المغرب. وقد سافر الأثرياء المتعلمون منهم الى فرنسا، ولم يهاجر الى اسرائيل سوى الفقراء ومن لم يحصلوا على قدر عال من التعليم. ولذا، فإن علاقة الكيبوتس بالمدينة هي علاقة السيد بالخدم. وفي الوقت الذي يعاني فيه سكان المدينة من البطالة يتمتع سكان الكيبوتس بالعمالة الكاملة. ويعبّر سكان المدينة عن سخطهم على مدارس الكيبوتس الممتازة الموصدة دون ابنائهم ويرون ان نظام التعليم الكيبوتسي المستقل لا يسهم إلا في تعميق الهوة بين ابناء (الشعب الواحد).

وإذا كانت العلاقة بين مدينة بيسان والكيبوتس المجاور لها علاقة نمطية متكررة فيمكننا القول بأن حركة الكيبوتسات تمر بأزمة حقيقية، وأن معمل تفريخ المزارعين / المقاتلين لم يعد يلعب دوره السابق في الكيان الصهيوني. وبدأت تظهر اجيال جديدة من أبناء الكيبوتسات ينضمون الى حركات الاحتجاج داخل المجتمع الصهيوني ويتعاطون المخدرات بشراهة

ويرفضون التطوع للخدمة العسكرية، الأمر الذي يشكل أزمة حقيقية بالنسبة للتجمع الصهيوني.

7ـ رفض الخدمة العسكرية:

لوحظ في الآونة الأخيرة أن ثمة تغيرات عميقة قد طرأت على موقف اعضاء الكيبوتسات من الخدمة العسكرية ومن موقفهم العسكري تجاه الدولة الصهيونية. وفي محاولة تفسير هذا الوضع يشير بعض المحللين الى أزمة الكيبوتس وعوامل الصراع داخله. فالكيبوتس كما قلنا مؤسسة عسكرية / زراعية تتسم بالجماعية والتقشف وتهدف الى تفريخ الجنود الصهاينة. ولذلك حينما تبدأ المرأة داخل الكيبوتسات المطالبة باستعادة دورها كأم وكزوجة، وحينما تطالب بإرجاع الأسرة كمؤسسة فإنها بذلك تمثل تحدياً للتوجه العسكري العام للكيبوتس الذي يحاول عزل الفرد عن العلاقات الأسرة حتى يصبح محارباً كاملا.

والشيء نفسه ينطبق على زحف مظاهر الترف على الكيبوتس من اجهزة تليفزيون ملونة الى رحلات للخارج، فالترف هو الآخر يصيب الروح العسكرية بالتراخي، كما أن تحول الكيبوتس من الزراعة الى الصناعة يعني تحوله الى مؤسسة صناعية تعتمد على العمل الأجير، بحيث يتحول عضو الكيبوتس من فلاح يمارس العمل اليدوي ويزداد خشونة واعتماداً على النفس الى مدر أعمال يأنف من العمل اليدوي ويغرق في الأعمال الذهنية! والأيديولوجية الصهيونية نفسها ـ كما أسلفنا ـ آخذة في التآكل، وبدأ يحل محلها ايديولوجية فردية، حيث يضع المواطن الصهيوني مصلحته فوق مصلحة الوطن.

وقد انعكس كل هذا على سلوك اعضاء الكيبوتس نحو ابناء المجتمع الذي يعيشون فيه، اذ يلاحظ زيادة الفردية بينهم والرغبة في التعبير عن الذات، وخصوصاً أن الكيبوتس يعاني من العزلة في مجتمع معظم توجهاته الآن استهلاكية ترفية. ولذا فعضو الكيبوتس الذي يؤثر مصلحته الشخصية على مصلحة المجتمع ككل إنما يبيّن أنه ابن المجتمع، مجتمع الكيبوتس الصغير والمجتمع الصهيوني الكبير. ويربط بعض المراقبين بين هذه الاتجاهات الفردية وبين زيادة هجرة اعضاء الكيبوتس من اسرائيل.

وفي مجال تفسير ظاهرة العزوف عن الخدمة العسكرية يمكن القول بأن الجيل الجديد لم يعد مشغولاً بمشكلة (أمن) اسرائيل انشغال الأجيال السابقة، وخصوصاً أنه اصبح يرى المجتمع الصهيوني بنفسه وقد تحول الى مجتمع توسعي بشكل صريح له مطامح استعمارية واضحة. إن اكذوبة (جيش الدفاع الاسرائيلي) (الاسم الرسمي للجيش الصهيوني) لم

يعد من الممكن تقبلها، فهذا الجيش الدفاعي يصول ويجول في لبنان ويرسل قذائفه لضرب المفاعل الذري في العراق، ويتحدث رؤساؤه عن أمن اسرائيل الذي يمتد من باكستان الى المغرب وعن إعادة رسم حدود العالم العربي بما يتفق والمخطط الصهيوني ويقوم أبناؤه بكسر عظام المنتفضين.

كما أن هذا المواطن الاسرائيلي عضو الكيبوتس، قرأ الكثير من الحقائق عن الإرهاب الصهيوني، ورأى بنفسه على شاشة التليفزيون ومن خلال وسائل الإعلام الأخرى، المذابح الصهيونية في صبرا وشاتيلا وقانا، وهي مذابح يصعب وصفها بأنها دفاعية.

كما أن المجتمع الصهيوني بادعاءاته الديموقراطية عن نفسه يسمح بإدارة كثير من المناقشات العلنية عن الحرب وأسبابها، وهو أمر يولد شكوكاً عديدة في نفوس المستوطن الصهيوني.

وأخيراً لا يمكن أن ننسى عاملاً اساساً وهو أن هذا المستوطن الصهيوني في حالة حرب دائمة مع العرب منذ عام 1882، العام الذي وطئت فيه أقدام اجداده من المستوطنين ارض فلسطين، وهي حرب لم يخمد لها أوار، بل ازدادت اشتعالاً، رغم أن وقّع عدة (معاهدات سلام).

لكل هذا نجد أن ثمة تصدعات في جدار الكيبوتسات العسكري الصارم، وأنها لم تعد معمل تفريخ الجندي الصهيوني كما كانت من قبل.

هذا الإطار يفسر موقف كثير من أعضاء الكيبوتسات الذين يرفضون الذهاب الى القتال، بل يرفضون المؤسسة العسكرية الصهيونية برمتها، وينضمون الى حركات الرفض. وهم يتحدثون عن دعاة الحرب باعتبارهم (الكولونيلات) (وهي كلمة لها ايحاءات سلبية، إذ تشير الى الدكتاتوريات العسكرية في أميركا اللاتينية او الى حكومة الضباط في اليونان في منتصف السبعينات، الذين يعتنقون العسكرية والغزو).

وقد أفصح بعض أعضاء الكيبوتس عن مخاوفهم من (أن يموتوا دونما هدف) في لبنان (فهي ليست حربنا، إذ فرضها علينا بيجن وشارون فرضاً). وهذا الموقف الرافض يعبر عن نفسه من خلال اغنية شائعة في الكيبوتسات الآن تقول: اشرب وصاحب النساء .. فغداً سوف تذهب هباء.

وحتى لا نتصور ان اعضاء الكيبوتسات جميعاً قد اصبحوا فجأة من الرافضين او أنهم ينادون بالعدالة والانسحاب من فلسطين، يجب أن نذكّر أنفسنا ببعض الحقائق وهي أن 20% من كل الضباط الجدد في الجيش الاسرائيلي هم من اعضاء الكيبوتس، وأن 83% من شباب الكيبوتس

ينضمون للوحدات الخاصة. فالكيبوتسات لا تزال مؤسسة عسكرية صهيونية تحمل لواء الاستيطان والاغتصاب. ولكن بسبب اهميتها وحيويتها ومركزيتها فإن أي تغير قد يطرأ عليها (حتى ولو كان صغيراً) وأية أزمة تواجهها (مهما كانت ابعادها) تعدّ أمراً بالغ الخطورة والأهمية.

الفصل الحادي عشر

الصهيونية: استعمار احلالي

بعد أن تناولنا الصهيونية باعتبارها تنتمي الى نمط الاستعمار الاستيطاني، يمكننا في هذا الفصل أن نخفض من مستوانا التعميمي وندرس الجانب الإحلالي للصهيونية. وقد تركزت الجهود الصهيونية على احلال الكتلة البشرية اليهودية الوافدة محل السكان الأصليين، أي أن الترانسفير الذي بدأ في اوروبا بتهجير اليهود الى فلسطين ينتهي ويتحقق من خلال طرد الفلسطينيين من ديارهم ثم الاستيطان في بلادهم.

إحلالية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني

يطلق مصطلح (الاستعمار الاستيطاني الاحلالي) على هذا النوع من الاستعمار حين يقوم العنصر السكاني الوافد (عادة الأبيض) بالتخلص من السكان الاصليين إما عن طريق الطرد او عن طريق الإبادة حتى يفرّغ الأرض منهم ويحل هو محلهم. ففي أميركا اللاتينية، كان هدف الاستعمار الاستيطاني هو استغلال كل من الأرض وسكانها عن طريق انشاء المزارع الكبيرة التي يقوم السكان الاصليون بزراعتها لتحقيق فائض القيمة من خلالهم، ولذا لم يطرد السكان الاصليون. أما في الولايات المتحدة، فقد كان المستوطنون البيوريتان يبغون الحصول على الأرض فقط لانشاء مجتمع جديد، فكان طرد او إبادة السكان الاصليين واحلال عنصر جديد محل العنصر القديم أمراً لا مفر منه. وكانت جنوب افريقيا، حتى عهد قريب، من هذا النوع الاحلالي، فنجد أن المستوطنين البيض استولوا على خير أراضيها وطردوا السكان الاصليين منها. ولكن، بمرور الزمن، طرأت تغيرات بنيوية على الدولة الاستيطانية في جنوب افريقيا، وأصبح تحقيق فائض القيمة واستغلال السكان الأصليين احد الأهداف السياسية. ولذا،

كان يوجد في جنوب افريقيا استعمار استيطاني يقوم بتجميع السود في أماكن عمل ومدن مستقلة (بانتوستان) تقع خارج حدود المناطق والمدن البيضاء، ولكنها تقع بالقرب منها حتى يتسنى للعمال السود الهجرة اليومية داخل المناطق البيضاء للعمل فيها.

والأمر بالنسبة لاسرائيل لا يختلف كثيراً عنه في جنوب افريقيا إذ أن الهدف من الصهيونية هو انشاء دولة وظيفية قتالية تستوعب الفائض البشري اليهودي وتقوم بحماية المصالح الغربية. وحتى تحتفظ هذه الدولة بكفاءتها القتالية، لابد أن تظل بمعزل عن الجماهير (العربية) التي ستحارب ضدها، ولذا كان طرد العرب من نطاق الدولة الصهيونية ضرورياً حتى تظل يهودية خالصة، فكأن يهودية الدولة مرتبطة بوظيفتها القتالية ووظيفتها مرتبطة بإحلاليتها.

وقد كان جابوتنسكي مدركاً لشيء من هذا القبيل حين بيّن أن الدولة الصهيونية المحاطة بالعرب من كل جانب، ستسعى دائما الى الاعتماد على (امبراطورية قوية غير عربية غير اسلامية). وقد اعتبر جابوتنسكي هذه الانعزالية (أساساً الهياً لاقامة تحالف دائم بين انجلترا وفلسطين اليهودية (واليهودية فقط)، (يرى أعضاء الجماعات الوظيفية أن عزلتهم علامة من علامات الاختيار الإلهي ومن علامات تميّزهم على العالمين). واصرار جابوتنسكي على صفة اليهودية هو اصرار على العزلة، فالعزلة هي أساس الكفاءة الوظيفية. ففلسطين عربية ستدور في الفلك العربي (على حد قوله)، بل ستهدد المصالح الغربية (على حد قول نوردو)، ذلك لأن العرب عنصر مشكوك في ولائه. أما فلسطين اليهودية (الوظيفية) ذات التوجه الحضاري الغربي فستكون حليفاً موثوقاً به وسيشكل سكانها عنصراً موالياً للغرب بشكل دائم، فهو بسبب عزلته لا ينتمي للمنطقة (على حد قول جابوتنسكي ونوردو ووايزمان).

وقد قام الصهاينة بتهويد دوافع طرد العرب بطرق مختلفة. وتذهب العقيدة الصهيونية الى أنها تهدف الى توطين اليهود في دولة يهودية خالصة (ومن ثم طرد العرب) لأي سبب من الأسباب الآتية:

1 ـ ان تصبح الدولة مركزاً ثقافياً ليهود العالم.

2 ـ ان يحقق اليهود حلمهم الازلي بالعودة لوطنهم الاصلي.

3 ـ ان يتم تطبيع الشخصية اليهودية تحى يصبح اليهود أمة مثل كل الامم (ومن هنا المفاهيم العمالية المختلفة عن اقتحام العمل والحراسة والزراعة والانتاج).

4 ـ ان يؤسس اليهود دولة يمارسون من خلالها سيادتهم ومشاركتهم في صنع القرار والتاريخ.

وعلى كل صهيوني ان يختار الديباجات التي تلائمه. ولكن، مهما كانت الدوافع، فان الامر المهم هو ان تكون الدولة المزمع انشاؤها دولة يهودية خالصة ليس فيها عنصر غير يهودي بحيث أصبح حضور الدولة يعني غياب العرب (ومن ثم اصبح حضور العرب يؤدي الى غياب الدولة)، ومن هنا طرح كل من الاستعماريين غير اليهود والصهاينة اليهود شعار (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض). ولكن مثل هذه الارض لا توجد الا على سطح القمر (على حد قول حنه أرنت). ولذا، كان يتحتم على الاستعمار الصهيوني ان يستولي على قطعة أرض ثم يفرغها من سكانها عن طريق العنف. ولذا فطرد الفلسطينيين من أراضيهم جزء عضوي من الرؤية الاستيطانية الصهيونية، ولا تزال هذه هي السمة الاساسية للاستعمار الصهيوني في فلسطين، فهو استعمار استيطاني إحلالي، واحلاليته احدى مصادر خصوصيته بل تفرده، وهي في الواقع مصدر صهيونيته ويهوديته المزعمة.

وإخلاء فلسطين من كل سكانها أو معظمهم (على أقل تقدير) هو أحد ثوابت الفكر الصهيوني، وهو أمر منطقي ومفهوم إذ لو تم الاستيلاء على الارض مع بقاء سكانها عليها لأصبح من المستحيل تأسيس الدولة اليهودية، ولتم تأسيس دولة تمثل سكانها بغض النظر عن انتمائهم الديني او الاثني وتكتسب هويتها الاثنية الاساسية من الانتماء الاثني لأغلبية سكانها. ومثل هذه الدولة الاخيرة لا تعد تحقيقاً للحلم الصهيوني الذي يطمح الى تأسيس الدولة/الجيتو. ومن هنا، كان اختفاء العرب ضرورياً. والعنصرية الصهيونية ليست مسألة عرضية، ولا قضية انحلال خلقي او طغيان فرد او مجموعة من الافراد. وانما هي خاصية بنيوية لانه (لكي يتحقق الحلم الصهيوني) لابد ان يختفي السكان الاصليون، ولو لم يختفوا لما تحقق الحلم. ولهذا، نجد ان الصهاينة (كل الصهاينة، بغض النظر عن انتمائهم الديني او السياسي، وبغض النظر عن القيم الاخلاقية التي يؤمنون بها) يسهمون في البنية العنصرية وينمونها. فالمستوطن اليهودي الذي يصل الى فلسطين سوف يسهم ـ حتى لو كان حاملاً مشعل الحرية والاخاء والمساواة وملوحاً بأكثر الألوية الثورية حمرة ـ في اقتلاع الفلسطينيين من أرضهم وفي تشويه علاقتهم الاجتماعية والاقتصادية والحضارية، وسوف يعمل (شاء أم ابى) على تقوية مجتمع استيطاني مبني على الاغتصاب. وهذه مشكلة أخلاقية حقيقية تواجه الاسرائيليين الذين يرفضون الصهيونية، والمولودين على أرض فلسطين المحتلة.

ويؤكد كل هذا التوجه اسرائيل زانجويل إذ يقول: (إن أردنا أن نعطي بلداً الشعب بلا أرض، فمن الحماقة ان نسمح بأن يصبح في هذا الوطن شعب).

وقد كان بن جوريون مدركاً تماماً للفرق بين الاستعمار الاستيطاني والاستعمار الاحلالي. وفي إطار إدراكه هذا، اقترح على ديجول ان يتبنى الشكل الاحلالي من الاستعمار الاستيطاني حلاً للمشكلة الجزائرية، فتقوم فرنسا باخلاء المنطقة الساحلية من الجزائر من سكانها العرب، ليوطن فيها الاوروبيون وحدهم أو يقيموا فيها المستوطنات، ثم تعلن دولة مستقلة لسكانها حق تقرير المصير (وكان رد ديجول يتسم بالذكاء التاريخي إذ قال: (أتريدني ان اخلق اسرائيل أخرى؟). وقد أشار كارل كاوتسكي اشارة عابرة لتلك السمة المميزة والاساسية للاستعمار الاستيطاني الصهيوني في كلاسيكيته هل يشكل اليهود جنساً؟ كما تكهن بأن يعاني المستوطنون اليهود الكثير خلال النضال العربي من أجل الاستقلال، (ذلك لان الاستعمار اليهودي لفلسطين يدل على أنهم ينوون البقاء فيها، وعلى أنهم لا ينوون عدم استغلال السكان الاصليين فحسب بل طردهم نهائياً).

وثمة عناصر خاصة بالاستعمار الاستيطاني الاحلالي الصهيوني تضمن استمرار آليات الاحتكاك والتوتر بينه وبين السكان الاصليين وسكان المنطقة ككل. فمعظم التجارب الاحلالية الاخرى حلت مشكلتها السكانية (أي وجود سكان أصليين) بعدة طرق: التهجير أو الإبادة أو التزاوج مع عناصر السكان الاصليين، او بمركب من هذه العناصر. ولكن التجربة الاستيطانية الصهيونية تختلف عن معظم التجارب الإحلالية الأخرى فيما يلي:

1 ـ أنها بدأت في أواخر القرن التاسع عشر، أي في تاريخ متأخر نوعاً عن التجارب الأخرى.

2 ـ انها لم تتم في المناطق النائية عن العالم القديم (الامريكيتين وأستراليا ونيوزيلندا) وانما تمت في وسط المشرق العربي، في منطقة تضم كثافة بشرية لها امتداد تاريخي طويل وتقاليد حضارية راسخة وامتداد بشري وحضاري يقع خارج حدود فلسطين.

ولكل هذا، فان حل التهجير صعب الى حد ما، كما ان حل الابادة يكاد يكون مستحيلاً. والتزاوج أمر غير مطروح اصلاً، وهو ما يجعل المسألة الفلسطينية (السكانية والتاريخية) مستعصية على الحل الاستعماري التقليدي الذي مورس في مناطق أخرى في مراحل تاريخية سابقة، ولذا

فان من المتوقع استمرار التوتر والعزلة والشراسة.

والتعرف على الجذور الحضارية الاستعمارية الاستيطاني الاحلالي له أهميته، إذ يبدو ان النوع الاستيطاني (غير الاحلالي) في الجزائر وأنجولا قد نشأ في الدول الكاثوليكية بينما تعود جذور النوع الاحلالي في جنوب أفريقيا والولايات المتحدة الى الدول البروتستانتية ذات النوع الحلولي. فالحلولية الكونية تؤدي الى حلول المطلق في النسبي وكمونه فيه بل توحده به، ولذا يتوحد الدال والمدلول وتسد كل الثغرات، وهو ما يؤدي الى انتشار التفسيرات الحرفية للعهد القديم والتي تخلق حالة عقلية تسهل عملية نقل السكان وتجعلها أمراً طبيعياً، فالأوامر المقدسة الحرفية بتدمير الكنعانيين قد جاءت من عل ولا يمكن تفسيرها الا بشكل حرفي. كما أن معظم ديباجات الاستعمار الاستيطاني والاستعمار الاستيطاني الاحلالي مستمدة من العهد القديم.

والكنيسة القومية هي عادةً كنيسة حلولية، إذ انها موضع الحلول وكل عضو فيها وكل مؤمن بعقيدتها هو عضو في جماعة مقدسة ـ جماعة من الانبياء أو أشباه الانبياء. وهي، لهذا السبب، كنيسة مقتصرة على مجموعة بشرية يجمعها انتماء الثني او عرقي واحد (كما هو الحال مع الكنيسة الهولندية الاصلاحية في جنوب افريقيا التي لا تسمح للسود بالانضمام اليها). ومثل هذه الكنيسة تضفي قدراً من القداسة على الافعال التي يأتيها اعضاؤها، وتقدم التبريرات الدينية التي تكون عادةً ذات طابع انجيلي مقدس. فتسوغ عمليات الطرد باعتبار ان الآخر يقع خارج نطاق القداسة. اما الكنيسة الكاثوليكية، فقد حاصرت الحلول الإلهي، وهي تؤمن بالتفسيرات الرمزية والروحية بحيث تفسر اوامر الطرد والابادة تفسيراً رمزياً، الامر الذي يخلق مجالاً للحوار مع النص المقدس. وهي ايضاً كنيسة عالمية، أي كنيسة تفتح أبوابها لأي إنسان، فهي تمنح المؤمن (سواء كان من المستوطنين او كان من السكان الاصليين) حقوقاً معينة بغض النظر عن انتمائه القومي او العنصري، وهو ما يجعل تبني المستوطنين الذين يتبعون الكنيسة العالمية الرؤية الحلولية للكون والنمط الاحلالي من الاستعمار امراً صعباً.

وكان هرتزل يدرك تماماً الاعتراض الكاثوليكي على مشروعه، ولكنه كان يعتقد أن هذا الموقف قد نجم عن المنافسة المستمرة بين كنيستين او ديانتين عالميتين (اليهودية والكاثوليكية) تتنازعان القدس (باعتبارها قاعدة أرشميدس)، وهو تفسير ينم عن عدم الفهم وعن عدم ادراك لطبيعة اليهودية. ومهما يكن الامر، فيبدو ان هناك نوعاً من العلاقة الاساسية التي تستحق المزيد من الدراسة بين الشكل المحدد الذي تتخذه مختلف

الجيوب الاستيطانية، وبين جذورها الحضارية. ولعل أطروحة عالم الاجتماع الألماني، ماكس فيبر، بشأن علاقة الرأسمالية بالبروتستانتية، قد تساعد بعض الشيء في هذا المضمار، شريطة ان يضع الدارس في الاعتبار الاطروحات الخاصة بالحلولية والاحلالية والعلاقة بينها.

ويعد قانون العودة التعبير القانوني الواضح عن طبيعة الاستعمار الاستيطاني الاحلالي. ولكن يبدو ان الاستعمار الصهيوني بدأ يفقد شيئاً من طبيعته الاحلالية بعد عام 1967، ويكتسب بدلاً من ذلك شكلاً مماثلاً للاستعمار الاستيطاني في جنوب أفريقيا القائم على التفرقة اللونية والذي يقوم على استغلال الارض والسكان معاً. ولكن، تجب الاشارة الى ان ثمة رفضاً عميقاً لهذا التحول بين بعض الصهاينة، لانه يعني ان الدولة الصهيونية ستفقد هويتها الخالصة. ولكن لم تحل اتفاقية أوسلو أياً من الاشكاليات الاساسية للاستعمار الاستيطاني الاحلالي الصهيوني.

حتمية طرد الفلسطينيين ونقلهم (ترانسفير)

يهدف المخطط الصهيوني (شأنه شأن أي مشروع استيطاني احلالي) الى طرد وترحيل السكان الاصليين الذين يشغلون الارض التي سيقام فيها التجمع الصهيوني. وهذا امر حتمي حتى يتسنى اقامة دولة يهودية خالصة لا تشوبها أية شوائب عرقية او حضارية أخرى. ولذا طرح شعار (أرض بلا شعب). وهو ما يجعل طرد الفلسطينيين أمراً حتمياً نابعاً من منطق الصهيوني الداخلي.

وقد كتب هرتزل في يومياته عن الطرق والوسائل المختلفة لنزع ملكية الفقراء، ونقلهم، واستخدام السكان الاصليين في نقل الثعابين وما شابه ذلك، ثم إعطائهم وظائف في دول أخرى يقيمون فيها بصفة مؤقتة. وحينما كتب هرتزل لجوزيف تشامبرلين (وزير المستعمرات البريطاني) عن قبرص، بوصفها موقعاً ممكناً آخر للاستيطاني الصهيوني، لم يتردد في ان يرسم له الخطوط العريضة لطريقة إخلائها من السكان: (سيرحل المسلمون، اما اليونانيون فسيبيعون أرضهم بكل سرور نظير ثمن مرتفع ثم يهاجرون اما الى اليونان او الى كريت).

كما نجد ان اسرائيل زانجويل، المفكر الصهيوني البريطاني، يؤكد في كتاباته الاولى ضرورة طرد العرب وترحيلهم، فيقول: (يجب الا يسمح للعرب أن يحولوا دون تحقيق المشروع الصهيوني ولذا لابد من اقناعهم بالهجرة الجماعية... اليست لهم بلاد العرب كلها... ليس ثمة من سبب خاص يحمل العرب على التشبث بهذه الكيلومترات القليلة... فهم بدو رحل يطوون خيامهم وينسلون في صمت وينتقلون من مكان لآخر).

وذكر جوزيف واينز، مسئول الاستيطان في الوكالة اليهودية، في عدد 29 سبتمبر 1967 من جريدة دافار، انه، هو وغيره من الزعماء الصهاينة، قد توصلوا الى نتيجة مفادها انه (لا يوجد مكان لكلا الشعبين (العربي واليهودي) في هذا البلد) وان تحقيق الاهداف الصهيونية يتطلب تفريغ فلسطين، او جزء منها، من سكانها، وانه ينبغي لذلك نقل العرب، كل العرب، الى الدول المجاورة. وبعد اتمام عملية نقل السكان هذه ستتمكن فلسطين من استيعاب الملايين من اليهود.

وكان جابوتنسكي بطبيعة الحال من مؤيدي هذا المخطط، فأعد حيلة جديرة بعقله الصهيوني الصغير، إذ اقترح ان تعلن المنظمة الصهيونية العالمية معارضتها نزوح العرب عن فلسطين، وبذا تهدئ مخاوف العرب بشأن مخطط نقل السكان الاصليين، بل سيظن هؤلاء السكان، السذج، أن الصهاينة يريدون منهم البقاء حتى يتسنى لهم استغلالهم، ولذا فانهم سيحملون متاعهم ويرحلون. وهذه الخطة، أو الحيلة تتسم بالغباء اكثر مما تتسم بالخبث، فقد أثبت الفلاحون العرب انهم أقل جهلاً مما كان يتصور الزعيم الصهيوني، واكثر ارتياباً مما تعشم.

ويمكن القول بان جابوتنسكي (متطرف)، ولكن سنجد ان وايزمان كان من المطالبين بهذا. وقد نشرت مجلة الجويش كرونكيل، في 13 أغسطس 1937، وثيقة، وقعها وايزمان بالحروف الاولى من اسمه، تدل على ان الزعيم الصهيوني كان يرى ان نجاح مشروع التقسيم يتوقف على مدى اخلاص الحكومة البريطانية للتوصية الخاصة بنقل السكان. ولا يختلف آرثر روبين مدير دائرة الاستيطان الصهيوني كثيراً عن ذلك. فقد اقترح منذ مايو 1911 (ترحيلاً محدوداً) للفلاحين العرب الذين سيجردون من أملاكهم الى منطقتي حلب وحمص في شمال سوريا. كان تجريد المزارعين العرب وإجلاؤهم عن أراضيهم، كما كتب روبين بعد تسعة عشر عاماً، أمراً لا مفر منه، لان (الارض هي الشرط الحيوي لاستيطاننا فلسطين. لكن لما لم يكن ثمة أرض قابلة للزراعة إلا وهي مزروعة من قبل، فقد نجد اننا حيثما نشتري أرضاً ونسكنها لابد لزراعها الحاليين من ان يطردوا منها...).

ولم تكن خطة نقل المواطنين اليهود مقصورة على أولئك الذين استولوا الارض من أجل أغراض رأسمالية دنيئة، او لأسباب قومية عادية، بل كانت أيضاً خطة تبناها أولئك الذين استوطنوا فلسطين لكي يقيموا فيها مجتمعاً مثالياً قوامه المساواة. وقد أبدى بوروخوف، أبو اليسار الصهيوني، وعياً ملحوظاً بحقيقة ان الحل الصهيوني، الذي يتلخص في نقل اليهود وتوطينهم في أرض خاصة بهم، لا يمكن ان يتم (بدون نضال مرير وبدون

قسوة وظلم وبدون معاناة البريء والمذنب على السواء). وفي تحديد اطار تصوره لمستقبل المواطنين، قال ان المهاجرين اليهود سيقومون ببناء فلسطين، وان السكان الاصليين سيتم استيعابهم، في الوقت المناسب، من جانب اليهود من الناحيتين الاقتصادية والثقافية على السواء. (ان تاريخ الاستيطان الصهيوني سيكتب بالعرق والدموع والدم).

وقد وصف الكاتب الاسرائيلي موشي سميلانسكي ما تصوره اجتماعاً للرواد الصهاينة الاشتراكيين، في عام 1891، حيث تم توجيه بعض الاسئلة الخاصة بالعرب:

ـ (ان الارض في يهودا والخليل يحتلها العرب).

ـ (حسناً سنأخذها منهم).

ـ (كيف؟) (صمت).

ـ (ان الثوري لا يوجه اسئلة ساذجة).

ـ (حسناً، إذن، ايها الثوري، قل لنا كيف؟).

وجاءت الاجابة في شكل عبارات واضحة لا لبس فيها ولا ابهام: (ان الامر بسيط جداً. سنزعجهم بغارات متكررة حتى يرحلوا.. دعهم يذهبوا الى ما وراء الاردن). وعندما حاول صوت قلق ان يعرف ما اذا كانت هذه ستكون النهاية ام لا، جاءت الاجابة، مرة اخرى، محددة وقاطعة: (حالما يصبح لنا مستوطنة كبيرة هنا، سنستولي على الارض وسنصبح اقوياء وعندئذ سنولي الضفة الشرقية اهتمامنا وسنطردهم من هناك ايضاً، دعهم يعودوا الى الدول العربية).

ثمة رؤية احلالية صهيونية واضحة لها منطقها الواضح الحتمي، تحولت الى خطة لحل مشكلة الصهاينة الديموجرافية (التي تشبه مشكلة الانسان الابيض الديموجرافية في جميع الجيوب الاستيطانية) وهذه المشكلة عادة ما يطرح حل نهائي جذري لحلها، وقد تتأرجح بين حد أقصى (الترانسفير الكامل او الابادة الجسدية الكاملة) او حد أدنى، خلق أغلبية من العنصر السكاني الجديد. وبين سنتي 1937 و1948، صيغت وقدمت عدة خطط ترحيل صهيونية، منها: خطة سوسكين للترحيل القسري (سنة 1937)، وخطة فايتس للترحيل (ديسمبر 1937)، وخطة بونيه (يوليو 1938)، وخطة روبين (يونيه 1938)، وخطة الجزيرة (1938 ـ 1942)، وخطة إدوارد نورمان للترحيل الى العراق (1934 ـ 1948)، وخطة بن جوريون (1943 ـ 1948)، وخطة يوسف شخنمان للترحيل القسري (1948)، واثناء الفترة نفسها الفت ثلاثة لجان ترحيل، نيطت بها مهمة مناقشة

وتصميم الطرق العملية لترويج خطط الترحيل: اللجنتان الاوليان ألفتهما الوكالة اليهودية (1937 ـ 1942)، اما اللجنة الثالثة فقد ألفتها الحكومة الاسرائيلية سنة 1948.

والثوابت واضحة والخطة ليست أقل وضوحاً، والآلية في مثل هذه التجارب الاستيطانية الاحلالية معروفة، فالبشر لا يتركون ارضهم هكذا، ولا يطوون خيامهم وينسلون من الارض ويختفون، كما كان يتمنى زانجويل، ولابد من استخدام القوة والعنف. ومع هذا لا تفتأ الدعاية الصهيونية تنفي عن نفسها تهمة العنف العسكري الموجه ضد العرب. بل ان بن جوريون بلغت به الجرأة ان يزعم ان كل مفكري الصهيونية العظماء لم يطرأ لهم على بال قط ان الحلم الصهيوني لا يمكن تحققه الا من خلال الانتصار العسكري على العرب. ولكن بن جوريون، بلا شك، قرأ رسالة هرتزل الى البارون دي هرش التي يحدثه فيها عن خطته لخلق البروليتاريا اليهودية المثقفة من قيادات وكوادر الجيش الصهيوني التي ستبحث وتكتشف ثم تستولي على الارض، أي الوطن القومي. ولا شك في انه سمع بخطاب زانجويل (في مانشستر في أبريل 1905) الذي قال للصهاينة فيه: (لابد ان نعد انفسنا لاخراج القبائل (العربية) بقوة السيف كما فعل آباؤنا، او أن نكابد مشقة وجود سكان أجانب كثر، معظمهم من المحمديين) (أي المسلمين). ولابد أنه قرأ ما كتبه اهرون اهرونسون عن ضرورة (اخراج المزارعين العرب بالقوة). وبعد وفاة هرتزل، واصل صديقه نوردو الدفاع عن العنف العسكري، فاقترح تعبئة جيش ضخم، قوامه 600.000 يهودي للذهاب الى فلسطين حتى يفرض نفسه، بوصفه أغلبية سكانية على الفلسطينيين. وقد كان الزعيم الصهيوني العمالي جوزيف ترومبلدور اكثر تواضعاً، إذ اقترح تكوين جيش قوامه 100.000 فحسب.

اما جابوتنسكي، الوريث الحقيقي لفكر هرتزل، فقد رسم خطة لخلق أغلبية يهودية فورية في فلسطين، وسماها (مشروع نوردو). وعندما حذر أحد الصهاينة الالمان من نشوب حرب شاملة مع العرب، سخر جابوتنسكي منه، ثم ضرب امثلة استقاها من تاريخ الاستعمار الغربي في أفريقيا وآسيا: (ان التاريخ يعلمنا ان كل المستعمرين قوبلوا بقليل من التشجيع من جانب السكان الاصليين.. وقد يكون ذلك مدعاة للحزن. ونحن اليهود لن نشذ عن القاعدة). وفي خطابه امام اللجنة الملكية لفلسطين، عام 1937، قال جابوتنسكي: (ان أمة كأمتكم، عريقة في تجربتها الاستعمارية العملاقة، تعرف بكل تأكيد ان المشروع الاستعماري لم ينجح دون نزاعات مع السكان... (ولذا يجب) المساح لليهود باقامة

حرس خاص بهم، مثل الاوربيين في كينيا). وبعد عام من ذلك التاريخ، وخلال اجتماع فرع منظمة بيتار في بولندا ـ وهي منظمة عسكرية صهيونية ـ لعب مناحم بيجين، تلميذ جابوتنسكي المخلص، دوراً مؤثراً وفعالاً في تغيير يمين الولاء ليتضمن قسماً بالاستيلاء على الوطن اليهودي بقوة السلاح. وقد تولى بيجين زعامة المنظمة عام 1939.

ومن المعروف انه مع بداية هذا القرن كان الشباب، من عمال صهيون الذين استوطنوا فلسطين يسيرون مسلحين بعصي كبيرة وبعضهم يسير حاملاً مدى ومسدسات. وفي عام 1907 تأسست منظمة عسكرية صهيونية سرية شعارها (لقد سقطت يهودا بالدم والنار وستنهض بالطريقة نفسها). وقد تحول اسم هذه المنظمة عام 1909 الى منظمة الهاجاناه. وقد أسقطت الهاجاناه وهي الذراع العسكري للوكالة اليهودية، وللمنظمة الصهيونية العالمية، الشعار الارهابي آنف الذكر. ولكن الارجون (أو هاجاناه بيت)، التي كان يترأسها مناحم بيجين، احتفظت به. وقد اتخذت الارجون ـ رمزاً لها ـ يداً تمسك بندقية فوق خريطة فلسطين وشرق الاردن، ايضاً، نقشت تحته هذه الكلمات: (هكذا فقط)، وفي سنة 1948 اندمجت كل من الهاجاناه، والارجون لتكونا جيش الدفاع الاسرائيلي. ومن المستحيل ان يكون كل هذا قد فات على بن جوريون، وقد كان واحداً من أهم المخططين الاساسيين في مخطط الاستيطان والتوسع الصهيوني.

وخلال السنوات الاولى للاستيطان الصهيوني تم تحصين المستوطنات التعاونية الزراعية بمعدات بدائية، تحولت فيما بعد الى التاكتيك المسمى (البرج والسور). وبعد عام 1948 اصبحت اسرائيل كلها (الدولة القلعة) أو (الجيتو المسلح). وقد تنبأ جابوتنسكي بهذا الوضع حينما قال ان (سوراً حديدياً من القوات المسلحة اليهودية سيقوم بالدفاع عن عملية الاستيطان الصهيوني). وبعد انشاء الدولة الصهيونية، اصبح الحديث عن نقل (ترانسفير) العرب خافتاً ولكنه لم ينته قط، إذ لا تزال مشكلة اسرائيل السكانية قائمة، وخصوصاً أن المصادر البشرية للهجرة الاستيطانية آخذة في الجفاف.

طرد ونقل (ترانسفير) الفلسطينيين

ان إفراغ فلسطين من سكانها هو هدف صهيوني، وضرورة يحتمها منطق الاسطورة والعنف الادراكي الصهيوني. ولكي يحقق الصهاينة مخططهم تبنوا تكتيكات مختلفة، فلم يكن العنف المسلح الوسيلة الوحيدة، وانما استخدموا وسائل أخرى ايضاً. وقد اتهم عالم الاجتماع البولندي اليهودي،

لودفيج جومبلوفيتش، هرتزل بالسذاجة السياسية، ثم طرح عليه سؤالاً بلاغياً: (هل تريد ان تؤسس دولة بدون عنف مسلح او مكر؟ هكذا... بالتقسيط المريح؟). ومن المؤكد ان العنف المسلح والمكر هما الاداتان اللتان استخدمهما الصهاينة. ويتمثل المكر في نشر الذعر والارهاب بين العرب، اما العنف فيتمثل في تعريضهم للارهاب الفعلي. ويمكن القول بأن الارهاب الصرحي ضد الفلسطينيين قد استخدم قبل 1948، ثم خلال فترة الحرب كلها، اما نشر الرعب بين السكان، أي الحرب النفسية، فقد تصاعدت حدتها في المرحلة الاخيرة. وليس لهذا التمييز بين العنف المسلح والمكر أية اهمية، الا من الناحية التحليلية البحتة، حيث ان الاسلوبين متداخلان، بل إنهما، في الواقع، مجرد عنصرين في مخطط واحد متكامل. ففي حالة مذبحة دير ياسين، على سبيل المثال، حرص الصهاينة حرصاً شديداً على اطلاع جميع الفلسطينيين على الحادث، ليقوموا من خلاله بغرس الخوف والهلع في القلوب.

وكان أكثر أساليب الحرب النفسية شيوعاً هو اسلوب استخدام مكبرات الصوت والاذاعات لخلق جو من الذعر بين سكان قضي على قيادتهم اثناء الثورات المتكررة السابقة، ولا سيما بعد قمع ثورة عام 1936 ضد الاحتلال البريطاني. وعلى سبيل المثال، فقد حذر راديو الهاجاناه العرب، يوم 19 فبراير عام 1948، من ان الزعماء العرب سيتجاهلون أمرهم. وفي الساعة السادسة من سماء يوم 10 مارس اذاع الراديو ان (الدول العربية تتآمر مع بريطانيا ضد الفلسطينيين). وفي الساعة السادسة من مساء يوم 14 مارس عام 1948 أذاع الراديو (ان سكان يافا في حالة ذعر كبيرة، الى درجة انهم ظلوا داخل منازلهم). واشار الكاتب اليهودي هاري ليفين في مذكراته الى البيان، الذي كان قد سمعه يوم 15 مايو أثناء اذاعته من عربات مكبرات الصوت الصهيونية باللغة العربية، والذي كان يحث العرب على (مغادرة الحي قبل الساعة الخامسة والربع صباحاً)، ثم نصحهم بقوله: (ارحموا زوجاتكم واطفالكم، واخرجوا من حمام الدم هذا... اخرجوا من طريق اريحا، الذي ما زال مفتوحاً. وان مكثتم هنا، فانكم بذلك ستجلبون على انفسكم الكارثة)، وقد تجولت ايضاً مكبرات الصوت التابعة للهاجاناه في ميع انحاء حيفا، تهدد الناس، وتحثهم على الفرار مع اسرهم (وذلك وفقاً لما جاء في كتاب المؤلف الصهيوني جون كيمشي الاعمدة السبعة المنهارة).

إن الإشارات المتكررة الى الكوارث المتوقعة والانهيار الوشيك هي من الموضوعات الاساسية التي ركزت عليها إذاعة الهاجاناه، ومكبرات الصوت التابعة لها، في المناطق الآهلة بالسكان العرب. وثمة موضوع

آخر تكرر في الحرب النفسية التي شنها المستعمرون الاستيطانيون، هو خطر انتشار الأوبئة الوشيك. ففي الساعة السابعة والنصف مساء يوم 20 مارس 1948 بدأت الاذاعة الصهيونية في اذاعة بيان باللغة العربية جاء فيه: (هل تعلمون انه يعتبر واجباً مقدساً عليكم ان تطعموا انفسكم على وجه السرعة ضد الكوليرا والتيفوس وما شابه ذلك من الامراض، حيث ان من المتوقع انتشار مثل هذه الامراض في شهري أبريل ومايو بين العرب في التجمعات الحضرية). وقد تم استخدام الموضوع نفسه يوم 18 فبراير عام 1948، عندما أكدت السلطات الصهيونية، عن طريق الراديو، ان المتطوعين العرب (يحملون وباء الجدري)، واضافت تقول، يوم 27 فبراير، ان (الاطباء الفلسطينيين قد أخذوا يفرون).

ويقدم إيجال آلون، وزير الخارجية الاسرائيلية السابق، تقريراً في كتاب البالماخ عن مساهمته في تكتيكات الارهاب: (جمعت جميع العمد اليهود، الذين لهم صلة بالعرب في مختلف القرى، وطلبت منهم ان يهمسوا في أذن بعض العرب بأن قوة عسكرية يهودية كبيرة وصلت الى منطقة الجليل، وانها ستحرق سائر القرى منطقة الحولة. وينبغي عليهم ان يقترحوا على هؤلاء العرب، بصفتهم اصدقاء لهم، الهرب حيث ما زال هناك وقت لتنفيذ ذلك). وشرح آلون كلامه بقوله: (وانتشرت الشائعة في جميع مناطق الحولة بان الوقت قد حان للفرار، وبلغ عدد الهاربين آلافاً لا تحصى. وبذلك حقق التكتيك هدفه تماماً... وتم تنظيف المناطق الواسعة). وكلمة (تنظيف) مناسبة جداً للتعبير عما يدور في ذهن الاستعماري الاستيطاني الاحلالي الذي لم يرد الارض فحسب، وانما أراد تفريغها من سكانها. (وهي الكلمة نفسها التي استخدمها الصرب في حديثهم عن ابادة اهل البوسنة من المسلمين).

هذا عن أساليب الحرب النفسية، او أساليب المكر التي اتبعها الصهاينة، وهي، بلا شك اساليب كانت مبتكرة. ولكن الملاحظ الموضوعي لا يملك الا ان يشهد بأن العقل الصهيوني بمقدرته اللامتناهية على الابداع في مجال العنف المسلح او الارهاب، قد طور وجدد في مجال العنف المباشر، اكثر من تجديده في مجال المكر والحرب النفسية.

ولعل من أهم الشخصيات في مجال العنف المسلح الصهيوني غير اليهودي تشارلز أورد وينجيت (1903 ـ 1944) الضابط البريطاني، المولود في الهند، لعائلة ذات تاريخ طويل في الارساليات المسيحية. وتذهب سيرة وينجيت الى انه بعد انضمامه للجيش في سن العشرين ارسل عام 1927 الى السودان حيث بقي حتى عام 1933، وتعلم اثناء ذلك اللغة العربية ولكنه لم يستطع قط التغلب على كراهيته العميقة

للاسلام والقرآن، وكان جده مبشراً. وفي عام 1936، نقل الى فلسطين كضابط مخابرات، لدراسة الموقف السياسي والعسكري، وهناك ظهر حماسه الشديد للصهيونية، ولكنه كان كمعظم الصهاينة غير اليهود ممن يفسرون احداث العهد القديم تفسيراً حرفياً عسكرياً كأنها حدثت بالامس (على حد قول بن جوريون). وقد اشرف على تنظيم وتدريب الفرق الليلية الخاصة التابعة للهاجاناه وكانت له دراية خاصة بأساليب التعذيب وحصل لقاء ذلك على وسام الخدمة المتميزة البريطاني. كما ساهم في تطوير عمل المخابرات الصهيونية حيث أمد مصلحة المعلومات ببيانات وافية عن أوضاع الفلسطينيين وأبرز قياداتهم المناهضة للاستيطان الصهيوني والاحتلال البريطاني. وقام وينجت بدور مهم في تطوير الاساليب التي استخدمها الصهاينة في حملاتهم الارهابية ضد الفلاحين الفلسطينيين، وقد تركت أساليبه غير التقليدية بصمات واضحة على العمل العسكري الصهيوني فيما بعد. وبلغ اعتناقه الصهيونية درجة إعرابه عن ضيقه لعدم اتخاذ الحركة الصهيونية مواقف اكثر تحقيقاً لاهدافها، ولهذا أطلق عليه الصهاينة اسم (الصديق) او (لورانس يهودا).

وفي ربيع 1938، ادلى وينجيت بشهادة امام لجنة ودهيد في القدس فذكر ان أي تقدم قام به العرب في فلسطين انما يرجع لليهود، وان دولة صهيونية صناعية حديثة تحت الحماية البريطانية سوف تحمي الوجود البريطاني في المنطقة، وستمثل خير أمل للعالم الغربي. وقد نقل وينجيت من فلسطين عام 1939، وعند عودته الى بلاده التقى بعدد من كبار القادة العسكريين البريطانيين وعبر لهم عن رأيه بأن الطريقة الوحيدة أمام بريطانيا لاستعادة السلام في فلسطين هي ان تتبنى سياسة مماثلة للصهيونية. ومع نشوب الحرب العالمية الثانية.

ويمكننا ان نذكر بعض مساهماته في تدعيم تقاليد الارهاب الصهيوني وتطويرها بما يتفق مع خصوصية الموقف في فلسطين. وقد نجح وينجيت في الحصول على موافقة القيادة البريطانية على تشكيل الفرقة الليلية، التي كان الهدف منها هجومياً وليس دفاعياً. فبدلاً من انتظار الهجوم العربي، طالب وينجيت بان يقوم المستوطنون بتشكيل وحدات متحركة ليقوموا بالبحث عن العدو في أرضه خلال ظلمة الليل. والافتراضات هنا غريبة بعض الشيء، إذ تفترض ان الفلاحين الفلسطينيين، داخل فلسطين نفسها، يمكن ان يكونوا في حالة (هجوم) في أي وقت من الاوقات. فطالما ظلوا في فلسطين، فهم في حالة دفاع مشروع عن النفس. ولكن اذا ما عدنا للتصورات الصهيونية والاسترجاعية فاننا سنجد ان الاغيار الذين يقطنون فلسطين هم (معتدون)، بالضرورة فأصحاب الارض

الحقيقيون والدائمون هم اليهود. وقد اعترض بعض اعضاء الهاجاناه على خطط وينجيت خشية ان يؤدي الموقف الهجومي المقترح الى زيادة حدة توتر العلاقات بين المستوطنين الصهاينة وجيرانهم العرب. بيد ان وينجيت اصر على موقفه، وتم تشكيل الفرقة الليلية.

وكانت العمليات العسكرية تبدأ عادة بأن يطلق وينجيت بعض العيارات النارية على احدى القرى العربية، فسيستفز العرب بذلك ويردون بوابل من الطلقات النارية. وحينما يتجمع العرب بحثاً عن المهاجمين، يتم حصارهم بسرعة. وفي احدى الغارات قتل الصهاينة، تحت قيادة وينجيت، خمسة من تسعة من العرب الذين ذهبوا يبحثون عن المهاجمين، واسر الاربعة الآخرون. وقام وينجيت بتهنئة اعضاء فرقته في (هدوء وسكون)، ثم بدأ التحقيق مع العرب بشأن أسلحتهم المخبأة. وعندما رفض العرب الادلاء بأية معلومات عنها، انحنى وينجيت وتناول حفنة من الرمال والزلط من الارض وارغم اول عربي على مضغها ودفع بها في حنجرته حتى كادت ان تخنقه (وتزهق روحه). ولكن العرب مع هذا لم يستسلموا. وهنا انتهج الصهيوني غير اليهودي اسلوباً آخر، إذ التفت الى أحد اليهود وأشار الى العربي قائلاً: (أطلق الرصاص على هذا الرجل). فتردد اليهودي، في بادئ الامر، ولكن وينجيت قال: في صوت يشوبه التوتر (الم تسمع؟ أطلق الرصاص عليه). فقام المستوطن الصهيوني ـ ممتثلاً ـ باطلاق الرصاص على العربي، واضطر المسجونون العرب الآخرون الى ان يتكلموا في النهاية. وقد اشار الجنرال دايان في مذكراته الى ان الكثير من الرجال الذين كانوا يعملون مع وينجيت (قد أصبحوا ضباطاً في الجيش الاسرائيلي، الذي حارب العرب وهزمهم). وأوضح ديان ان الذين استفادوا من معرفة وينجيت وتكتيكاته لم يكونوا مساعديه المباشرين فقط بل ان كل قائد في الجيش الاسرائيلي حتى اليوم هو تلميذ من تلاميذ وينجيت: (لقد أعطانا التكتيك الذي نسير عليه اليوم، وكان هو الالهام الذي نستوحي منه تكتيكاتنا، لقد كان ـ بالنسبة لنا ـ الديناميكية التي تعطينا القوة).

استفادت قوات الغزو الصهيونية من فكر وينجيت الارهابي العسكري قبل 1948 وبعدها (فكرة الضربة المجهضة على سبيل المثال)، ولكن ما يهمنا هنا هو الغارات الليلية التي كانت تشنها الهاجاناه والبالماخ عام 1948. فقد أشار ديان الى ان الهاجاناه والبالماخ كانتا تشنان هذا النوع من الغارات خلال عام 1948. وكما أشار المؤرخ اليهودي أرييه يتشاكي فان التكتيكات كانت شديد البساطة: (هجوم على قرية العدو، ثم تدمير أكبر عدد ممكن من المنازل). وكانت النتائج بسيطة بالمثل: (مصرع عدد كبير

من المسنين والنساء والاطفال في أي مكان تواجه فيه القوة التي تشن الهجوم أية مقاومة).

ولكن الهاجاناه أدخلت، على ما يبدو، بعض التحسينات المهمة على تكتيكاتها، ولا سيما في نهاية عهد الانتداب. ففي الهجوم على القرى العربية كان رجال الهاجاناه يضعون، أولاً، وبهدوء، شحنات متفجرة حول المنازل المبنية من الحجارة، ويبللون اطارات النوافذ والأبواب بالبنزين. وبمجرد أن يتم تنفيذ هذه الخطوة، يفتحون نيرانهم، في الوقت الذي يبدأ انفجار الديناميت، فيحترق السكان النائمون حتى الوت. (لمزيد من التفاصيل انظر الفصلين الثاني والثالث عشر).

وقد علق حاييم وايزمان على نتائج الارهاب والمكر الصهيونيين قائلاً: إن خروج العرب بشكل جماعي كان تبسيطاً لمهمة اسرائيل ونجاحاً مزدوجاً: انتصار اقليمي، وحل ديموجرافي نهائي. إن الأرض، بعد تفريغها من سكانها، أصبحت بلا شعب حتى يأتي الشعب الذي لا أرض له.

المضمون الصهيوني للمارسات الاسرائيلية العنصرية

تعاونت أجنحة الصهيونية كافة في مرحلة ما قبل 1948 على انجاز العنصر المتضمن في الصيغة الصهيونية الاساسية، أي التخلص من السكان الاصليين وتغييبهم. وثمة ادبيات ثرية في هذا الموضوع توثق النية الصهيونية المبيتة لطرد العرب، وتبين الطرق المختلفة التي لجأت اليها قوات المستوطنين لطرد الفلسطينيين (ولسحق مقاومتهم سواء قبل 1948 او بعدها او قبل الانتفاضة او بعدها). وقد علق حاييم وايزمان بأن خروج العرب بشكل جماعي كان تبسيطاً لمهمة اسرائيل ونجاحاً مزدوجاً: انتصاراً اقليمياً وحلاً ديموجرافياً نهائياً، بمعنى ان الارض تم الاستيلاء عليها وتم تفريغها من سكانها حتى يتسنى للشعب الذي لا أرض له ان يهاجر اليها ويستوطنها.

ولكن وايزمان كان مخطئاً في نبوءاته متعجلاً فيها، فالأرض لم يتم تفريغها تماماً من سكانها، فقد بقيت أقلية من العرب آخذة في التزايد. وقد لجأت دولة المستوطنين الصهاينة الى اتخاذ اجراءات قانونية للضرب على يد هذه الاقلية العربية وتكبيلها. ولم يكن ذلك أمراً عسيراً إذ انها ورثت فيما ورثت خاصية اليهودية باعتبارها خاصية رئيسية ومحورية تسم اليهود الذين تقوم على خدمتهم مجموعة من المؤسسات الاستيطانية المقصورة عليهم. وبصدور قانون العودة في يوليه 1950، تحولت خاصية اليهودية هذه الى مقولة قانونية تمنح صاحبها حقاً تنكره على غير اليهود. ويمنح هذا القانون بشكل آلي جميع اليهود في العالم حق الهجرة الى

فلسطين والاستيطان فيها. وقد جاء في القانون أن من حق كل يهودي ان يأتي الى اسرائيل كمهاجر، وان تمنح تأشيرة لكل يهودي يعرب عن رغبته في الاستقرار في اسرائيل. وهكذا اصبح من حق أي يهودي، حتى وان لم تطأ قدماه أرض فلسطين من قبل أن يستقر في إسرائيل، بينما الفلسطيني الذي ولد ونشأ في فلسطين ويريد العودة الى وطنه لا يتمتع بهذا الحق وتحرم عليه العودة.

ويستند القانون الى المفهوم الصهيوني الفريد الخاص باليهودي الخالص أو المطلق صاحب الحقوق المطلقة في أرض فلسطين، والى مفهوم الشعب اليهودي الواحد. وقد أكد بن جوريون المضمون الايديولوجي للقانون بقوله: ان الدولة لا تنوي من وراء هذا المشروع ان تمنح اليهود حق المجيء الى اسرائيل حيث ان هذا الحق متوارث، وانما يهدف القانون الى تحديد طابع الدولة الصهيونية الفريد وهدفها الذي لا يقل تفرداً. فهذه الدولة تختلف عن بقية دول العالم من حيث عناصر قيامها واهدافها. فسلطتها قد تكون محصورة في سكانها ولكن أبوابها مفتوحة لكل يهودي أينما كان، أي انها دولة الشعب اليهودي بأسره. وقد قارن كثير من الكتاب اليهود قانون العودة بالقوانين النازية، فهو يميز بين الافراد على اساس ديني او عرقي.

ثم قدم الى الكنيست قانون الجنسية (باعتباره قانوناً مكملاً لقانون العودة)، وتمت الموافقة عليه هو الآخر عام 1952. وهذا القانون تجسيد للنزعة الاستيطانية الاحلالية الصهيونية التي تعبر عن نفسها من خلال قبولها ازدواج جنسية اليهود وجعلها مسألة صعبة بالنسبة الى السكان الاصليين إذ عليهم ان يتقدموا بطلب للحصول عليها. وهذا القانون ينطلق، مثل سابقه، من مفهوم وحدة الشعب اليهودي، وهو شعب موزع في جميع أقطار العالم. ولذا، فقد نص القانون على ان الحصول على الجنسية الاسرائيلية لا يتوقف على التنازل عن جنسية سابقة.

هذا هو الجانب الذي يخص المستوطنين. اما بالنسبة الى العربي، فقد نص القانون على منح الجنسية الاسرائيلية للمقيمين من غير اليهود وكانوا مواطنين فلسطينيين ومسجلين بموجب مرسوم تسجيل السكان الصادر عام 1949. ولكن، وبينما يعطي هذا القانون الجنسية بشكل آلي للمهاجر الصهيوني، فانه يلزم الفلسطيني وحده باتباع اجراءات التجنس الشائكة.

ولابد، لكي نفهم وضع العرب في فلسطين، من النظر الى قانوني العودة والجنسية في علاقتهما بالقوانين المتعسفة الاخرى التي تحكم حياة العرب اليومية. فهذه القوانين تطبق اسماً على جميع مواطني اسرائيل،

ولكنها فعلاً تطبق على غير اليهود وحسب. وأهم هذه القوانين ما يعرف باسم (قانون وأنظمة الطوارئ) التي اصدرتها سلطات الاحتلال الانجليزية في عام 1936 ثم أضيفت اليها نصوص جديدة عام 1945. وقد صادق الكنيست على تمديدها بعد اجراء بعض التعديلات، فأصبحت سارية المفعول في الدولة الصهيونية، وعمم تطبيقها على المناطق المحتلة بعد يونيه 1967.

وقد تم تكميل العنصر البشري الفلسطيني عن طريق هذه القوانين التي بدأت بقانون العودة وتحول خاصية اليهودية الى مقولة قانونية. بقي بعد ذلك الاستيلاء على الارض، وهنا نجد ان نقطة البدء هي دستور الصندوق القومي اليهودي الذي يستند ايضاً الى خاصية اليهودية كمقولة قانونية. والصندوق القومي اليهودي مؤسسة ضمن عدة مؤسسات صهيونية أخرى مقصورة على اليهود تحولت الى مؤسسات حكومية رسمية بعد إعلان الدولة، ولعله اهمها على الاطلاق. وقد كان الصندوق مؤسسة خاصة للمساعدات الذاتية ينص دستوره على انه شركة تحت سيطرة اليهود تهدف الى توطين اليهود على الاراضي التي يتم الحصول عليها، والتي يحق لليهود وحدهم استخدامها. ولا تنقل ملكية هذه الاراضي بالبيع أو بأية طرقة أخرى، فهي مملوكة ملكية خالصة للشعب اليهودي. ويقوم الصندوق بمنح التبرعات التي من شأنها ان تخدم مصلحة اليهود. ولا يمكن، علاوة على هذا كله، استئجار غير اليهود للعمل في هذه الاراضي. فالصندوق يشجع الاستعمار الزراعي القائم على العمل العبري. وقد تم تعريف اليهودي بأنه اليهودي بالمفهوم الديني او العرقي او بأنه يرجع الى أصل يهودي. وتجمع المصادر على ان حوالي 90% من اراضي فلسطين المحتلة عام 1948 تقع تحت سيطرة الصندوق. ويعاقب كل اسرائيل يقوم باستئجار العمال العرب بدفع غرامة لانتهاكه دستور الصندوق الذي ينص على ان من حق الصندوق ان يحرم المالك اليهودي من أرضه، دون دفع أي تعويض له اذا قام بانتهاك هذه المادة ثلاث مرات.

وكما قدر قانون العودة كقانون يجسد الفكرة الصهيونية وتبعته بعض القوانين التي تترجم المقولة الى اجراءات، فان (دستور) الصندوق القومي اليهودي قد تبعته عدة قوانين خاصة بالاراضي التي تهدف الى الاستيلاء عليها. يمنح (قانون) الهستدروت والوكالة اليهودية مزايا خاصة فقط للمواطنين اليهود. وهناك سلسلة من القوانين الاخرى تحصر الاستفادة من عدة مزايا اجتماعية فيمن ادوا الخدمة العسكرية وعائلاتهم (ومما هو معروف ان الخدمة العسكرية مقصورة على المستوطنين الصهاينة). ويمكن القول بأن قانون المناسبات الرسمية وأيام العطل ذات

مضمون إثني/ديني تميز ضد العرب، ولعل اهم هذه الاعياد هو إعلان استقلال اسرائيل الذي يسميه الفلسطينيون (النكبة).

ويلاحظ ان المحاكم في الخمسينيات والستينيات كانت وسيلة من الوسائل المستخدمة لسلب المواطنين العرب أراضيهم، ولم تقدم أية مساعدة للمتضررين من الحكم العسكري في تلك الفترة. ولا يزال نظام المحاكم الجنائية في غير مصلحة العرب، فلا وجود لمحامين عرب على أي من مستوياته، وهذا يعبر عن قلة عدد المحامين العرب، ولكنه أكثر ارتباطاً بالعقبات الامنية (كالحصول على تأشيرة او تصديق أمني) التي تعترض تعيين العرب في أي منصب من مناصب النظام القضائي. وغالباً ما تكون الاحكام جائزة ضد العرب.

والامر الذي يجدر تأكيده هو ان التمييز العنصري في اسرائيل ليس امراً ناجماً عن تعصب شخصي او انحراف فردي وانما هو امر نابع من القوانين الاسرائيلية نفسها ومن صهيونية الدولة، فمقولة (يهودي) هي مقولة قانونية أساسية. فقوانين التمييز والتفرقة العنصرية تشكل جزءاً عضوياً من الاطار القانوني للدولة الصهيونية. وهذه الخاصية بالذات هي ما يفصل بين التمييز العنصري الذي تمارسه الجيوب الاستيطانية، والتمييز العنصري في بقية أنحاء العالم. فالتمييز العنصري في الحالة الاولى يستند الى قوانين الدولة نفسها، بينما يمارس التمييز العنصري في كل البلاد الاخرى ضد ارادة القانون. وقد انعكست هذه القوانين على أحوال العرب في المناطق المحتلة قبل 1967 وبعدها في كثير من مجالات حياتهم.

وبطبيعة الحال تعبر العنصرية الصهيونية عن نفسها لا على المستوى الدستوري والقانوني وحسب وانما على مستوى الممارسة في المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية. وكما قال موشيه أرنس، قطب الليكود، ووزير الدفاع السابق: (هناك في دولة اسرائيل شيء يهودي خاص، فهل يتمكن العرب من الشعور بالانتماء الكامل له...؟) فهناك بالفعل مجموعة من الثوابت التي تحكم الحياة السياسية، وهي قواعد عرفية وغير مقننة، ولا تنسجم بأية صورة مع اسس الديموقراطية. فعلى سبيل المثال لا يعتبر امراً شرعياً إقامة ائتلاف حكومي تدخل فيه احزاب عربية، سن قوانين اعتماداً على أصوات غير يهودية في الكنيست.

ويقر سامي سمحا، وهو أكاديمي اسرائيلي يبحث في شئون الفلسطينيين في اسرائيل، بأن اسرائيل ليست ديموقراطية ليبرالية، ولكنها ديموقراطية من الدرجة الثالثة، ويفضل ان يطلق عليها عبارة

(ديموقراطية عرقية).

ونورد هنا بعض النقاط التي تظهر تردي احوال السكان العرب قياساً بالسكان اليهود:

1 ـ ان المخصصات المالية الحكومية للمجالس المحلية اليهودية تتخطى خمسة اضعاف مساهمة الحكومة لميزانية المجالس المحلية العربية.

2 ـ ان المخصصات المالية لاعالة الاطفال وقروض السكان ونفقات الدراسة الجامعية للطلاب ترتبط جميعها بالخدمة العسكرية التي تمنح اليهود، بصورة آلية، مزية على العرب.

3 ـ ان دعم الحكومة لتكلفة المياه التي يستهلكها المزارعون اليهود يناهز ما تمنحه للمزارعين العرب بمائة ضعف.

4 ـ يبلغ عدد الاكاديميين في الجامعات الاسرائيلية نحو خمسة آلاف أكاديمي، لا يوجد بينهم سوى عشرة من العرب، في وقت تبلغ فيه نسبة العرب من 15 ـ 20% من السكان.

5 ـ تتاح للمهاجرين اليهود القادمين حديثاً دروساً جامعية بلغاتهم الاصلية، بينما يجبر الطلاب العرب على الدراسة باللغة العبرية.

6 ـ ثمة عربي واحد من مجموع 2400 يحتلون مراكز ادارية في الشركات التي تملكها الحكومة.

وبصورة عامة يمكن القول بأن الوضع الاقتصادي للاقلية العربية في اسرائيل يختلف اختلافاً جذرياً عن الوضع الاقتصادي للمستوطنين الصهاينة، فالوجود الفعال للعرب في قطاعي الزراعة والصناعة محظور، فمن غير المسموح لهم التواجد في المؤسسات التعاونية الزراعية، كما أنهم لا يستطيعون العمل في أية شركة صناعية اسرائيلية لها علاقة بصناعة السلاح، كذلك لا يحق لهم الوجود في المنشأة الحكومة المهمة.

أما من ناحية الدخل، فهناك فرق كبير بين معدل دخل الاسرة اليهودية ومعدل دخل الاسرة العربية. حتى ان التقديرات لسنة 1983 تبين ان معدل دخل الفرد العربي هو 46% فقط قياساً بمعدل دخل الفرد اليهودي.

والتمييز ضد العرب قائم في مرافق الحياة الاسرائيلية كافة. ويكفي المقارنة بين الوضع التعليمي للعرب بالوضع التعليمي لليهود في اسرائيل. ففي سنة 1985، كانت نسبة من لا يذهب الى المدارس من السكان اليهود فوق سن 15 عاماً لا تتجاوز 5%، بينما بلغت هذه النسبة بين العرب اكثر من الضعف (13.6%). اما نسبة اليهود (فوق 14 عاماً)

الذين دخلوا الجامعات فكانت 22.2%، في حين كانت لدى العرب ثلث ذلك تقريباً (7.8%).

وأثار بعض العلماء من الصهاينة والمتعاطفين معهم كثيراً من الاعتراضات على وصف الصهيونية بالعنصرية، من أهم هذه الاعتراضات: كيف يمكن ان تكون الصهيونية حركة عنصرية اذا كان اليهود لا يعترفون بأنفسهم كعرق؟. وبالفعل، تجنح الاعتذاريات الصهيونية الآن نحو الابتعاد عن استخدام لفظة (عرق) ويشار بدلاً من ذلك الى (الإثنية اليهودية). والاعتراض المثار اعتراض لفظي محض، ولكن حتى لو أخذنا به فان من السهل دحضه. وقد أشرنا من قبل، اثناء حديثنا عن التعريف الصهيوني لليهودي، الى تطوره التاريخي من تعريف عرقي الى تعريف اثني والى الاسباب التي أدت الى ذلك (انظر: (الهويات اليهودية: التعاريف الصهيونية)). ويمكننا ان نضيف هنا ان ذلك لمن يكن تطوراً حقيقياً إذ ان كلمتي (عرق) و(إثنية) تكادان تكونان مترادفتين. وقد عرف معجم وبستر العالمي الجديد (بالانجليزية) كلمة (جنس) بالمعنى العرقي المحدد، ولكنه اورد كذلك معنى اكثر اتساعاً: (حالة كون الانسان عضواً في شعب او جماعة إثنية). وقد خصص كاتب مدخل (العلاقات العرقية) في الموسوعة البريطانية قسماً كاملاً من مقاله لمشكلة التعريف بدأه بقوله: (ان كلمة (عرق) نفسها من الصعب تعريفها)، واقترح ان نستغني تماماً عنها وان تحل محلها كلمة (جماعة إثنية) التي يمكن وصفها بأنها ذات (نمط جسدي موروث (أي عرقي) او حضارة قومية موروثة (أي اثنية) او خليط من كل هذه الصفات). وقد حاول اغناتز زولتشمان، باعتباره احد المفكرين الصهاينة، إثبات ان اليهود عرق، ولكنه كان مع هذا يتحدث عن اليهود كأمة من الدم الخالص احتفظت بأعظم الصفات الإثنية، أي ان الكلمتين حتى وان لم تكونا مترادفتين تماماً فإنهما وثيقتا الصلة الواحدة بالأخرى.

وعلى كل حال، مهما كان ما اصاب المجال الادلالي من اضطراب، ومهما اختلطت معاني الكلمات، فان كلمة (عنصرية) تظل مصطلحاً يشير الى نسق من القوانين والممارسات مبني على التفاوت، ويعمقه، ويمنح أفراد مجموعة بشرية بعينها عدداً من المزايا ينكرونها على سائر اعضاء المجتمع بسبب خاصية مقصورة على هؤلاء ولا يمتلكها الآخرون. وفي اسرائيل، فان هذه الخاصية هي (اليهودية) سواء عرفت تعريفاً عرقياً أو عرفت إثنياً علمانياً أو إثنياً دينياً. وانطلاقاً من هذا أصدرت هيئة الامم المتحدة (عام 1975) قرارها الذي يقضي بأن الصهيونية حركة عنصرية، وهو القرار الذي ألغته عام 1991 مع تغيير موازين القوى في العالم.

الفصل الثاني عشر
الارهاب الصهيوني قبل عام 1948

(الارهاب) بالمعنى الضيق للكلمة هو القيام باعمال عنف كالقتل والقاء المتفجرات او التخريب لتحقيق غرض ما مثل بث الرعب في قلب سكان منطقة ما ليرحلوا او لتتم الهيمنة عليهم وتوظيفهم واجبارهم على قبول وضع قائم مبني على الظلم (من منظور الضحية). ويمكن ان يتسع مفهوم الارهاب ليشمل مختلف الممارسات الاقتصادية السياسية والعسكرية، المادية والمعنوية. وفي حالة الارهاب الصهيوني فان هذا يتضمن سرقة الاراضي بالاحتيال والتزوير والقانون الى طرد اصحابها بقوة السلاح، ومن فرض أنظمة تعليمية تشوه الوعي الفلسطيني الى تحقيق شروط اقتصادية غير مواتية لنمو المنتجين العرب. وإذا كان الادراك الصهيوني للواقع والتاريخ (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) هو عنف إدراكي، فان الارهاب الصهيوني هو الممارسات التي تحول النظرية والادراك الى واقع قائم (وتخلق حقائق جديدة) على حد قول موشيه ديان، وسنتناول في مداخل هذا الباب الارهاب بالمعنى الضيق والمباشر.

والارهاب الصهيوني ليس حدثاً عابراً عرضياً وإنما هو أمر كامن في المشروع الصهيوني الاستيطاني الاحلالي وفي الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة. كما ان حلقات وآليات هذا الارهاب مترابطة متلاحقة، فالهجمات الارهابية التي شنت ضد بعض القرى العربية أدت الى استسلام بقية سكان الاراضي المحتلة، أي ان المذابح والاعتقالات والابعادات إن هي إلا آلية من آليات الاستيطان الصهيوني الاحلالي، ولا يمكن تخيل امكانية تحقق المشروع الصهيوني بدونها.

والارهاب الصهيوني هو الآلية التي تم بها تفريغ جزء من فلسطين من سكانها وفرض المستوطنين الصهاينة ودولتهم الصهيونية على شعب فلسطين وأرضها. وقد تم هذا من خلال الارهاب المباشر، غير المنظم وغير المؤسسي، الذي تقوم به المنظمات الارهابية غير الرسمية (المذابح ـ ميليشيات المستوطنين ـ التخريب ـ التمييز العنصري) والارهاب المباشر، المنظم والمؤسسي، الذي تقوم به الدولة الصهيونية (التهجير ـ الهيكل القانوني للدولة الصهيونية ـ التفرقة العنصرية من خلال القانون ـ

الجيش الاسرائيلي ـ الشرطة الاسرائيلية ـ هدم القرى).

ورغم أننا نفرق بين الارهاب المؤسسي وغير المؤسسي الا انهما مرتبطان تمام الارتباط ويتم التنسيق بينهما ويجمع بينهما الهدف النهائي، وهو افراغ فلسطين من سكانها او اخضاعهم وحصارهم. ولعل واقعة دير ياسين (قبل عام 1948) وفرق الموت المعروفة باسم (المستعرفيم) هي أمثلة أخرى واضحة على هذا التعاون والتنسيق.

والارهاب الصهيوني مرتبط تمام الارتباط بالدعم الامبريالي الغربي حين قامت حكومة الانتداب بحماية المستوطنين وتامين موطئ قدم لهم وسمت بتأسيس البنية التحتية العسكرية المكونة من المستوطنات التعاونية (وبخاصة الكيبوتس) فيما نسميه (الزراعة المسلحة)، كما ساعدت المنظمات الصهيونية المسلحة المختلفة ودعمتها، فكانت بمنزلة قوة مسلحة كامنة قامت بالانقضاض على أرض فلسطين وأهلها عام 1948. وبعد انشاء الدولة، استمرت الدول الغربية (الديموقراطية) في دعم الكيان الاستيطاني الاحلالي الصهيوني، رغم ممارساته الارهابية التي تتسم بكل الجدة ولاستمرار، ورغم الحروب العديدة التي شنها على العرب ورغم توسعيته التي لا تعرف أية حدود.

وسنتناول في هذا الفصل الارهاب الصهيوني قبل عام 1948، أي قبل أن يتحول الى ارهاب مؤسسي تشرف عليه الدولة الصهيونية. ومع هذا لابد أن نؤكد ان الارهاب الصهيوني المؤسسي وغير المؤسسي مرتبطان تمام الارتباط، وأن التقسيم هنا هو تقسيم إجرائي وحسب.

الارهاب الصهيوني حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية: تاريخ

منذ بدء الانتداب البريطاني على فلسطين أخذ البناء التنظيمي للارهاب الصهيوني في النمو والرسوخ في فلسطين مستفيداً من دعم الاستعمار البريطاني للحركة الصهيونية وتأمينه هجرة آلاف الصهاينة من الشباب الذين سرعان ما انخرطوا في تنظيمات الارهاب. وقد استقر البناء التنظيمي للارهاب الصهيوني منذ مطلع عشرينيات القرن العشرين حين تأسست الهاجاناه ممثلة الذراع العسكري والباطش للوكالة اليهودية عام 1920، والتي نظمت داخل تنظيمها فرقاً خصصت للهجمات الارهابية ومنها كتائب بوش التي تقرر تشكيلها عام 1937 وكذا فرق البالماخ. وفي السنة التالية ايضاً لاندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى عام 1936 انشق انصار الصهيونية التصحيحية عن الهاجاناه وكونوا تنظيماً اتخذ لنفسه مظهراً أشد تطرفاً ودموية هو عصابة الارجون تسفاي ليومي (الاتسل). وفيما بعد انشق عن (اتسل) جماعة أبراهام شتيرن وكونت عام 1940

جماعة ليحي. وتعد هذه المنظمات الثلاث (الهاجاناه ـ اتسل ـ ليحي) العمود الفقري للارهاب الصهيوني حتى عام 1948، حتى أنه يندر ان نجد عملاً إرهابياً وقع في فلسطين منسوباً الى جماعة غيرها، فضلاً عن ان بعض الحلقات الارهابية الصهيونية كانت خاضعة لإشرافها.

وهكذا كما ترسخت بنية الارهاب الصهيوني في العشرينيات والثلاثينيات، شهد النصف الثاني من الثلاثينيات قفزة واضحة بالنسبة لحجم النشاط الارهابي الصهيوني في فلسطين. وهي القفزة التي تجدر مناقشتها على ضوء المد العالمي للفاشية، وتدفق جيل من الشباب الصهاينة الذين تمرسوا على العمل السري والارهابي في بلدان أوربا الشرقية خاصة. وتشير مذكرة رسمية بريطانية صادرة عن وزارة الدولة للمستعمرات الى ان الارهابيين الصهاينة يـأتون من روسيا وبولندا والبلقان ولا يعرفون التسامح ولا يعترفون بحقوق الآخرين وتقرر أنهم نتاج أنظمة تعليمية تغذي التعصب والشوفينية. كما ترتبط القفزة الواضحة في حجم النشاط الارهابي الصهيوني آنذاك بتصاعد الحركة الوطنية الفلسطينية في مواجهة المشروع الصهيوني الذي كان قد حقق تراكماً كافياً في أدواته وامكاناته تؤهله للصدام مع الفلسطينيين والشروع في التحرك على عجل لتحقيق غايته وتأسيس الدولة الصهيونية.

ومن بين السجل الحافل للنشاط الصهيوني في فلسطين خلال المرحلة الثانية (حتى الحرب العالمية الثانية) يمكن الاشارة لبعض العمليات المهمة من بينها قيام ارهابيي الهاجاناه بقتل مواطنين عربيين فلسطينيين بجوار مستعمرة بتاح تكفا رمياً بالرصاص حيث كان كوخهما، وذلك في 16 أبريل عام 1936. وهو نفس العام الذي أصدرت فيه الهاجاناه سبعة قرارات باطلاق النار على العرب أينما كانوا. كما شهد عام 1937 سلسلة من عمليات القاء القنابل اليدوية على تجمعات المواطنين الفلسطينيين العزل في المقاهي ووسائل النقل والاسواق، وكان من اشهرها القاء اتسل قنبلة على سوق الخضار المجاور لبوابة نابلس في القدس فسقط عشرات من العرب بين قتيل وجريح. كما أطلق اعضاء نفس المنظمة النار على قافلة عربية فقتلوا ثلاثة ركاب بينهم امرأتان في 14 نوفمبر 1937 وهو اليوم الذي اطلق عليه لقب (الاحد الاسود) في القدس، حين نفذ الارهابيون الصهاينة اكثر من عملية في المدينة كمظهر لاستعراض القوة.

وفي 6 مارس عام 1937 لقي 18 عربياً مصرعهم واصيب 38 آخرون من جراء القاء قنبلة يدوية في سوق حيفا. كما تعرض نفس السوق في شهر يوليه من العام نفسه الى تفجير سيارة ملغومة اودت بحياة 350

عربياً فلسطينياً وجرحت 70 آخرين، بينما يفتخر المؤرخون الصهاينة بأن عدد الضحايا كان أكثر بكثير مما أعلنت عنه سلطات الانتداب. وفي اليوم التالي سقط 27 عربياً فلسطينياً واصيب 46 آخرون بجراح من جراء قنبلة يدوية ألقتها العصابات الصهيونية على السوق المزدحم. كما تعرض سوق القدس في 26 أغسطس عام 1938 الى انفجار سيارة ملغومة أسفر عن مقتل 34 عربياً وجرح 35 آخرين وفق أقل التقديرات. وفجرت اتسل قنبلة يدوية امام أحد المساجد في مدينة القدس في 15 يوليه 1938 اثناء خروج المصلين فقتلت عشرة أشخاص واصابت ثلاثين. وعن احداث العام نفسه يفتخر الصهاينة بهجوم الارهابي شلومو بن يوسف واثنان من رفاقه من جماعة إتسل على سيارات عربية فلسطينية يستقلها مواطنون عزل. وقد نفذت السلطات البريطانية حكم الاعدام في شلومو فحوله المستوطنون الصهاينة الى بطل قومي مثالي ويحمل طابع بريد اسرائيل صورته، واختارت احدى منظمات الارهاب الصهيوني السرية في الثمانينيات اسمه لتطلقه على عملية مماثلة جرت في الضفة الغربية.

ومن بين العمليات الارهابية الصهيونية خلال عام 1939 شهد يوم 27 فبراير وحده سقوط 27 قتيلاً عربياً وجرح 39 آخرين في حيفا إثر تفجير منظمة إتسل قنبلتين. كما سقط ثلاثة من العرب وجرح رابع في تل ابيب. بينما قتل ثلاثة آخرون وجرح ستة في القدس. الا ان من أبرز العمليات الارهابية التي شهدها العام الهجوم الذي دبرته اتسل على سينما ركس في القدس حيث جرى تخطيط متعدد المراحل لتحقيق أكبر عدد ممكن من الخسائر البشرية بواسطة المتفجرات التي تم تسريبها الى المبنى اضافة الى القاء القنابل داخله ثم فتح نيران الرشاشات على رواد السينما الذين خرجوا في حالة من الذعر والهلع، وقد تم تنفيذ هذه العملية الارهابية في 29 مايو 1939.

ولم تكن الهاجاناه بعيدة عن التنافس مع اتسل، فقد هاجمت عناصرها قرية بلدة الشيخ بجوار حيفا في 12 يوليه 1939 واختطفت خمسة من سكانها ثم قتلتهم. كما جرى في 29 يوليه الهجوم على ست سيارات عربية فلسطينية في تل أبيب ورحبوت وبتاح تكفا كانت حصيلتها قتل 11 عربياً. واسفر القاء القنابل في مدينة يافا في 26 أغسطس عن مصرع 24 عربياً فلسطينياً وجرح 35 آخرين.

الارهاب الصهيوني وحكومة الانتداب

كان الفلسطينيون والعرب بطبيعة الحال الهدف الاساسي للنشاط الارهابي الصهيوني، ومع هذا توجد بعض الاستثناءات. فعلى سبيل المثال

شرعت الحركة الصهيونية، عقب صدور الكتاب الابيض البريطاني في مايو عام 1939، في الضغط على سلطات الانتداب البريطاني للتراجع عما جاء بالكتاب في غير صالح مشروعها، ومن ثم بدأت في تنفيذ عمليات ضد اهداف بريطانية. ففي 21 أغسطس 1939 قتلت إتسل ضابطين بريطانيين بلغم استهدف الضابط المسئول عن الدائرة اليهودية في أجهزة الامن التابعة لسلطة الانتداب.

الا ان طبيعة النشاط الارهابي المحدود الذي وجهته المنظمات الصهيونية ضد البريطانيين كان مختلفاً تماماً عن الاعتداءات التي استهدفت الفلسطينيين لكونهم مجرد فلسطينيين. فقد جرى انتقاء الضحايا البريطانيين في البداية بصورة محددة (شخص محدد وراءه مبررات محددة واضحة). اما الاهداف العربية فقد تم انتقاؤها وتنفيذ عملياتها بشكل يهدف الى قتل واصابة اكبر عدد ممكن من الضحايا الذين لا يعلم عنهم الارهابي الصهيوني المنفذ والمخطط شيئاً محدداً سوى انهم فقط من الفلسطينيين والعرب. ويتضح ذلك في اختيار الاماكن المزدحمة بروادها العرب (مقاهي ـ اسواق ـ قافلات). كما افتخر منفذو هذه الجرائم باتباع اكثر الاساليب ضماناً لسقوط عدد أكبر من الضحايا ومن بينها استخدام غاز البروم مع المتفجرات.

ويلفت النظر أيضاً ان الارهاب الصهيوني خلال الفترة بين إعلان الانتداب ومطلع الحرب العالمية يدخل في اطار ما يسمى اسلوب (اضرب واجر) إذ تحاشى الارهابيون الصهاينة في الاغلب الاعم الدخول في مواجهات مسلحة (كأن يقوموا بحصار قرية مثلاً).

وما كانت آلة الارهاب الصهيوني التي نمت تحت سمع وبصر السلطات البريطانية خلال هذه المرحلة ان تبلغ هذا الشأن الا بمساعدة بريطانيا نفسها. وعبارة الارهابي الصهيوني اسحق بن تسفي ذات دلالة، إذ قال: (نعم.. هناك جبهة بريطانية يهودية.. ان لم تكن في السياسة فهي في الخنادق)، بمعنى انه رغم الاختلافات السياسية الا ان السلطات البريطانية هي التي امدت المنظمات العسكرية الصهيونية بالسلاح ومنحت المستوطنين الصهاينة تراخيص حمله (جرى منح 120 رخصا لليهود في مدينة القدس وحدها) وحجبت هذه التراخيص عن المواطنين العرب، وهي ايضاً التي اعترفت بهذه المنظمات. ومن المعروف ان 800 عضو في الهاجاناه التحقوا بصفوف الشرطة البريطانية في فلسطين وتدربوا على البندقية البريطانية عام 1936 في وضح النهار.

ولقد اشتركت المؤسسات الصهيونية على اختلافها في الاعداد للعمل

الارهابي حيث كانت التدريبات تجرى أسبوعياً في المدارس العبرية والدينية والمصانع الصغيرة والحمامات ودور العبادة اليهودية. وهكذا لم يكن النشاط الارهابي عملاً على هامش الحركة الصهيونية، بل كان عملاً يرتبط بالوجود الصهيوني وبطبيعة الحال الاحلالية.

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية دخلت المنظمات العسكرية الصهيونية في جدل حول السياسة التي يتعين اتباعها ازاء السلطات البريطانية. فهل تواصل الطريق الذي شرعت فيه بعد صدور الكتاب الابيض عام 1939 فتوجه قسطاً من اعمال العنف تجاه اهداف بريطانية، ام تلتزم بمهادنة بريطانيا ودعمها في الحرب ضد النازية؟ واذا كانت اعمال الارهاب الصهيوني في فلسطين لم تتوقف تماماً خلال فترة الحرب العالمية، فان نشاطها الذي خفت حدته كثيراً بين عامي 1940 و 1944 يمكن وصفه بالكمون مقارنة بسنوات قبل الحرب وبعدها. وقد لا يعود ذلك الى اختيار المنظمات العسكرية الصهيونية، فالسلطات البريطانية من جانبها شددت قبضتها على البلاد مع نشوب الحرب فاعتقلت على الفور نشطاء وقيادات الحركة الصهيونية الى جانب الثوار العرب. وتوصلت الى تسويات مع الهاجاناه واتسل قبل ان تعيد اطلاق سراح المعتقلين. وهكذا اعلنت قيادة الحركة الصهيونية اثناء فترة الحرب نبذ أعمال الارهاب وهو الامر الذي اعلنت كل من الهاجاناه واتسل قبوله (ورفضته منظمة ليحي).

وقد وجدت المنظمات الصهيونية سنوات الحرب العالمية فرصة لتطوير نفوذها وتقوية هياكلها وتسليحها تمهيداً للانطلاق عند انتهاء الحرب. فزادت عدداً وعدة وأضفت على وجودها قدراً من الشرعية بالتعاون مع بريطانيا والحلفاء. وهكذا اعدت المنظمات نفسها للانطلاق لاحقاً نحو هدفين: الاول اجبار الفلسطينيين اصحاب البلاد الاصليين على مغادرة أراضيهم بما فيها تلك التي يشكلون فيها اغلبية ساحقة وهي الارض التي خصهم بها مشروع التقسيم لاحقاً. والثاني الضغط على البريطانيين لإلغاء القيود المفروضة وبخاصة على الهجرة والعمل من اجل اقامة دولة صهيونية بأسرع الوسائل.

هذا لا ينفي امتداد دائرة العنف الصهيوني لتشمل البريطانيين والاوروبيين، بل احياناً اعضاء الجماعات اليهودية. ففي عام 1944 اعلنت اتسل وقف هدنتها مع البريطانيين بنسف منزل في يافا بحجة انه مقر للشرطة البريطانية، وكررت نفس الاعمال في حيفا والقدس. وقد بلغ النشاط الارهابي الصهيوني ضد البريطانيين ذروته بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتحديداً خلال عام 1946، حيث اتفقت المنظمات على

توجيه ضربات للبريطانيين كان أشهرها نسف فندق الملك داود في 22 يوليو عام 1946 والذي كان يضم مكاتب ادارة الانتداب البريطاني، والتي افتخر بيجين بتنفيذها باتفاق مسبق مع الهاجاناه وليحي. وقد اسفر الانفجار عن مقتل 91 شخصاً بينهم 41 عربياً و 28 بريطانياً و 17 يهودياً وخمسة من جنسيات اخرى بينهم أمريكيون.

الا ان الطابع الذي غلب على العمليات التي استهدفت سلطات الانتداب البريطاني كان السعي لتدمير البنية الاساسية للبلاد مثل السكك الحديدية والجسور والمطارات والموارد الاقتصادية مثل خط البترول الواصل الى حيفا. ويبدو ان الهدف من ذلك كان اظهار عجز السلطات البريطانية عن ادارة البلاد وحفظ الامن. ولقد أصدرت السلطات البريطانية في يوليه عام 1946 كتاباً ابيض يكشف وقائع الارهاب الصهيوني والتنسيق بين المنظمات الثلاث، وهو الكتاب الذي اعترف بيجين بمصداقية ما جاء فيه.

ويلفت النظر ان فترة ما بعد اعلان الحرب العالمية الثانية قد شهدت ما يمكن تسميته اعادة تصدير بؤر النشاط الارهابي الصهيوني الى المنطقة العربية وأوربا. ولا يقف الامر عند حدود قيام الياهو حكيم والياهو بيت زوري من عصابة ليحي بقتل الوزير البريطاني اللورد موين في القاهرة في 6 نوفمبر عام 1944. (اعترف بن جوريون لاحقاً انه ساهم في التستر على القتل رغم تظاهره بادانة الحادث). فقد نفذت العصابات الصهيونية العديد من الاعمال الارهابية التي راح ضحيتها ابرياء في أوربا، فدبرت ليحي انفجاراً في فندق بفيينا ينزل به ضباط بريطانيون اسفر عن مصرع سيدة نمساوية. وقد بلغ اجرام العصابات الصهيونية حد التخطيط في مطلع عام 1948 لتسميم مصادر المياه في العاصمة البريطانية بجراثيم الكوليرا. وقد تولى الياب، احد قادة ليحي بنفسه، تدبير زجاجات الجراثيم عبر بعض الاطباء اليهود في معهد باستير في باريس. الا ان صدور قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين والاعلان عن انهاء الانتداب البريطاني عليها جعل المنظمة تصرف النظر عن تنفيذ العملية التي كانت قد بلغت نهاية مرحلة الاعداد. وذلك كما ورد في مذكرات يعقوب الياب نفسه. (من المعروف ان وباء الكوليرا انتشر في مصر بعد عام 1948، وقد انتشرت شائعات في ذلك الحين عن ان الامر قد يكون له علاقة بالدولة الصهيونية).

ويلاحظ ان مثل هذا النشاط الذي جرى خارج فلسطين لم يقف وراءه فقط مبعوثو منظمات الارهاب الصهيوني المتجولون في انحاء العالم، بل ان العديد من الخلايا الارهابية تم زرعها لتستقر في مدن وعواصم العالم والشرق الاوسط وبخاصة بغداد. والجدير بالذكر ان عزرا وايزمان كان

عضوا في خلية ارهابية زرعتها اتسل في بريطانيا. ولقد ادخل الارهاب الصهيوني الى المنظمات أساليب الطرود الملغومة والاختطاف واغتيال الشخصيات البارزة عل نطاق واسع منذ الاربعينيات.

كما تواصل قبل قيام الدولة عام 1948 قيام منظمات الارهاب الصهيوني بالاعمال التي تضم عصابات السرقة والاجرام العادية. إلا ان الأكثر مدعاة للتأمل هو تفاخر قادة المنظمات الصهيونية العسكرية (وقادة الدولة الاسرائيلية فيما بعد) بقيامهم بتخطيط وتنفيذ السطو على البنوك والممتلكات. ومن بين هذه الاعمال سرقة البنك العثماني في 13 سبتمبر 1946 وبنك باركليز في أغسطس عام 1947 لحساب ليحي. وقد القي القبض على بعض اعضاء الجماعات الارهابية الصهيونية وحكم على بعضهم بالسجن بسبب تلك الاعمال المشينة ومن بين هؤلاء يهوشاع زلتر الذي حكم عليه بـ 15 عاماً بسبب سطوه على احد البنوك في تل أبيب. والملاحظ ان العديد من تلك الاعمال مثل سرقة 27 الف ليرة من بنك ديسكونت في 24 مارس 1947 لحساب ليحي قد حظيت باهتمام مذكرات قيادات الارهاب الصهيوني التي أبرزت وقائعها المشينة في وصف ملئ بالفروسية والاثارة والتفاخر.

الا أن التعبير الاساسي والمتبلور عن الارهاب الصهيوني في هذه الفترة هو سلسلة المذابح التي ارتكبت ضد العرب بهدف إبادة الاقلية وإرهاب الاغلبية حتى يترك الفلسطينيون أرضهم لتصبح ارضاً بلا شعب.

المذابح الصهيونية بين عامي 1947 و 1948

تتسم المذابح الصهيونية انها ذات طابع ابادي محدود، اذ يتم الاعلان عنها بطريقة درامية لتبث الذعر في نفوس العرب الفلسطينيين فيهربون. وبذا تتم عملية التظهير العرقي وتصبح فلسطين ارضاً بلا شعب. كما كانت فرق الارهاب الصهيونية تنفذ بعض المذابح للانتقام ولتلقين العرب الفلسطينيين درساً في عدم جدوى المقاومة. ومن اهمك المذابح الصهيونية قبل عام 1948 ما يلي:

* مذبحة قريتي الشيخ وحواسة (31 ديسمبر عام 1947): انفجرت قنبلة خارج بناء شركة مصفاة بترول حيفا وقتلت وجرحت عدداً من العمال العرب القادمين الى المصفاة. واثر ذلك ثار العمال العرب بالشركة وهاجموا الصهاينة العاملين بالمصفاة بالمعاول والفؤوس وقضبان الحديد وقتلوا وجرحوا منهم نحو ستين صهيونياً. وكان قسم كبير من العمال العرب في هذه المصفاة يقطنون قريتي الشيخ وحواسة الواقعتين جنوب شرق حيفا، ولذا خطط الصهاينة للانتقام بمهامة البلدتين.

وفي ليلة رأس السنة الميلادية 1948 بدأ الصهاينة هجومهم بعيد منتصف الليل وكان عدد المهاجمين بين 150، 200 صهيوني ركزوا هجومهم على اطراف البلدتين، ولم يكن لدى العرب سلاح كاف، ولم يتعد الامر وجود حراسات محلية بسيطة في الشوارع.

هاجم الصهاينة البيوت النائية في اطراف هاتين القريتين وقذفوها بالقنابل اليدوية ودخلوا على السكان النائمين وهم يطلقون نيران رشاشاتهم. وقد استمر الهجوم ساعة انسحب اثرها الصهاينة في الساعة الثانية صباحاً بعد ان هاجموا حوالي عشرة بيوت وراح ضحية ذلك الهجوم نحو 30 فرداً بين قتيل وجريح معظمهم من النساء والاطفال وتركوا شواهد من الدماء والاسلحة تدل على عنف المقاومة التي لقوها.

* مذبحة قرية سعسع (14 ـ 15 فبراير 1948): شنت كتيبة البالماخ الثالثة هجوماً على قرية سعسع، فدمرت 20 منزلاً فوق رؤوس سكانها، وأسفر ذلك عن مقتل 60 عربياً معظمهم من النساء والاطفال. وقد وصفت هذه العملية بانها (مثالية).

* مذبحة رحفوت (27 فبراير 1948): حدثت في مدينة حيفا قرب رحوفوت حيث تم نسف قطار القنطرة الامر الذي اسفر عن استشهاد سبعة وعشرين عربياً وجرح ستة وثلاثين آخرين.

* مذبحة كفر حسينية (13 مارس 1948): قامت الهاجاناه بالهجوم على القرية وقامت بتدميرها وأسفرت المذبحة عن استشهاد ثلاثين عربياً.

* مذبحة بنيامیناه (27 مارس 1948): حدثت مذبحتان في هذا الموضع حيث تم نسف قطارين، أولهما نسف في 27 مارس واسفر عن استشهاد 24 فلسطينياً عربياً وجرح أكثر من 61 آخرين، وتمت عملية النسف الثانية في 31 من نفس الشهر حيث استشهد أكثر من 40 عربياً وجرح 60 آخرون.

* مذبحة دير ياسين (9 أبريل 1948): مذبحة ارتكبتها منظمتان عسكريتان صهيونيتان هما الارجون (التي كان يتزعمها مناحم بيجن، رئيس وزراء اسرائيل فيما بعد) وشتيرن ليحي (التي كان يترأسها اسحق شامير الذي خلف بيجين في رئاسة الوزارة). وتم الهجوم باتفاق مسبق مع الهاجاناه، وراح ضحيتها زهاء 260 فلسطينياً من اهالي القرية العزل. وكانت هذه المذبحة، وغيرها من اعمال الارهاب والتنكيل، احدى الوسائل التي انتهجتها المنظمات الصهيونية المسلحة من اجل السيطرة على الاوضاع في فلسطين تمهيداً لاقامة الدولة الصهيونية.

تقع قرية دير ياسين على بعد بضعة كيلومترات من القدس على تل يربط بينها وبين تل أبيب. وكانت القدس آنذاك تتعرض لضربات متلاحقة، وكان العرب، بزعامة البطل الفلسطيني عبد القادر الحسيني، يحرزون الانتصارات في مواقعهم. لذلك كان اليهود في حاجة الى انتصار حسب قول احد ضباطها (من اجل كسر الروح المعنوية لدى العرب، ورفع الروح المعنوية لدى اليهود)، فكانت دير ياسين فريسة سهلة لقوات الارجون. كما ان المنظمات العسكرية الصهيونية كانت في حاجة الى مطار يخدم سكان القدس. كما ان الهجوم وعمليات الذبح والاعلان عن المذبحة هي جزء من نمط صهيوني عام يهدف الى تفريغ فلسطين من سكانها عن طريق الابادة والطرد.

كان يقطن القرية العربية الصغيرة 400 شخص، يتعاملون تجارياً مع المستوطنات المجاورة، ولا يملكون الا اسلحة قديمة يرجع تاريخها الى الحرب العالمية الاولى.

في فجر 9 أبريل عام 1948 دخلت قوات الارجون من شرق القرية وجنوبها، ودخلت قوات شتيرن من الشمال ليحاصروا القرية من كل جانب ما عدا الطريق الغربي، حتى يفاجئوا السكان وهم نائمين. وقد قوبل الهجوم بالمقاومة في بادئ الامر، وهو ما ادى الى مصرع 4 وجرح 40 من المهاجمين الصهاينة. وكما يقول الكاتب الفرنسي باتريك ميرسييون: (ان المهاجمين لم يخوضوا مثل تلك المعارك من قبل، فقد كان من الايسر لهم القاء القنابل في وسط الاسواق المزدحمة عن مهاجمة قرية تدافع عن نفسها.. لذلك لم يستطيعوا التقدم أمام هذا القتال العنيف).

ولمواجهة صمود أهل القرية، استعان المهاجمون بدعم من قوات البالماخ في أحد المعسكرات بالقرب من القدس حيث قامت من جانبها بقصف القرية بمدافع الهاون لتسهيل مهمة المهاجمين. ومع حلول الظهيرة اصبحت القرية خالية تماماً من أية مقاومة، فقررت قوات الارجون وشتيرن (والحديث لميرسييون) (استخدام الاسلوب الوحيد الذي يعرفونه جيداً، وهو الديناميت. وهكذا استولوا على القرية عن طريق تفجيرها بيتاً بيتاً. وبعد ان انتهت المتفجرات لديهم قاموا (بتنظيف) المكان من آخر عناصر المقاومة عن طريق القنابل والمدافع الرشاشة، حيث كانوا يطلقون النيران على كل ما يتحرك داخل المنزل من رجال، ونساء، واطفال، وشيوخ). واوقفوا العشرات من اهل القرية الى الحوائط واطلقوا النار عليهم. واستمرت أعمال القتل على مدى يومين. وقامت القوات الصهيونية بعمليات تشويه سادية (تعذيب ـ اعتداء ـ بتر اعضاء ـ

ذبح الحوامل والمراهنة على نوع الاجنة)، وألقي بـ 53 من الاطفال الاحياء وراء سور المدينة القديمة، واقتيد 25 من الرجال الاحياء في حافلات ليطوفوا بهم داخل القدس طواف النصر على غرار الجيوش الرومانية القديمة، ثم تم اعدامهم رمياً بالرصاص. والقيت الجثث في بئر القرية واغلق بابه باحكام لاخفاء معالم الجريمة. وكما يقول ميرسييون: (وخلال دقائق، وفي مواجهة مقاومة غير مسبوقة، تحول رجال وفتيات الارجون وشتيرن، الذين كانوا شباباً ذوي مثل عليا، الى (جزارين)، يقتلون بقسوة وبرودة ونظام مثلما كان جنود قوات النازية يفعلون). ومنعت المنظمات العسكرية الصهيونية مبعوث الصليب الاحمر جاك دي رينييه من دخول القرية لأكثر من يوم. بينما قام افراد الهاجاناه الذين احتلوا القرية بجمع جثث أخرى في عناية وفجروها لتضليل مندوبي الهيئات الدولية وللايحاء بان الضحايا لقوا حتفهم خلال صدامات مسلحة (عثر مبعوث الصليب الاحمر على الجثث التي القيت في البئر فيما بعد).

وقد تباينت ردود أفعال المنظمات الصهيونية المختلفة بعد المذبحة، فقد ارسل مناحم بيجين برقية تهنئة الى رعنان قائد الارجون المحلي قال فيها: (تهنئتي لكم لهذا الانتصار العظيم، وقل لجنودك انهم صنعوا التاريخ في اسرائيل). وفي كتابه المعنون الثورة كتب بيجين يقول: (ان مذبحة دير ياسين اسهمت مع غيرها من المجازر الاخرى في تفريغ البلاد من 650 الف عربي). واضاف قائلاً: (لولا دير ياسين لما قامت اسرائيل). وقد حاولت بعض القيادات الصهيونية التنصل من مسئوليتها عن وقوع المذبحة. فوصفها ديفيد شالتيل، قائد قوات الهاجاناه في القدس آنذاك، بانها (اهانة للسلام العبري). وهاجمها حاييم وايزمان ووصفها بانها عمل ارهابي لا يليق بالصهاينة. كما نددت الوكالة اليهودية بالمذبحة. وقد قامت الدعاية الصهيونية على اساس ان مذبحة دير ياسين مجرد استثناء، وليست القاعدة، وان هذه المذبحة تمت دون أي تدخل من جانب القيادات الصهيونية بل ضد رغبتها. الا ان السنوات التالية كشفت النقاب عن أدلة دامغة تثبت ان جميع التنظيمات الصهيونية كانت ضالعة في ارتكاب تلك المذبحة وغيرها، سواء بالاشتراك الفعلي في التنفيذ أو بالتواطؤ أو بتقديم الدعم السياسي والمعنوي.

1 ـ ذكر مناحم بيجين في كتابه الثورة ان الاستيلاء على دير ياسين كان جزءاً من خطة أكبر وان العملية تمت بكامل علم الهاجاناه (وبموافقة قائدها)، وان الاستيلاء على دير ياسين والتمسك بها يعد احدى مراحل المخطط العام رغم الغضب العلني الذي عبر عنه المسئولون في الوكالة اليهودية والمتحدثون الصهاينة.

2 ـ ذكرت موسوعة الصهيونية واسرائيل (التي حررها العالم الاسرائيلي روفائيل باتاي) ان لجنة العمل الصهيونية (اللجنة التنفيذية الصهيونية) وافقت في مارس من عام 1948 على (ترتيبات مؤقتة، يتأكد بمقتضاها الوجود المستقل للارجون، ولكنها جعلت كل خطط الارجون خاضعة للموافقة المسبقة من جانب قيادة الهاجاناه).

3 ـ كانت الهاجاناه وقائدها في القدس ديفيد شالتيل يعمل على فرض سيطرته على كل من الارجون وشتيرن، فلما أدركتا خطة شالتيل قررتا التعاون معاً في الهجوم على دير ياسين. فأرسل شالتيل رسالة اليهما تؤكد لهما الدعم السياسي والمعنوي في 7 أبريل، أي قبل وقوع المذبحة بيومين، جاء فيها: (بلغني أنكم تخططون لهجوم على دير ياسين. اود أن ألفت انتباهكم الى ان دير ياسين ليست الا خطوة في خططنا الشاملة. ليس لدي أي اعتراض على قيامكم بهذه المهمة، بشطر ان تجهزوا قوة كافية للبقاء في القرية بعد احتلالها، لئلا تحتلها قوى معادية وتهدد خططنا).

4 ـ جاء في احدى النشرات الاعلامية التي أصدرتها وزارة الخارجية الاسرائيلية ان ما وصف بأنه (المعركة من اجل دير ياسين) كان جزءاً لا يتجزأ من (المعركة من اجل القدس).

5 ـ اقر الصهيوني العمالي مائير بعيل في السبعينيات بان مذبحة دير ياسين كانت جزءاً من مخطط عام، اتفقت عليه جميع التنظيمات الصهيونية في مارس 1948، وعرف باسم (خطة د)، وكان يهدف الى طرد الفلسطينيين من المدن والقرى العربية قبيل انسحاب القوات البريطانية، عن طريق التدمير والقتل واشاعة جو من الرعب والهلع بين السكان الفلسطينيين وهو ما يدفعهم الى الفرار من ديارهم.

6 ـ بعد ثلاثة ايام من المذبحة، تم تسليم قرية دير ياسين للهاجاناه لاستخدامها مطاراً.

7 ـ أرسل عدد من الاساتذة اليهود برسائل الى بن جوريون يدعونه فيها الى ترك منطقة دير ياسين خالية من المستوطنات، ولكن بن جوريون لم يرد على رسائلهم وخلال شهور استقبلت دير ياسين المهاجرين من يهود شرق أوربا.

8 ـ خلال عام من المذبحة صدحت الموسيقى على ارض القرية العربية وأقيمت الاحتفالات التي حضرها مئات الضيوف من صحفيين واعضاء الحكومة الاسرائيلية وعمدة القدس وحاخامات اليهود. وبعث الرئيس الاسرائيلي حاييم وايزمان برقية تهنئة لافتتاح مستوطنة جيفات شاؤول

في قرية دير ياسين (مع مرور الزمن توسعت القدس الى ان ضمت ارض دير ياسين اليها لتصبح ضاحية من ضواحي القدس).

وأياً ما كان الامر، فالثابت ان مذبحة دير ياسين والمذابح الاخرى المماثلة لم تكن مجرد حوادث فردية او استثنائية طائشة، بل كانت جزءاً اصيلاً من نمط ثابت ومتواتر ومتصل، يعكس الرؤية الصهيونية للواقع والتاريخ والآخر، حيث يصبح العنف باشكاله المختلفة وسيلة لاعادة صياغة الشخصية اليهودية وتنقيتها من السمات الطفيلية والهامشية التي ترسخت لديها نتيجة القيام بدور الجماعة الوظيفية. كما انه اداة تفريغ فلسطين من سكانها واحلال المستوطنين الصهاينة محلهم وتثبيت دعائم الدولة الصهيونية وفرض واقع جديد في فلسطين يستبعد العناصر الاخرى غير اليهودية المكونة لهويتها وتاريخها.

وقد عبرت الدولة الصهيونية عن فخرها بمذبحة دير ياسين، بعد 32 عاماً من وقوعها، حيث قررت اطلاق اسماء المنظمات الصهيونية: الارجون، واتسل، والبالماخ، والهاجاناه على شوارع المستوطنة التي اقيمت على اطلال القرية الفلسطينية.

* مذبحة ناصر الدين (14 أبريل 1948): اشتدت حدة القتال في مدينة طبرية بين العرب والصهاينة، وكان التفوق في الرجال والمعدات في جانب الصهاينة منذ البداية. وجرت محاولات لنجدة مجاهدي طبرية من مدينة الناصرة وما جاورها. وجاءت انباء الى ابناء البلدة عن هذه النجدة وطلب منهم التنبه وعدم فتح النيران عليها. ولكن هذه الانباء تسربت الى العدو الصهيوني الذي سيطر على مداخل مدينة طبرية فأرسلت منظمتا ليحي والارجون في الليلة المذكورة قوة الى قرية ناصر الدين يرتدي افرادها الملابس العربية، فاعتقد الاهالي انهم أفراد النجدة القادمة الى طبرية فاستقبلوهم بالترحاب، وعندما دخل الصهاينة القرية فتحوا نيران اسلحتهم على مستقبليهم، ولم ينج من المذبحة سوى أربعين عربياً استطاعوا الفرار الى قرية مجاورة. وقد دمر الصهاينة بعد هذه المذبحة جميع منازل ناصر الدين.

* مذبحة اللد (أوائل يوليه 1948): تعد عملية اللد أشهر مذبحة قامت بها قوات البالماخ. وقد تمت العملية، المعروفة بحملة داني، لاخماد ثورة عربية قامت في يوليه عام 1948 ضد الاحتلال الاسرائيلي. فقد صدرت تعليمات باطلاق الرصاص على أي شخص يشاهد في الشارع، وفتح جنود البالماخ نيران مدافعهم الثقيلة على جميع المشاة، واخمدوا بوحشية هذا العصيان خلال ساعات قليلة، واخذوا يتنقلون من منزل الى آخر، يطلقون

النار على أي هدف متحرك. ولقي 250 عربياً مصرعهم نتيجة ذلك (وفقاً لتقرير قائد اللواء). وذكر كينيث بيلي، مراسل جريدة الهيرالد تريبيون، الذي دخل اللد يوم 12 يوليه، ان موشي دايان قاد طابوراً من سيارات الجيب في المدينة كان يقل عدداً من الجنود المسلحين بالبنادق والرشاشات من طراز ستين والمدافع الرشاشة التي تتوهج نيرانها. وسار طابور العربات الجيب في الشوارع الرئيسية، يطلق النيران على كل شيء يتحرك، ولقد تناثرت جثث العرب، رجالاً ونساء، بل جثث الاطفال في الشوارع في اعقاب هذا الهجوم. وعندما تم الاستيلاء على رام الله القي القبض، في اليوم التالي، على جميع من بلغوا سن التجنيد من العرب، واودعوا في معتقلات خاصة. ومرة أخرى تجولت العربات في المدينتين، واخذت تعلن، من خلال مكبرات الصوت، التحذيرات المعتادة. وفي يوم 13 يوليه اصدرت مكبرات الصوت اوامر نهائية، حددت فيها اسماء جسور معينة طريقاً للخروج).

التنظيمات الصهيونية العسكرية قبل مايو 1948

يمكن تقسيم التنظيمات الصهيونية العسكرية قبل عام 1948 من منظور الوظيفة التي تضطلع بها الى قسمين اساسيين. فكانت بعض التنظيمات توجه عملياتها العسكرية ضد السكان العرب الفلسطينيين اصحاب البلاد، وكان البعض الآخر يوظف نفسه في خدمة الدولة الامبريالية الراعية وصراعاتها الممتدة الى خارج المنطقة. وهذا الازدواج في الوظائف نتيجة طبيعية لوضع المستوطنين الصهاينة كجماعة وظيفية (ثم دولة وظيفية) في وسط معاد، وهي في حربها ضده تحتاج الى دعم امبريالي من الخارج، وعليها ان تدفع الثمن، وه وان تضع نفسها تحت تصرف الراعي الامبريالي.

ومن المنظمات التي اسست لخدمة الاغراض الداخلية (أي الهجوم على العرب) نجد منظمة بارجيوا، ثم منظمة الحارس (هاشومير) التي اسست عام 1909، ثم البيتار، التي اسست عام 1923، ثم التوطريم التي اسستها سلطات الانتداب البريطاني بالتعاون مع الهاجاناه للمساعدة في قمع الانتفاضات الفلسطينية العربية التي قامت في فلسطين في الفترة من 1936 وحتى 1939. ومنها ايضاً منظمة اتسل التي قامت في فلسطين عام 1931 انطلاقاً من افكار فلاديمير جابوتنسكي.

1 ـ **بارجيورا (منظمة):**

منظمة عسكرية صهيونية سرية أسسها في فلسطين عام 1907 كل من: يتسحاق بن تسفي، واسرائيل شوحط، وغيرهما من المستوطنين

الصهاينة الاوائل، وكان شعارها (بالدم والنار سقطت يهودا، وبالدم والنار ستقوم يهودا)، وقد استلهمت اسمها من اسم شيمون بارجيوا ـ قائد التمرد اليهودي الاول ضد الرومان في فلسطين ما بين عام 66 وعام 70.

تولت المنظمة أعمال حراسة المستوطنات الصهيونية في الجليل، كما عملت على خلق قوة مسلحة يهودية في فلسطين. واستمرت تعمل حتى 1909 حيث اتاح تطورها فرصة تأسيس منظمة أكثر اتساعاً واستقراراً وهي منظمة الحارس.

2 ـ الحارس (منظمة):

منظمة عسكرية صهيونية، تسمى بالعبرية (هاشومير)، اسسها عام 1909 في فلسطين يتسحاق تسفي واسرائيل جلعادي والكسندر زيد واسرائيل شوحط الذي كان بمنزلة العقل السياسي المحرك والقيادة الفعلية للمنظمة. اما الاعضاء فجاء معظمهم من صفوف حزب عمال صهيون، ومن بين مهاجري روسيا الأوائل. ورغم ذلك رفضت المنظمة ان تكون تابعة لسلطة الحزب بشكل مباشر. كما رفضت الخضوع لاشراف المكتب الفلسطيني للمنظمة الصهيونية العالمية.

وتعد منظمة الحارس استمراراً متطوراً لمنظمة بارجيورا السرية، وهي بذلك من المحاولات الاولى لتأسيس قوة مسلحة يهودية في فلسطين تعمل على فرض الاستيطان الصهيوني وتدعيمه. وقد بدأت الحارس كمنظمة سرية ولم يزد عدد اعضائها عند التأسيس عن ثلاثين عضواً، وتولت حراسة المستوطنات الصهيونية في الجليل نظير مقابل مالي. ثم توسعت فيم بعد لتعمل في مناطق اخرى، رغم اعتراض قيادات اليشوف القديم على هذه الانشطة لما تثيره من استفزاز للسكان الفلسطينيين. وكان نموذج الحارس هو اليهودي حامل السلاح الذي يجيد اللغة العربية ويرتدي الزي العربي او الشركسي. وكان العضو ينضم الى المنظمة بعد المرور بسنة اختبار، وبعد الحصول على موافقة ثلثي الحاضرين في المؤتمر السنوي العام للمنظمة.

ولم يقتصر نشاط المنظمة على الحراسة، بل قامت بدور أساسي في اقامة المستعمرات الصهيونية في فلسطين، حيث اسست اول مستعمرة لها في تل عداشيم (1913) ثم الحقتها بمستعمرة أخرى في كفر جلعادي (1916) ثم مستعمرة تل هاي (1918). كما كانت المنظمة أحد الاطر الرئيسية لتدريب العناصر العسكرية التي شكلت فيما بعد قوام منظمة الهاجاناه.

واثناء الحرب العالمية الاولى، والحملة البريطانية على فلسطين، انضم

قسم من اعضاء منظمة الحارس الى الفيلق اليهودي وقاتل في صفوف الجيش البريطاني، بينما انضم قسم آخر الى جانب الاتراك. وكانت تلك بداية الصراعات الداخلية التي تطورت لتصل الى ذروتها خلال المؤتمر العام للمنظمة في مايو 1920، حيث تباينت الآراء بين الحفاظ على استقلال المنظمة، وبين تحويلها الى منظمة موسعة للدفاع تخضع لاشراف المؤسسات السياسية العامة لليشوف الاستيطاني. وقد تقرر في النهاية حل المنظمة والانضمام للهاجاناه، الا ان عدداً محدوداً من الاعضاء ظل متمسكاً بفكرة استمرار المنظمة، وحقها في تولي الاعمال العسكرية بلا منافس. وقد احتفظ هؤلاء بمخزن خاص للسلاح، ولم يسلموه الى الهاجاناه الا عام 1929 مع اندلاع انتفاضة العرب الفلسطينيين.

3 ـ البيتار (منظمة):

(البيتار) اختصار للعبارة العبرية (بريت يوسف ترومبلبدور)، أي (عهد ترومبلدور) أو (حلف ترومبلدور). وهو تنظيم شبابي صهيوني تصحيحي اسسه في بولندا عام 1923 يوسف ترومبلدور، وكان هدفه اعداد اعضائه للحياة في فلسطين بتدريبهم على العمل الزراعي وتعليمهم مع التركيز على العبرية بالاضافة الى التدريب العسكري. وكان اعضاؤها يتلقون أيديولوجيا واضحة التأثر بالايديولوجيات الفاشية التي سادت اوربا آنذاك، فكانوا يتعلمون مثلاً ان أمام الانسان اختيارين لا ثالث لهما: (الغزو، أو الموت)، وان كل الدول التي لها رسالة قامت على السيف وعليه وحده. وبشكل عام، يمثل التنظيم أفكار جابوتنسكي زعيم الصهيونية التنقيحية.

ولم يقتصر نشاط بيتار على بولندا بل امتداد الى العديد من الدول، فأسست عام 1934 قاعدة للتدريب البحري في ايطاليا وأخرى للتدريب عل الطيران في باريس، كما اسست فروعاً في اللد (1938) وجنوب افريقيا (1939) ونيويورك (1941). وقد ظلت القادة الاساسية للتنظيم وهيئته العليا حتى الحرب العالمية الثانية خارج فلسطين، ثم انتقلت بعد ذلك اليها، حيث كان بعض اتباع بيتار قد اسسوا عدة مستوطنات زراعية.

وقد انشق تنظيم بيتار عن المنظمة الصهيونية إثر النزاعات بين جابوتنسكي وزعمائها، وهي النزاعات التي انتهت بانفصاله، وتشكيل المنظمة الصهيونية الجديدة في 1934 نتيجة معارضة سياسة الهستدروت. وداخل بيتار، تشكلت الكوادر الاساسية لمنظمة الارجون الارهابية ولحركة حيروت. وكان مائير كاهانا مؤسس جماعة كاخ عضواً في تنظيم بيتار.

4 ـ النوطريم:

(النوطريم) كلمة عبرية تعني (الحراس او الخفراء)، وهي الشرطة اليهودية الاضافية التي شكلتها سلطات الانتداب البريطاني بالتعاون مع الهاجاناه للمساعدة في قمع الانتفاضات العربية في فلسطين في الفترة 1936 ـ 1939. وتم، في هذا الاطار، تجنيد مئات الخفراء من مختلف المدن والمستوطنات، وارسلوا لحماية المستوطنات الواقعة على الحدود وفي غور الاردن. وشملت قوات الخفراء في البداية 750 خفيراً على نفقة سلطات الانتداب و 1800 خفير على نفقة قيادة المستوطنين الصهاينة. وفي يونيو 1936، ونظراً لتصاعد المظاهرات العربية، تم تجنيد 1240 خفيراً آخر أطلق عليهم اسم (خفراء اضافيون).

وفي يوليه 1938 اعادت قيادة المستوطنين تنظيم قوات الخفراء لتصبح وحدة شرطة منظمة، اطلق عليها اسم (شرطة المستوطنات العبرية)، وتم تقسيمها الى عشرات الكتائب لتتناسب الى حد ما مع توزيع قوات الهاجاناه، وقامت هذه القوات بحماية القطارات والسكك الحديدية والمرافق العامة، كما شاركت في نقل المهاجرين اليهود غير الشرعيين.

وكما أسلفنا هناك تنظيمات عسكرية صهيونية توجه عملياتها العسكرية ضد السكان العرب، اصحاب البلاد، ولكن كان هناك ايضا تنظيمات أخرى تضع نفسها في خدمة الدولة الامبريالية. وفيما يلي أهم التنظيمات العسكرية الصهيونية التي وضعت نفسها في خدمة الدولة الامبريالية.

ـ الفيلق اليهودي:

(الفيلق اليهودي) هو تشكيلات عسكرية من المتطوعين اليهود الذين حاربوا في صفوف القوات البريطانية والحلفاء اثناء الحرب العالمية الاولى مثل الكتيبة اليهودية رقم 38 التي جندت في انجلترا عام 1915 ـ 1917، والكتيبة 39 التي نظمها بن جوريون وبن تسفي في الولايات المتحدة بين عامي 1917 ـ 1918، والكتيبة 40 التي تم تشكيلها في فلسطين، وكذلك كتائب حملة البنادق الملكية وفرقة البالغة الصهيونية التي نظمها جابوتنسكي وترومبلدور في مصر عام 1915. وقد بلغ عدد افراد كل هذه المنظمات 6400 رجل وكان يشار اليها جميعاً باسم (الفيلق اليهودي). وترجع فكرة هذه التشكيلات الى تصور الصهاينة انه يتعين عليهم مساعدة بريطانيا، القوة الاستعمارية الصاعدة، حتى تساعدهم هي على تأسيس وطن قومي لليهود. وقد واجه الصهاينة صعوبات جمة في بادئ الامر حيث تجاهلتهم وزارة الدفاع البريطانية وهاجمهم اليهود الاندماجيون، وكذلك اليساريون في أوساط الشباب

اليهودي، الا ان لجو في بريطانيا انذاك كان مبلداً بمعاداة اليهود (الاجانب) الذين يفدون من روسيا ويستقرون ويكسبون رزقهم في بريطانيا دون ان يتحملوا مشقة الدفاع عنها. ولذلك، سارعت الحكومة البريطانية بتجنيد هؤلاء (الاجانب) لتهدئة مشاعر الغضب من جراء وضعهم الفريد، وكان هذا الاجراء هو العنصر الرئيسي الذي ادى الى اضعاف المعارضة اليهودية لفكرة الفرقة العسكرية الصهيونية.

وقد أعلنت الحكومة البريطانية في أغسطس 1916 موافقتها على اقتراح جابوتنسكي بتشكيل كتيبة يهودية، وذلك بينما كانت الجهود الرامية لاصدار وعد بلفور تجري على قدم وساق. وكانت النية تتجه الى جعل الفرقة يهودية خالصة، ولكن الجناح المعادي للصهيونية نجح في منع هذه الخطوة، ولذلك اطلق على الكتيبة اسم (الكتيبة 38، حملة البنادق الملكية) وتولى قيادتها الضابط البريطاني جون باترسون. وقد تلقت هذه الكتيبة تدريباتها في بريطانيا ومصر، ثم توجهت الى فلسطين. ورغم اشتراك هذه الكتيبة في الهجوم على شرق الاردن واحتلال مدينة السلط في سبتمبر 1918، فان اداءها لم يكن مرضياً حيث انتشرت الملاريا في صفوف الجنود الامر الذي أدى الى فرار الكثيرين (ومنهم بن جوريون) وتشتت الكتيبة.

ولدى دخول الولايات المتحدة الامريكية طرفاً في الحرب، وافقت الحكومة الامريكية في يناير 1918 على تشكيل كتيبة اخرى من اليهود الامريكيين والمتطوعين من كندا والارجنتين، واطلق عليها اسم (الكتيبة 39). وقد نقل قسم منها الى مصر وشرق الاردن في منتصف عام 1918، بينما وصل القسم الاعظم الى فلسطين بعد ان وضعت الحرب أوزارها.

وفي يونيه 1918، تم تشكيل كتيبة أخرى هي (الكتيبة 40) بناءً على اقتراح قائد الفرقة الاسكتلندية في فلسطين الذي دعها الى تجنيد اليهود في المناطق التي احتلتها القوات البريطانية. وقد تلقت هذه الكتيبة تدريباتها في التل الكبير ولم تشارك في الهجوم على شمال فلسطين عام 1918، ولكنها نقلت الى فلسطين في نهاية ذلك العام.

ومع نهاية الحرب العالمية الاولى، كانت تتمركز على أرض فلسطين ثلاث كتائب يهودية تضم حوالي خمسة آلاف فرد يمثلون سدس جيش الانتداب البريطاني، وقد أصبح اسمهم هو (الكتيبة العبرية) وشعارها المينوراه (وهو شعار القبالاه ثم الدولة الصهيونية فيما بعد). وبعد ان ترسخت دعائم الاحتلال البريطاني في فلسطين، بدأت الحكومة البريطانية في

تسريح تلك الكتائب ولم تعبأ بنداءات المنظمة الصهيونية العالمية من اجل زيادة عدد أفراد الكتائب والابقاء عليها ضمن القوات البريطانية. وفي عام 1921، تم حل هذه الكتائب نهائياً وانضم كثير من اعضائها الى الهاجاناه.

2 ـ فرقة البغالة الصهيونية:

وحدة عسكرية صهيونية مساعدة للجيش البريطاني شكلت عام 1915 اثر اندلاع الحرب العالمية الاولى. وكان جابوتنسكي اول من فكر في تكوين هذه الوحدة لاقتناعه باهمية التحالف مع بريطانيا للتخلص من الادارة العثمانية لفلسطين وضرورة القوة المسلحة اليهودية لبناء الدولة الصهيونية. وقد اتصل جابوتنسكي بترومبلدور ليقوما بتجنيد المتطوعين من بين المستوطنين اليهود الذين أبعدتهم السلطات العثمانية عن فلسطين الى مصر لانهم لم يكونوا رعاية عثمانيين. وكان الهدف من ذلك وضعهم تحت تصرف القوات البريطانية اثناء غزوها فلسطين. ولكن الجنرال ماكسويل، قائد القوات البريطانية في مصر آنذاك، رفض الفكرة لانه كان ضد تجنيد الاجانب، واقترح ان يقتصر دور المتطوعين على مساعدة الجيش في حمل المؤن والذخائر للقوات المحاربة في أي مكان غير فلسطين. ورغم اعتراض جابوتنسكي، وافق ترومبلدور وشكلت الفرقة من بعض اليهود المصريين وبعض اليهود الذين رحلوا الى الاسكندرية. وقد ضمت الفرقة 650 ضابطاً وجندياً و20 حصاناً للضباط والمساعدين و750 بغلاً (من هنا جاءت التسمية)، وقد اتخذت الفرقة نجمة داود شعاراً لها وكانت معظم تدريباتها تجري بالعبرية.

وفي أبريل 1915، ابحرت الفرقة الى جاليبولي بقيادة الضابط البريطاني جون باترسون، وقامت بخدمات حيوية في مجال نقل المؤن، وكانت الفرقة تشارك في القتال أحياناً. وفي نوفمبر 1915، تخلى باترسون عن قيادة الفرقة لمرضه وخلفه ترومبلدور الذي اصطدم بمشاكل تنظيمية عديدة لعدم انضباط أفرادها ولوجود صراعات عرقية بينه (وهو اشكنازي) وبين بعض الافراد من السفارد. وبعد انسحاب قوات الحلفاء من جاليبولي في نهاية العام، سرحت الفرقة واعيدت الى مصر بعد ان قتل ثمانية من أفرادها وجرح خمسة وخمسون. وقد حاول ترومبلدور والقادة الصهاينة الحيلولة دون حل الفرقة لكي يحارب أفرادها في فلسطين، ولكنها حلت رسمياً عام 1916. وفيما بعد، قبل 150 متطوعاً من افرادها السابقين في الجيش البريطاني وكونوا نواة الفيلق اليهودي. ورغم عمرها القصير، مثلت هذه الفرقة علامة بارزة ورائدة ضمن محاولات الحركة الصهيونية تشكيل قوة عسكرية ووضع مشروعهم في السياق الاستعماري والقيام

بدور الاداة لاحدى القوى الاستعمارية.

3 ـ اللواء اليهودي:

(اللواء اليهودي) وحدة عسكرية يهودية تسمى بالعبرية (هاهايل). شكلت بقرار من الحكومة البريطانية عام 1944 لتقاتل اثناء الحرب العالمية الثانية في صفوف قوات الحلفاء، الا ان جذورها تعود الى عام 1939 حينما رأى قادة التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين ان هناك امكانية لتحقيق الحلم الصهيوني المتمثل في اقامة الدولة عن طريق مساعدة الحلفاء اثناء الحرب. وقد تطوع في العام نفسه نحو 130.000 من المستوطنين اليهود في فلسطين للقتال ضد دول المحور.

وكان لجهود حاييم وايزمان في لندن، وموشي شرتوك (شاريت) في القدس، دور مهم في اقناع بريطانيا بفكرة تكوين قوة مسلحة يهودية، فسمحت الحكومة البريطانية ليهود فلسطين عام 1940 بالانضمام الى كتيبة كنت الشرقية، ومن ثم ظهرت 15 سرية يهودية خاصة نظمت بين عامي 1942 و1943 في شكل ثلاث كتائب مشاة ليشكلوا (الوحدة الفلسطينية) التي تولت اعمال الحراسة في برقة ومصر. وقد استمرت عملية الضغط على الحكومة البريطانية لتكوين القوة اليهودية المسلحة. وفي الولايات المتحدة، تبنت المنظمة الحاخامية قرارات تدعو الرئيس روزفلت لاقناع بريطانيا بتحقيق هذا المطلب. ورداً على الحجة البريطانية بعدم كفاية الاسلحة، اقترح مجلس الطوارئ الصهيوني الامريكي تسليح القوة اليهودية بالاسلحة امريكية طبقاً لقواعد الاعارة والتأجير.

وبعد تأسيسه، امضى اللواء اليهودي فترة تدريب في برج العرب القريبة من الاسكندرية في أكتوبر 1944، ثم انضم بعدها الى الجيش الثامن البريطاني في ايطاليا حيث قاتل ضد قوات المحور. وقد أسهم اللواء اليهودي في تنظيم هجرة يهود أوربا الى فلسطين. ومع انتهاء الحرب وتصاعد الصدام بين بريطانيا من ناحية والمنظمات العسكرية الصهيونية من ناحية أخرى، وتشكيل هذه المنظمات لما عرف باسم (حركة المقامة العبرية)، بدأ اللواء اليهودي في اصدار نشرة نصف اسبوعية ثم اصدر نشرة أخرى يومية. وقد انتقدت هذه النشرات سياسة الانتداب البريطاني في فلسطين، وهو ما حدا ببريطانيا الى اتخاذ قرار بحل اللواء اليهودي في صيف عام 1946 واعادة رجاله الى فلسطين حيث انضموا الى التنظيمات العسكرية الصهيونية القائمة آنذاك. وقد ظهر من بين صفوف اللواء اليهودي عدد من القادة العسكريين في اسرائيل مثر مردخاي ماكليف وحاييم لاسكوف.

التنظيمات العسكرية الثلاثة الاساسية

في عام 1948 كان التجمع الصهيوني الاستيطاني في فلسطين يضم ثلاثة تنظيمات عسكرية أساسية هي: الهاجاناه وهي كبرى التنظيمات الثلاثة وكانت خاضعة للوكالة اليهودية، ومنظمة اتسل المنبثقة عن افكار جابوتنسكي التنقيحية وكانت آنذاك بزعامة مناحم بيجين، ومنظمة ليحي وهي اصغر المنظمات وكانت قد اشتهرت باسم قائدها أبراهام شتيرن.

وقد تم بناء الجيش الاسرائيلي على هذه المنظمات الثلاث. ففي السادس والعشرين من مايو عام 1948، وفي غمرة معارك الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى، تم اعلان قيام جيش الدفاع الاسرائيلي، وذلك بتحويل منظمة الهاجاناه الى نواة لهذا الجيش، ودخول التنظيمين الأخيرين، إتسل وليحي، في دائرة هذه النواة.

1 ـ الهاجاناه:

(الهاجاناه) كلمة عبرية تعني (الدفاع)، وهي منظمة عسكرية صهيونية استيطانية، أسست في القدس عام 1920 لتحل محل منظمة الحارس.

وجاء تشكيلها ثمرة نقاشات طويلة بين قيادة التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، فكان جابوتنسكي صاحب فكرة تأسيس مجموعات عسكرية يهودية علنية تتعاون مع سلطات الانتداب البريطاني، بينما كان قادة إتحاد العمل والماباي يفضلون خلق قوة مسلحة غير رسمية مستقلة تماماً عن السلطات البريطانية وسرية بطبيعة الحال. وقد قبل في النهاية اقتراح الياهو جولمب بانشاء منظمة عسكرية سرية تحت اسم (هاجاناه وعفودا) أي (الدفاع والعمل) ثم حذفت كلمة العمل فيما بعد. وقد ارتبطت الهاجاناه في البداية باتحاد العمل ثم بحزب الماباي والهستدروت، رغم ان ميثاقها كان يصفها بأنها فوق الحزبية، وانها عصبة للتجمع الاستيطاني الصهيوني. وعكس نشاط الهاجاناه الارتباط الوثيق والعضوي بين المؤسسات الصهيونية الاستيطانية والمؤسسات العسكرية والزراعية التي تهدف الى اقتحام الارض والعمل والحراسة والانتاج، وان كان اهتمامهما الاساسي قد انصب على العمل العسكري. وفي عام 1929، شاركت الهاجاناه في قمع انتفاضة العرب الفلسطينيين، وقامت بالهجوم على المساكن والممتلكات العربية ونظمت المسيرات لاستفزاز المواطنين العرب وارهابهم. كما ساهمت في عمليات الاستيطان، وخصوصاً بابتداع اسلوب (السور والبرج) لبناء المستوطنات الصهيونية في يوم واحد. وبالاضافة الى ذلك، قامت الهاجاناه منذ تأسيسها بحماية المستعمرات الصهيونية وحراستها.

وقد تعرضت الهاجاناه لعدة انشقاقات كان أبرزها عام 1931 عندما انشق جناح من غير اعضاء الهستدروت بقيادة ابراهام تيهومي وكون تنظيماً مستقلاً سمي (هاجاناه ب.)، وهو الذي اندمج مع منظمة بيتار في العام نفسه لتشكيل منظمة إتسل. ولم تتوقف عمليات الصراع والمصالحة بين الهاجاناه والجماعات المنشقة عنها، واستمر الخلاف بشكل مستتر حتى بعد قيام الدولة.

وقد شهدت سنوات الانتفاضة العربية في فلسطين (1936 ـ 1939) تعاوناً كبيراً بين الهاجاناه وقوات الاحتلال البريطاني، وبرز التعاون بخاصة مع تعيين تشارلز وينجيت ضابطاً للمخابرات البريطانية في فلسطين عام 1936، حيث اشرف على تكوين الفرق الليلة الخاصة والسرايا المتحركة التابعة وتنسيق الانشطة بين المخابرات البريطانية وقسم المخابرات بالهاجاناه والمعروف باسم (الشاي). وفي الوقت نفسه، تعاونت القوات البريطانية والهاجاناه في تشكيل شرطة حراسة المستوطنات اليهودية والنوطريم، وكان معظم أفرادها من اعضاء الهاجاناه. وقد مرت العلاقة بين الطرفين بفترة توتر قصيرة في أعقاب صدور الكتاب الابيض عام 1939 حيث واجهته الهاجاناه بتشجيع الهجرة غير الشرعية لليهود، الا ان نشوب الحرب العالمية الثانية ادى الى استعادة علاقات التحالف القديمة، إذ اعتبرها الصهاينة بمنزلة فرصة لاستغلال التناقضات بين الاطراف المتصارعة وتحقيق مشروعهم المتمثل في اقامة الدولة الصهيونية. وهكذا وقفت الهاجاناه الى جانب بريطانيا والحلفاء وانضم كثير من اعضائها الى اللواء اليهودي للقتال في صفوف القوات البريطانية، وتصدت بشدة للهجمات الصهيونية الاخرى التي طالبت آنذاك بالانضمام الى النازي وفي مقدمتها منظمة ليحي، بل أمدت السلطات البريطانية بما تحتاجه من معلومات لتعقب عناصر تلك المنظمة واعتقالها. وفي المقابل، ساعدت بريطانيا في انشاء وتدريب القوة الضاربة للهاجاناه المسماة (البالماخ)، كما نظمت فرقة مظليين من بين أعضاء الهاجاناه للعمل في المناطق الاوربية التي احتلتها قوات النازي. ومع انتهاء الحرب، تفجر الصراع من جديد فشاركت الهاجاناه مع ليحي واتسل في عمليات تخريب المنشآت البريطانية ونسف الكباري وخطوط السكك الحديدية وهو ما أطلق عليه (حركة المقاومة العبرية) كما نشطت من جديد جهود الهاجاناه في جمال الهجرة غير الشرعية.

وقبيل إعلان قيام دولة اسرائيل، كان عدد اعضاء الهاجاناه يبلغ نحو 36.000 بالاضافة الى 3000 من البالماخ، كما اكتمل بناؤها التنظيمي، الامر الذي سهل عملية تحويلها الى جيش موحد ومحترف للدولة

الصهيونية، حيث اصدر بن جوريون في 31 مايو 1948 قراراً بحل الاطار التنظيمي القديم للهاجاناه وتحويلها الى جيش الدفاع الاسرائيلي. ولا شك في ان حجم الهاجاناه واتساع دورها بهذا الشكل يبين أهمية المؤسسة العسكرية لا في بناء اسرائيل فحسب بل في اتخاذ القرارات المتعلقة بمختلف المجالات فيها ايضاً.

2 ـ البالماخ:

(البالماخ) اختصار للعبارة العبرية (بلوجوت ماحاتس)، أي (سرايا الصاعقة)، وهي القوات الضاربة للهاجاناه التي شكلت عام 1941 لتعمل كوحدات متقدمة وقادرة على القيام بالمهام الخاصة اثناء الحرب العالمية الثانية، وذلك بالإضافة الى امداد الهاجاناه باحتياطي دائم من المقاتلين المدربين جيداً. ويعد يتسحاق ساريه مؤسسها الفعلي وأول من تولى قيادتها.

وقد ارتبطت البالماخ منذ البداية بحركة الكيبوتس وحزب المابام. وقد تميز أفراد هذه القوات بدرجة عالية من التثقيف السياسي الذي يركز على مبادئ الصهيونية العمالية. كما تلقوا تدريباً مناسباً في جالات الطيران والبحرية واستخدام الرادار واعمال المخابرات. وقد شكلت البالماخ عدة وحدات لتقسيم العمل داخلها، ومن ابرز تلك الوحدات: (دائرة الجوالين) التي تولت بالتعاون مع مصلحة المعلومات اعداد ملفات تتضمن معلومات تفصيلية عن القرى الفلسطينية، و(الدائرة العربية) التي شاركت في الحملة البريطانية ضمن قوات حكومة فيشي في سوريا ولبنان، و(الدائرة البلقانية) التي تكونت من بعض اليهود المهاجرين من دول البلقان والدانوب، للقيام باعمال التجسس داخل هذه البلدان، و(الدائرة الالمانية) التي ضمت عدداً من اليهود الذين تم تدريبهم ليكتسبوا النمط الالماني في السلوك بالاضافة الى إجادة اللغة الالمانية وذلك للتسلل الى معسكرات الاسرى الالمان والحصول منهم على معلومات. ومن أهم وحدات البالماخ، (وحدة المستعربين) (بالعربية: المستعرفيم) التي ضمت عناصر تجيد اللغة العربية ولديها المام بالعادات والتقاليد العربية، وذلك للتغلغل في اوساط الفلسطينيين والحصول على معلومات تتصل باوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقيام بعمليات اغتيال للعرب.

وقد عملت البالماخ خلال عامي 1941 و 1942 بتنسيق تام مع القوات البريطانية في فلسطين، وتلقى أفرادها تدريباً مكثفاً على ايدي خبراء الجيش البريطاني للقيام بعمليات خلف الخطوط الالمانية في حالة نجاح

قوات النازي في احتلال فلسطين.

وعند نهاية الحرب، كانت البالماخ تضم نحو 2000 فرد موزعين على 11 سرية، وكان ثلث القوات تقريباً من الفتيات. ومنذ خريف 1945 وحتى صيف 1946، شاركت البالماخ ـ بالتعاون مع اتسل وليحي ـ في اعمال عسكرية ضد القوات البريطانية في فلسطين شملت نسف خطوط السكك الحديدية والكباري ومحطات الرادار، واغراق السفن البريطانية وغير ذلك من اعمال التخريب فيما عرف باسم حركة المقاومة العبرية. ومع تصاعد الصدام بين الطرفين واكتشاف القوات البريطانية عدداً من مخازن السلاح الرئيسية للهاجاناه، صدرت الاوامر للبالماخ بتوجيه جهودها نحو تشجيع الهجرة الشرعية الى فلسطين وتأمينها.

وفي عام 1948، كانت البالماخ القوة الرئيسية التي تصدت للجيوش العربية في الجليل الاعلى والنقب وسيناء والقدس، وخسرت في تلك المعارك اكثر من سدس افرادها البالغ عددها آنذاك نحو 5000.

وعقب قيام اسرائيل مباشرة، وكانعكاس للصراع السياسي بين الماباي والمابام، ظهر اصرار بن جوريون على حل البالماخ التي كانت في نظره تمثل اتجاهاً يسارياً، وذلك من اجل تأسيس الجيش المحترف المستقل عن الاحزاب. وقد أدى ذلك الى خلافات شديدة، الا ان قيادة البالماخ قبلت في النهاية، وعلى مضض، مسألة الحل هذه.

وقد شكلت البالماخ القوام الاساسي لقوات الصاعقة في جيش الدفاع الاسرائيلي، ومن بين صفوفها ظهر أبرز قادة اسرائيل العسكريين من امثال آلون ورابين وبارليف واليعازر وهور.

3 ـ اتسل وليحي (شتيرن):

1 ـ إتسل

(إتسل) اختصار للعبارة العبرية (إرجون تسفاي ليومي بارتس اسرائيل) أي (المنظمة العسكرية القومية في ارض اسرائيل) وتعرف ايضا باسم (الارجون). وهي منظمة عسكرية صهيونية تأسست في فلسطين عام 1931 من اتحاد أعضاء الهاجاناه الذين انشقوا على المنظمة الام وجماعة مسلحة من بيتار، وكان من أبرز مؤسسيها: روبرت بيتكر ـ الذي كان أول رئيس للمنظمة ـ وأبراهام يتهومي (سيلبر) وموشي روزنبرج ودافيد رازئيل ويعقوب ميردور. وقد بنيت المنظمة على افكار فلاديمير جابوتنسكي عن ضرورة القوة اليهودية المسلحة لاقامة الدولة، وعن حق كل يهودي في دخول فلسطين. وكان شعار المنظمة عبارة عن يد تمسك

بندقية وقد كتب تحتها (هكذا فقط).

وفي عام 1937، توصل رئيس إتسل آنذاك أبراهام يتهومي الى اتفاق مع الهاجاناه لتوحيد المنظمتين، وأدى ذلك الى انشقاق في إتسل حيث لم يوافق على اقتراح يتهومي سوى أقل من نصف الاعضاء البالغ عددهم 3000، بينما رأت الاغلبية ضرورة الحفاظ على استقلال المنظمة. وفي عام 1940، حدث الانشقاق الثاني بخروج جماعة أبراهام شتيرن التي شكلت فيما بعد منظمة ليحي نظراً لاختلافهم بشأن الموقف الواجب اتخاذه من القوى المتصارعة في الحرب العالمية الثانية، حيث رأى اعضاء شتيرن ضرورة تدعيم ألمانيا النازية لتلحق الهزيمة ببريطانيا ومن ثم يتم التخلص من الانتداب البريطاني على فلسطين ويصبح بالامكان تأسيس دولة صهيونية، في حين اتجهت المنظمة الام الى التعاون مع القوات البريطانية وبخاصة في مجال المخابرات.

وحتى عام 1939، كانت أنشطة اتسل موجهة بالأساس ضد الفلسطينيين. وبعد صدور الكتاب الابيض، اصبحت قوات بريطانيا في فلسطين هدفاً لعمليات تخريبية من جانب المنظمة فضلاً عن قيامها بتشجيع الهجرة غير الشرعية الى فلسطين. ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية توقفت انشطة اتسل ضد القوات البريطانية، وبدأ التعاون بينهما للتصدي النازي. الا ان الصدام سرعان ما تكرر من جديد عقب انتهاء الحرب، حيث تزايد التنسيق بين اتسل وليحي والهاجاناه لضرب المنشآت البريطانية في فلسطين ضمن ما اطلق عليه (حركة المقاومة العبرية). وخلال تلك الفترة، أخذ دور مناحم بيجين ـ زعيم اتسل الجديد ـ في البروز بشكل واضح.

وكان للعمليات الارهابية التي قامت بها اتسل ضد المزارعين الفلسطينيين دور كبير في ارغام بعض هؤلاء المزارعين على مغادرة البلاد. كما لجأت المنظمة الى الهجوم على السيارات العربية المدنية، ونفذت بالتعاون مع ليحي وبمباركة الهاجاناه مذبحة دير ياسين الشهيرة في 9 أبريل 1948.

وبعد قيام اسرائيل، أدمجت المنظمة في جيش الدفاع الاسرائيلي، بعد مقاومة من جانبها لهذا الدمج، وبعد حزب حيروت امتداداً لايديولوجيا المنظمة الارهابية. وقد كرم الرئيس الاسرائيلي قيادات إتسل في نوفمبر 1968 تقديراً لدورهم القيادي في تأسيس دولة اسرائيل.

ب ـ ليحي (شتيرن)

و(ليحي) اختصار العبارة العبرية (لوحمي حيروت يسرائيل) أي

(المحاربون من اجل حرية اسرائيل)، وهي منظمة عسكرية صهيونية سرية اسسها ابراهام شتيرن عام 1940 بعد انشقاقه هو وعدد من انصاره عن اتسل (سميت شتيرن بعد موت مؤسسها). وقد اطلق المنشقون على انفسهم في البداية اسم (إرجون تسفاي ليومي بإسرائيل) أي (المنظمة العسكرية القومية في اسرائيل)، تمييزاً عن اسم المنظمة الام، ثم تغير فيما بعد الى (ليحي). ومنذ عام 1942، اصبحت المنظمة تعرف ايضاً باسم مؤسسها شتيرن بعد مقتله على ايدي سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين. وقد تركزت الخلافات التي ادت الى الانشقاق حول الموقف الواجب اتخاذه من القوى المتصارعة في الحرب العالمية الثانية، حيث اتجهت اتسل الى التعاون مع بريطانيا، بينما طرحت جماعة شتيرن الوقوف الى جانب ألمانيا النازية للتخلص من الاحتلال البريطاني لفلسطين ومن ثم اقامة الدولة الصهيونية.

ورغم ان ليحي لم تر هتلر الا بوصفه قاتل اليهود، الا انها بررت لنفسها ـ حسب قول شتيرن ـ (الاستعانة بالجزار الذي شاءت الظروف ان يكون عدواً لعدونا)! واعتبرت ليحي ان الانضمام لجيش (العدو) البريطاني يعد جريمة، وسعت في المقابل للاتفاق مع ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية وان كان سعيها قد باء بالفشل. ونفذت المنظمة بعض العمليات التخريبية ضد المنشآت البريطانية بالاضافة الى عمليات السلب كما حدث في السطو على البنك البريطاني الفلسطيني في سبتمبر 1940. ووصل هذا النشاط الى ذروته باغتيال اللورد موين ـ المفوض البريطاني بالقاهرة ـ في نوفمبر 1944. وقد أدى كل هذا الى صدامات بين ليحي واتسل من ناحية، وبينها وبين الهاجاناه من ناحية أخرى، حيث تعاونت الهاجاناه مع السلطات البريطانية في مطاردة اعضاء ليحي واعتقالهم.

ولابراز اهدافها وترويج مبادئها، اصدرت المنظمة دورتين هما: (هارفيت) أي (الجبهة)، و(هامامس) أي (العقل)، درجت على توزيعهما في اوساط التجمع الاستيطاني الصهيوني واعضاء اتسل والبالماخ. كما اصدرت مجلة داخلية سميت (بمحريت) أي (في العمل السري)، واعتمدت ايضاً على الدعاية الاذاعية، وكانت قد استولت عند انشقاقها على جهاز البث التابع لاتسل. والواقع ان مبادئ ليحي كانت اقرب الى الشعارات الانشائية منها الى البرنامج السياسي، (فشعب اسرائيل) ـ كما تعرفه ـ هو (شعب مختار، خالق دين الوحدانية، ومشرع اخلاقيات الانبياء، وحامل حضارات العالم، عظيم في التقاليد والبذل، وفي ارادة الحياة)، اما (الوطن) فهو (ارض يسرائيل في حدودها المفصلة في التوراة (من نهر مصر وحتى النهر الكبير ـ نهر الفرات) هي ارض الحياة يسكنها بأمان الشعب العبري

كله). وتمثلت اهداف المنظمة في (انقاذ البلاد، وقيام الملكوت (مملكة اسرائيل الثالثة)، وبعث الامة)، وذلك عن طريق جمع شتات اليهود باسرهم وذلك بعد ان يتم حل مشكلة السكان الاجانب (أي العرب) بواسطة تبادل السكان.

وقد تعرضت ليحي لعدة صراعات وهزات داخلية بدأت بعد اشهر من تشكيلها بانسحاب اثنين من ابرز المؤسسين هما هانوخ قلعي وبنيامين زرعوني، وقد انضما الى اتسل ثم انسحبا فيما بعد وسلما نفسيهما للسلطات البريطانية. وجاءت الازمة الثانية بعد مقتل شتيرن، اذ القت السلطات البريطانية القبض على عشرات من اعضاء المنظمة وحصلت منهم على اعترافات مهمة تتضمن اسماء زملائهم ومخابئ السلاح. وكادت هذه الازمات ان تؤدي الى تصفية المنظمة تماماً، الا انها استعادت قوتها بانضمام مجموعة من بيتار بزعامة يسرائيل شيف عقب هجرتهم من بولندا الى فلسطين عام 1942، وكذلك بعد نجاح اثنين من قادتها هما يتسحاق شامير والياهو جلعادي في العرب من السجن عام 1942، ثم نجاح نيثان فرديمان ـ يلين (مور) ومعه 19 من قادة ليحي في الهرب من السجن ايضاً عام 1943. الا أن صراعاً نشب من جديد بين شامير وجلعادي بسبب اختلاف الآراء حول توجهات المنظمة، وقد حسم الصراع لصالح شامير إذ تمكن من تدبير مؤامرة لاغتيال منافسه في رمال حولون.

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية، شاركت ليحي مع كل من الهاجاناه واتسل في العمليات المضادة للسلطات البريطانية ضمن ما سمي (حركة المقاومة العبرية). واستمر نشاط ليحي حتى بعد توقف الحركة عام 1946. كما شاركت في الهجوم على القرى والممتلكات العربية ونفذت مع اتسل ـ وبمباركة الهاجاناه ـ مذبحة دير ياسين الشهير في 9 أبريل 1948. ونبعد اعلان قيام اسرائيل، حلت ليحي مع غيرها من المنظمات العسكرية وادمجت في جيش الدفاع الاسرائيلي. ومع هذا، ثارت شكوك قوية حول مسئوليتها عن اغتيال برنادوت. ومع حل المنظمة، فشلت مساعي تحويلها الى حزب سياسي. وتقديراً للدور الارهابي للمنظمة، قررت الحكومة الاسرائيلية احتساب سنوات الخدمة فيها عند تقدير مكافأة الخدمة والمعاشات للموظفين، كما حصلت أرملة شتيرن على وشاح التكريم الذي أهداه رئيس اسرائيل زلمان شازار الى كل المنظمات والمجموعات التي شاركت في جهود تأسيس الدولة.

ورغم تباين الآراء حول دور ليحي، وما تخلعه بعض الكتابات الصهيونية عليها من اوصاف (الخيانة) نظراً لموقفها من النازي، فان الوقائع

التاريخية تؤكد ان المنظمة لم تحد عن الطريق الصهيوني المعتاد في القيام بدور الأداة لهذه القوة الامبريالية او تلك. ولم يكن الاسلوب الانتهازي في التحالف مع الجزار وقفاً على ليحي وحدها، والحقيقة ان موقفها في ذلك لا يزيد عن تعاون هرتزل مع الوزير القيصري بليفيه (المسئول عن المجازر ضد اليهود في روسيا القيصرية)، او اتفاق جابوتنسكي مع بتليورا الاوكراني المعروف بعدائه لليهود ابان الثورة البلشفية، او عرض حاييم وايزمان التعاون مع ايطاليا الفاشية في مجال الصناعات الكيماوية مقابل تسهيل مرور اللاجئين اليهود عبر الموانئ الايطالية، او اتفاق الهعفراه بين الوكالة اليهودية وألمانيا النازية.

الفصل الرابع عشر

الارهاب الصهيوني حتى اوسلو

يبدو ان جيل ما بعد 1967 من الصابرا (أي المستوطنين من مواليد فلسطين) رغم احجامه عن تأدية الخدمة العسكرية يبرز استعداداً اكبر لممارسة التطرف العنصري والسلوك الارهابي الدموي ازاء العرب والفلسطينيين، وقد أدى هذا الى ظهور العديد من المنظمات الصهيونية الارهابية الجديدة التي أثارت العديد من التساؤلات المهمة داخل التجمع الصهيوني وخارجه. ومما يلفت النظر ان الكتابات الاسرائيلية تتهم هذه المنظمات بالخروج على شرعية الدولة. والشرعية هنا ذات معنى زائف، لان ممارسات هذه الجماعات تصب في مجرى الشرعية العام للكيان الصهيوني الذي يقوم على الارهاب. ومحاولة فهم جماعات الارهاب الصهيوني الجديدة بصورة صحيحة لا يمكن ان تتم دون وضع هذه الجماعات في سياق تراث الإرهاب الصهيوني السابق، وهو تراث تمتلك هذه الجماعات حساً عالياً تجاهه. وقد حملت أكثر من عملية ارهابية تسميات ذات دلالة تاريخية بالنسبة لتراث الارهاب الصهيوني قبل عام 1948، مثل تسمية احدى عمليات منظمة ت. ن. ت. بلقب شلومو بن يوسف (الارهابي الصهيوني عضو اتسل الذي أعدمه البريطانيون لارتكاب حادثة مماثل في الثلاثينيات). وقد قام كثير من ارهابيي الجماعات الجديدة، ممن جرى التحقيق معهم، بالتأكيد على ان ما يقوموا به متصل تمام الاتصال مع تراث الارهاب الصهيوني السابق. حيث كانت الاجابات

تأتي على النحو التالي: (لقد عملنا كما عمل سابقاً في اتسل والهاجاناه وليحي كل من بن جوريون وبيجين وشامير).

ولقد تساءل الارهابي الصهيوني أندي جرين، عضو منظمة ت. ن. ت.، في مقابلة منشورة بالصحف الاسرائيلية قائلاً: (لا استطيع ان احصي عدد الشوارع التي تحمل اسم (ديفيد رازل) الذي زرع قنبلة في سوق عربي عام 1939 فقتل 20 شخصا. واذا كان ما فعله هو الصواب، فكيف يصبح ما أفعله أنا من قبيل الخطأ؟!).

ولا يمكن القول بان هذه الجماعات (ظاهرة هامشية) أو (دخيلة) على الكيان الصهيوني، ولا جدوى من ادعاء الانزعاج او الاندهاش او حتى الجهل، او عن التفتيش عن تبريرات نفسية خاصة او أسباب اجتماعية شاذة لهؤلاء الارهابيين. فهذه الجماعات مرتبطة تماماً بالاستيطان، ولذا تصاعد نشاطها مع تصاعد النشاط الاستيطاني. ولذا فليس غريباً ان نجد ان المستوطنات هي الارضية الديموجرافية لمنظمات الارهاب الجديدة ولعضويتها. ومما يجدر ذكره ان حركات الاستيطان النشيطة مثل جوش أيمونيم والاحزاب الاعلى صوتاً في الدعوة السياسية للاستيطان مثل هتحيا وتسوميت توفر الاطار السياسي لهذه المنظمات.

وتفسر طبيعة الوحدة الجدلية في علاقة ارهاب الدول بالجماعات الارهابية الصهيونية في السبعينيات والثمانينيات ذلك الاختفاء الهادئ لغالبية هذه الجماعات. وهو اختفاء أقرب الى (الذوبان) في اطار استمرار السمات العامة للارهاب الصهيوني الاسرائيلي. ويمكن ان نعزو هذا الاختفاء الهادئ أو (الذوبان) الذي يحدث لهذه الجماعات الى انها تلعب دور الحلقات الوسيطة المشتعلة بين ارهاب الدولة وبين ارهاب المستوطنين المسلحين. ويمكننا القول ان أهم جماعتين إرهابيتين هما جوش إيمونيم وكاخ.

جوش إيمونيم

(جوش إيمونيم) عبارة عبرية تعني (كتلة المؤمنين). وهي حركة صهيونية استيطانية ذات ديباجات دينية (حلولية عضوية) تطالب بصهيونية الحد الاقصى. والحركة ليست حزباً واما حركة شعبية غير ملتزمة الا بالحفاظ على ارض اسرائيل. ولكن رغم توجهها الديني الواضح، فانه توجه ديني في اطار حلولي، ومن ثم يتداخل الديني والقومي. وقد تأسست الحركة رسمياً في نهاية شتاء 1974 بعد ان تمردت مجموعة من اعضاء حزب المفدال على قيادة الحزب بعد ان وافقت على الانضمام الى حكومة رابين الائتلافية. ولكن تأسيس الحركة الفعلي كان بعد يونيه 1967. ومن

وجهة نظر جوش إيمونيم، يعد احتفاظ اسرائيل بالاراضي المحتلة بعد عام 1967 امراً ربانياً لا يمكن للاعتبارات الانسانية او العملية ان تجبه. ورغم ان هذه المنظمة تتحدث عن بعث الحياة اليهودية في كل المجالات فانها ركزت جل نشاطها على عملية الاستيطان وتصعيده حتى لا يمكن عودة الضفة الغربية للعرب، أي انها تحاول ان تترجم سياسة الوضع القائم الصهيونية الى وجود مادي صلب من خلال إقامة المستوطنات.

وبعد أن وصل حزب الليكود الى الحكم عام 1977 قدمت الجماعة مشروعاً للحكومة لانشاء 12 مستوطنة في الضفة الغربية (كانت حكومة العمال السابقة قد رفضت إنشاءها)، فوافقت الحكومة الجديدة وتم انشاء المستوطنات خلال عام ونصف. ثم قدمت الجماعة مشروعاً آخر عام 1978 عبارة عن خطة شاملة للاستيطان من خلال اقامة شبكة من المستوطنات الحضرية والريفية لتأكيد السيادة الاسرائيلية على المنطقة. ورغم ان الحكومة لم توافق على الخطة رسمياً فانه تم تدبير الاعتمادات اللازمة لتنفيذها تدريجياً. ويشرف الجناح الاستيطاني للجماعة (أمانا) على تنفيذ هذه المخططات ويتبعها في الوقت الحاضر حوالي 50 مستوطنة. ولكن معظم هذه المستوطنات من النوع الذي يسمى (مستوطنات الجماعة) (بالعبرية: يشوف قهيلاتي) وهي (المستوطنات المنامة) التي يعيش فيها مستوطنون يعملون في المدن الكبرى مثل تل أبيب والقدس ويقضون سحابة ليلتهم في المستوطنة. ويتراوح حجم سكان المستوطنة من 15 عائلة الى 500 عائلة. وكانت منظمة جوش إيمونيم تتمتع بتأييد قطاعات كبيرة من الرأي العام الاسرائيلي والاحزاب الاسرائيلية التي تطالب بصهيونية الحد الأقصى. وقد أصبح كثير من اعضاء الجماعة هم مديرو مجالس المناطق التي تقدم الخدمات البلدية للمستوطنين، وتحصل هذه المجالس على ميزانيتها من وزارة الداخلية.

وكان موشيه ليفنجر هو الرئيس الروحي للجماعة (وقد دخل مصح نفسية في شبابه) وقد همش قليلاً بعد تعيين دانييلا فايس سكرتيرة عمومية للجمعية. وتعبر المعية عن أفكارها في مجلة نيكوداه (العبرية) ومجلة كاونتربوينت (الانجليزية). وقد انتهت الجماعة تقريباً عام 1992 حينما رشح ليفنجر وفايس أنفسهما في الانتخابات ولم يحصلا على الاصوات الكافية ليصبحا أعضاء في الكنيست، كما ادى ترشيحهما لانفسهما الى فشل حزب هتحيا ـ الذي كان يدعم الجماعة ـ هو الاخر في الحصول على أية أصوات. وقد ظهرت جماعات أخرى صغيرة تضم المستوطنين الذين يطالبون بصهيونية الحد الأقصى.

منظمة كاخ الصهيونية/الاسرائيلية

(كاخ) كلمة عبرية تعني (هكذا) وهو اسم جماعة صهيونية سياسية ارهابية صاغت شعارها على النحو التالي: يد تمسك بالتوراة وأخرى بالسيف وكتب تحتها كلمة (كاخ) العبرية، بمعنى ان السبيل الوحيد لتحقيق الآمال الصهيونية هي التوراة والسيف (أي العنف المسلح والديباجات التوراتية) وهذه اصداء لبعض اقوال جابوتنسكي. وتضم حركة كاخ مجموعة من الارهابيين ذوي التاريخ الحافل من بينهم إيلي هزئيف، وهو صهيوني غير يهودي كان يعمل جندياً في فيتنام ثم تهود واستقر في اسرائيل. ويبدو انه ارتكب جريمة قتل وقدم للمحاكمة بتهمة قتل جاره، وحيازة سلاح بشكل غير قانوني، وكان يسمى (الذئب) او (القاتل). وقد قتل اثناء احدى الهجمات الفدائية. ومن بين مؤسسى رابطة الدفاع، يوئيل ليرنر الذي قبض عليه عام 1975 بتهمة محاولة اغتيال كيسنجر، ثم قبض عليه مرة أخرى عام 1982 بتهمة تنظيم فريق من الفتيان والفتيات للاعتداء على المسجد الاقصى. وهناك ايضاً يوسي ديان الذي اعتقل عام 1980 بتهمة محاولة اغتيال سائق تاكسي عربي. وكان قد انسحب من كاخ بسبب صراعه مع كاهانا على السلطة. وتضم الجماعة أيضاً يهودا ريختر الذي حققت معه الشرطة للاشتباه بضلوعه في مقتل أحد أعضاء حركة السلام الآن. ومع هذا يظل مائير كاهانا أهم شخصيات الحركة، التي كانت تدور حول شخصيته، وهو (مفكرها) الأساسي (إن كان من الممكن إطلاق كلمة (فكر) أو حتى (أفكار) على تصريحاته المختلفة).

ورغم ان البعض يشيرون الى كاهانا باعتباره حاخاماً فإنه لم يتلق أي تعليم ديني، بل ادعى اللقب لنفسه. عمل كاهانا بعض الوقت عميلاً للمخابرات المركزية الامريكية ولمكتب المخابرات الفيدرالية الامريكية وأسس رابطة الدفاع اليهودي في الولايات المتحدة عام 1968 التي قسمت الى مجموعات من فئتين أطلق على الاولى لقب (حيا) وهي كلمة عبرية تعني (وحش) أو (حيوان) وعلى الثانية لقب (أهل العلم والفكر). ثم نقل نشاطها الى اسرائيل عام 1971 وتخلى عن التقسيم الثنائي، وتحولت الى منظمة سياسية باسم كاخ قبيل انتخابات 1973.

وقد رشح كاهانا نفسه لانتخابات الكنيست في سنوات 1972 و 1977 و 1981 وفشل في الحصول على عدد كاف من الاصوات لانتخابه. ولكن مع تغير المناخ السياسي ونمو الديباجات الدينية اليهودية المتطرفة واليمين العلماني المتطرف وازدياد مشاعر العداء ضد العرب بدأت كاخ تتحرك من الهامش الى المركز. ولذا عندما رشح كاهانا نفسه في انتخابات عام 1984 حصل على نحو 26 الف صوت وفاز بمقعد في الكنيست. وقد تصاعدت شعبيته حتى ان استطلاعات الرأي تنبأت بفوز

حزبه بخمسة مقاعد برلمانية. ولكن المؤسسة الحاكمة أدركت خطورته على صورة الدولة الصهيونية فقامت بتعديل قانون الانتخابات بحيث تم حظر الاحزاب الداعية الى التمييز العنصري واثارة مشاعر الكراهية والعداء ضد العرب.

ويمكن القول بأن صهيونية كاخ هي الصيغة الشعبوية للصهيونية العضوية الحلولية. فالشعب اليهودي في تصوره هو شعب مختار فريد ومتميز، بل شعب مقدس، حقوقه مقدسة، ولذا فهو مكتف بذاته ومرجعية ذاته يستمد معاييره من ذاته، ولا يكترث بمعايير الشعوب الأخرى.

وكما هو الحال دائماً في المنظومات الحلولية العضوية، لا تقل الارض قداسة عن قداسة الشعب، فالإله يحل في كل من الشعب والارض بنفس الدرجة ويربط بينما برباط عضوي لا تنفصم عراه. ومن ثم فليس بإمكان الشعب اليهودي المقدس بان يفرط في حقوقه المقدسة في الارض المقدسة ويتنازل عن أجزاء منها للشعوب الاخرى (غير المقدسة).

والتوجه السياسي لجماعة كاخ هو توجه مشيحاني قوي، فخلاص الشعب اليهودي المقدس بات قريباً ولكنه لن يتحقق الا بعد ضم المناطق المحتلة وازالة كل عبادة غريبة من جبل الهيكل(الحرم القدسي الشريف والمسجد الاقصى) واجلاء جميع أعداء اليهود من ارض فلسطين.

في هذا الاطار يتناول كاهانا قضية علاقة اليهودية بالصهيونية (وبالحضارة الغربية). يتحرك كاهانا في اطار حلولي عضوي أحادي مصمت فيرفض الديباجات الصهيونية المتأثرة بالحضارة الغربية او بقيم الديموقراطية او الاشتراكية، ويؤكد ان اليهودية دين بطش وقوة. ولذا، فقد صرح بأنه لا يعرف يهودياً متديناً ليس على استعداد للقول بان ما فعله العبرانيون بالكنعانيين ايام يشوع بن نون (أي أيام ابادتهم حسب الادعاء التوراتي) لم يكن عادلاً. وقد فقدت الصهيونية حسب تصوره قوتها وطاقتها حينما انفصلت عن هذه اليهودية الباطشة، ولا سبيل لبعثها الا عن طريق ربطها بها مرة أخرى. ولذا، يطالب كاهانا بتغيير التعليم في اسرائيل تغييراً شاملاً ودمجه باليهودية كاملاً. واما بالنسبة الى أعضاء الجماعات اليهودية، فإن عليهم الهجرة الى اسرائيل إذ لا مستقبل لهم إلا هناك. وهو يرى أن يهود العالم (الشعب العضوي المنبوذ) يتعرضون لعملية إبادة جديدة، وان المؤسسة اليهودية في العالم بأسره متعفنة وخائنة لأنها لا تنبه اليهود الى الخطر المحدق بهم. ويقف الشعب اليهودي الآن على عتبات الخلاص النهائي، وسيأتي الماشيح لا محالة، وسيسود الشعب المختار كل الشعوب الاخرى.

وتترجم هذه الافكار نفسها بشأن اليهود واليهودية الى فكر محدد بشأن الدولة الصهيونية. فاسرائيل، حسب رؤية كاهانا، هي وطن الامة اليهودية، ومن ثم فإن اعتناق اليهودية يكون هو الاساس الوحيد لاكتساب الجنسية الاسرائيلية. فالدولة الصهيونية تخضع لشريعة التوراة وحسب، ولذا فهي اما أن تكون دولة يهودية تستند الى التوراة او دولة ديموقراطية.

والدولة الصهيونية التي سيعبر اليهودي من خلالها عن هويته الفريدة المتميزة دولة عضوية تقوم على وحدة السلالة ونقاء الدم، كما تقوم على اساس إعلان السيادة اليهودية المطلقة على فلسطين من خلال حياة مستقلة في إطار من الثقافة اليهودية المهيمنة على جميع مناحي الحياة في إسرائيل.

لكل هذا يظل من لا يعتنق اليهودية غريباً لا يتمتع بأية حقوق سياسية او ثقافية. ولن تسمح الدولة اليهودية العضوية بتكاثر هؤلاء الغرباء (كالبراغيث) (على حد قول كاهانا) حتى لا يهددوا أمنها، ولن يمنحوا سوى اقامة مؤقتة لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد، وذلك بعد خضوعهم لتحقيق دقيق في نهاية كل عام. وعلى العرب الذين يبقون داخل الدولة اليهودية ان يقبلوا العبودية، ويبقوا كعبيد ودافعي ضرائب. وسيمنع غير اليهود (أي العرب) من الاقامة في القدس ومن شغل الوظائف المهمة، ومن التصويت في انتخابات الكنيست. كما سيمنع اختلاطهم باليهود في كثير من الاماكن العامة كحمامات السباحة والمدارس، وسيحظر بطبيعة الحال الزواج المختلط. وكما هو ملاحظ، فإن ثمة تشابهاً كبيراً بين قوانين كاهانا (الصهيونية العضوية) وقوانين نورمبرج (النازية العضوية) كما بين مايكل إيتان عضو الكنيست الاسرائيلي. وتطالب كاخ بإزالة الآثار الاسلامية كافة.

ويوزع كاهانا خريطة لاسرائيل تمتد من النيل الى الفرات، إذ لا مجال للشك، حسب رأيه، فيما ورد في التوراة من أن (أرضنا تمتد من النيل الى الفرات). والعنصر الجغرافي مهم جداً في فكره، كما هو الحال في الفكر الصهيوني بشكل عام. فالارض ـ كما يقول ـ هي الوعاء الذي يضم جماعة من البشر عليهم ان يحيوا فيها حياة متميزة عن حياة غيرهم من الجماعات الانسانية وان يحققوا رسالتهم القومية والتراثية. والدولة هي الأداة لتحقيق ذلك الغرض ولتمكين الشعب من بلوغ غاياته، فالامة هي صاحبة الارض وسيدتها، والناس هم الذين يحددون هوية الارض وليس العكس، والشخص لا يصبح اسرائيلياً لانه يعيش في ارض اسرائيل ولكنه يصبح اسرائيلياً عندما ينتمي الى شعب اسرائيل ويغدو جزءاً من الامة الاسرائيلية.

ولا يمكن تفسير تطرف كاهانا الا بالعودة الى النسق الصهيوني. فهو نسق يحتوي على بذور معظم هذه الافكار والممارسات. واذا كان هرتزل قد تحدث عن طرد السكان الاصليين بشكل ليبرالي عام، فذلك لانه لم يكن (في أوربا) مضطراً الى الدخول في التفاصيل المحددة في تلك المرحلة. لقد كان مشغولاً بالبحث عن احدى القوى العظمى لتقف وراءه وتشد أزره وتعضده وتقبله عميلاً لها، ولذا كانت الصياغات العامة بالنسبة الى السكان الاصليين مناسبة تماماً في تلك المرحلة. واذا كانت الدولة الصهيونية قد احتفظت بعد عام 1948 بالديباجة الاشتراكية، فذلك لأنها كانت قد (نظفت) الارض من معظم العرب، وكان بوسعها ان تكبل الاقلية المتبقية بمجموعة من القوانين وان تتحدث عن الاشتراكية وعن الإخاء الانساني. واما الآن، فلقد زادت التفاصيل واحتدمت الازمة وتصاعدت المقاومة. وهكذا، فان الديباجات تسقط، وما كان جنينياً كامناً أسفر عن وجهه وبات صريحاً كاملاً.

وعلى مستوى الممارسة قامت كاخ بتنظيم مسيرات في النصف الاول من الثمانينيات للتحرش بالسكان العرب في فلسطين التي احتلت عام 1948 (وإقناعهم) بأنهم ليس أمامهم مفر من الرحيل عن (أرض إسرائيل). كما قامت بأنشطة ارهابية سرية شملت الاعتداء على الأشخاص والاضرار بالممتلكات وتخريب الاشجار والمزروعات وأحياناً القتل. ولا يوجد بين اعضاء كاخ البارزين من لم يعتقل أكثر من مرة او من ليس له ملف اجرامي في سجلات الشرطة.

وقد نقلت كاخ نشاطها منذ أواخر الثمانينيات الى الضفة الغربية حيث قاعدتها البشرية الاساسية ومقر قيادتها الموجودة في مستوطنة كريات أربع (بالقرب من الخليل).

وقد أسس كاهانا معهدين لتدريس تعاليم اليهودية وتعاليمه: (معهد جبل الهيكل) (يشيفات هارهبيت)، و(معهد الفكرة اليهودية) (يشيفات هرعيون هيهودي). كما اسس تنظيمين سريين مسلحين الاول هو (لجنة الامن على الطرق) الذي يقدر عدد أعضائه بالمئات والذي يعود الى عام 1988 ولكن لم يظهر بقوة سوي بعد عام 1993. وقد قام هذا التنظيم بتوفير مواكبة مسلحة للمواصلات العامة الاسرائيلية وسيارات المستوطنين المسافرين على طرق الضفة الغربية. ثم انتقل التنظيم الى العمل السري حيث كان ينظم حملات انتقامية ضد الفلسطينيين وممتلكاتهم في المدن والقرى وعلى الطرق، قتل وجرح بسببها عدد كبير من الاشخاص.

ولعل أكثر الاشكاليات المطروحة بشأن الارهاب الاسرائيلي بعد أوسلو وهي: العلاقة بين الدولة والمستوطنين. ويوحي اغتيال اسحق رابين

رئيس الوزراء السابق على يد مستوطن يهودي ـ في سابقة تعد الاولى في تاريخ التجمع الصهيوني ـ بأن ارهاب المستوطنين يأخذ طابعاً مستقلاً عن الدولة ان لم نقل متحدياً لهيبتها وسياساتها. وربما يعزز ذلك الايحاء عودة المستوطنين الى اتخاذ المبادرة في اعمال ارهابية مدوية من قبيل مذبحة الحرم الابراهيمي بالخليل واطلاق النار على سوق المدينة نفسها قبيل أيام من التوصل الى اتفاق اعادة الانتشار بها.

وتتجه انشطة المستوطنين الارهابية الى التبلور مرة اخرى في اشكال تنظيمية بعد فترة سابقة من الكمون ورغم قرار الحكومة الاسرائيلية حظر جماعتي كاخ وكاهاناحي، فان اسمي هاتين الجماعتين وقيادتيهما يعود الى الظهور في أعمال ارهابية متفرقة ضد الفلسطينيين.

ولعل أوضح الاشكال التنظيمية حضوراً بعد اتفاق اوسلو هو ما يسمى (بلجنة الامن على الطرق) والتي تعود أصلاً الى عام 1988. ولكنها لم تظهر بقوة سوى بعد سبتمبر 1993. ويبدو دور هذا التنظيم الاستيطاني ـ الذي يتكون من مجموعات شبه مستقلة عن بعضها ـ متمماً لصيغة الطرق الالتفافية وآلية (الحصار الجماعي).

ومن الواضح ان مجموعات الأمن على الطرق تحاول بث أقصى درجات الفزع بين الفلسطينيين لإجبارهم على التزام حالة من الوجود الهامشي حيث يتعين عليهم تحت تأثير الفزع التحرك في هامش بالغ الضيق داخل مناطق الحكم الذاتي وحولها. وتعتبر هذه المجموعات أن غايتها هي تكثيف شعور الفلسطينيين بانعدام الامن والسلامة خارج مناطق او معازل الحكم الذاتي وتأكيد انفصال هذه (المناطق/المعازل) عن بعضها البعض.

وتتغاضى الحكومات الاسرائيلية بقيادة حزبي العمل والليكود عن النشاط الارهابي لمجموعات الامن على الطرق. ويدلي قادة هذه المجموعات بتصريحات متكررة عن انشطتهم الارهابية لوسائل الاعلام الاسرائيلية دون ان يتلقوا اشارة ردع من السلطات. بل ان هذه التصريحات تحمل الطابع التفاخري الذي بات شهيراً في تاريخ الارهاب الصهيوني. ومن المعروف ان قوات الجيش الاسرائيلي تصل دائما الى أماكن الحوادث التي يرتكبها لجان الامن على الطرق بعد ان يكون أعضاء التنظيم قد غادروا المكان.

أما المنظمة الثانية فهي (دولة يهودا المستقلة) التي أعلنت انها موالية لدولة اسرائيل طالما انها متمسكة بكامل أرض اسرائيل. وهذا يعني ان المنظمة لا تدين بالولاء للدولة الصهيونية ان تخلت عن أي جزء من أرض

اسرائيل، ويصبح من حق المنظمة ان تقوم بالاستيلاء بالقوة عليها وتعلن قيام دولة يهودا التي ستقوم بالدفاع عن هذه الاراضي! وقد اقترن اسم كاخ ايضاً بتنظيمين سريين هما: ت. ن. ت (الارهاب ضد الارهاب) والسيكاريم (حملة الخناجر).

وقد انشقت الحركة بعد مقتل كاهانا (في نيويورك عام 1990 على يد مواطن امريكي من اصل مصري) الى قسمين: احتفظ الاول باسم كاخ وهو التنظيم الاكبر والاخطر، يبلغ عدد اعضائه المسجلين عدة مئات اما انصاره فهم عدة آلاف تنتمي لشرائح اجتماعية فقيرة، قليلة التعلم، متذمرة وناقمة على المؤسسة الحاكمة، وتتسم بعداء وكراهية شديدين للعرب. وتشكل العناصر المهاجرة من الولايات المتحدة (ذات التوجه الحلولي العضوي الواضح) النواة الصلبة لهذا التنظيم وقيادته.

اما القسم الثاني فهو تنظيم كاهاناحي الذي يرأسه ابن مائير كاهانا، وهذا اقل شأنا من تنظيم كاخ وان كان يقوم بنفس النشاطات الارهابية العلنية والسرية.

وفي إثر مذبحة الخليل حظرت الحكومة الاسرائيلية نشاط كل من كاخ وكاهانا حي. ولكن هذا لا يعني نهاية العنف في الكيان الصهيوني. فالعنف جزء من بنيته، كما ان كثيراً من افكار كاخ (وكاهاناحي) ترسخت في الوجدان الاستيطاني الصهيوني وتسللت للخطاب الصهيوني نفسه، رغم كل محاولات الصقل والمراوغة.

الارهاب الصهيوني/الاسرائيلي والانتفاضة

مع اندلاع انتفاضة الشعب الفلسطيني في ديسمبر 1987 اصبحت سلطات الاحتلال الاسرائيلي في مواجهة يومية مع حركة عصيان مدني تمتد جغرافياً بمسافة الضفة الغربية وقطاع غزة وتتخذ من الحجارة والعلم الفلسطيني رموزاً لمقاومة الاستعمار الاستيطاني الاحلالي الذي استهدف محو الوجود العربي الفلسطيني. وبحكم طبيعته الاستيطانية الاحلالية لجأ الاستعمار الصهيوني الى المزيد من الارهاب، فدخل حلقة مفرغة اذ جاء الرد على المزيد من الارهاب بالمزيد من الانتفاضة.

وبعد اندلاع الانتفاضة بأيام معدودة (في 22 ديسمبر 1987) اصدر القضاء العسكري حكماً على حسين ابو خاطر (29 عاماً) من مخيم النعيرات بالسجن لمدة عام بتهمة الاشتراك في مظاهرة (وكانت اقصى عقوبة من قبل شهرين فقط). ولكن المظاهرات تحولت الى سلوك يومي لمئات الآلاف من الفلسطينيين.

ولقد لجأت سلطات الاحتلال الى تكثيف آليات العقاب الجماعي من حظر تجول وحصار أمني للبيوت فضلاً عن التوسع في الاعتقالات وأحكام السجن والتعذيب والطرد والإبعاد. لكن الجهود الاسرائيلية لتطوير آلة الارهاب اتجهت أساساً الى كيفية قمع حركة الاحتجاج اليومي الجماهيري في شوارع المدن والقرى ومخيمات اللاجئين. ومن هنا يمكن ان نلحظ مأزق فشل معالجة الارهاب بالمزيد من الارهاب عندما تلجأ سلطات الاحتلال للرصاص الحي والرصاص البلاستيكي والرصاص المطاطي. وقد بدأت في اغسطس عام 1988 في استخدام ذخيرة جديدة تمزج بين المطاط (الغلاف الخارجي للطلقة) والمعدن وهو ما اسفر عن استشهاد 47 فلسطينياً في الخمسة شهور الاولى من استخدام هذه الذخيرة. وفي العام نفسه (1988) لجأت السلطات الاسرائيلية الى طائرات الهليكوبتر بتوسع لمطاردة المتظاهرين وإطلاق النار عليهم.

ثم توسع جيش الاحتلال في استخدام قنابل الغاز المسيل للدموع على نحو غير مسبوق وهو ما أسفر عن حالات اختناق بين النساء والصبية والاطفال على نحو خاص. ثم استخدمت سلطات الاحتلال قنابل غازية تدخل في نطاق أدوات الحرب الكيماوية تحتوي على مكونات كيماوية تفضي الى الاختناق والموت. وخلال عام 1988 بدأت في استخدام هذه القنابل (الامريكية الصنع) في بلدة حلحول واستشهد خمسة فلسطينيين من جرائها في قباطية خلال العام نفسه.

ولكن تكنولوجيا الارهاب المدعومة امريكياً اخفقت في قمع الانتفاضة وصبية الحجارة، فحاول اسحق رابين وزير الدفاع ان يعيد استخدام بربرية القمع البدائي فأصدر أوامره لقواته (بتكسير عظام الفلسطينيين) وكأنه كان يبحث عن لغة يفهمها من لا يعبأون بآخر منجزات تكنولوجيا قمع المتظاهرين. ولمعاونة الجنود الاسرائيليين في مهمة القمع البدائي البربري تم انتاج هراوة من ألياف زجاجية ومعدنية لتحل محل الهراوات الخشبية.

وقد حاول الاسرائيليون اكتشاف سر الحجارة فقامت ورش الجيش بتطوير مقلاع لقذف الاحجار لاستخدامه ضد المظاهرات الفلسطينية، وبدأ اولى تجاربه في مخيم بلاطة قرب نابلس.

وقد تعمقت ازمة الارهاب الصهيوني/الاسرائيلي، فالمواجهات اليومية مكشوفة أمام أعين العالم. فوجهت آلة الإرهاب جانباً من نشاطها ضد رجال الاعلام وضمن ذلك وسائل الاعلام الامريكية والغربية الحليفة للمشروع الاستيطاني. وتلقى العديد من الصحفيين والمصورين الضرب

على أيدي جنود جيش يزعم قادته أنهم يمثلون الدولة الديموقراطية الوحيدة في المنطقة. وقد بين ان الجيش الاسرائيلي قد استورد تكتيكات عصابات الموت في أمريكا اللاتينية، إذ قام جنوده (من فرقة المستعربين) والمتخفون في ملابس عربية بقتل الفلسطينيين.

وقد قامت الدولة الصهيونية برفع عدد جنود جيشها في الضفة وغزة بما يزيد عن خمس مرات مقارنة بالفترة السابقة على الانتفاضة. وبالمقابل فان ظاهرة محاكمة الجنود والضباط الذين يرفضون او يتهربون من الخدمة هناك قد طرحت نفسها بقوة على التجمع الصهيوني.

وقد أصدرت وزارة الدفاع الاسرائيلية أوامر ترخص للمستوطنين اطلاق النار فوراً على من يشتبه في شروعه في القاء الزجاجات الحارقة، وشاع ان اطلاق النار يجرب حتى ازاء من يحمل زجاجات مياه غازية. ويمكن القول بأن المستوطنين المسلحين تحولوا الى احتياطي لجيش الاحتلال يعاونه في تنفيذ سياسته الارهابية ويقوم بأعمال البلطجة الفجة التي لا تلائم الزي العسكري الرسمي الذي تطارده عدسات الاعلام العالمي. ولذا فان الشكل التنظيمي لارهاب المستوطنين الصهاينة انتقل من الجماعة شبه السرية التي تخطط لعمليات مدروسة من اغتيالات ونسف لاهداف مختارة بعناية الى عصابات يغلب على حركتها المظهر التلقائي. وتندفع هذه العصابات في موجات عنف عشوائي المهر لتحرق السيارات والمتاجر الفلسطينية في الشوارع وتختطف الاطفال الفلسطينيين وتعتدي عليهم بالضرب المفضي الى الموت أحياناً.

وتقدر حصيلة الارهاب الصهيوني الاسرائيلي اثناء الانتفاضة (من 1987 ـ 1991) بحوالي الف شهيد ونحو 90 الف جريح ومصاب و 15 الف معتقل فضلاً عن تدمير ونسف 1228 منزلاً واقتلاع 140 الف شجرة من الحقول والمزارع الفلسطينية.

ولقد ظلت السياسة الامريكية تمارس دور الراعي والحامي للارهاب الصهيوني الاسرائيلي رغم ذلك. وبعكس اتجاه تصويت الولايات المتحدة في مجلس الامن والجمعية العامة للامم المتحدة الاصرار على الوقوف الى جانب اسرائيل. وان كان صمود الانتفاضة في وجه الارهاب قد عمق انقساماً بين الادارة الامريكية وبين قطاعات من الرأي العام الامريكي.

ولكن يتعين تأكيد ان أبرز نتائج سنوات الانتفاضة هي تعميق ازمة الارهاب الصهيوني الاسرائيلي بسبب فشله في تحقيق اهدافه الاستراتيجية، اذ جاء الرد بليغاً من ابناء الشعب الفلسطيني الذين ولدوا بعد الاحتلال (1967) وكأنهم ـ رغم كثافة الارهاب الذي ظل يطاردهم في مدارسهم

وبيوتهم ـ استجابوا لنبوءة القاص الفلسطيني (يحيى يخلف) عن (تفاح الجنون) الذي أكله (الحمار الوديع) في غزة فعلم اطفالها فضيلة التمرد والثورة خروجاً عن حسابات العقل البليد وموازين القوى بين المستوطن المحتل المدجج بالسلاح وصاحب الارض والوطن الاعزل. ولذا كان لابد من الالتفاف بدلا من المواجهة، والاغواء بدلا من القمع.

الارهاب الصهيوني/ الاسرائيلي بعد أوسلو

لم يتضمن اعلان المبادئ بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية (واشنطن 13 سبتمبر 1993) والمعروف باتفاقات أوسلو نصوصاً محددة تنطوي على تعهد اسرائيلي أساسي وصريح وشامل بالتخلي عن ممارسة العنف ضد العرب. ومع هذا كان من المتصور ان توقيع اتفاقية اوسلو سيخلق واقعاً جديداً في العلاقات بين الشعب الفلسطيني وحكومة المستوطنين الصهاينة لاعتبارات عدة يمكن ان نوجزها فيما يلي:

1 ـ تراجع الاحتكاك بين الفلسطينيين والقوة العسكرية الصهيونية بسبب تقلص سلطات الاحتلال فوق مناطق تركز الكثافة السكانية للشعب الفلسطيني في الضفة وغزة.

2 ـ كان المفروض ان السوق الشرق أوسطية والمؤتمرات الاقتصادية المختلفة ستؤدي الى ظهور علاقات اقتصادية قوية بين الدول العربية (وضمن ذلك السلطة الفلسطينية) وهي علاقات تتجاوز الخلافات العقائدية والحضارية السابقة.

3 ـ كان المفروضان تقوم السلطة الفلسطينية بمكافحة (الارهاب) والقضاء على أية مقاومة للاحتلال الصهيوني، الامر الذي يعفي سلطات الاحتلال الصهيوني من هذه المهام.

وكل هذه العناصر إن هي الا تعبير عن صهيونية عصر ما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد ونهاية التاريخ، فهي تفضل اللجوء الى التفكيك من خلال آليات غير مباشرة بدلاً من المواجهة القتالية المباشرة (على أن يقوم بهذا الدور أفراد (متطرفون) يمكن التحلل من جرائمهم). وقد لوحظ انه مع مذبحة الخليل تم استنفار الجماهير العربية واستعادة الروح الجهادية والذاكرة التاريخية وهو ما يتنافى ومرامي النظام الاستعماري الجديد.

ولكن رغم كل هذا يبدو ان البنية الاستيطانية الاحلالية العنصرية للكيان الصهيوني، بما تحتويه من ارهاب حتمي، تجعل توقع تلاشي الارهاب الصهيوني أو حتى احتواؤه دون فك هذه البنية او التخلص منها أمراً شبه

مستحيل.

والجدير بالذكر ان تقارير منظمات حقوق الانسان الدولية بما في ذلك منظمة العفو كانت قد التفتت مبكراً وفور اتفاقات اوسلو الى خلو النصوص من الضمانات الاساسية اللازمة لحقوق الفلسطينيين. وجاءت ممارسات اسرائيل على الارض خلال الفترة الانتقالية (الحكم الذاتي) لتعزيز الاعتقاد بان الدولة التي لم تعلن تخليها عن عقيدتها الصهيونية العنصرية لم تتجه الى التفريط في آليات العنف الارهابي الذي طالما ظلت ولا تزال تعتمده مكوناً أساسياً في تعاملها مع الآخر (الفلسطيني والعربي).

ولقد شهدت الشهور القليلة التي تلت اتفاق اوسلو استمرار السلطات الاسرائيلية في اعمال قتل واصابة الفلسطينيين فوق اراضيهم المحتلة فضلاً عن اعتماد الاعتقال والسجن والتعذيب سياسة مستقرة في التعامل مع الشعب الفلسطيني.

واذا كانت عمليات الافراج عن اعداد من المعتقلين الفلسطينيين قد اجتذبت جهود المفاوضين واهتمام وسائل الاعلام، فان تقارير منظمات حقوق الانسان الدولية اللاحقة على اوسلو تسجل مواصلة حملات الاعتقال الجماعي (ويقول تقرير لمنظمة العفو الدولية ـ استناداً الى احصاءات رسمية ـ ان ما يزيد عن آلاف فلسطيني اعتقلتهم اسرائيل بعد سبتمبر 1993 وحتى نهاية عام 1994).

وابقت الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة بقيادة العمل او الليكود على نفس القوانين العسكرية العنصرية (التمييزية) ضد الفلسطينيين لتلاحقهم بها أينما ظلت سلطاتها فاعلة في الضفة وغزة والقدس. بل استمر اتجاه السياسات الارهابية الاسرائيلية نحو المزيد من التشدد حيث اتخذت قرارها في 5 فبراير 1995 بتمديد فترة الاعتقال الاداري في حدها الاقصى من 6 شهور الى عام كامل قابل للتجديد.

ولا يخلو تقرير لمنظمات حقوق الانسان الدولية بعد اوسلو من رصد ادانة لاتخاذ اسرائيل التعذيب سياسة معتمدة رسمية ضد الفلسطينيين. وفي عام 1997 دعا بيان لجنة الامم المتحدة اسرائيل مجدداً الى التوقف الفوري عن ممارسة التعذيب. ويلفت النظر ان حكومة رابين التي كانت تلبس ثياب الايمان بالسلام حاولت اصدار تشريعات خلال عام 1995 لاضفاء المشروعية على ممارسة التعذيب ولكنها اضطرت للتراجع تحت ضغط دولي. الا ان تجذر الارهاب العنصري داخل المؤسسات الاسرائيلية دفع المحكمة العليا في نوفمبر 1986 للاقرار للمحققين الاسرائيليين

باستخدام ما وصفه بدرجة محددة من الاجبار والضغط البدنيين للحصول على معلومات من الفلسطينيين وذلك تحت دعوى (أمن اسرائيل) والحق في مكافحة ما وصفته (بالارهاب الفلسطيني الاصولي).

وكما اسلفنا، كان من المتصور ان تنحسر ممارسات اطلاق النار والاعتقال والسجن والتعذيب وهدم المنازل مع تقلص سلطات الاحتلال فوق الضفة والقطاع ومع تقدم عملية الحكم الذاتي الفلسطيني، الا أن آليات العقاب الجماعي شهدت تطوراً في اتجاه ترسيخ أسلوب الحصار والتجويع عن طريق ما يسمى (بالإغلاق الأمني) سواء لكل أ،حاء الضفة والقطاع او لمناطق محددة منها.

وتؤكد خبرة السنوات الماضية منذ توقيع اتفاق أوسلو وبدء اعادة الانتشار الاسرائيلي ان الحكومات بقيادة حزبي العمل او الليكود تنتهج فرض الحصار والتجويع عقب أية عملية تستهدف الاسرائيليين او لأغراض الضغط على المفاوض الفلسطيني. ولا يمكن فهم ما يسمى (بالاغلاق الامني) بمعزل عن الطبيعة الاستعمارية الصهيونية التي تسعى لتحويل مناطق الحكم الذاتي الى (معازل) على غرار تجربة جنوب أفريقيا العنصرية في السابق.

كما تقترن سياسة الحصار والتجويع هذه عادةً بتهديدات ارهابية من كبار المسئولين الاسرائيليين باعادة اقتحام مناطق الحكم الذاتي لشن (عمليات تأديب) داخلها. وبحجة الامن الاسرائيلي ايضاً يمتد نشاط ارهاب الدولة الى الدول العربية وذلك في ظل الترويج لمشروع التعاون الشرق أوسطي. وتظل الاعتبارات المتحكمة في المشروع الصهيوني هي السائدة في مواجهة مقاومة الاحتلال. وتجسد حالة لبنان سطوة هذه الاعتبارات الصهيونية إذ لم يتورع شيمون بيريز (مهندس) الشرق أوسطية عن شن عدوان وحشي على لبنان في مارس وأبريل 1996 وارتكاب مذبحة (قانا).

وإذ كان هناك تصور يقضي بان المستوطنين يمارسون ضغوطاً على الحكومة الاسرائيلية لقطع الطريق على احتمال اخلاء المستوطنات وأن هذه الضغوط وصلت الى حد التهديد بالعصيان ضد الحكومة نفسها، فإن علاقة ارهاب المستوطنين بالدولة تظل تميل الى كونها أقرب الى علاقات التعاون والتكامل في اطار ثوابت المشروع الصهيوني.

وبعد مرور سنوات على اتفاق اوسلو فان الدولة الصهيونية تبقي على قوانينها التمييزية العنصرية لصالح مشروعية إرهاب المستوطنين الموجه الى الفلسطينيين. كما ان الحكومات بقيادة حزبي الليكود او العمل لم

تقترب مطلقاً من محاولة التفكير في المساس بصورة المستوطن اليهودي المسلح. ورغم مذبحة الخليل فان السلطات الاسرائيلية لم تسع مطلقاً لنزع سلاح المستوطنين، بل يحق التساؤل عن وجود تخطيط مسبق في قرار اتخذته الحكومة الاسرائيلية قبل اسابيع معدودة من اتفاق اوسلو يقضي بتحديث تسليح المستوطنين والسماح بحرية حركة مطلقة في تجولهم باسلحتهم بالضفة وغزة (القرار صدر في مارس 1993).

ويؤكد المفكر والباحث الاسرائيلي اسرائيل شاهالو ان ثمة علاقة وثيقة بين الدولة والجيش والمستوطنين في القضايا الامنية بعد اتفاق اوسلو. كما يرصد التحول في خصائص المستوطن اليهودي من اجل الكيبوتس بوصفه (مزارعاً أو عاملاً مسلحاً) الى رجل المستوطنات الامنية والدينية بوصفه (موظفاً ومجنداً لدى جهاز الدولة). فأعتى المستوطنين اليهود تطرفاً هم بالاساس يعملون كموظفين مدنيين او عسكريين يعيشون على أموال ودعم الحكومة الاسرائيلية. ومع حلول النصف الثاني من التسعينيات، تقدر نسبة الموظفين التابعين لأنشطة الدولة بين المستوطنين بأكثر من الثلثين.

والحكومة الاسرائيلية تبدو بعد اوسلو رهينة لميول المستوطنين المتطرفة والارهابية ولذا فإنها لم تبد بعد أي استعداد للتخفف بجدية من بعض مهامها القمعية والارهابية الرسمية ضد الفلسطينيين في ظل التفاوض مع قيادتهم.

ومن الواضح ان عمليات الارهاب المؤسسية، أي التي تقوم بها أجهزة الدولة الصهيونية، لا تزال نشيطة لاقصى درجة، الامر الذي يتضح في اغتيال الشهيد (المهندس) يحيى عياش، وفي محاولة اغتيال خالد مشعل، ومن خلال استخدام سلاح لا تزال هويته غير معروفة، وان كان يبدو أنه من الاسلحة الميكروبية التي تحظر هيئة الامم استخدامها.

وفي ضوء خبرة ما بعد أوسلو يمكن القول بان حدود وأشكال الارهاب الصهيوني الاسرائيلي قد انحسرت جزئياً على رقعة الجغرافيا وذلك بحكم تسلم الحكم الذاتي لسلطته في أكثر من بقعة بالضفة والقطاع، ولكن يبقى صحيحاً ان الدوافع التاريخية المزمنة لهذا الارهاب لم تنتف بعد.

مذبحتان صهيونيتان/ اسرائيليتان بعد أوسلو: مذبحة الحرم الابراهيمي ومذبحة قانا

لم تغير اتفاقية أوسلو ـ كما أسلفنا ـ من طبيعة الكيان الصهيوني الاستيطانية الاحلالية فقد استمر مسلسل القمع والمذابح. ونتناول هنا

أهم مذبحتين: مذبحة الحرم الابراهيمي ومذبحة قانا (التي ارتكبت في عصر يبريس الليبرالي الرحيم!)

1 ـ مذبحة الحرم الابراهيمي (25 فبراير 1994 ـ الجمعة الاخيرة في رمضان)

بعد اتفاقات أوسلو أصبحت مدينة الخليل بالضفة الغربية موضع اهتمام خاص على ضوء أجواء التوتر التي احاطت بالمستوطنين الاسرائيليين بعد طرح السؤال: هل يجري اخلاء المستوطنات وترحيل المستوطنين فيها في اطار مفاوضات الحل النهائي بين الفلسطينيين والإسرائيليين؟ وتكمن هذه الاهمية الخاصة في أن مدينة الخليل تعد مركزاً لبعض المتطرفين من المستوطنين نظراً لاهميتها الدينية. وان جاز القول فالخليل ثاني مدينة مقدسة في أرض فلسطين بعد القدس الشريف.

وفجر يوم الجمعة الاخيرة من شهر رمضان الموافق 25 فبراير عام 1994 سمحت القوات الاسرائيلية التي تقوم على حراسة الحرم الابراهيمي بدخول المستوطن اليهودي المعروف بتطرفه باروخ جولدشتاين الى الحرم الشريف وهو يحمل بندقيته الآلية وعدداً من خزائن الذخيرة المجهزة. وعلى الفور شرع جولدشتاين في حصد المصلين داخل المسجد. واسفرت المذبة عن استشهاد 60 فلسطينياً فضلاً عن اصابة عشرات آخرين بجراح، وذلك قبل ان يتمكن من تبقى على قيد الحياة من السيطرة عليه وقتله.

ولقد تردد أن أكثر من مسلح اسرائيلي شارك في المذبحة الا ان الرواية التي سادت تذهب الى انفراد جولدشتاين باطلاق النار داخل الحرم الابراهيمي. ومع ذلك فان تعامل الجنود الاسرائيليين والمستوطنين المسلحين مع ردود الفعل التلقائية الفورية إزاء المذبحة التي تمثلت في المظاهرات الفلسطينية اتسمت باستخدام الرصاص الحي بشكل مكثف، وفي غضون أقل من 24 ساعة على المذبحة سقط 53 شهيداً فلسطينياً ايضاً في مناطق متفرقة ومنها الخليل نفسها.

وسارعت الحكومة الاسرائيلية الى إدانة المذبحة معلنة تمسكها بعملية السلام مع الفلسطينيين. كما سعت الى حصر مسئوليتها في شخص واحد هو جولدشتاين واكتفت باعتقال عدد محدود من رموز جماعتي كاخ وكاهانا ممن اعلنوا استحسانهم جريمة جولدشتاين، واصدرت قراراً بحظر نشاط المنظمتين الفج. ولكن من الواضح ان كل هذه الاجراءات اجراءات شكلية ليس لها مضمون حقيقي. فالنخبة الاسرائيلية، وضمنها حكومة ائتلاف العمل، تجاهلت عن عمد المساس بأوضاع المستوطنين ومن ذلك

نزع سلاحهم.

ولا شك في ان مستوطنة كريات أربع في قلب الخليل (وهي المستوطنة التي جاء منها جولدشتاين) تمثل حالة نماذجية سافرة لخطورة ارهاب المستوطنين الذين ظلوا يحتفظون باسلحتهم، بل حرصت حكومة العمل، ومن بعدها حكومة الليكود على الاستمرار في تغذية أحلامهم الاستيطانية بالبقاء في الخليل ودغدغة هواجسهم الأمنية بالاستمرار في تسليحهم في مواجهة الفلسطينيين العزل. بل تعمدت حكومتا العمل والليكود كلتاهما تأجيل اعادة الانتشار المقرر بمقتضى الاتفاقات الفلسطينية الاسرائيلية كي تضمن لحوالي أربعة آلاف مستوطن يهودي بالخليل اسباب البقاء على أسس عنصري متميزة (أمنية ومعيشية) في مواجهة مائة الف فلسطيني لا زالوا معرضين لخطر مذابح أخرى على طراز جولدشتاين.

وتكمن أهمية جولدشتاين في انه يمثل نموذجاً للارهابي الصهيوني الذي لا يزال من الوارد ان تفرز امثاله مرحلة ما بعد أوسلو. ورغم ان مهنة جولدشتاين هي الطب فقد دفعه النظام الاجتماعي التعليمي الذي نشأ فيه كمستوطن الى ممارسات عنصرية اشتهر بها ومنها الامتناع عن علاج الفلسطينيين، وجولدشتاين يطنطن بعبارات عن استباحة دم غير اليهود ويحتفظ بذكريات جيدة من جيش اسرائيل الذي تعلم اثناء خدمته به ممارسة الاستعلاء المسلح على الفلسطينيين. وهو في كل الاحوال كمستوطن لا يفارقه سلاحه اينما ذهب.

ومما يبرهن على قابلية تكرار نموذج جولدشتاين مستقبلاً قيام مستوطن آخر باطلاق النار في سوق الخليل على الفلسطينيين العزل بعد ثلاثة أعوام من مذبحة الحرم الإبراهيمي. وقد تحول قبر جولدشتاين الى مزار مقدس للمستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية!

2 ـ مذبحة قانا (18 أبريل 1996):

وقعت مذبحة قانا في يوم 18 أبريل 1996، وهي جزء من عملية كبيرة سميت (عملية عناقيد الغضب) بدأت في يوم 11 من الشهر نفسه واستمرت حتى 27 منه حين تم وقف اطلاق النار. وتعد هذه العملية الرابعة من نوعها للجيش الاسرائيلي تجاه لبنان بعد اجتياح 1978 وغزو 1982، واجتياح 1993، واستهدفت 159 بلدة وقرية في الجنوب والبقاع الغربي.

كانت هذه العملية تستهدف ثلاثة أهداف أساسية غير تلك التي أعلنها القادة والزعماء الرسميون والاعلاميون في إسرائيل: الحد من عملية تأكل هيبة الجيش الاسرائيلي، ومحاولة نزع سلاح حزب الله او على الأقل

تحجيمه وتقييد نشاطه من خلال الضغط الى الدرجة القصوى على القيادتين اللبنانية والسورية لتحقيق هذا الهدف، ورفع معنويات عملاء اسرائيل في جيش لبنان الجنوبي الموالي للكيان الصهيوني الذي يعيش جنده وقادته حالة رعب وقلق وارتباك وخوف على المصير المتوقع بعد الوصول لتسوية نهائية للوضع في لبنان. وكانت الزعامات الصهيونية في إسرائيل قد أعلنت ان الهدف من وراء هذه العملية هو أمن مستعمرات الشمال وأمن الجنود الاسرائيليين في الحزام المحتل في جنوب البنان، الا ان المراقبين رصدوا تصريحات لوزراء الدفاع والخارجية، بل شيمون بيريز نفسه (رئيس وزراء اسرائيل في ذلك الوقت) تشير للأهداف الثلاثة التي ذكرناها سلفاً.

ولا يمكن تجاهل اقتراب موعد الانتخابات الاسرائيلية ورغبة رئيس الوزراء (شيمون بيريز) آنذاك في استعراض سطوته وجبروته امام الناخب الاسرائيلي حتى يواجه الانتقادات التي واجهها له المتشددون داخل اسرائيل بعد الخطوات التي قطعها في سبيل تحقيق هذا قدر يسير من التفاهم مع العرب.

فمنذ تفاهم يوليه 1993 الذي تم التوصل اليه في اعقاب اجتياح 1993 المعروف بعملية (تصفية الحسابات)، التزم الطرفان اللبناني والصهيوني بعدم التعرض للمدنيين. والتزم الجانب اللبناني بهذا التفاهم وانصرف عن مهاجمة شمال اسرائيل الى محاولة تطهير جنوب لبنان من القوات التي احتلته في غزو 1982 المعروف بعملية (تأمين الجليل). ومع تزايد قوة وجرأة حزب الله في مقاومة القوات المحتلة لجنوب لبنان فزعت اسرائيل وشرعت في خرق التفاهم ومهاجمة المدنيين قبل العسكريين في عمليات محدودة الى أن فقدت أعصابها، الامر الذي ترجمه شيمون بيريز الى عملية عسكرية يحاول بها ان يسترد بها هيبة جيش اسرائيل الذي تحطم على صخرة المقاومتين اللبنانية والفلسطينية ويستعيد بها الوجه العسكري لحزب العمل بعد أن فقد الجنرال السابق رابين باغتياله.

ومما يعد ذا دلالة في وصف سلوك الاسرائيليين بالهلع هو حجم الذخيرة المستخدمة مقارنة بضآلة القطاع المستهدف. فرغم صغر حجم القطاع المستهدف عسكرياً وهو جنوب لبنان والبقاع الغربي الا ان طائرات الجيش الاسرائيلي قامت بحوالي 1500 طلعة جوية وتم اطلاق اكثر من 32 الف قذيفة، أي ان المعدل اليومي لاستخدام القوات الاسرائيلية كان 89 طلعة جوية، و 1882 قذيفة مدفعية.

وقد تدفق المهاجرون اللبنانيون على مقار قوات الامم المتحدة المتواجدة

بالجنوب ومنها مقر الكتيبة الفيجية في بلدة قانا. فقامت القوات الاسرائيلية بقذف الموقع الذي كان يضم 800 لبنانياً (الى جانب قيامها بمجازر أخرى في الوقت نفسه في بلدة النبطية ومجدل زون وسحمر وجبل لبنان وعاث في اللبنانيين المدنيين العزل تقتيلاً).

واسفرت هذه العملية عن مقتل 250 لبنانياً منهم 110 لبنانيين في قانا وحدها، بالاضافة للعسكريين اللبنانيين والسوريين وعدد من شهداء حزب الله. كما بلغ عدد الجرحى الاجمالي 368 جريحاً، بينهم 359 مدنياً، وتيتم في هذه المجزرة اكثر من 60 طفلاً قاصراً.

وبعد قصف قانا سرعان ما تحول هذا الى فضيحة كبرى لاسرائيل أمام العالم فسارعت بالاعلان ان قصف الموقع تم عن طريق الخطأ. ولكن الادلة على كذب القوات الاسرائيلية بدأت تظهر وتمثل الدليل الاول في فيلم فيديو تم تصويره للموقع والمنطقة المحيطة به اثناء القصف وظهرت فيه لقطة توضح طائرة استطلاع اسرائيلية بدون طيار تستخدم في توجيه المدفعية وهي تحلق فوق الموقع اثناء القصف المدفعي. بالاضافة لما اعلنه شهود العيان من العاملين في الامم المتحدة من انهم شاهدوا طائرتين مروحيتين بالقرب من الموقع المنكوب. ومن جانبه علق رئيس الوزراء الاسرائيلي (شيمون بيريز) بقوله: (انها فضيحة ان يكون هناك 800 مدني يقبعون اسفل سقف من الصاج ولا تبلغنا الامم المتحدة بذلك). وجاء الرد سريعاً واضحاً، اذ اعلن مسئولو الامم المتحدة انهم أخبروا اسرائيل مراراً بوجود تسعة الاف لاجئ مدني يحتمون بمواقع تابعة للامم المتحدة. كما اعلنوا للعالم اجمع ان اسرائيل وجهت نيرانها للقوات الدولية ولمنشآت الامم المتحدة 242 مرة في تلك الفترة، وأنهم نبهوا القوات الاسرائيلية الى اعتدائها على موقع القوات الدولية في قانا أثناء القصف.

ولقد أكد تقرير الأمم المتحدة مسئولية حكومة شيمون بيريز وجيشه عن هذه المذبحة المتعمدة. ورغم الضغوط الامريكية والاسرائيلية التي مورست على الدكتور بطرس غالي أمين عام الامم المتحدة آنذاك لاجباره على التستر على مضمون هذا التقرير فان دكتور غالي كشف عن جوانب فيه، وهو الامر الذي قيل انه كان من بين اسباب اصرار واشنطن على حرمانه من الاستمرار في موقع الدولي لفترة ثانية.

وفي عام 1997 اتخذت الجمعية العامة للامم المحتدة قراراً يدعو اسرائيل لدفع تعويضات لضحايا المذبحة، وهو الامر الذي رفضته تل أبيب.

وتكتسب هذه المذبحة اهمية خاصة على ضوء ان حكومة ائتلاف العمل

الاسرائيلي تتحمل المسئولية عنها رغم ما روجته عن سعيها الصادق من أجل السلام مع العرب ودعوة شيمون بيريز لفكرة السوق الشرق أوسطية. ومن المفارقات التي تستحق التسجيل انه رغم قيامه بعملية عناقيد الغضب (ومذبحة قانا) الا انها لم تحقق أياً من أغراضها المباشرة أو غير المباشرة، فالمقاومة لا تزال مستمرة في جنوب لبنان وبيريز لم ينتخب رئيساً للوزراء.

الارهاب الصهيوني

الاسرائيلي وانتفاضة الأقصى

انطلقت انتفاضة الاقصى اعتبارا من يومي 28 و 29 سبتمبر 2000. وفي اليوم الاول، تصدى الفلسطينيون العزل باجسادهم لدخول إرييل شارون، زعيم حزب الليكود، الى حرم المسجد الاقصى في حراسة جنود الاحتلال الاسرائيلي المدججين بالسلاح. وكان هذا (الدخول) ـ الذي وصف تضليلاً بأنه (زيارة) ـ قد اتخذ شكلاً اعلامياً استعراضياً اشبه بعملية غزو شارك فيها نحو ثلاثة آلاف جندي. وعندما حاولت السلطات الاسرائيلية لاحقا التخفيف من وطأة الحدث وتداعياته، قالت انهم الف جندي فقط (!).

وفي اليوم التالي وبعد صلاة الجمعة مباشرةً، هاجم الجنود ساحة المسجد الاقصى. وقد قدم الفلسطينيون، الذين استعادوا توظيف الحجارة في نضالهم (الى جانب جرحى اليوم السابق)، سبعة شهداء. وقد جدد توديع هؤلاء الشهداء في مختلف انحاء فلسطين روح الانتفاضة وعنفوانها (آلية تشييع جنازات الشهداء)، فقد كانت جنازات الشهداء هي مشاهد غضب تحمل معاني استعادة الحياة من الموت.

ويمكن القول بان انطلاق الانتفاضة على هذا النحو يشكل صداماً بين رمزين:

الارهاب الصهيوني ممثلاً في شارون وبما يستدعيه في الذاكرة (مذبحتا قبيه وصابرا وشاتيلا)، والمسجد الاقصى الذي يحمل دلالاته الوطنية والدينية والانسانية.

وجاء اندلاع انتفاضة الأقصى بعد نحو شهرين من فشل مفاوضات كامب ديفيد الثانية، وهي المفاوضات التي أعادت التأكيد على استحالة الالتقاء بين الحدود الدنيا للمشروع الوطني الفلسطيني ولاءات المشروع الصهيوني وجوهره وأسسه. وكان فشل المفاوضات في حد ذاته كاشفاً لحقيقة عملية (أوسلو) التي لم تكن سوى اعادة انتاج للاحتلال الاستيطاني الاحلالي في فلسطين والمنطقة العربية، وعلى نحو يضمن

بقاءه واستمراره مع تحويرات غير جوهرية.

وعنف الاستجابة الاسرائيلية لانتفاضة الاقصى لم نر مثله من قبل في عمليات القمع الاسرائيلية في الماضي، رغم عنفها حينذاك، الامر الذي يدعو المرء للتوقف عنده ويجعله يتساءل عن سببه. ابتداءً يجب ان نتذكر ان ما يحدد سلوك المرء وكيفية استجابته لما يدور حوله ليس الواقع في حد ذاته، وانما هو كل من الواقع وادراك المرء له، وما يحدد هذا الادراك هو رؤية الانسان التي تحدد توقعاته. والصهاينة ليسوا استثناءً من القاعدة، فما يحدد سلوكهم هو واقعهم وإدراكهم لهذا الواقع كما تحدده رؤيتهم. وقد تناولنا هذه الرؤية عبر فصول هذا الكتاب، ولكن قد يكون من المفيد تذكير القارئ ببعض معالمها الاساسية:

1 ـ جوهر الرؤية الصهيونية للواقع هو ما نسميه (الاجماع الصهيوني) الذي يذهب الى ان فلسطين أرض بلا شعب ومن ثم لليهود حقوق مطلقة فيها، وان وجد شعب آخر على هذه الارض، فوجوده عرضي وحقوقه هامشية. هذا الاجماع هو ما يتفق عليه كل الصهاينة، متطرفهم ومعتدلهم، يمينهم ويساريهم، رأسماليهم واشتراكيهم، وهو شكل من اشكال العنف الفكري، فهو رؤية اختزالية للواقع المركب ستبعد من وجدان الصهاينة فلسطين وشعبها وتاريخها بل وجغرافيتها.

2 ـ مما عمق من العنف الادراكي لدى الصهاينة، هو تفسيرهم للعقيدة اليهودية كما بينا من قبل. فقد حولوا العهد القديم الى فلكلور الشعب اليهودي، وهو كتاب تفيض صفحاته بوصف حروب كثيرة خاضها العبرانيون ضد الكنعانيين وغيرهم من الشعوب التي أبادوا بعضها، وهو يفصل فصلاً حادا بين الشعب اليهودي المقدس والاغيار (أي غير اليهود)، بكل ما يتبع ذلك من ازدواجية في المعايير تجعل الآخر مباحا تماما وتجعل استخدام العنف تجاهه أمراً مقبولاً.

3 ـ من أهم محددات الرؤية الصهيونية الصورة الادراكية للعربي التي طورها الصهاينة، وهي التي تنزع عنه انسانيته وتجرده تماما حتى تغيبه. وتتسم هذه النظرية بتصاعد معدلات التجريد الى ان نصل الى النقطة التي يتحقق فيها النموذج الصهيوني الادراكي وهي التغييب الكامل للعرب، كما بينا من قبل.

4 ـ ولكن كما بينا من قبل هناك الهاجس الامني وعقلية الحصار الذي يشعر به الاسرائيليون، وهما ناجمان عن الاحساس العميق لدى المستوطن الصهيوني بأن العربي الغائب لم يغب، وهو احساس في جوهره صادق، فالكيان الصهيوني محاصر بالفعل ومهدد دائما، والعرب

في واقع الامر لا يمكن (الثقة بهم). لان الجماهير العربية لن تقبل حالة الظلم باعتبارها حالة نهائية رغم توقيع معاهدات السلام الكثيرة! واقصى ما يطمح اليه المستوطنون الصهاينة هدنة مؤقتة تنتهي عادةً بمواجهات عسكرية. فالصراع مع الكيان الصهيوني صراع شامل على الوجود، لان وجود الشعب الفلسطيني لا يهدد حدود الدولة الصهيونية او سيطرتها على أجزاء من الارض الفلسطينية وحسب، وانما يهدد وجودها كله.

5 ـ تولد حالة الصراع الدائمة احساس عميق باليأس (آين بريرا ـ لا خيار). والاحساس باليأس قد يؤدي في النهاية الى الفرار والهزيمة، ولكنه في المراحل الاولى يؤدي الى مزيد من العنف الفكري الذي يؤدي بدوره الى مزيد من الارهاب الفعلي، وكلما زادت المقامة الفلسطينية زاد البطش الى ان يصل المستوطن الصهيوني الى اللحظة التي يدرك فيها أن العنف لن يجدي فتيلاً امام المقامة وان تحالف اسرائيل الاستراتيجي مع الولايات المتحدة والعالم الغربي (وهذه هي آخر بنود الاجماع الصهيوني) لن يفيدها كثيرا في محاولة قمع الفلسطينيين. عندئذ سيمارس هذا المستوطن تحولاً إدراكياً إذ إنه لن يمكنه الاستمرار في الادعاءات أمام نفسه بأن فلسطين هي إرتس يسرائيل وأنها ارض بلا شعب تنتظر عودته منذ آلاف السنين، عندئذ ستسقط الاسطورة وتبدأ النهاية.

وقد كشفت الانتفاضة عن تناقضات ايهود باراك رئيس الوزراء الاسرائيلي (العلماني) الذي عاد من كامب ديفيد ليردد عبارة (مقدسات الامة اليهودية لا يمكن التنازل عنها)، و(صانع السلام) الذي عاد وفيا لتراثه الارهابي انطلاقا من رؤية المؤسسة العسكرية التي ينتمي اليها والتي تربى في احضانها. فقد بين باراك، باعتباره (التلميذ) النجيب لرابين، انه سيعيد انتاج مقولة استاذه الشهيرة بضرورة (تكسير العظام). ولا شك ان كشف حقيقة باراك كان له تأثيره على مشاركة وفعالية قطاعات، كانت هي الاقرب للسلطة الفلسطينية برئاسة ياسر عرفات، في انتفاضة الاقصى. ومع هذا من الخطأ اسقاط المقاومة المستمرة للشعب الفلسطيني خلال سنوات اوسلو السبع (اعمال فدائية واستشهادية ـ مواجهات في الشوارع ـ احتكاكات شبه يومية مع جنود الاحتلال).

واعتبارا من نهاية سبتمبر 2000 استهدف المنتفضون بالحجارة عصب المشروع الصهيوني، أي (المستوطنات)، والتي ظلت تنمو وتتوحش على حساب الارض واهلها على مدى أعوام أوسلو، حتى وصل عددها نحو 145 مستوطنة تقطع اوصال الضفة الغربية وقطاع غزة، وتقسم الوطن الفلسطيني الى معازل يستعمرها نحو 2000 ألف مستوطن يهودي، وتضع الخطوط لحدود دولة فلسطينية غير مستقلة بأي حال. يضاف الى

كل هذا طرق التفافية ومعابر ونقاط أمن، وجميعها ظلت رموزاً لإذلال متصل للشعب الفلسطيني في تنقله وحياته اليومية فوق أرضه.

ومنذ البداية استخدم الجيش الاسرائيلي الرصاص الحي، والرصاص المطاطي والمعدني (مكعب الشكل) الذي يفوق الانواع الشائعة (الاسطواني والدائري) في قدرته على اختراق عظام الضحايا وبكفاءة غير مسبوقة في تكنولوجيا قمع التحركات الجماهيرية للشعوب. وقد استخدم الجنود الاسرائيليون هذه الانواع المتكررة من الذخيرة وفق قواعد اشتباك ترخص لهم اطلاق النار على الرأس والصدر ومن خلف الضحايا لاسالة دماء أغزر وإزهاق أرواح اكثر ولتخويف وارهاب الشعب الفلسطيني ورفع تكلفة تمرده على واقع المشروع الصهيوني وما يطرحه مستقبلاً. ويفسر ذلك ارتفاع عدد الشهداء في انتفاضة الاقصى مقارنةً بالانتفاضة الممتدة السابقة (87 ـ 1991). ومن الارقام ذات الدلالة في هذا السياق ان شهداء انتفاضة الاقصى في شهريها الاولين بلغوا نحو ثلاثمائة شهيد بينما تدور تقديرات شهداء انتفاضة 1987 التي استمرت زهاء ست سنوات في مجملها حول الالف شهيد. وفي السياق ذات يمكن ان نشير الى ان القيادة الاسرائيلية اسرعت، فور بدء انتفاضة الاقصى، بالترخيص باستخدام الرصاص القاتل وبقواعد الاشتباك المميتة، على عكس حالة انتفاضة 1987 حيث تطلب اللجوء الى مثل هذه المعالجة، الارهابية الدموية، الانتظار لنحو تسعة أشهر.

ومما يلفت النظر انه منذ بداية أحداث الانتفاضة، استهدفت آلة الإرهاب الاسرائيلية وبشكل مكثف الاطفال الصبية (اكثر من 90 طفلاً خلال الشهرين الاولين) وسيارات الاسعاف ورجالها (حتى يوم 23 أكتوبر كانت 24 سيارة اسعاف قد تعرضت اثناء قيامها بمهام الطوارئ في الضفة وغزة الى اصابات مباشرة برصاص جنود الاحتلال والمستوطنين وانضم عدد من رجال الاسعاف الى قافلة الشهداء والمصابين. ويضاف الى ذلك التعطيل المتعمد لحركة سيارات الاسعاف والتضييق الشامل على وصول مستلزمات العلاج والأدوية، وذلك وفق تقارير منظمات حقوقية محلية ودولية).

وسجلت انتفاضة الاقصى استخداماً واسع النطاق، من جانب اسرائيل، (للقناصة) في مواجهة حركة المتظاهرين ورماة الحجارة عند المواقع الامنية العسكرية الحصينة في الضفة وغزة. وقد ذكرت مصادر صحفية عبرية ان الجيش الاسرائيلي خفف اخيراً القيود المتعلقة بأوامر إطلاق النار على رماة الحجارة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. وقالت صحيفة هآرتس في عددها الصادر في 15 اكتوبر ان التعليمات

الجديدة التي صدرت في الايام الاخيرة الى قادة قوات الجيش الاسرائيلي في الاراضي الفلسطينية المحتلة تتسم (بمرونة معينة)، فهي تخول هؤلاء القادة والجنود العاملين تحت امرتهم بفتح النار على راشقي الحجارة الفلسطينيين في كل حالة ينطوي فيها القاء الحجارة على خطر على حياة أفراد القوات الاسرائيلية وفق تقدير القادة والجنود الاسرائيليين للحالة الملموسة.

وقد ادعت المصادر العسكرية الاسرائيلية ان التعليمات مؤقتة فقط وانها صدرت في ضوء تصاعد أعمال رشق الحجارة والمواجهات بين الفلسطينيين وقوات الاحتلال والمستوطنين اليهود في الضفة الغربية. وفي مقابلة لصحيفة هآرتس مع احد هؤلاء القناصة الاسرائيليين بالضفة (والمنشورة في عدد 20 نوفمبر 2000) قال: (إذا صرحوا للقناص بان يطلق النار فإنه يتطلع فوراً الى إصابة الرأس... الهدف بالتأكيد هو الرأس).. وقد أ:د القناص ان (اصابة الرأس ليست مشكلة، وأنه يستخدم رصاصاً قاتلاً اكبر من رصاصة البندقية م ـ 16، وهي متفوقة على رصاص البنادق الرشاشة). وتكشف المقابلة عن ان القناصة الاسرائيليين يعملون وفق قواعد اشتباك فضفافة او غائبة، فالقناص المشار اليه قال: (لا توجد كراسة بقواعد اطلاق النار). والقناص ذاته لا يعرف عدد الاطفال الذين قتلوا من جراء عمليات القنص خلال الانتفاضة سواء في موقعه او في عموم الضفة والقطاع. وبلغة باردة، راح يؤكد ان هدفه هو اطلاق النيران على الرؤوس المتحركة التي يتابعها بمنظار بندقيته الامريكية الحديثة. والتمييز الوحيد الذي استقر في ذاكرة هذا القناص ان قيادته أصدرت تعليمات بعد استشهاد الطفل محمد الدرة، قرب مستوطنة نتساريم بقطاع غزة، بان يتجنبوا قدر الإمكان استهداف رؤوس أطفال تحت سن 12 عاماً، ويوصف هذا السن بأنه (حد البلوغ) الذي اضطرت السلطات الاسرائيلية الى تحديده نتيجة غضبة وسائل الاعلام التي سجلت ما بات يصفه الفلسطينيون بخمس وأربعين دقيقة من (الموت الحي) لمحمد الدرة بين ذراعي والده (بموجب القانون الدولي الذي يعرف الطفل على انه شخص لا يتجاوز الثمانية عشرة). ولكن نص المقابلة مع القناص الاسرائيلي بالضفة لا يكشف عن أي حيرة او تردد من جانبه حتى فيما يتعلق بصعوبة تحديد ما اذا كان الهدف (الضحية) لهذا الارهاب الصهيوني فوق او تحت الثانية عشرة من العمر؟ وهل في بندقية او منظار القناص (أداة قياس للاعمار)؟!

وعلاوة على (القناصة) لوحظ استعانة اسرائيل (بوحدة المستعربين) (التي سبقت الاشارة اليها) لتنفيذ عمليات على نطاق واسع لم تعرفه

الانتفاضة السابقة. وقد ذكرت صحيفة يديعوت أحرونوت ان وحدة المستعربين المسماة (دوفدفان) عادت لتمارس كامل نشاطها. ويبدو ان القيادة السياسة والعسكرية الاسرائيلية منحت رجال هذه الوحدة فرصة (لرد الاعتبار) بعد فشلها المدوي قبل اسابيع معدودة من اندلاع الانتفاضة (الاخفاق في اعتقال او تصفية محمود ابو هنود في عملية عصيرة الشمالية بالضفة). والملاحظ ان عمليات (المستعربين) انتقلت بكثافة الى عمق المدن والبلدات التي تسيطر عليها السلطة الفلسطينية والمعروفة بالمنطقة (أ) في اتفاقات الحكم الذاتي، كما انها استهدفت حصد وتصفية القيادات الميدانية للحركة الجماهيرية للانتفاضة اولاً بأول. وبالطبع لم تستثن عناصر فتح من عمليات الاغتيال. ولوحظ ان نشاط المستعربين قد تزايد عشية قمة شرم الشيخ التي انعقدت لدفع السلطة الفلسطينية والسلطات الاسرائيلية (لاحتواء الموقف)، علما بان المستعربين كانوا قبل ايام معدودة من انعقاد القمة قد اصيبوا بصفعة جديدة حين جرى اتشاف عناصر لهم قبل تنفيذ عملية إرهابية في رام الله. وعجزت السلطات الفلسطينية عن الحيلولة دون غضب الجمهور الفلسطيني الذي اقتحم مركزاً للشرطة واقتص من اثنين من عناصر المستعربين.

وامن الامور التي يجدر ذكرها ان عدداً من المستعربين المندسين بين المتظاهرين الفلسطينيين تعرضوا للضرب خطأ من قبل الشرطة الاسرائيلية خلال مواجهة وقعت بالقرب من بوابة نابلس في البلدة القديمة في القدس. وقد ابلغ قائدة الشرطة الاسرائيلية بوجود عناصر من المستعربين وطلب منه توخي الحذر في التعامل مع المشاركين في حشد المتظاهرين!

ويعد (القناصة) و(المستعربين) من العناصر التي تحظى باهتمام خاص وبامتيازات غير عادية بين الجنود الاسرائيليين العاملين في الضفة وغزة والقدس، الامر الذي يشير، على ضوء عبارات (القناص) في مقابلة هآرتس المشار اليها سلفاً، الى تطوير الاستعمار الاستيطاني الاحلالي في فلسطين لشخصية (القاتل المحترف) الذي لا يحتاج الى تبريرات أيديولوجية لسفك دماء ضحاياه.

ولعل التركيز المبالغ فيه على (على المهنية) و(كفاءة الاداء) واخفاء حقيقة الغايات ومشروعية الوسائل والادوات هو الذي يقف وراء تساؤل الكاتب الصحفي بصحيفة معاريف كوبي نيف (عدد 12 اكتوبر 2000): (لماذا نحن غير قادرين على رؤية الفلسطينيين كآدميين؟). وقد وردت ملاحظات الكاتب في اطار تناوله التغطية الاعلامية المتميزة والكفء

لاستشهاد محمد الدرة، من جانب الصحفية الاسرائيلية ايلانا ديان، واذاعة الجيش الاسرائيلي. فقد لاحظ نيف ان ايلانا ديان ادارت مقابلة مطولة وممتازة مع والد محمد ولكنها لم تواس الاب المتأثر ولو بكلمة واحدة. وعاد نيف للتساؤل: (هل كانت إيلانا تتصرف على هذا النحو لو كان الاب يهوديا؟). الا ان ما لم يتطرق له نيف هو ايضاً: (لماذا لم تكشف اسرائيل عن اسماء القاتل او القتلة المحترفين من جنودها الذين اطلقوا النار على الدرة رغم ان موقعهم محدد ومعلوم للجميع؟!).

وقد فضح الارهاب الصهيوني ضد فلسطيني 1948 اوهام (الكفاءة) و(الحداثة) و(المجتمع الديمقراطي المتقدم) داخل اسرائيل (فلسطين 1948) وكشف عن حقائق العنصرية والخواء الانساني. وتظهر هذه العنصرية بصراحة في الاستخدام المكثف لآلة الاعلام الاسرائيلية لتعبير (المدن المختلطة) للاشارة الى وجود هؤلاء الفلسطينيين في المدن التي يقطنون فيها (والتي يفترض فيها ان تكون مدنا يهودية خالصة، لا تشوبها عناصر عربية غريبة)، والعبارة تبين طبيعة المنطق العنصري الساعي الى اوهام (النقاء العرقي) فوق أرض جرى اغتصابها وتهجير غالبية سكانها التاريخيين بالقوة والارهاب. وقد واجهت السلطات الرسمية الاسرائيلية بالرصاص وقنابل الغاز المتظاهرين الفلسطينيين في هذه المدن وفيما تطلق عليه التجمعات العربية في الشمال (الجليلي) وبخاصة ام الفحم والناصرة وصفد، فضلاً عن حيفا ويافا. ولم تحتمل ديمقراطية الاستعمار الاستيطاني الحديث محطة اذاعة عربية ومحدودة الانتشار، تبث من بلدة الناصرة (راديو 2000) وتغطي احداث الانتفاضة بأمانة. وقد تلقت هذه المحطة تهديدات رسمية قاطعة بوقف تمديد امتيازها فوراً. اما في الشوارع فقد كانت طلقات الشرطة الاسرائيلية مزودة بحاسة عنصرية ممتازة يمكنها ان تفرق بين اللحم العربي (الحلال) واللحم اليهودي (الحرام) عندما تنطلق النيران لتفريق المظاهرات او في الاشتباكات بين جموع من الجانبين. حتى العمال العرب في مستوطنة (بتاح تكفا) الشهيرة تعرضوا للتهديد وجرى احراق سيارة أجرة لمستوطن صهيوني في الناصرة لانه استمر في تشغيل سائق عربي فلسطيني. وبعد حملات الارهاب الليلية لقطعان المستوطنين اليهود على منازل فلسطيني 1948، انطلقت حملة مقاطعة من جانب المستهلكين اليهود لمتاجر ومطاعم الفلسطينيين.

ولقد ترك امتداد الانتفاضة الى داخل فلسطين 1948 أجواء قلق ممزوج بنوازع الارهاب لدى النخبة والجمهور الاسرائيليين ازاء ما يمثله استمرار وجود نحو 1.2 مليون فلسطيني فوق ارض زعمت الايديولوجيا الصهيونية

انها بلا شعب، فلجأت اسرائيل الى المزيد من الارهاب في محاولة للتغطية على فشل سياستها لفرض (الاسرلة) وعلى مدى اكثر من نصف قرن كامل على المواطنين الفلسطينيين العرب.

وإجمالاً، تجلت أزمة الارهاب الصهيوني في اللجوء الى المزيد من العنف والمجازر مع العجز المستديم في قمع الانتفاضة وكسر ارادة المنتفضين. وقد قامت عملية اوسلو، من منظور امريكي صهيوني، على أساس ان يوكل لسلطة الحكم الذاتي مهمة أمنية، وهي حراسة الاحتلال الاسرائيلي وتحصينه ضد عمليات المقاومة (المشروعة اخلاقياً ودولياً). ولكن بعد انتفاضة الاقصى، اكتشف الصهاينة والامريكيون عبث هذه المحاولة فقامت آلة الارهاب الصهيوني بمعاقبة هذه السلطة اقتصادياً وعسكرياً بمبرر عدم تعاونها امنياً وعجزها (أي السلطة الفلسطينية) عن وقف الانتفاضة والتي أخذت هي الاخرى في التطور رويداً لاستخدام السلاح دفاعاً عن الفلسطينيين (سواء بعمليات فدائية نوعية، او باطلاق النيران من البنادق محدودة المدى للشرطة الفلسطينية وهي لا تتجاوز 30 متراً دفاعاً عن التجمعات السكانية).

وانتقل الارهاب الصهيوني الى استخدام الدبابات وطائرات الهليكوبتر في غارات صباحية وليلية على المدن وبينها غزة ونابلس ورام الله. وشملت الغارات قصف احياء سكنية ومرافق خدمية واقتصادية فضلاً عن مقار للسلطة الفلسطينية وشرطتها وأجهزة أمنها، بما في ذلك الوحدة المكلفة بحماية الرئيس عرفات شخصيا (القوة 17).

وكان اختيار ساعات الليل وقطع الكهرباء عن المدن قبيل قصفها بصواريخ الدبابات والطائرات والزوارق الحربية نوعاً فريداً من ارهاب الدولة استهدف تخويف الفلسطينيين كشعب، وسلطة (الحكم الذاتي)، وقيادة (منظمة التحرير)، وهي القيادة المفترض انها في حالة تفاوض مع اسرائيل. وزاد من تفرد هذه الممارسات الاسرائيلية ان قصف المدن الفلسطينية كان يجري نقله على شاشات التلفزيون (مشاهد تعيد للأذهان التفوق الساحق للتكنولوجيا العسكرية الامريكية والاطلسية واستعراضاتها الاعلامية خلال قصف العراق وصربيا. ولكن هذه المردة بدون صدّام وميلسوفيتش، وكذا في غياب بنية تحتية عسكرية كهدف للصواريخ الذكية وكاميرات التلفزيون والاقمار الصناعية).

وصاحب هذا التصعيد العسكري (معدات حرب نظامية للقرن المقبل في مواجهة شعب مسلح بالحجارة)، تصعيد في آليات الارهاب الاقتصادي الاسرائيلي. وقد تعددت مظاهر أساليب العقاب الجماعي اقتصاديا من

اغلاق تام للضفة وغزة ومنع للعمال الفلسطينيين من الذهاب للعمل داخل اسرائيل، الى الحرمان من احد منجزات العولمة ومظاهرها (تصريحات اسرائيلية بوقف خدمة الهاتف المحمول لنحو 300 الف مشترك في الضفة وغزة في ظل ضعف شبكة الاتصالات الهاتفية أصلاً).

وقد تزايد الضغط الارهابي على مناطق الحكم الذاتي بما في ذلك القيادة الفلسطينية ذاتها، فقد تم ضرب المرافق ومقار السلطة الفلسطينية، كما تم طرد شرطتها من المعابر المشتركة بعد معارك دموية. بل ان الرئيس عرفات شخصيا هو الآخر محاصر وعاجز عن التنقل الى خارج مناطق الحكم الذاتي. وعلى سبيل المثال لا الحصر، أغلقت اسرائيل مطار غزة في وجهه ثلاث مرات خلال شهر اكتوبر.وقد أدى هذا التصعيد ان بدأت قطاعات من النخبة الاسرائيلية ذاتها تتساءل: هل من مصلحة اسرائيل انهيار أجهزة السلطة الفلسطينية وتحطيم مكانة عرفات على هذا النحو؟ وألن يؤدي مثل هذا الانهيار والتحطيم الى حالة من (الفوضى) لن تكون في صالح اسرائيل ذاتها؟ واحد الاجابات على هذا السؤال تحدث عنها الكاتب العسكري الاسرائيلي زئيف شيف تحت مسمى الحاجة الى نوع من (الردع الذكي) (هآرتس ـ عدد 22/11/2000)!.

ويلاحظ التصعيد المستمر على عدة جبهات، فقد ذكرت تقارير صحفية نشرت في تل أبيب (25 أكتوبر 2000) ان حكومة رئيس الوزراء الاسرائيلي ايهود باراك تقوم باعداد وتهيئة الجبهة الداخلية الاسرائيلية لحالة طوارئ طويلة في ظل توقعات الجيش الاسرائيلي حول استمرار وتصاعد المواجهات مع الفلسطينيين، واحتمال تفاقم الازمة الى نزاع عسكري اقليمي شامل لا سيما على الجبهة الشمالية مع لبنان وسورية. وقالت صحيفة يديعوت أحرونوت ان مكتب رئيس الحكومة الاسرائيلية يقوم الآن بتهيئة الرأي العام الاسرائيلي لامكانية ان تستمر حالة الطوارئ التي تمر بها الدولة العبرية لفترة طويلة.

وربطت الصحيفة بين (حملة التعبئة والتهيئة) هذه وبين تصريحات عديدة صدرت امس عن متحدثين رسميين باسم الحكومة والجيش الاسرائيلي. وكان المتحدث العسكري الاسرائيلي الجنرال رون كيتري اكد ان الجيش الاسرائيلي يستعد لخوض (معركة طويلة) مع الفلسطينيين. وقال كيتري ان (الجيش يستعد لمعركة طويلة مع جيراننا الفلسطينيين لان المواجهات لن تتوقف بين ليلة وضحاها).. مضيفاً (انها ظاهرة عميقة وليست قصيرة المدى).. هذا فيما كان رئيس الاركان الجنرال شاؤول موفاز قد صر خلال اجتماع لهيئة الاركان العامة للجيش الاسرائيلي أ، (المواجهات مع الفلسطينيين قد تستمر سنة على الاقل). معتبراً ان (هناك ايضاً فرصة

كبيرة لان تشتعل الجبهة مع لبنان مجدداً).. لكن موفاز قلل من مخاطر نشوب نزاع اقليمي معتبراً إنها (تبقى ضئيلة).

وتقول نفس الصحيفة انه سجل في الايام الاخيرة طلب واقبال متزايدين من جانب الاسرائيليين على استبدال القناعات القديمة الواقية من الغازات الموجودة في حوزتهم منذ حرب الخليج الثانية بقناعات جديدة صالحة للاستخدام. واشارت الى انه منذ اندلاع موجة المواجهات الحالية مع الفلسطينيين سجل ارتفاع بمئات النسب المئوية على عدد الاسرائيليين المتوجهين الى مراكز توزيع القناعات الواقية خاصة في اعقاب ما نشر أخيراً من معلومات وتقارير تتحدث عن تحركات تقوم بها قوات عراقية باتجاه الحدود مع الاردن ومع سورية وما تبعها من تهديدات أطلقها الرئيس العراقي صدام حسين بالرد على (عدوان الكيان الصهيوني) على الشعب الفلسطيني.

وقالت الصحيفة (التي نشرت في عددها الصادر بتاريخ 25 اكتوبر 2000 رقم هاتف مركز المعلومات المتعلق بمراكز ومحطات توزيع القناعات الواقية من الغازات السامة والمواد الكيميائية) ان معدل الاسرائيليين الذين توجهوا الى هذه المراكز والمحطات بلغ خلال الاسبوع الاخير حوالي عشرة آلاف شخص في اليوم.

وتلخص افتتاحية يديعوت أحرونوت صورة الوضع كما هي عليه اليوم بأنها (صعبة وعصبية ومعقدة وتنطوي على مؤشرات ودلائل فوضى وفقدان سيطرة).. وتمضي الى القول (في هذه الايام تحولت البلاد كلها الى جبهة من جيلو في ضواحي القدس وحتى مزارع شبعا في منحدرات جبل الشيخ..).

وقد وضعت مؤخراً سيناريوهات في هيئة الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية تشمل اندلاع مواجهات عنيفة محتملة داخل حدود الدولة العبرية وخارجها ايضاً. وقد أوعز رئيس اركان الجيش الاسرائيلي في الايام الاخيرة الى سلاح الجو الاسرائيلي بأن يستنفر وبعيد فوراً الى الجاهزية التنفيذية طائرات مقاتلة ومروحيات عسكرية خرجت من دائرة الخدمة العسكرية.

وتابعت الصحيفة ان هذه الخطوة تأتي لتنضم الى سلسلة خطوات وتحضيرات تم اتخاذها ويضمنها تقديم الاعلان عن بطارية صواريخ (حيتس) المعترضة للصواريخ العابرة الاولى الموجودة في حوزة جهاز الدفاع الجوي الاسرائيلي كبطارية تنفيذية بمدة شهر ونصف الشهر عن الموعد الاصلي الذي كان من المفروض ان يتم الاعلان فيه عن هذه

البطارية الاولى (في نهاية العام الحالي).

كذل طلب الجيش الاسرائيلي مؤخراً من الحكومة ميزانية عسكرية اضافية بما يمكنه من الاستعداد والتهيؤ للوضع الجديد المحتمل، وقد حولت وزارة المالية بالفعل قبل عدة ايام دفعة بقيمة 150 مليون شيكل (37 مليون دولار) على حساب الميزانية الاضافية التي طلبها الجيش.

وفي السياق ذاته ايضاً أعلن ان وزارة الدفاع الاسرائيلية طلبت من الصناعات الحربية التابعة لها مضاعفة وتيرة انتاجها من الاسلحة والذخائر، وان تهيئ طواقمها ومستخدميها لامكان العمل دون توقف كما في احوال الحرب. وفي سياق هذا التوجه الاسرائيلي الرسمي نسب الى قائد سلاح الجو الاسرائيلي الجنرال دان حلوتس قوله انه (في حال تفاقم الاوضاع في المناطق الفلسطينية، فان سلاح الجو يضطر الى تغيير طابع ووتيرة نشاطاته باتجاه القيام بعمليات مكثفة ضد تشكيلة واسعة اكثر من الاهداف).

وقد ذكر تقرير نشرته صحيفة هآرتس العبرية في عددها الصادر 18 أكتوبر 2000 أن أجهزة الاستخبارات الاسرائيلية المختلفة قررت أخيراً توحيد وتنسيق جهودها أكثر في نطاق توه لتكثيف وزيادة نشاطات الجمع والمراقبة والتجسس الاستخباراتي الاسرائيلي في مناطق السلطة الفلسطينية، وذلك في ضوء توقعات هذه الاجهزة لامكان استمرار وتصاعد فعاليات الانتفاضة التي تجتاح الضفة الغربية وقطاع غزة منذ ثلاثة أسابيع.

وجاء في تقرير الصحيفة الذي كتبه مراسلها المطلع على شئون اجهزة الامن والاستخبارات الاسرائيلي يوسي ميلمان: الاحداث الدامية الاخيرة في الاراضي الفلسطينية عززت الاقرار لدى اوساط (مجتمع الاستخبارات الاسرائيلي) بوجوب احلال نظام في توزيع العمل بين الاجهزة والاذرع المخابراتية المختلفة. فلاجل الحصول على تغطية استخبارية افضل مما يحدث، خصوصاً في ظل امكانية حصول تصعيد وتفاقم كبير في الوضع الامني كان لابد لاجهزة ووكالات المجمع الاستخباري الاسرائيلي الشباك والموساد وشعبة الاستخبارات العسكرية (أمان) ان تقرر زيادة وتعزيز التعاون وتوزيع مهام العمل فيما بينها بصورة مدروسة ومتوازنة اكثر.

ومن أشكال التصعيد الاخرى ان مصادر صحيفة عبرية أفادت ان حكومة رئيس الوزراء الاسرائيلي إيهود باراك أعطت أخيراً الضوء الاخضر للمستوطنين اليهود بإعادة إحياء وتعبئة العديد من مواقع الاستيطان (غير الشرعية) التي كان مستوطنون متطرفون أقاموها بصورة عشوائية في

انحاء مختلفة من الاراضي الفلسطينية في الضفة الغربية قبل اكثر من عام، لكن حكومة باراك قامت في حينه بتجميد عملية اقامتها وتعبئتها بالمستوطنين.

وذكرت صحيفة هآرتس في تقرير نشرته في عددها الصادر 25 أكتوبر 2000 ان عائلات من المستوطنين دخلت سرا قبل يومين الى موقع استيطاني مهجور الى الشرق من رام الله، مشيرةً الى ان هذا الموقع الاستيطاني المسمى (متسبيه حاجيت) كان قد أخلي في اطار ما يعرف بـ(اتفاق المواقع) الذي تم التوصل اليه بين مجلس المستوطنات اليهودية ورئيس الوزراء الاسرائيلي ايهود باراك قبل أكثر من عام. واضافت الصحيفة ان مؤسسات وسلطات التنظيم الاسرائيلية تبحث الان بضوء أخضر من الحكومة إمكانية اصدار التصاريح والاذون اللازمة لاعادة تعبئة عدد من مواقع الاستيطان المجمدة الاخرى في الضفة الغربية بعائلات المستوطنين وبضمها موقع (نافيه ايرز) الواقع على ما يسمى بـ(طريق آلون) في نفس المنطقة جنوب شرقي رام الله. وكان الموقع الاستيطاني الاول (متسبيه حاجيت) الذي اعيدت تعبئته مجدداً بالمستوطنين قبل ايام أقيم قبل حوالي سنتين لتخليد ذكرى مستوطنة يهودية قتلت مع صديقها على يد مقاولين فلسطينيين في منطقة (وادي القلط) شمال شرقي القدس العربية المحتلة على مسافة تبعد حوالي اربعة كيلومترات عن قرية (مخماس) الفلسطينية.

وفي اطار الحرب الالكترونية المستمرة بين العرب والدولة العبرية، منذ اندلاع انتفاضة الاقصى (سبتمبر 2000)، ابتكرت جهة اسرائيلية ـ كما يعتقد ـ فكرة ارسال فيروس جديد يختبئ هذه المرة خلف رسالة تصل عبر البريد الالكتروني يقول عنوانها ان الرسالة تحمل صوراً للشهداء الفلسطينيين.

وقد ذكرت وكالة القدس برس ان الفيروس الذي أخذ في الوصول الى عناوين اشخاص ومؤسسات عربية في الايام الاخيرة، يصل على هيئة رسالة الكترونية من شخص اسمه (احمد محمود Ahmad Mahmud)، وتزعم الرسالة ان فيها صوراً للفلسطينيين الذين قتلهم الاسرائيليون، ولكن لا يوجد فيها سوى فيروس بسيط، رغم ان أثره على جهاز الحاسوب خطير.

وثمة توجس اسرائيلي من ان تتطور الامور الى حد استدعاء قوات دولية (على غرار سوابق شهدتها مرحلة ما بعد الحرب الباردة في تيمور الشرقية ويوغسلافيا ودول افريقية عديدة). وكان تقرير منظمة العفو

الدولية الصادر في 27 أكتوبر 2000 قد تضمن ادانة واضحة للارهاب الصهيوني ورد فيه نصا يذكر ان: (القوات الاسرائيلية لجأت بصورة متكررة الى الاستخدام المفرط للقوة المميتة في ظروف لم تكن فيها حياة قوات الامن او سواهم عرضة لخطر داهم مما ادى الى قتل بغير وجه حق) و(أن الاسلحة المستخدمة لتفريق المتظاهرين الفلسطينيين تلائم المعارك الحربية بين الجيوش.. ولا تناسب مطلقاً أعمال الحفاظ على الامن اثناء مظاهرات مصحوبة بالعنف).

ومثل هذا التقرير من شأنه ان يؤسس لمشروعية وضرورة الاسراع الى توفير حماية دولية للشعب الفلسطيني ضد الارهاب الصهيوني، الامر الذي يضع حدوداً على هذا الارهاب في مواجهة انتفاضة الاقصى. الا ان الولايات المتحدة الامريكية ـ استمراراً لدورها الامبريالي وتأكيداً لعلاقتها العضوية بالمشروع الصهيوني ـ تظل توفر غطاءً دبلوماسياً في مجلس الامن سواء ضد التحقيق الدولي او القوات الدولية وحتى ضد صيغة المراقبين الدوليين. وواقع الحال ان الارهاب الصهيوني ما كان ليستمر ضد انتفاضة الاقصى بدون الدعم الامريكي. ولقد اشار المفكر الامريكي نعوم تشومسكي في مقال له حول الانتفاضة (في شهر أكتوبر 2000) الى ان التفاوض بين واشنطن وتل أبيب بدأ عقب الاسبوع الاول من انتفاضة الاقصى حول صفقة ضخمة لشراء طائرات هليكوبتر أمريكية من طراز (بلاك هول) و(اباتشي) وقطع غيار لهذه الطائرات المستخدمة في ضرب المدن الفلسطينية. وان هذه الصفقة هي الاكبر بالنسبة لسلاح الجو الاسرائيلي على مدى عقد كامل. وكانت صحيفة هآرتس قد كشفت في 18 أكتوبر عن ان باراك طلب من الرئيس الامريكي كلينتون وعلى هامش اجتماعات قمة (شرم الشيخ) مساعدات أمنية طارئة واضافية تقدر بنحو 800 مليون دولار.

وعلاوة على الدعم الدبلوماسي والعسكري للتغطية على الارهاب الاسرائيلي ولمساعدته على التعايش مع أزمته في مواجهة انتفاضة متواصلة وعصبية الارادة، كان يتعين توظيف آلة الدعاية الامريكية الصهيونية لصالح هذه التغطية. وفي هذا السياق جرى الترويج لمصطلح (وقف النار) او (وقف العنف) وكأن هناك حالة حرب بين طرفين متكافئين او شبه متكافئين.. او اصلاً بين جيشين (!). كما جرى كذلك التلاعب بمصطلحي (لندع الجيش الاسرائيلي يعمل ويقوم بواجبه) و(ضبط النفس)، وكأن قوة الارهاب الاسرائيلية تحكمها ضوابط وروادع أو أن لديها المزيد من الذي تمتنع طوعاً عن استخدامه (!). وكلا المقولتين رغم تناقضهما الظاهر قد جرى توظيفهما لصالح الارهاب الصهيوني.

وترتبط أزمة المشروع الصهيوني وإرهابه في مواجهة انتفاضة الاقصى بالاستيطان على نحو لا يحتمل التضليل او الخداع. ولقد امتدت مواجهات المنتفضين على انحاء الجسم الاستيطاني في الضفة وقطاع غزة والقدس والذي أريد له ان يشكل خريطة المعازل الفلسطينية. (مشروع الدولة في الرؤية الاسرائيلية الامريكية). ويمكن القول بأن أبرز النتائج الاولى للانتفاضة تتمثل في خلق تناقضات داخل الاسرائيليين أنفسهم حول الاستيطان في الضفة وغزة. فاستهداف المستوطنات والطرق الالتفافية والنقاط الامنية الاسرائيلية بحجارة منتفضين على استعداد للاستشهاد، واطلاق النيران والعبوات الناسفة، قد استدعى المزيد من التدابير الارهابية ومنها تزويد المستوطنين بالمزيد من السلاح وبقنابل الغاز وبسيارات مصفحة لتنقلهم وبشق طرق التفافية جديدة وبناء اسوار ترابية عالية حول هذه الطرق لتأمين مستخدميها (فكرة الحصون والابراج في الأيديولوجيا الصهيونية). وصحب كل ذلك رواج في الشراء من محلات بيع الاسلحة الشخصية، وحتى في شراء (الكمامات الواقعية) من الغازات بعد تلويح بغداد بالتعبئة دفاعاً عن فلسطين (وبصرف النظر عن مدى جدية الاعلان العراقي).

ومن جانب آخر بدأ يثور الجدل بين الاسرائيليين أنفسهم حول جدوى الاحتفاظ بالمستوطنات في الضفة وغزة وحول تحول المستوطنين هناك بوصفهم (مادة بشرية) الى عبء على الجيش يجب التخلص منه حفاظاً على (الدولة الوظيفية)، في اطار المشروع الصهيوني الامبريالي.

وتتجلى ملامح وعي مبتور بمأزق الاستيطان في اقتراح كان قد تقدم به نائبان في الكنيست عن حزب (كميرتس) ويقضي بتفكيك وإخلاء 11 مستوطنة وصفت بأنها معزولة. ويتضح من استعراض اسماء وعدد سكان هذه المستوطنات حقيقية الكلفة الباهضة للاستيطان.

1 ـ نتساريم 291 مستوطناً.

2 ـ كفار داروم 242 مستوطناً.

3 ـ الجيب الاستيطاني داخل الخليل 400 مستوطن.

4 ـ بسفوت 900 مستوطن.

5 ـ تفوح 350 مستوطناً.

6 ـ يتسهار 290 مستوطناً.

7 ـ برخاه 680 مستوطناً.

8 ـ إيتمار 439 مستوطناً.

9 ـ ألون موريه 1030 مستوطناً.

10 ـ جانيم 144 مستوطناً.

11 ـ كديم 141 مستوطناً.

وفي نوفمبر بدأت اصوات اسرائيلية تتعالى مطالبة باخلاء مستوطنات الضفة والقطاع، وفي هذا السياق وجه 24 مثقفاً يساريا خطاباً مفتوحاً الى الاسرائيليين ينتقدون فيه مفهوم قدسية المستوطنات اليهودية ويطالبون بالتنازل عنها حتى لا يظل الاسرائيليون رهينة لها. وترددت اصداء هذا المنطق في مقال للكاتب أ. ب. يهوشع في صحيفة يديعوت احرونوت العدد 22/11/2000 وباروخ كيمرلينج في صحيفة هآرتس في ذات اليوم كذلك.

ولكن مثل هذا المنطق يبدو واهن النفوذ والتأثير في ظل ما يجري على الارض، فالاعتماد على آلة الارهاب مستمر، وتتجلى في القصف المتكرر لبلدة بيت جالا الفلسطينية قرب نابلس والذي يهدف الى تهجير سكانها لصالح الابقاء على مستوطنة جيلو. كما يتجلى الارهاب الصهيوني في المخططات الرسمية لحكومة باراك التي تبنت الخطة التي طرحتها قطاعات مهمة من المؤسسة العسكرية (للفصل من جانب واحد). وتقضي هذه الخطة بالاحتفاظ بالمستوطنات وبترسيم الحدود من جانب واحد في الضفة غزة على أساس وجود وتأمين هذه المستوطنات، مع اتخاذ تدابير اقتصادية لازمة.

وبينما تذهب توقعات القادة الاسرائيليين، وبينهم شاؤول موفاز رئيس أركان الجيش الى ان هذه الانتفاضة ستكون ممتدة وربما لعام كامل أو أكثر، فان أزمة العجز عن اخضاع الشعب الفلسطيني والحقائق التاريخية بالقوة والتي يواجهها الارهاب الصهيوني، ستظل مفتوحة ومؤثرة.

ملحق

تعريف بعض المصطلحات

نظرا لان استخدامنا للمصطلح جديد بعض الشيء لاننا نعيد تعريف بعض المصطلحات ونسك بعض المصطلحات الجديدة، وجدنا انه قد يكون من

المفيد تعريف أهمها.

الحلولية والعثمانية الشاملة

ولنبدأ بمصطلح (الحلولية الكمونية الواحدية) وهي عبارة تشير الى مذهب الحلول او الكمون القائل بان كل ما في الكون (الإله والانسان والطبيعة) مكون من جوهر واحد، مكتف بذاته يحتوي على مركزه وركيزته الاساسية (مطلقة) داخله. ومن ثم فان العالم متماسك بشكل عضوي لا تتخلله اية ثغرات ولا يعرف الانقطاع او الثنائيات، خاضع لقوانين واحدة كامنة فيه لا تفرق بين الانسان وغيره من الكائنات (وهذه كلها صفات الطبيعة/المادة). ومن ثم ينكر هذا المذهب وجود الحيز الانساني المستقل كما ينكر امكانية التجاوز. وفي اطار الحلولية الكمونية يمكن رد كل الظواهر، مهما بلغ تنوعها وعدم تجانسها، الى مبدأ واحد كامن في العالم. ومن ثم تتم تسوية الانسان بالكائنات الطبيعية وتلغى كل الثنائيات وتسود وحدة الوجود التي تتسم بالواحدية الصارمة التي تنزع القداسة عن كل الاشياء وتصبح كل الامور نسبية. وتؤدي الحلولية الى (وحدة الوجود) التي تعني القول بان مركز العالم (المبدأ الواحد) حال وكامن فيه، وهو يتبدى في صيغتين مختلفتين ظاهراً، هما في واقع الامر صيغة واحدة رغم اختلاف التسميات التي تطلق عليه:

أ) في المنظومات الحلولية الكمونية الروحية (وحدة الوجود الروحية)، يسمى المبدأ الواحد (الإله)، ولكنه اله يحل في مخلوقاته ويمتزج ثم يتوحد معها ويذوب فيها تماماً بحيث لا يصير له وجود دونها ولا يصير لها وجود دونه ((حلولية شحوب الاله)). فهو إله اسماً ولكنه هو الطبيعة/المادة فعلاً. وقد طور هيجل هذه الصياغة ولذا نجده يتحدث عن (الروح المطلق) او (روح التاريخ) فيبدو وأنه يتحدث عن امور روحية مثالية، ولكنه في واقع الامر يتحدث عن عناصر محسوسة، كامنة في عالم الطبيعة/المادة.

ب) في المنظومات الحلولية الكمونية المادية (وحدة الوجود المادية)، يتم الاستغناء تماماً عن أية لغة روحية او مثالية ويسمى المبدأ الواحد (قوانين الطبيعة) أو (القوانين العلمية) او (القوانين المادية) أو (قانون الحركة) (ولذا فنحن نسميها (حلولية بدون إله)). هذا القانون هو قانون شامل يمكن تفسير كل الظواهر ـ ومن بينها الظاهرة الانسانية ـ من خلاله.

ورغم الاختلاف الظاهر بين وحدة الوجود الروحية ووحدة الوجود المادية فإن بينهما واحدة يتسمان بالواحدية وبمحو الثنائيات والمقدرة على التجاوز.

ويمكن القول ان وحدة الوجود المادية هي ذاتها العلمانية الشاملة. ونحن نفرق بين العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة. اما (العلمانية الجزئية) فهي رؤية جزئية للواقع تنطبق على عالم السياسة وربما على عالم الاقتصاد، وهو ما يعبر عنه بفصل الكنيسة عن الدولة. والكنيسة هنا تعني (المؤسسات الكهنوتية)، أما الدولة فهي تعني (مؤسسات الدولة المختلفة). ويوسع البعض هذا التعريف ليعني فصل الدين (والدين وحده) عن الدولة بمعنى الحياة العامة في بعض نواحيها. ونحن نسمي هذه الصيغة (علمانية جزئية) لسببين:

1 ـ الدولة التي يشير لها التعريف هي دولة القرن التاسع عشر التي لم تكن قد تغولت بعد، ولم تكن قد طورت بعد مؤسساتها التربوية والامنية المختلفة التي تمكنها من محاصرة المواطن أينما كان، ولذا تركت له رقعة واسعة يتحرك فيها ويديرها حسب منظومته القيمية.

2 ـ تلزم العلمانية الجزئية الصمت تماماً بشأن المرجعية الاخلاقية والأبعاد الكلية والنهائية للمجتمع ولسلوك الفرد في حياته الخاصة وفي كثير من جوانب حياته العامة.

كل هذا يعني ان العلمانية الجزئية تترك حيزاً واسعاً للقيم الانسانية والأخلاقية المطلقة، بل للقيم الدينية مادامت لا تتدخل في عالم السياسة (بالمعنى المحدد)، أي انها صيغة لا تسقط في النسبية او العدمية. وهذه الصيغة هي الشائعة بين عامة الناس في الشرق والغرب، بل بين الكثير من المفكرين العلمانيين. ويمكن تسميتها (العلمانية الاخلاقية او الانسانية) (وهناك بعض المفكرين الاسلاميين يرون ان هذه العلمانية الجزئية الأخلاقية لا تتناقض بأية حال مع المنظومة الدينية الاسلامية وأنهما يمكنهما التجاور والتعايش بل والتكامل).

اما (العلمانية الشاملة) فيمكن ان نسميها ايضاً (العلمانية الطبيعية/المادية) أو (العلمانية العدمية)، وهي رؤية شاملة للكون بكل مستوياته ومجالاته، لا تفصل الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامة وحسب، وانما تفصل كل القيم الدينية والاخلاقية والانسانية عن كل جوانب الحياة العامة في بادئ الامر ثم عن كل جوانب الحياة الخاصة في نهايته، الى أن يتم نزع القداسة تماماً عن العالم (الانسان والطبيعة). وهي شاملة، فهي تشمل كلاً من الحياة العامة والخاصة، والاجراءات والمرجعية. والعالم، من منظور العلمانية الشاملة (شأنها في هذا شأن الحلولية الكمونية المادية)، مكتف بذاته وهو مرجعية ذاته، عالم متماسك بشكل عضوي لا تتخلله اية ثغرات ولا يعرف الانقطاع او الثنائيات، خاضع

لقوانين واحدة كامنة فيه، لا تفرق بين الانسان وغيره من الكائنات، فهو عالم يتسم بالواحدية المادية الصارمة (وهذه هي كلها صفات الطبيعة/المادية). والمبدأ الواحد كامن (حال) في العالم لا يتجاوزه ويمسى (قانون الحركة) او (القانون الطبيعي/المادي)، الامر الذي يعني سيادة الواحدية المادية وان كل الامور، في نهاية الامر وفي التحليل الاخير، مادية نسبية متساوية لا قداسة لها، وأنه يمكن معرفة العالم بأسره (الانسان والطبيعة) من خلال الحواس الخمس. والعلمانية الشاملة بطبيعة الحال لا تؤمن بأية مطلقات او كليات، ولعل المنظومة الداروينية الصراعية هي أكثر المنظومات اقتراباً من نموذج العلمانية الشاملة.

ونحن نذهب البى ان (الرؤية المعرفية العلمانية الامبريالية) هي النتيجة الحتمية للعلمانية الشاملة التي تنزع القداسة عن العالم وتفصله عن كل القيم الاخلاقية والانسانية، وتحوسل الطبيعة والانسان وتحاول التحكم فيهما والهيمنة عليهما لصالح الاقوى (السوبرمان) او لصالح أي مطلق علماني (الدولة ـ العرق الارقى... الخ). وقد قامت المنظومة العلمانية الشاملة (في الغرب) بترشيد الداخل الغربي في الاطار المادي ودجنته وحولته الى مادة استعمالية، ثم جيشت الجيوش وهيمنت على العالم باسره (الطبيعة والانسان ـ المصادر الطبيعية والبشرية) وحولته هو الآخر الى مادة استعمالية لصالح الانسان الغربي وحده (باعتباره العنصر الارقى والأقوى). فالعلمانية الشاملة والامبريالية وجهان لعملة واحدة.

ويتم الانتقال من العلمانية الجزئية الى العلمانية الشاملة من خلال عمليات تاريخية طويلة مركبة، تأخذ شكل متتالية تاريخية متعددة الحلقات، بعضها واضح ومحدد والبعض الآخر يصعب إدراكه وتحديده. ولكن جوهر هذه العملية هو تصاعد الترشيد المادي بحيث يصبح كل مجال من مجالات الحياة خاضعاً للقوانين الكامنة فيه يستمد معياريته من ذاته (أي ان تصاعد الترشيد هو ايضاً تصاعد معدلات الحلول) فيحكم على المجال الاقتصادي بمعايير اقتصادية، وعلى المجال السياسي بمعايير سياسية، وعلى المجال الديني بمعايير دينية وهكذا، ويصبح كل مجال مكتفياً بذاته، ومرجعية ذاته، فهو متماسك بشكل عضوي لا يعرف الثنائيات ولا الثغرات والانقطاع (أي انه يكتسب سمات الطبيعة/المادة)، منعزل عما سواه من المجالات، لا يربطه رابط بها. وينتج عن هذه العملية الانفصال التدريجي لمختلف مجالات الحياة عن المنظومات الدينية والأخلاقية وعن الغائيات الانسانية. وهكذا تتفتت مجالا الحياة الانسانية وتتحول الى مجالات غير متجانسة غير مترابطة، وحينما تواجه الذات الانسانية العالم تجده منفصلاً عنها، غريباً عليها، مفتتاً، مجرد مادة

نسبية محايدة خاضعة لحركة المادة وحسب.

ويلاحظ ان معظم الناس لا ينادون، في أغلب الاحيان، إلا بالعلمانية الجزئية وحسب، إذ لا يجرؤ احد، الا قلة نادرة، على المناداة بالعلمانية الشاملة (الطبيعية ـ العدمية ـ المتجاوزة للأخلاق)، بماديتها الصارمة وعدائها الشرس للإنسان. ولكن، على مستوى الواقع الفعلي في المجتمع الحديث، يخضع السواد الأعظم من الناس لعمليات علمنة كامنة (نسميها (علمنة بنبوية كامنة)) هي في الواقع تعبير عن نموذج العلمانية الشاملة وليس العلمانية الجزئية. وهذه العلمنة تقوم بها مؤسسات عديدة من بينها الدولة المركزية (بمؤسساتها الامنية والتربوية التي تزداد مركزية وقوة على مر الايام) وقطاع اللذة (الذي تصل أذرعته الاخطبوطية الى كل مكان والى مجالات الحياة الانسانية الخاصة والعامة كافة) والمؤسسات الاعلامية. ويمكن ان نضرب مثلاً بالاعلانات التلفزيونية، فهي تنزع القداسة عن الانسان وتحوله الى انسان اقتصادي وجسماني ذي بعد واحد، ربما دون إدراك من جانب اصحاب هذه الاعلانات لحقيقة ما يمارسونه من علمنة شاملة، ودون إدراك من جانب من يشاهدون هذه الاعلانات لطبيعة ما يعرضون له هم وأولادهم من آراء ونماذج معرفية تعيد صياغة رؤيتهم لأنفسهم وللعالم بطريقة قد لا يوافقون هم انفسهم عليها ان أدركوا تضميناتها الفلسفية والمعرفية والأخلاقية.

ولعل أهم آليات هذه العلمنة البنيوية الكامنة الشاملة الكاسحة هو قطاع اللذة ككل، وخصوصاً الافلام الامريكية والبرامج التلفزيونية التي تصل الى السواد الاعظم من البشر، وتقوم باعادة صياغة رؤيتهم لانفسهم (عادةً في اطار دارويني او فرويدي او برجماتي) بشكل بنيوي كامن غير واع، ولكنه شامل. ونحن نرى ان عمليات الأمركة والعولمة هي في جوهرها عمليات علمنة شاملة كامنة تؤدي الى الغاء كل الثنائيات والخصوصيات الدينية والقومية، وهذا هو جوهر النظام العالمي الجديد.

وفي هذا الاطار الامبريالي العلماني الشامل تبني الصهاينة النظريتين العرقية والاثنية لتعريف اليهود وكل البشر.

الجماعات الوظيفية والدولة الوظيفية

قد يكون من المفيد ايضاً ان نعرف الجماعات الوظيفية، وما نسميه (الجولة الوظيفية). و(الجماعات الوظيفية) هي مجموعات بشرية صغيرة يقوم المجتمع باسناد وظائف شتى اليها يرى اعضاء هذا المجتمع انهم لا يمكنهم الاضطلاع بها لاسباب مختلفة. قد تكون هذه الوظائف مشينة في نظر المجتمع ولا تحظى بالاحترام في سلم القيم السائدة (التنجيم ـ

البغاء ـ الربا)، وقد تكون متميزة ومهمة (الطب، وخصوصاً اطباء النخبة الحاكمة ـ القتال)، وقد يتطلب الاضطلاع بها قدراً عالياً من الحياد والتعاقدية لان المجتمع يريد الحفاظ على قداسته وتراحمه ومثالياته (التجارة والربا). وقد يلجأ المجتمع الى استخدام العنصر البشري الوظيفي لملء فجوة او ثغرة تنشأ بين رغبات المجتمع وحاجاته من ناحية ومقدرته على اشباع هذه الرغبات والوفاء بها من ناحية اخرى (الحاجة لمستوطنين جدد لتوظيفهم في المناطق النائية ـ خبرات غير متوافرة ـ الحاجة الى رأس مال). كما ان المجتمع يقوم باسناد الوظائف ذات الحساسية الخاصة وذات الطابع الامني (حرس الملك ـ طبيبه ـ السفراء والجواسيس) الى اعضاء الجماعات الوظيفية. ويمكن ان تكون الوظيفة التي تسند الى اعضاء الجماعة الوظيفية مشينة ومتميزة وحساسة في آن واحد (مثل الخصيان والوظائف الامنية على وجه العموم). كما ان المهاجرين عادةً ما يتحولون الى جماعات وظيفية (في المراحل الاولى من استقرارهم في وطنهم الجديد) لان الوظائف الاساسية عادةً ما تكون قد شغلت من قبل اعضاء المجتمع المضيف. ويحاول الاستعمار دائماً ان يحول اعضاء الأقليات الى جماعات وظيفية تضطلع بوظائف يسندها اليها وتتمتع بمزايا تقدمها لها حتى تدين له بالولاء.

ويتوارث اعضاء الجماعة الوظيفية الخبرات في مجال تخصصهم الوظيفي عبر الاجيال ويحتكرونها بل ويتوحدون معها وفي نهاية الامر يكتسبون هويتهم ورؤيتهم لانفسهم منها، وهي عملية يساعد عليها مجتمع الأغلبية النه يعرف عضو الجماعة الوظيفية من خلال وظيفته وحسب (لا من خلال إنسانيته الكاملة المتكاملة) وبذلك يصبح عضو الجماعة الوظيفية انساناً ذا بعد واحد، يمكن اختزال انسانيته الى هذا البعد أو المبدأ الواحد وهو وظيفته.

وبعد أن يتم استيراد أو تجنيد العنصر الوظيفي يحدث ما يلي:

أ) العلاقة التعاقدية النفعية:

يدخل اعضاء المجتمع المضيف، مع أعضاء الجماعة الوظيفية، في علاقة تعاقدية نفعية محايدة رشيدة واضحة لا تركيب فيها ولا إبهام، ويقوم كل طرف في العلاقة بحوسلة الطرف الآخر والنظر اليه باعتباره وسيلة لا غاية، وباعتباره مادة نافعة يتم التعامل معها بمقدار نفعها.

ب) العزلة والغربة والعجز:

يحتفظ اعضاء المجتمع المضيف واعضاء الجماعة الوظيفية بمسافة فيما بينهما. فيقوم المجتمع المضيف بعزل اعضاء الجماعة الوظيفية (عن

طريق الزي او المسكن او اللغة او العقيدة او الانتماء الاثني، كما ان الخصي كان يعد احد اشكال هذا العزل) ويمارسون هم احساساً عميقاً بالغربة. وفي جميع الاحوال كان اعضاء الجماعة الوظيفية يصبحون قريبين من النخبة الحاكمة يمارسون احساساً بالولاء العميق تجاهها (وهذه ميزة كبيرة من منظور النخبة)، فهي التي تستوردهم وهي التي توظفهم وتوكل لهم مهام لا يمكن ان توكل لعضو المجتمع المضيف (حتى لا تزداد قوته)، وهي التي تستخدمهم كأداة لقمع جماهير المجتمع ولامتصاص ما قد يتراكم من ثروات وفوائض لديهم، وهي التي تضمن بقاءهم واستمرارهم. ولكنها في الوقت نفسه لا تشركهم في السلطة، فهم بلا قاعدة بين الجماهير او اساس للقوة في حالة خوف دائم منها، ومن ثم لا يطمحون في المشاركة في السلطة بسبب وضعهم هذا. وقد يتعمق ولاء اعضاء الجماعة الوظيفية للنخبة الحاكمة الى درجة ان تصبح في كثير من الاحيان جماعة وظيفية عميلة.

ج) الانفصال عن المكان والزمان والإحساس بالهوية الوهمية:

ينتج عن هذا الوضع انفصال أعضاء الجماعات الوظيفية عن الزمان والمكان الذين يعيشون فيهما، ومن ثم غالباً ما يرتبط أعضاء الجماعة الوظيفية عاطفياً بوطن اصلي (صهيون ـ الصين ـ القبيلة ـ العائلة) يصبح موضع ولائهم وحبهم وعاطفتهم المشبوبة ويتصورون انهم جزء من تاريخه وتراثه، فيتعمق شعورهم بالغربة نحو المجتمع المضيف، ويعيشون فيه دون ان يكونوا منه، ويتطور لديهم احساس عميق بهويتهم المستقلة (مركب الشعب المختار المنفي او الشعب العضوي المنبوذ). ولكن الجماعة الوظيفية (والوظيفية ذاتها) هي، في واقع الامر، موضع الولاء الفعلي والمباشر لعضو الجماعة الوظيفية، فهي أساس وجوده وهويته. الا ان المعجم الحضاري لاعضاء الجماعة الوظيفية لا يختلف في واقع الامر عن معجم مجتمع الاغلبية الا في بعض التفاصيل الخاصة، فهم آلة لا وطن لها اسماً، ولكنهم يعيشون فعلاً في المجتمع المضيف، يؤدون وظيفتهم فيه بشكل يومي، ومن ثم فهويتهم هوية وهمية.

د) ازدواجية المعايير والنسبية الاخلاقية:

يطور طرفا العلاقة (اعضاء الجماعة الوظيفية والمجتمع المضيف) رؤية أخلاقية ثنائية، فما يسري على الواحد من قيم أخلاقية مطلقة لا يسري على الآخر، باعتبار أن الآخر في هذه العلاقة يقع خارج نطاق الحرمات والمطلقات الاخلاقية، ويحاول كل طرف تعظيم منفعته ولذته مستخدماً الآخر.

هـ) الحركية:

لكل هذا، يتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحركية البالغة، وهذا امر مرتبط بكونهم عنصراً نافعاً وآلة يمكن نقلها من مكان الى آخر.

و) التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع:

ينجم عن هذا الوضع تأرجح شديد بين تمركز حول الذات (الوظيفية باعتبارها الذات والهوية) وتمركز حول الموضوع (الوظيفية باعتبارها خدمة تؤدى للمجتمع). فعضو الجماعة الوظيفية قد يكون عضواً في شعب مختار ولكنه أيضاً أداة في يد المجتمع (التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع والثنائية الصلبة)، وتظهر عقدة الاختيار، الذي يواكبه شعور عميق بالحتمية.

وتوجد جماعات وظيفية في معظم المجتمعات التقليدية، ولكن لاحظنا ان الحضارة الغربية تميل نحو حوسلة البشر، ومن ثم تتضح ظاهرة الجماعات الوظيفية بشكل متبلور فيها. وقد لعب اعضاء الجماعات اليهودية فيها دور الجماعات الوظيفية، بحيث اصبح اليهودي هو الانسان الوظيفي، وهذا هو أساس العداء لليهود واليهودية. وقد تفاقم الوضع مع عصر النهضة في الغرب حينما بدأت الجماعات الوظيفية اليهودية تفقد دورها الوظيفي.

ويرتبط مفهوم الدولة الوظيفية بمفهوم الجماعة الوظيفية، والدولة الوظيفية هي الدولة التي تؤسس او يعاد صياغة توجهها او توجه نخبتها الحاكمة لتضطلع بوظيفة معينة ويصبح جوهرها هو هذه الوظيفة. فالدولة الوظيفية هي إعادة انتاج لدور الجماعة الوظيفية في العصر الحديث.

و(الدولة الصهيونية الوظيفية) هي دولة تتسم بكل سمات الجماعة الوظيفية، فهي تدخل في علاقات تعاقدية نفعية مع الغرب (خدمة المصالح الغربية نظير ان يقوم الغرب بحمايتها)، وهي دولة جيتو/ قلعة منعزلة عن محيطها الحضاري ذات رؤية حلولية كمونية، فهي تتصور انها منفصلة عن الزمان والمكان، ولديها احساس عميق بتفوقها، ورسالتها المقدسة، تتبنى اخلاقيات مزدوجة في علاقتها مع الذات ومع الآخر.

الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة وتهويدها

في محاولتنا تعريف الصهيونية توصلنا الى ما سميناه (الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة) التي تحتوي على العناصر الاساسية المكونة لتعريف الصهيونية بغض النظر عن الديباجات والاعتذاريات المستخدمة التي تشكل الاساس الكامن للاجماع الصهيوني. ويمكن تلخيصها فيما يلي:

أ) اليهود شعب عضوي منبوذ غير نافع (أي جماعة وظيفية فقدت وظيفتها)، يجب نقله خارج اوربا ليتحول الى شعب عضوي نافع.

ب) ينقل هذا الشعب الى أي بقعة خارج أوربا (استقر الرأي، في نهاية الامر، على فلسطين بسبب أهميتها الاستراتيجية للحضارة الغربية) ليوطن فيها وليحل محل سكانها الاصليين، الذين لابد ان يتم إبادتهم او طردهم على الاقل (كما هو الحال مع التجارب الاستعمارية الاستيطانية الاحلالية المماثلة).

ج) يتم توظيف هذا الشعب لصالح العالم الغربي الذي سيقوم بدعمه وضمان بقائه واستمراره، داخل اطار الدولة الوظيفية في فلسطين.

وهذه الصيغة الشاملة لم يفصح عنها أحد بشكل مباشر، الا بعض المتطرفين في بعض لحظات الصدق النماذجية النادرة. ولكن عدم الافصاح عنها لا يعني غيابها، فهي تشكل هيكل المشروع الصهيوني والبنية الفكرية التي أدرك الصهاينة الواقع من خلالها.

ويلاحظ ان كثيراً من الأسس التي تستند اليها الصيغة الشاملة قد اختفى بفعل التطورات التاريخية. فيهود العالم الغربي قد تناقص عددهم واندمجوا بشكل شبه كامل في مجتمعاتهم، ولم يعد هناك مجال للحديث عن (عدم نفعهم). كما أن عملية نقل اليهود ونفي العرب اكتملت معالمها الى حد كبير، وخصوصاً انه بعد تأسيس الدولة اصبح الترانسفير عملية هجرة تتم في ظلال قانون العودة. وما تبقى من الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة هو دولة وظيفية يدعمها الغرب ويضمن بقاءها وتقوم هي على خدمته وعلى تجنيد يهود العالم وراءها لخدمتها وخدمة العالم الغربي، وهذا ما يشكل اساس الاجماع الصهيوني.

وقد تم تهويد (الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة) بعد ان اكتسبت ديباجات ومسوغات يهودية جعلت بامكان المادة البشرية المستهدفة استبطانها. فالصيغة الشاملة تعلمن اليهود تماماً وتحوسلهم الى اقصى حد وتجعلهم عنصراً نافعاً، وهي ايضاً تعلمن الهدف من نقلهم والأرض التي سينقلون اليها. وليس من السهل على المرء قبول ان يتحول الى وسيلة وان ينقل كما لو كان شيئاً (لا قيمة له) من وطنه الى أرض أخرى (أي أرض). ولذا، نجد ان المقدرة التعبوية للصيغة الشاملة تكاد تكون منعدمة، إذ انها تفترض ان ينظر اليهود الى انفسهم بشكل براني، وان يقبلوا ان يتحركوا من أوطانهم الى أماكن اخرى لخدمة الحضارة الغربية التي تنبذهم وتناصبهم العداء، وهذا امر مستحيل بطبيعة الحال.

وقد طور هرتزل الخطاب الصهيوني المراوغ الذي فتح الابواب المغلقة

امام كل الديباجات اليهودية المتناقضة والتي غطت، بسبب كثافتها، على الصيغة الاساسية الشاملة واخفت اطارها المادي النفعي حتى حلت، بالنسبة لاعضاء الجماعات اليهودية في الغرب بل بالنسبة لمعظم قطاعات العالم الغربي، محل الصيغة الاساسية الشاملة.

وقد تم انجاز هذا بأن قامت الصهيونية الاثنية (الدينية والعلمانية) باسقاط ديباجات الحلولية الكمونية (التي تلغي الحدود بين الاله والارض والشعب وتخلع القداسة على كل ما هو يهودي) على الصيغة الشاملة بحيث يتحول اليهود من مادة نافعة الى كيان انساني له هدف وغاية ووسيلة ورسالة. وتجعل عملية نقله مسألة ذات أبعاد صوفية او شبه صوفية نبيلة. لكل هذا اصبح من السهل على المادة البشرية ان تستبطن الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة واصبح من السهل التحالف بين الدينيين والعلمانيين: الجميع يتفق على قداسة الشعب ورسالته (ومطلقيته) ويختلفون حول مصدر القداسة وتجلياتها. ورغم كثافة الديباجات واغراقها في الحلولية، تظل الثوابت كما هي، وتظل الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة كما هي.

الديباجات الصهيونية المختلفة

الديباجات التهويدية المختلفة تأخذ اشكالاً مختلفة، فهي ترى ان العالم هو (المنفى) وان اليهود يشكلون (شعباً عضوياً واحداً) لابد ان ينقل من المنفى (فهو شعب عضوي منبوذ) الى فلسطين (أرض الميعاد). ورغم هذا الاتفاق المبدئي الا ان الديباجات تختلف، فالشعب العضوي المنبوذ لا ينبذ بسبب انه جماعة وظيفية فقدت دورها او لانه قاتل المسيح، وانما لعدد من الاسباب تتغير بتغير صاحب الديباجة منها انه شعب مقدس مكروه من الاغيار في كل زمان ومكان بسبب قداسته (الصهيونية الاثنية الدينية) أو بسبب تركيبة الطبقي غير السوي (الصهيونية العمالية) او لان هويته الاثنية العضوية لا يمكن ان تتحقق الا في أرضه (الصهيونية الاثنية العلمانية (الثقافية)) أو لانه شعب ليبرالي عادي يود ان يكون مثل كل الشعوب، وخصوصاً الشعوب الغربية (الصهيونية السياسة). ومهما اختلفت الاسباب، فان هذا الشعب ينظر الى نفسه فيرى كياناً عضوياً مطلقاً له قيمة ايجابية ذاتية (بل يجد انه المطلق وموضع الحلول والكمون).

اما الهدف من النقل فليس التخلص من اليهود او تأسيس وظيفة تقوم على خدمة الغرب وانما هو اصلاح الشخصية اليهودية وتطبيعها وتأسيس دولة اشتراكية تحقق مثل الاشتراكية (الصهيونية العمالية) او الاستجابة للحلم الازلي في العودة وتحقيق رسالة اليهود الإلهية وتأسيس دولة

تستند الى الشريعة اليهودية (الصهيونية الدينية) او تحقيق الهوية اليهودية وتأسيس دولة يودية بالمعنى العلماني تكون بمنزلة مركز روحي وثقافي ليهود العالم (الصهيونية الاثنية العلمانية) او تحقيق مثل الحرية وتأسيس دولة ديموقراطية غربية (الصهيونية السياسية). كما اكتسب المكان الذي سينقل اليه الشعب معنى داخلياً اذ تصبح الارض هي الارض الوحيدة التي تصلح للخلاص (المشيحاني او الاشتراكي او الليبرالي)، فهي (ارض الميعاد) الاثنية الدينية او العلمانية، بل ان خلاص الشعب هو خلاص الارض، وهو نفسه مشيئة الاله.

وآليات الانتقال ليست الاستعمار الغربي او العنف والارهاب وانما هي (القانون الدولي العام) متمثلاً في وعد بلفور (في الصياغة الصهيونية السياسية) او (تنفيذاً للوعد الالهي والميثاق مع الإله) (في الصياغة الدينية) أو بسبب قوة اليهود الذاتية (في الصياغة الصهيونية التصحيحية). كما ان النتيجة النهائية واحدة وهي تحويل اليهود الى مستوطنين صهاينة وطرد الفلسطينيين من وطنهم وتحويلهم الى مهاجرين. وعلى هذا، فان عملية نقل اليهود من المنفى الى فلسطين (سواء بسبب الوعد الالهي او بسبب وعد بلفور) تؤدي الى نقل الفلسطينيين خارج وطنهم (الى المنفى).

ويلاحظ ان الصهيونية التصحيحية هي أكثر التيارات الصهيونية صراحة، فهي تفصح عن الارتباط بالاستعمار ووظيفية الدولة وضرورة اللجوء للعنف، فهي تقترب من الصيغة الصهيونية الاساسية الشاملة ولا تختفي الا وراء الحد الادنى من الديباجات.

وقد اتجهت الصيغة المهودة لقضية يهود الغرب المندمجين في مجتمعاتهم والذين لا ينوون (لعدة اسباب خاصة بهم) الانتقال الى ارض الميعاد الاشتراكية او الرأسمالية او اليهودية. فقبلت قرارهم هذا نظير تلقي دعمهم والتفافهم حولها على ان تلزم الحركة الصهيونية الصمت تجاه فضيحة الصهاينة الذين لا يهاجرون. وقد أدى هذا الى ظهور الصهيونتين الاستيطانية والتوطينية:

أما (الصهيونية الاستيطانية) فهي صهيونية اليهودي الذي يقبل الصيغة الصهيونية الاساسية فيستوطن في فلسطين (ويحل محل سكانها الاصليين)، وهذه هي الصهيونية الحقيقية. ولكن بعد ان قبلت الصيغة المهودة قرار يهود الغرب بالبقاء في بلادهم، تم توسيع نطاق كلمة (صهيوني) بحيث اصبحت تضم كل من يستوطن في فلسطين ومن يظل في بلده. وتم تقسيم العمل الصهيوني بحيث تصبح الدولة الصهيونية

الاستيطانية بمنزلة مركز يهود العالم الديني والثقافي الذي يمدهم بالهوية والاحساس بالانتماء واحترام الذات (أي انهم يشاركون في الحلول اليهودي) ويمدونها هم بالدعم المادي والسياسي والمعنوي، وضمن ذلك قبولهم ان توظفهم الدولة الصهيونية لصالحها ولصالح الراعي الامبريالي، فهم قد (لا يستوطنون) في فلسطين ولكنهم يساعدون في (توطين) الآخرين، فصهيونيتهم من ثم (صهيونية توطينية).